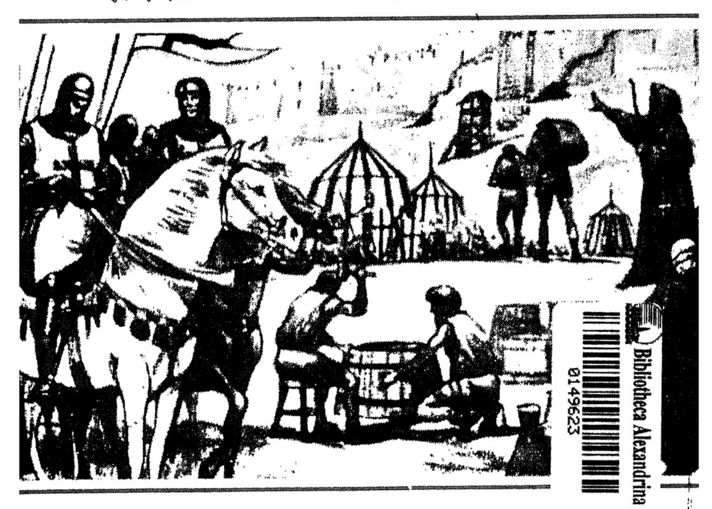
سينا للنشر

كلود كاهن

الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية



ترجمة: أحمد الشيخ

الشرقُ والغربُ
زمنَ الحُروبِ الصليبيّة

الكتاب : الشـــــرق والغـــــرب
زمـــن الحـــروب الصليـــبية
الكاتب : كلــــــود كاهـــــن
ترجمـة : أحمــــــد الشــــيخ
الطـــــبعة الأولـــــــى ١٩٩٥

الناشــــــر : ســــينا للنشـــر
المدير المسؤول : راويـة عبد العظيم

١٨ ش ضريح سعد - القصر العيني -
القاهرة - جمهورية مصر العربية -
تليفـــون / فاكـــس : ٣٥٤٧١٧٨ / ٢٠٢

هذه ترجمة لكتاب :
Orient et Occident au temps des Croisades.
تألـــــيف :
Claude Cahen
الناشــــر :
Aubier - Montaigne



صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
البعـــثة الفرنســـية
للأبحـــاث والتعـــاون
قسم الترجمة - القاهرة

الغـــــلاف : عمـاد حلـيم
الاخـراج الداخلـي : إيناس حسني
الصـــــف : سـينا للنشر

كلود كاهن

الشرقُ والغربُ زمنَ الحُروبِ الصليبيّة

ترجَمَة: أحمد الشيخ



تقديم المترجم

عندما يصدر كتاب جديد عن الحروب الصيلبية بعد تسعة قرون على اندلاعها فإن أول ما يتبادر إلى الذهن مباشرة تساؤلات مشروعة : ما الذى يمكن أن يضيفه هذا الكتاب ؟ وما الذى لم يتم ذكره، بعدُ، فى هذا الشأن ؟ أو ما هى القراءة المعاصرة لهذا الحدث، ونحن نعيش اليوم كثيراً من الأحداث التى تجعلنا لا نعرف كيف نميز بين الماضى والحاضر ؟ ! وهل الماضى مضى وانتهى، أم أن آثاره مازالت تخيم بظلها على الحاضر ؟ وأية مفارقة تلك التى يحتل فيها الحدث الماضى قلب الحاضر بصورة أشد عنفًا ودمارًا من لحظة بدايته الأولى ؟ وأى تقدم هذا الذى يسير فيه التاريخ البشرى، الذى لم يعدْ تاريخ ارتقاء الإنسان وتأكيد إنسانيته بل هذا التاريخ الذى يُفضى إلى «التطهير العرقى» والمذابح الجماعية والاغتصابات المبرمجة، ثم الصمت واللامبالاة من قِبَل دول الحضارة الغربية إزاء بشائر الصليبية الجديدة، التى بدأت فى البوسنة ولا نعرف أين ستنتهى ؟ !

والمفارقة الأكثر غرابة أننا نجد بعض الكتاب والمؤرخين والدبلوماسيين الغربيين يندهشون إزاء تأثر العرب والمسلمين بفترة الحروب الصليبية، وبأحداث يفترض أن أجلها قد انتهى منذ قرون. وليس ما يثير دهشتنا أنهم يستشهدون ببعض القادة العرب والمسلمين(1) المتأثرين بشخصية القائد صلاح الدين الأيوبى، أو ببعض المسؤولين السياسيين والدينيين فى العالم العربى والإسلامى الذين يتحدثون عن استعادة القدس، ويشبهون إسرائيل بدولة صليبية جديدة، وإنما دهشتنا وحيرتنا تكمن فى أن هذا الوعى الغربى التعيس لا يشاهد فى نفسه ما يقوم بإسقاطه على الآخرين، حيرتنا مصدرها أنهم لا ينظرون كيف يعودون من جديد إلى منطق الحروب الصليبية، كما أنهم لا يكتشفون - أو يتجاهلون بتعبير أدقّ - استمرار وتعمق الفكرة الصليبية فى الوعى والممارسة السياسية والثقافية داخل بلدان الحضارة الصناعية الغربية ! !

فى الحقيقة دهشتنا أكبر إزاء عودة أوروبا التقدم والعلم والتكنولوجيا إلى مناخ العصور الوسطى، تلك العودة التى تكشف عن نفسها فى ميادين شتى من السياسة إلى

---

(1) انظر : جان كلود جيبو - على طريق الحروب الصليبية - دار نشر أرليا - ١٩٩٣ - ص ١٦.

الثقافة إلى الفن والموسيقى ومروراً بالمسلسلات التليفزيونية (١)، وبحيث قد لا يكون من قبيل المبالغة القول بأن هناك فى نهاية القرن العشرين اتجاهات تعمل فى أوروبا على استعادة منطق العصور الوسطى(٢)، حيث يتم تعطيل العقل أو قَصْر نشاطه على دول الحضارة الغربية، أما أبعد من ذلك فإن قوانين العقل لا يمكن تطبيقها، ويتم الكيل بمكيالين فى السياسة والحروب، كما فى الثقافة، فى قرارات مجلس الأمن، كما فى البحوث العلمية، فماذا نجد لو حللنا الوعى الأوروبى المعاصر الذى يتهم العرب والمسلمين بالتأثر بالحروب الصليبية ؟ ستزداد الدهشة والحيرة عندما نعرف أن مضمون هذا الوعى إزاء العرب والمسلمين لم يختلف كثيراً عما كان سائداً فى العصور الوسطى، وذلك على الرغم من تقدم التاريخ، وتقدم أدوات الاتصال والتواصل بين الشعوب والأمم ! فماذا يعرفون حقًا فى أوروبا عن العرب والمسلمين ؟ أو بتعبير آخر ما هى تلك الصور والآراء التى يذيعونها عن المجتمعات العربية والإسلامية ؟ فى الواقع لن يجد المرء مشقة كبيرة فى التعرف على مظاهر هذا الوعى البائس التى تفصح عن نفسها بلا حياء أو خجل. فما الذى يخيف أوروبا اليوم أمام مجتمعات عربية وإسلامية تُثْقلها الأزمات والهموم ! إننا نجد ملامح هذا «الخوف فى الغرب» الذى كان سائداً فى العصور الوسطى دون أن يكون له ما يبرره فى ميزان القوى السائد اليوم ! كما نجد استمراراً لهذا الوعى البائس فى الأحكام والصور المشوهة التى تعود إلى العصور الوسطى عن العرب والمسلمين ورمز الإسلام الأول النبى محمد صلى الله عليه وسلم، بينما نجد – وهذه مفارقة أخرى – أن وعى العرب والمسلمين بالغرب وثقافاته أفضل بكثير من وعى الغربيين بثقافات العرب والمسلمين(٣)، وأن أغلب النخب العربية والإسلامية لازالت تؤمن بالقيم الإنسانية وبالعالمية، وبأن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس، وبضرورة الانفتاح والتواصل مع الحضارات الأخرى !! وأنه عندما يحدث تطرف أحيانًا فى بعض بلدان الشرق الإسلامى فإنه لا يعدو أن يكون رد فعل لا أكثر.

---

(١) عرض التليفزيون الفرنسى مؤخراً مسلسلاً مكونًا من ثلاث حلقات عن شارلمان، ولم يتطرق المسلسل من قريب أو بعيد إلى ازدهار العلاقات بين شارلمان والقادة، المسلمين، والأدهى من ذلك انتهاء المسلسل بتعبير يُعلن أن إمبراطورية جديدة للغرب المسيحى فى طريقها للنشوء، ولا يعرف المشاهد إذا كان الحديث يشير إلى الماضى أم الحاضر !

(٢) أنظر : آلان منك القرون الوسطى الجديدة – دار نشر جاليمار – ١٩٩٣.

(٣) أنظر : ميشيل لولونج – الكنيسة الكاثوليكية والإسلام – داء ميزون نوف، لاروس ١٩٩٣.

الشيء المؤكد لنا أن هناك رغبةً متواصلةً في تأكيد الذات الغربية في مواجهة الشرق والعرب والمسلمين والعالم الثالث، وأن العودة في الغرب – على نقيض المظاهر الخادعة – إلى هوية ومنطق العصور الوسطى أقوى بكثير مما يوجد عليه الأمر في بعض بلدان الشرق الإسلامي.

وقد تزايدت معدلات العودة أكثر فأكثر بعد زوال المعسكر الاشتراكي، وبروز حاجة دول الحضارة الغربية إلى خِصْم جديد، تتهرب من خلاله عن حل مشاكلها المزمنة، وبالطبع ليس أمام هذا الغرب من خصم نموذجي، تتوافر فيه كافة المواصفات، أفضل من العرب والمسلمين عامة، ومن ثَمَّ ليس من قبيل المصادفة انتشار الكتابات والدراسات عن «الحروب بين الثقافات» أو «الصدام بين الحضارات» في الآونة الأخيرة، وحيث تفتعل معارك، كقضية سلمان رشدي والحجاب وغيرها، من أجل إظهار الاختلاف بين الثقافات والحضارات، ومن ثَمَّ تكون هذه الاختلافات، كما يقول أحد مؤلفي هذه الدراسات [1]، هي خطوط المعارك في المستقبل، وذلك لأن الفروق بين الحضارات ليست فروقًا حقيقية فحسب، بل هي فروق أساسية، كما أن خصائصها أقل قابلية للتبديل والحلول الوسط من نظيرتها السياسية والاقتصادية، وأن المصدر الأساسي للنزاعات في هذا العالم الجديد لن يكون أيديولوجيًا واقتصاديًا في المحل الأول بل ثقافيًا وحضاريًا. وتعود بنا هذه الفرضية – دون أن تفصح عن ذلك مباشرة – إلى الجذور التاريخية لهذا الصراع القديم بين الشرق والغرب، والذي ظهر أولا بين الفرس واليونانيين، ثم بين الفرس والروم، حيث كان صراعًا بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين وأسلوبين في الحياة متباعدين، كما يذهب بعض المؤرخين الغربيين[2]، وأن هذا الصراع بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حينا ويثور أحيانًا حتى كانت نهاية القرن الحادي عشر، فاشتد غليانه وثوراته، وعندئذ وجد متنفسًا في الحرب الصليبية التي عمقت الجذور التاريخية للخلاف بين الشرق والغرب، بإضافة الخلاف الديني بين المسيحية والإسلام لهذا الصراع ، فإذا كان الصراع بين الشرق والغرب هو صراع أجناس وثقافات قبل العصور

---

(١) صمويل ب. هانتنغتون، الصدام بين الحضارات – مجلة الشؤون الخارجية – مجلد، ٧ رقم ٣ (١٩٩٣) دراسة مترجمة إلى العربية في شؤون الأوسط – فبراير ١٩٩٤.

(٢) نجد تعبيراً واضحاً عن وجهة النظر هذه لدى كل من عزيز سوريال عطية وسعيد عبد الفتاح عاشور، وهما من كبار المتخصصين في هذه الفترة.

الوسطى، فإنه قد صار معها صراع أديان، ومع تقدم البشرية هل ينتهى الصراع الراهن بين الشرق والغرب إلى صراع أجناس وثقافات وأديان أيضًا ؟

* * *

لم يكن غريبًا إذن أن يبدأ كلودكاهن كتابه «الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية» باستباق دهشة القارئ من صدور كتاب جديد فى هذا الشأن، غير أنه يقدم مبررات محضة لصدور كتابه بالإشارة إلى أن نسبة الكتب القيمة ضئيلة ضمن هذا العدد الهائل من الكتابات المُكرَّسة للحروب الصليبية وتاريخها، وأن أغلب هذه الكتابات لا تتوافر بها الشروط العلمية الدقيقة للتأليف العلمى، حيث صدرت فى أغلبها فى مناخ غلبت فيه الأهواء، وبالتالى ثمة حاجة ملحة لمزيد من الأبحاث الجديدة لتصويب الدراسات السابقة، ولإضاءة بعض الجوانب المعتمة فى تاريخ هذه الفترة، الأمر الذى يسمح بعقد مقارنة بين المجتمعين اللذين وضعتهما الحروب الصليبية وجهًا لوجه ومن أجل أن تكون هناك نظرة متبادلة من كلا الطرفين لدراسة أوجه الالتقاء والتأثير انطلاقًا من نظرة شاملة للتاريخ، ومع أن دراسة كاهن هى دراسة أكاديمية عن تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى فترة الحروب الصليبية – وليست عن تأثير هذه الحروب فى التاريخ الحديث والمعاصر – وهو ميدان ظهرت فى نطاقه العديد من الكتب المهمة فى الآونة الأخيرة – فإن المرء لا يمكنه النظر إليها بمعزل عن السياق السياسى والثقافى الذى ظهرت به، فالكتاب لم يصدر فى بيئة علمية خالصة ليطلع عليه نخبة من العلماء والباحثين فقط فالطبعة الأولى قد صدرت عام ١٩٨٣ والطبعة الثانية ١٩٩٢ أى فى فترات شهدت توترًا ملحوظًا فى العلاقات بين الشرق والغرب بعد اندلاع الثورة الإيرانية التى أيقظت الشياطين القديمة فى الغرب، والتى يبدو أنها لم تنم منذ قرون فسنحت لها الفرصة لتطل برأسها من جديد، كما صاحب هذا الحدث السياسى العديد من الأحداث الثقافية التى ساعدت بصورة مباشرة أو غير مباشرة على تأجيج وبلورة الصراع الثقافى بين الشرق والغرب، وكان أهمها كتاب الباحث الفلسطينى إدوارد سعيد المقيم فى أمريكا عن الاستشراق ١٩٧٨م ، وما صدر فى أعقابه من كتب ودراسات لعل أهمها كتاب برنارد لويس كيف اكتشف المسلمون أوروبا ١٩٨٢م، فإذا كان إدوارد سعيد ينتقد الاستشراق، أى الطريقة التى أدرك بها الغرب الشرق، فإن برنارد لويس ينتقد الاستغراب، أى الطريق التى أدرك بها المسلمون الغرب، ويأتى كاهن فى كتابه هذا ١٩٨٣م ليبحث ضمن موضوعات عديدة، قضية الوعى المتبادل وحدوده بين الشرق والغرب وإذا كان كاهن قد اقتصر فى معالجته لهذه القضية على

فترة العصور الوسطى، فإن برنارد لويس قد جعلها محوراً شاملا لكتابه الذى يمتد حتى حدود القرن التاسع عشر، وهو الكتاب الذى كان له صدى كبير، واستخدم فى مواجهة نقد الاستشراق المتصاعد... فى هذا السياق إذاً – وهو سياق له دلالته – ظهر كتاب كاهن عن «الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية». فما هى أولا هذه الحروب الصليبية التى يؤرخ كاهن من خلالها للشرق والغرب ؟ قد تبدو الإجابة بديهية لأول وهلة، غير أن تعريف الحروب الصليبية لم يكن موضع اتفاق، إذ أن بعضهم لا يقصرها على الحروب التى شنها الفرنجة ضد الإسلام والمسلمين فى منطقة الشرق الأدنى إبان العصور الوسطى، فوليام الصورى يصف حروب هرقل بأنها حروب صليبية، مع أنها حدثت قبل خمسة قرون من الحروب الصليبية بالمعنى التاريخى المحدد للكلمة، كما أن بعضهم الآخر قد وصف الحملات الموجهة ضد مسحيين هراطقة بأنها حروب صليبية أيضاً، ولدى المؤرخين العرب المعاصرين نجد من يرفض استخدام مصطلح الحروب الصليبية لأنه مصطلح دخيل، ولم يكن مستخدماً لدى مؤرخينا القدامى، الذين استخدموا مصطلح الحروب الفرنجية، ولأنه فى النهاية تعبير يسىء إلى المسيحيين الشرقيين(١)، وإذا رجعنا إلى أحد أبرز المتخصصين فى هذه الفترة وهو عزيز سوريال عطية لا نجد لديه حرجاً – رغم أنه من المسيحيين الشرقيين – فى تعريف الحروب الصليبية بأنها كانت «صراع الأمم المتحدة المسيحية فى العصور الوسطى ضد كل قوى الإسلام، حيث تركز النزاع حول أورشليم وأرض الميعاد التى يدعى كل من الشرق والغرب لنفسه من امتلاكها (٢) ».

يتوزع كتاب كاهن بين مقدمة وسبعة عشر فصلا وإحدى وعشرين وثيقة تاريخية، ومن خلالها يؤرخ كاهن لأوضاع الشرق والغرب عشية الحروب الصليبية، وعلاقات الغرب بالشرق فى تلك الفترات واصفاً دخول الصليبيين إلى آسيا، والاتصالات الأولى، ثم تأسيس الدويلات الفرنجية، وأوضاعها السياسية حتى الحملة الصليبية الثانية، كما يبحث المؤلف أوضاع التجارة والتطور الروحى، كذلك يخصص فصلا يتطرق فيه إلى شخصية صلاح الدين، فمؤسسات الشرق اللاتينى، والسكان المحليين، والجيوش فالفترة الأيوبية ثم الفترة المغولية

---

(١) هذا موقف قاسم عبده قاسم فى كتابة : ماهية الحروب الصليبية – دار السلاسل – الكويت – طبعة ٢ – ١٩٩٣ ص ١٥.

(٢) عزيز سوريال عطية – العلاقات بين الشرق والغرب – تجارية – ثقافية – صليبية – دار الثقافة المسيحية طبعة ١ – ١٩٧٢ – القاهرة – ص ١١.

فالخاتمة، وفى هذا الوصف أو التاريخ تجنب المؤلف تكرار الإشارة إلى الأحداث والوقائع المعروفة لدى دارسي هذه الفترة، وإن كان سياق التاريخ قد فرض ذلك على المؤلف فى أحيان كثيرة، فالكتاب يؤرخ لفترة تاريخية من علاقات الشرق بالغرب فى شتى جوانبها السياسية والثقافية والتجارية والعسكرية، وذلك استناداً لقراءة فاحصة ومدققة لأرشيفات تلك الفترة، ومن خلال هذا التاريخ نجد العلاقة بين الشرق والغرب والمقارنة الدائمة بينهما سائدة عبر صفحات الكتاب، فالمؤلف يبحث فى طبيعة هذه العلاقة على أكثر من صعيد غير أنه يركز بشكل أساسى على نوعية الوعى المتوفر لدى كل طرف عن الآخر، ومصادر هذا الوعى، والتأثير والتأثر بينهما وشروط ذلك والمناطق التى تم عبرها هذا التبادل، كما لا يفوت المؤلف أن يقارن بين القدرات العسكرية وإجراءات المعركة لدى الطرفين، ويلاحظ أن المؤلف قد انشغل كثيراً فى هذا الكتاب بدراسة الدويلات الفرنجية – الشرق اللاتينى – وهو فى ذلك يكمل ما بدأه فى أطروحته الجامعية عن سوريا الشمالية وإمارة أنطاكية ١٩٤٠، والتى استعاد كثيراً منها فى كتابه هذا مع دراسة الدويلات الفرنجية الأخرى التى لم يتناولها فى أطروحة وهى إمارة طرابلس وعكا ومملكة بيت المقدس.

ما الذى يمكن أن يخرج به المرء من قراءة هذا الكتاب ؟ لا نريد أن نصادر على حق القارىء فى الوصول إلى قراءة ممتعة ومثيرة إلا أننا نود أن نشير إلى أن مفاجآت هذا الكتاب كثيرة ومتنوعة، منها ما قد يروق للقارىء العربى ومنها ما قد لا يروقه، وأقل هذه المفاجآت إثارة أن الحروب الصليبية لم تمنع التفاعل بين الشرق والغرب وأنها لم تؤثر تأثيراً كبيراً على التجارة الغربية بالشرق بل أن بعض المدن التجارية الايطالية كانت تحصل على امتيازات أفضل من قبَلِ بعض الدول الإسلامية، وذلك فى عنفوان فترة الحروب الصليبية بل يرى المؤلف أن الحروب الصليبية ساعدت على نمو التجارة من عدة نواحٍ والمفاجأة الأخرى تكمن فى ما يقوله المؤلف عن الشرقيين الذين نادراً ما حاولوا الاقتباس أو التعليم من أوروبا حيث ينظرون إليها على أنها بلد بربرى لا يمكن أن يقتبس عنه أى شىء وهنا يشارك كاهن وجهة نظر برنارد لويس الذى يصف العرب والمسلمين بأنهم يفتقدون الرغبة أو التطلع لمعرفة الآخر.

على أنه من حقنا أن ننبه القارئ إلى أن مؤلف الكتاب باحث غربى، وأنه يكتب لأقرانه فى بيئة ثقافية مغايرة لنا، ولها سماتها الخاصة، ومن ثم لا ينبغى أن يتوقع منه ما ينتظر من مؤرخ عربى مسلم، ومع ذلك فقد كشف المؤلف عن تعاطف عميق تجاه تاريخ المنطقة العربية الإسلامية فى العصر الوسيط ، وربما أحياناً بصورة أفضل من بعض المؤرخين العرب

والمسلمين فى بعض المواقف ! غير أنه يكتب فى النهاية من منظور غربى له خصائصه الخاصة، وحدوده التى لا يمكن تجاوزها، وهو ما يبدو جليًا منذ بداية الكتاب حيث يقول المؤلف، (وفى النهاية فإن كل ما كتب فى هذا الموضوع قد تم من وجهة نظر غربية، من المؤكد أن الحروب الصليبية لا مجال لعرضها من منظور شرقى، ومع ذلك فهى تندرج بشكل ما داخل سياق شرقى، وقد يكون من المفيد عقد مقارنة بين المجتمعين اللذين وضعتهما الحروب الصليبية وجهًا لوجه)، ويمثل هذا الرأى أوضح معالم النزعة الأوروبية المركزية، وإن كان كاهن لا يمثلها إلا نادراً وهو هنا يحاور أقرانه ويسعى إلى إقناعهم بأن من حق الشرقيين أيضاً أن يدرسوا هذه الفترة، وأنه إذا كانت الحروب الصليبية مبادرة أوروبية نمت وانطلقت من الغرب وإذا كان منطقيًا أن الغرب فى هذه الحالة هو الأقدر على دراستها فإنه فى اللحظة التى وصلت فيها هذه الحملات الصليبية إلى الشرق يصير من المنطقى أيضًا أن يقوم الشرقيون بدراستها، فالمؤلف لا يرفض مبدأ قيام الشرق بدراسة أوجه الحضارة الغربية بشكل عام، فبالأحرى أن يدرس الشرق تلك الفترات التى حدث خلالها صراع أو التقاء مع منتجات الحضارة الغربية، لكن المؤلف لا يسمى فى كثير من الأحيان محاوريه، وهو ما ينشأ عنه بعض اللبس والغموض، كما أن من خصائص هذا المنظور الغربى - الذى أرخ كاهن لهذه الفترة من خلاله - أنه يتحدث عن الإسلام بشكل عام وغامض، ودون التمييز بين الإسلام كدين وكجغرافيا وكمسلمين، فأحيانًا يتحدث المؤلف عن تغلب الصليبيين على الإسلام والمقصود بالطبع المسلمين، وكذلك من خصائص هذا المنظور الغربى فى الكتابة عن تاريخ هذه الفترة أنه يكشف بصورة لا تدع مجالاً للشك عن عقلية التوسع الاستعمارى الأوروبى، والنموذج البارز فى هذا الكتاب نجده فى تعبير الشرق اللاتينى، فإذا كان الغرب اللاتينى الكاثوليكى قد أسس بعض الدويلات أو الإمارات الصغيرة فى الشرق أثناء فترة الحملات الصليبية فإن هذه الدويلات صارت شرقًا لاتينيًا امتداداً للغرب اللاتينى، بل نجد جمعية علمية تحمل اسم جمعية الشرق اللاتينى ظهرت فى نهاية عام ١٨٧٥، للاهتمام بأرشيفات هذا الشرق اللاتينى، وإصدار مجلة علمية تحمل اسمه، وصحيح أن كاهن قد حذر أكثر من مرة فى كتابه من الإفراط فى استخدام هذا التعبير إلا أنه فى النهاية اعتمده طوال الكتاب مثله مثل أقرانه من الباحثين، بل الأغرب من ذلك أن مؤلفنا يعزو للشرق اللاتينى صفات استقلالية إزاء الحملات الصليبية التالية للحملة الأولى، ففى بداية الفصل السادس نجد تعبيراً غريبًا يقول «من العبث أن نجد كلمة واحدة عن الحرب الصليبية للشرق اللاتينى»، فإذا كان الشرق اللاتينى هو وليد

الحملة الصليبية الأولى، فإنه كف بعد ذلك عن أن يكون صليبياً، وربما أزعجته الحملات الصليبية اللاحقة، كما يرى كاهن، وهو أمر بالنسبة لنا يحتاج إلى مراجعة وتدقيق أكثر، وكان يمكننا التغافل عن استخدام تعبير الشرق اللاتينى لو أن استعماله كان عابراً أو مجازياً، لكن الحقيقة غير ذلك وتزداد حيرتنا أكثر عندما يدرك كاهن كباحث وعالم حدود هذا التعبير فى حوار مع أقرانه ثم لا يسلك وفقًا لهذه القناعة. ومن ملامح هذا المنظور الغربى أن لا نجد اهتماماً كافياً بالقادة المسلمين الذين نهضوا لمقاومة الغزو الصليبى للمنطقة، وأحيانًا نجد تقليلاً من شأن انتصاراتهم ، ففى الفصل الذى يتحدث فيه المؤلف عن صلاح الدين يدور الحديث فى الأغلب عن أمور أخرى غير صلاح الدين وانتصاراته العسكرية التى لا تحظى بتقدير كافٍ من المؤلف تتلائم وقيمتها الحقيقية، وليس المعنوية فقط. وربما يجد القارئ التاريخ يضىء الحاضر فى قضية محورية بالكتاب وهى طبيعة مدينة القدس إذ يقول المؤلف : «أجل لقد كانت القدس مدينة مقدسة، غير أن ذلك لم يكن يستتبع أن تكون تحت سلطة المسيحيين فقط، أن سيادة المدينة على الصعيد الدينى لم تكن قد امتدت بعد فى شكل التزام سياسى».

* * *

بعد إطالة التفكير كثيراً فى ترجمة هذا الكتاب من قبل السيد ريشار جكمون، بدت الحيرة ماجدوى ترجمة كتاب عن الحروب الصليبية أو حرب الخليج، أو «الجولف» كما يسمونها فى فرنسا، لم تخمد نيرانها بعد، وما عساه يكون صدى الكتاب لدى القارىء العربى فى مثل هذه الظروف، وقد ساعدنى على حسم الأمر أن الكتاب رغم أن مؤلفه غربى إلا أن طريقته فى معالجة تاريخ تلك الفترة اتسمت بقدر كبير من الموضوعية، التى تفتقر لها أغلب الكتابات المرتبطة بالحروب الصليبية، وبعد الشرع فى الترجمة ظهر أنه كتاب ليس مثل الكتب الأخرى، فهو كتاب متعدد المنابع، ويكشف عن جهد موسوعى يتطرق إلى ميادين شتى من التاريخ إلى الجغرافيا والأديان وعالم الجيوش والتجارة والثقافة، وهو أمر يتطلب من المترجم بدوره أن يرتفع إلى مستوى هذا الكتاب الأكاديمى، وأن يصل إلى قدر من المعرفة بهذه الميادين لا يكون مقتصراً على المعرفة المتوافرة لدينا عن الحروب الصليبية كرواية تروى بأسلوب شيق وسلس... وكانت المفاجأة أعظم بعد إمعان النظر فى الأسلوب الذى استخدمه مؤلف الكتاب، إذ لا يوجد أسلوب بالغ الدقة والتكثيف والصعوبة، بحيث سطر أو جملة إلا وهى محملة بأكثر قدر ممكن من المعانى، فالمؤلف من الباحثين المدققين، يمقت السهولة والخفة التى تبدو فى كتابات كثير من الباحثين الغربيين، وربما لهذا السبب لم ينل الاهتمام الذى يستحقه مثل غيره من الباحثين

الذين جمعوا بين البحث العلمى الأكاديمى والعمل السياسى والإعلامى، كان الطموح فى البداية محاولة جريئة فى ترجمة هذا الأسلوب فى الكتابة إلى اللغة العربية، وكانت أولى الصعوبات التى واجهت هذا الطموح أن أسلوب كاهن لا يمثل أسلوبًا نموذجيًا للغة الفرنسية، وربما كانت الأصول السامية للمؤلف قد جعلت تراكيب لغته أقرب أحيانًا إلى اللغة العربية منها إلى اللغة الفرنسية، فأسلوب كاهن يتميز بجمل ذات نفس طويل، بحيث تصل بعض الجمل إلى عشرة أسطر أحيانًا يتخللها جمل اعتراضية كثيرة، وكانت المجموعة الثانية من هذه الصعوبات ترجع إلى أن المحافظة على بنية أسلوب كاهن فى الترجمة العربية قد يؤدى إلى اختلالات فى المعنى، نظرًا لتكثيف النص الفرنسى، بحيث من الصعب أن يدرك المرء على من تعود الضمائر فى بعض الفقرات نظرًا لعدم توافق التأخير والتقديم من النص الفرنسى إلى النص العربى. ثم واجهتنا صعوبة ثالثة تكمن فى غموض بعض المعانى، والتى تحتاج - فى أضعف الأحوال - إلى شرح، وهو أمر مختلف إلى حد بعيد عن الترجمة، ثم كانت المجموعة الرابعة من الصعوبات مصدرها دار النشر الفرنسية أوبييه فى الطبعة الأولى، وفلاماريون فى الطبعة الثانية، حيث صدر الكتاب وبه مجموعة من الأخطاء المطبعية أشرنا إلى بعضها ولم يتم تلافيها فى الطبعة الثانية كما ورد بالصفحات ٩٩، ١٠٣، ١٢٠، ١٤٥، ١٧٤، ٢٠١ من النص الفرنسى بالإضافة إلى الاخطاء الواردة فى الملاحق بصدد الإحالات إلى نصوص توراتية وغيرها، وإذا كان من الشائع - وإن كان غير مقبول - أن تصدر الطبعة الأولى وبها بعض الأخطاء فمن غير المقبول أن تصدر الطبعة الثانية عن دار كبرى مثل فلاماريون وبها ذات الأخطاء، الأمر الذى يفصح عن خفة وعدم شعور بالمسؤولية إزاء الأعمال العلمية الجادة، والتى يستغرق إعدادها سنوات، وقد أشار كاهن فى تقديمه للكتاب إلى الصعوبات الصحية التى كان يعانى منها وضعف نظره إلا أن دار النشر الأولى والثانية يبدو أنها لم تضعا ذلك فى اهتمامها رغم أنه من صميم عمل دار النشر مراجعة النص قبل الطباعة وبعدها!

وبرغم من أن هذه الصعوبات مجتمعة كانت تمثل عائقًا كبيرًا أمام الترجمة، الا أن التحدى كان واردًا بشرط الوفاء للنص الفرنسى، وأسلوب الكاتب وتقديم من خلال اللغة العربية أسلوبًا أكاديميًا يتفق فى الرصانة ودقة الألفاظ مع أسلوب الكاتب، ودون الإغراق فى التعابير القاموسية المنفرة، أو التعابير الرائجة الانتشار، والربط بين الفقرات خاصة أن المؤلف فى النص الفرنسى كان يؤرخ ويصف ويحلل من خلال جمل متراصة دون اهتمام كبير

بأسلوب الربط المنطقى، بالرغم من عدم التوفيق أحيانًا كثيرة فى تحقيق هذا الترابط بين الجمل المتراصة، وإذا كان مؤلف الكتاب قد تمنى إلا يصدر القارىء أحكامًا قاسية بحقه بعد قراءة الكتاب، فالرجاء ألا يصدر القارىء مثل تلك الأحكام بحق الترجمة التى تم إنجازها فى ظروف بالغة الصعوبة، وإن كان مثل هذا العمل العسير لا نهاية لتحسينه وإكماله لذلك تفيد ملاحظات القراء وتصويباتهم فى حالة إصدار طبعة ثانية للكتاب.

أحمد الشيخ

الحى اللاتينى – باريس

١٩٩٤ م – ١٤١٤ هـ

شكر وتقدير

فى النهاية لا يفوتنى فى هذا المقام توجيه الشكر للزملاء والأصدقاء الذين قدموا لى يد العون والمساعدة من أجل صدور هذه الترجمة وأخص بالشكر منهم أحمد المطيلى وعمر المزى وبولس الكارمى وأمين معلوف ومحمود القبعى وعمر حلمى إبراهيم وراتب حورانى وميشيل لولونج والهادى چبنون ومجيد النصر ونبيل حبيقة ومحمد سيف وإيهاب مصطفى داود ومحمد ناجى ومحمد بن حمودة وأحمد شليلات وجورج ساسين وسعيد اللاوندى والصادق سلام وإسماعيل صبرى وسليمان زعيدور وصلاح الشيخ ووالدى الشيخ عبد العاطى الشيخ كما أتوجه بالشكر إلى ريشار جكمون الذى سعى أولاً وأخيراً نحو صدور هذه الترجمة ودار سينا التى احتملت التأخير فى صدور الكتاب إدراكاً منها لقيمة الترجمة وما تتطلبه من جهد ووقت فإلى كل هؤلاء أتوجه بمشاعر التقدير والامتنان.

* * *

تقـــديم

قد يتساءل المرء هل نحن بحاجة إلى كتاب جديد عن الحروب الصليبية، كما لو لم تكن هناك عشرات الكتب التى تناولت هذا الموضوع، فضلا عن آلاف المقالات[1] ؟ وأقول مجازفا، مع ما قد يبدو فى ذلك من إسراف فى الاعتداد بالرأى - إن قيمة هذه الكتابات لا تتناسب - فى الغالب - مع كميتها الوفيرة، وإن الأسباب التى أدت إلى تكاثرها والأثر الذى تركته على البحث العلمى أفضيا - نسبيا - إلى نوع من الزيغ بل الابتعاد عن روح العلم ومنهجه، سواء أدرك ذلك المختصون فى هذه الدراسات أم لا، فالحروب الصليبية وامتداداتها فى ما سمى - بعد ذلك - بالشرق اللاتينى(*) لم تكن موضوعا دراسيا بالنسبة للمؤرخ فحسب؛ بل كانت جزءًا من التصور الذهنى لدى الإنسان الغربى، الذى هو على درجة ما من الثقافة، وينطبق هذا بشكل خاص على فرنسا، وإن كان غير مقصور عليها.

إن هذه الكتابات التى أنجزت منذ عهد الحروب الصليبية ذاتها قد صدرت فى مناخ سيطرت عليه الأهواء التى لا تتوافق - بداهة - مع البحث الموضوعى الخالص؛ إذ اصطبغت فى العصر الوسيط - كما فى أيامنا هذه - بأفكار ومشاعر نابعة من نفوس أصحابها، كتابًا وقراءً ولا صلة لها بصانعى ذلك التاريخ. فالمؤرخ المتخصص يخضع - أحب أم كره - كغيره من الناس لتأثير بعض الأفكار الشائعة داخل مجتمعه. لقد ظلت الحروب الصليبية لفترة طويلة إحدى الظواهر التاريخية التى أحاط بها كثير من الجهل، ومهما كانت المفارقة التى تتبدّى فى هذا التأكيد لا تزال الحروب الصليبية فى حاجة إلى مزيد من الأبحاث الجديدة على الرغم من التقدم المهم حدث فى الآونة الأخيرة.

ومن المفيد فى هذا الصدد أن نتفحص تاريخ التأريخ للحروب الصليبية [2] - ذلك التاريخ الذى ظل - منذ البداية - حكرًا على الأوساط الإقطاعية والكنسية؛ وكُتِبَ - طوال عدة قرون - بغرض تمجيد الكنيسة والعقيدة، فجاء رد الفعل فى العصور الحديثة من أوساط

(*) الشرق اللاتينى: تسمية أطلقت على الدويلات التى أسسها الصليبيون فى الشرق العربى لمدة قرنين من الزمان، هى فترة الحروب الصليبية، وكانت تضم: مملكة بيت المقدس وإمارة الرُّها وإمارة أنطاكية وإمارة طرابلس.(المترجم).

العلمانيين، أو من البروتستانيتين غير الفرنسيين، مشهراً بما انتهجته الحروب الصليبية من تعصب وجهالة وسياسة بابوية توسعية.

ومنذ أنْ أخذ التاريخ يهتم بالشعوب - نظراً لإنتشار الديمقراطية - وليس بقادتها العسكريين والدينيين فحسب، قام المؤرخون بالاحتفاء بحركة الحماس الشعبى التحررى العظيم بشكل رومانسى، أو على النقيض من ذلك أخذوا يندون بجشع الإقطاعيين وعقلية الاستغلال لدى التجار، وتعطش الجماهير لإراقة الدماء. وأخيراً صارت الحروب الصليبية مناسبة للإشادة بالأشكال الاجتماعية العتيقة وأفضلية السلطة الملكية على الفوضى بكافة أشكالها، كما تم تفسيرها على أنها تمثل أول مظهر لحملة استعمارية، أو فى أضعف الأحوال، بداية للتأثير الثقافى الذى مارسته فرنسا فى الشرق منذ ما يقرب من قرنين. ومن ثم لا داعى للسخرية مما حدث منذ فترة قصيرة حيث استضافت الأكاديمية الفرنسية أحد مؤلفى هذه الكتب «الجيدة» عن الحروب الصليبية (٣). أما خارج فرنسا، ووفقا للبلدان أو المعتقدات، فقد تمثلت فى الحروب الصليبية - لدى بعضهم - عظمة الروح التبشيرية، ويقظة المشاعر الأوروبية المتآلفة، وارتقاء الرأسمالية فى أشكالها الأولى بفضل الإيطاليين... إلخ. وفى الفترة المعاصرة اتخذ الإسرائيليون من الصليبيين رواداً لتحقيق مشروعهم القومى، بينما ينشد العرب من كفاح أسلافهم - لاستعادة الوطن من الصليبيين - حافزاً لإرادتهم المعادية للصهيونية.

وبطبيعة الحال فإن كل هذه الاعتبارات خارجة - بمعنى ما - عن روح العلم، رغم ما أنجز من دراسات لها صلاحيتها التامة، فى إطار المؤلفات التى ظهرت فى مثل هذه الأجواء بل بفضلها. وحتى الأبحاث العلمية الحقة ذاتها شهدت تطورا هائلا ما بين القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مقارنة مع غيرها من الدراسات التى ظهرت فى النصف الثانى من هذا القرن. لقد تم النظر إلى الحروب الصليبية والشرق اللاتينى - وقد أُعتبرا لفترة طويلة امتداداً للغرب - من خلال ثلاث وجهات متناقضة فى ظاهرها، لكنها متفقة فى حقيقتها. لقد تم النظر إليها، إما بمعزل عن غيرها - وذلك بوصفها إنجازاً فريداً من نوعه لا مثيل له - وليس له علاقة فعلية بأوجه التاريخ الأخرى - وإما بوصفها حدثًا تاريخيًا له من الأهمية ما جعله محوراً لكل ما جرى خلال تلك الفترة، وإما بوصفها أخيراً مظهراً للحضارة الغربية فى مجملها، بحيث لا يتم أى تمييز بداخلها. ومن خلال هذه الوجهه الأخيرة برع رجال القانون، إبان القرن التاسع عشر فى تأليف صورة عن المؤسسات الإقطاعية المتآلفة، وقد بدت لهم

«قوانين مملكة بيت المقدس» (*) أفضل تعبير عن تلك المؤسسات، بحيث أنه فى الوقت الذى نعثر فيه على أوجه النقص أو الغموض فى تلك القوانين، فإن من الممكن استكمالها أو تفسيرها من خلال أعراف غربية أخرى. وسواء تم النظر إلى الحروب الصليبية من خلال هذه الوجهة أو كظاهرة قائمة بذاتها فالنتيجة واحدة، إذ كان لابد من انتظار مجىء الجيل الحالى – تقريبًا – لكى تبدأ الدراسة المقارنة للشرق اللاتينى والغرب، وكذلك الدراسة المقارنة لمختلف إمارات الشرق اللاتينى (٤).

كان هناك تداخل بين الحروب الصليبية وأشياء أخرى كثيرة، لا تمت لها بصلة، لاسيما تاريخ العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، وكذلك المسائل السياسية والثقافية وغيرها. لاشك أن مسألة تحديد المفاهيم تتدخل فى تعيين خطوط الالتقاء بين هذه الأشياء؛ فقد نُعتت بعض المؤسسات بالصليبية نظرًا لظهورها أو تطورها تحت رعاية الحملة الصليبية أو فى فترة مواكبة لها، غير أن إطلاق اسم من الأسماء على ظاهرة ما أمر لا يخلو من الأهمية، حينما يؤدى ذلك إلى تحويل النظر إلى اتجاه خاطئ أو إضفاء هالة من التقدير لا علاقة لها بالواقع الحقيقى للظاهرة. لقد تمت دراسة «تجارة بلدان الشرق»، وليس من الإنصاف أن نقول إن الذين قاموا بهذا العمل كانوا يجهلون الشرق اللاتينى، أو أن مؤرخيه لم يشغلوا أنفسهم قط بدراسة قضية التجارة. إلا أنه فى الحالة الثانية يتعلق الأمر فى غالب الأحيان بالملاحق أو الفصول المستقلة، ولا يجوز أن يقال إن الذين أنجزوا هذه الأعمال قد سعوا لعقد الصلة بين مختلف القضايا بشكل عميق. وقد نتج عن ذلك – بالأخص – عدم الاكتراث بالتسلسل الزمنى لكل ما ليس حدثًا تاريخيًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. وأنا أعرف أن تلك كانت قاعدة ذائعة الانتشار، بيد أن اعتمادها على هذا النحو أضاع علينا فهم عدد كبير من الأشياء.

وفى النهاية فإن كل ما كتب فى هذا الموضوع قد تم من وجهة نظر غربية. من المؤكد أن

(*) قوانين مملكة بيت المقدس: اسم أطلق على مجموعة من النصوص القانونية، كانت قد أعدت فى اجتماعات قادة الحروب الصليبية بالقدس، وقد صيغت صياغة مشبعة بروح الأعراف والقوانين الإقطاعية. وقد رأينا ترجمتها بقوانين ملتقيات مملكة بيت المقدس، لأن الترجمة المباشرة «ملتقيات أو مؤتمرات بيت المقدس» لا توضح المعنى المقصود. وقد سبقنا إلى ترجمتها على هذا النحو د. محمد مصطفى زيادة فى كتاب «أوروبا العصور الوسطى» لـ هـ. ا. ل فشر، ود. السيد الباز العرينى فى ترجمته لكتاب أرنست باركر عن الحروب الصليبية. كما يميل د. قاسم عبده قاسم إلى ترجمتها بـ : مراسيم مملكة بيت المقدس. (المترجم)

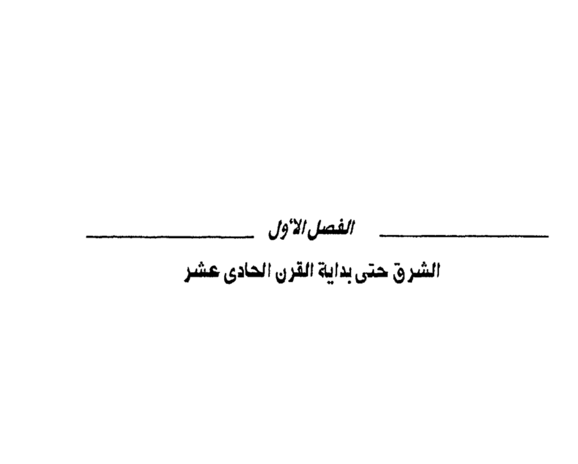
الحروب الصليبية ظاهرة غربية لا مجال لعرضها من منظور شرقى، ومع ذلك فهى تندرج بشكل ما داخل سياق شرقى، وقد يكون من المفيد عقد مقارنة بين المجتمعين اللذين وضعتهما الحروب الصليبية وجها لوجه. فقد حدث – فى بعض الأحيان ولو بصورة سطحية للغاية – أن جرى الحديث عن تأثير الشرق على الغرب بواسطة الحروب الصليبية، كما لو كانت الطريق الوحيد والرئيسى لذلك التأثير. ولقد أهمل التأثير المعاكس للشرق اللاتينى – كما يسمونه – على السكان المحليين وهم الأغلبية الساحقة من السكان. إن القرنين اللذين مر بهما الشرق اللاتينى ليسا أقل من مرحلة فى تاريخ سوريا وفلسطين، ولذا يجب إفساح المجال للنظر إلى التفاعل بين عالم البحر المتوسط والشرق الأدنى والأوسط، نظرة متبادلة من كلا الطرفين. ولست أتجاهل المحاولات التى تمت فى هذا الاتجاه، ولو أنها تكاد تقتصر على الوقائع السياسية والعسكرية، وهى محاولات – وهذا أمر لابد أن يقال – مبنية على معرفة بسيطة بالشرق، إنْ لم تكن فى – غالب الأحيان – قائمة على جهل كامل بلغاته. ومن البدهى أن دراسة أوجه الالتقاء والتأثير لابد أن تتم من جميع وجهات النظر على أساس نظرة شاملة للتاريخ، ولا يعقل أن يزعم أحد أنه بالإمكان تحقيق ضروب من التقدم الجدّى فى هذا المجال، بدون معرفة اللغات التى قد لا تُيسِّرها الحواجز الجامعية بين فروع المعرفة، لكن لابد للمؤرخ من أن يتمكن منها بنفسه (٥). وما نقوله هنا ينطبق بالمقدار نفسه على الوضع الوسيط لبيزنطة، وإنْ كانت الدراسات المنصبة حولها تجعلنا فى موقع أفضل.

وما ذكرناه يحدد التوجهات التى قمنا من خلالها بتأليف هذا الكتاب. لقد حاولنا وضع الحروب الصليبية فى علاقة مع ما لا صلة له بهذه الحروب فى نطاق البحر المتوسط، وحتى الغرب، مع التشديد بصفة خاصة على تاريخ التجارة. وفى الوقت نفسه سعينا إلى تقديم تاريخ ما يسمونه الشرق اللاتينى، بوصفه مرحلة من تاريخ الشرق العام. ولا ندعى أن عملنا يزيد عن تقديم بعض التوجهات فى مجال، إذ لا يستطيع المرء أن يحيط علمًا بكل شىء، لا يزال بكرًا حتى الآن، ولا يمكن أن نطمع بأكثر من القيام بعملٍ مُجدٍ يمهد السبيل أمام الباحثين وإن كان يعتوره بعض النقص.

لم تتبين لى فائدة أن أعيد سرد ما يمكن للقارئ أن يجده دون مشقة فى مخزونه الثقافى الخاص، أو فى المراجع الأساسية التى فى حوزته (انظر فهرسة المراجع) وبالطبع فقد ترتب عن ذلك عدم التناسب بين بعض الفقرات، التى بدا لى أنها تستحق الشرح أكثر من غيرها، بسبب تناولها لوقائع غير معروفة، أو أسىء فهمها – بحسب رأيى – وبين فقرات

أخرى، لم تحظ إلا بإشارات بسيطة – بغض النظر عما تخللها من ثغرات غير مقصودة – ولست أتجاهل هنا المساوئ الناشئة عن هذا الموقف الذى أتحيز له، ولو انتهجت موقفًا غير هذا لكان علىّ أن أضاعف حجم هذا الكتاب دون فائدة تذكر.

لقد بدأت بتحرير هذا الكتاب قبل ثلاثين عامًا. وبالطبع فإن أعمالا كثيرة قد ظهرت، منذ ذلك التاريخ، وأنا نفسى قد أدخلت تغييرات على مواقفى الأولى، فحاولت سبك كل المعطيات فى صيغة جديدة مغايرة، وانتهزت فترة التقاعد عن العمل لتدقيق كتابة النص، وتقديمه بصورة أفضل، بيد أن ما حصل لى من متاعب فى الرؤية حدّت من إمكانياتى، واستجابةً لنصيحة أستاذ قديم، فقد ظهر لى – ربما بلا تواضع من جانبى – أنه من الأفضل أن أقدم ما لدى، وأنا فى هذه السن ودون انتظار ما يمكنى تقديمه. وإنى لمدين بالشكر إلى السيد ليميرل على ما تجشمه كذلك من عناء فى مراجعة النص، ودار أوبييه للنشر التى قبلت النص كما هو، وآمل ألا يُصدر القارئ فى حقى أحكامًا قاسية. ويسرنى أن أقول بأنه ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور، لولا المساعدة المتفانية من زوجتى، ومن الآنسة تيريز نود من المركز القومى للبحث العلمى.



الفصل الأول

الشرق حتى بداية القرن الحادى عشر

تبدو الحملة الصليبية من الناحية التاريخية بمثابة رد متأخر على الفتوحات العربية - الإسلامية. ففى بداية القرن السابع قام فى غرب الجزيرة العربية بمكة والمدينة رجل هو محمد بتبليغ رسالة أصبحت - فيما بعد - قاعدة لديانة جديدة هى الإسلام. وقد حقق - من جهة أخرى، انطلاقًا منها، أول وحدة سياسية شملت كل العرب تقريبًا. وما إن توفى عام ٦٣٢م حتى قام أتباعه بفتوحات تدفعنا إلى الاعتراف بأن التاريخ لم يشهد لها مثيلا، إذا أخذنا بعين الاعتبار اتساع رقعتها وطابعها النهائى. ففى بضع سنوات قام العرب المسلمون باحتلال سوريا باسم الجهاد، وهو شكل من أشكال «الحرب المقدسة» كما سنتكلم عنها لاحقًا، وبلاد ما بين النهرين والعراق ومصر وإيران، وأضافوا إليها فى أقل من قرن بلاد المغرب وإسبانيا كلها تقريبًا من جهة، وآسيا الوسطى حتى نهر سيرداريا (*) من جهة أخرى، وزيادة على ذلك أكملوا فتوحاتهم إبان القرن التاسع، ولو لمدة قصيرة، بالاستيلاء على صقلية وأجزاء أخرى من حوض البحر المتوسط (١) (هذا بغض النظر عن المكتسبات الأخرى فى أوروبا وآسيا القصوى وإفريقيا السوداء، وهى مكتسبات تحققت فى العصور، وإن لم يكتمل إدماجها). ولنلاحظ أن الاستيلاء على القدس - فى تلك الفترة - لم يتم اعتباره - فيما يبدو - إضرارًا بالعالم المسيحى، هذا العالم الذى لم يكن قد اكتمل وعيه بذاته، وهو على أية حال لم يكن يربط قداسة المدينة بضرورة السيادة السياسية.

أوشكت بيزنطة - وريثة الإمبراطورية الرومانية فى الشرق - على الانهيار، وإذا كانت قد حافظت على الجزء الأساسى من آسيا الصغرى، فإن هذه المنطقة قد لحقها الخراب، كما فقدت بيزنطة أغنى مقاطعاتها فى آسيا وأفريقيا؛ وقد تزامن ذلك مع الفترة التى قام فيها الصقالبة باجتياح ممتلكاتها فى البلقان. أما فى الغرب فقد أبدت الدولة الكارولنجية الفتية مقاومة حسنة، وذلك بفضل عامل البعد وكذلك المناخ، بالإضافة إلى شيمها الذاتية، أما الإسبان - القوطيون الغربيون فلم يبق لهم من آثار، سوى مقاطعات مفتتة عالقة بجبال الشمال.

وبرغم أنه لم يتحول إلى الإسلام كل أهالى البلدان التى وصلها الفتح، إذ لم تتوفر لذلك جميع الشروط، فقد كان الإسلام سائدًا فى جميع الأصقاع. وبدأت عملية الدخول إلى الإسلام تتزايد، مما أدى بعد بضعة أجيال إلى ظهور أبهى الحضارات وأغناها فى بداية العصور

(*) سيرداريا : نهر فى جنوب غرب الاتحاد السوفياتى، يصب فى بحيرة آرال، وهو يكسرت القديم. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

الوسطى. وكانت أغلبية أهالى هذه البلدان - حتى الذين لم يدخلوا فى الإسلام - قد تبنوا اللغة العربية كلغة مشتركة فيما بينهم باستثناء إيران. وبطبيعة الحال سرعان ما تفككت هذه الوحدة على الصعيد السياسى، برغم أن الرغبة فى تلك الوحدة مازالت قائمة إلى يومنا هذا. أما على الصعيد الاجتماعى والثقافى فإنه من السهل التحقق اليوم من السمة المستقرة للتحولات التى لحقت بهذه البلاد.

ومع أن التجزئة السياسية لم تسفر عن تجزئة اجتماعية ثقافية معادلة، فإنه لابد - لكى نفهم تاريخ الحروب الصليبية. أن تكون لنا عن هذا التاريخ - حتى القرن الحادى عشر - نظرة أكثر وضوحًا من النظرة التى كونها الصليبيون أنفسهم، ومن نظرة أغلب المؤرخين المحدثين كذلك. وإذا تركنا - مؤقتًا - الغرب جانبًا، فإن قلب الشرق الإسلامى كان بغداد بالعراق، حيث كانت فى أوج ازدهارها، ومقرًا للخليفة الذى هو لدى غالبية المسلمين مصدر لكل شرعية على الرغم من أن نفوذه قد تقلص - فعلا - منذ القرن العاشر. وقامت إمارات عديدة فى الأراضى التى كانت خاضعة - فيما مضى - إلى سلطة الخلافة مباشرة، وتمكنت واحدة منها، وهى إمارة البويهيين، من وضع الخليفة فى بغداد تحت سيطرتها. وفى بداية القرن الحادى عشر، وحلّت أسرة السامانيين - وهى سلالة إيرانية حاكمة بآسيا - محل أسرة الغزنويين(*)، وهى سلالة تركية قامت باستئناف حروب الفتوحات، وشرعت فى نشر الإسلام بالهند. وكان القسم الأكبر من وسط بلاد فارس وغربها، إضافة إلى العراق، بيد البويهيين الأنفى الذكر، وهم فى الأصل قادة لجنود مرتزقة ديلميين (**) ينحدرون من سكان الجبال ذوى الطباع الخشنة بشمال إيران، ولكن أصبحت لديهم الآن حيازة كاملة لثقافة أخرى مختلفة عن ثقافتهم الأصلية. أما الأكراد فكانوا يسيطرون على الشمال الغربى من إيران على حدود أرمينيا، وكان الاعتماد على غير الأهالى من السكان فى تكوين الجيش، ومن ثم السلطة السياسية سمة مشتركة بين مختلف هذه الدول، وقد قبل الأهالى المحليون المغلوبون على أمرهم بذلك على أساس أن هؤلاء كانوا مسلمين، ولكنهم كانوا يشعرون - فى الوقت نفسه بأنهم - غرباء تقريبًا، وكان هذا الشعور ناتجًا من جراء تزايد حجم العناصر التركية فى الجيش.

(*) الغزنويون: اسم سلالة المماليك الأتراك التى حكمت شرق إيران وأفغانستان والبنجاب ٩٦٢ - ١١٨٧، أسسها ألب تكين، أحد ولاة السامانيين، ورسخها صهره سبكتكين عام ٩٧٧. سيطر الغزنويون طوال قرنين، واتخذوا غزنة عاصمة لهم. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

(**) الديلم: القسم الجبلى من بلاد جيلان شمال بلاد قزوين. اعتنق بعض سكانه الإسلام عام ٩١٣، وخدموا فى جيش الخلفاء. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

أما البلاد العربية - بالمعنى الحقيقى للكلمة - التى كانت واقعة بآسيا فكانت تحت سيطرة أسر حاكمة صغرى شبه بدوية، مثل بنى مرداس فى حلب، وذلك بعد فترة قصيرة من التألق أيام الحمدانيين، كما سيأتى ذكرهم لاحقًا. وأخيرًا استولى الفاطميون على مصر سنة ٩٦٩م، وهم أسرة مالكة من أصل شرقى، لكنها ترعرعت - قبل ذلك - بالمغرب، وظلت مصر تحت سيطرتهم حتى سنة ١١٧١، وكذلك شأن بعض الملحقات السورية قبل الحروب الصليبية، بقيت اليمن فى حوزتهم لمدة أطول، حيث حاولوا أن يصلوا منها إلى الهند، وقد ظل الفاطميون حتى منتصف القرن الحادى عشر أكبر قوة فى الشرق الأوسط.

لن يكتمل مغزى هذا السرد السياسى إذا لم نضف إليه نشأة الفرق الدينية المتنافسة لدى المسلمين منذ تكون الإسلام ذاته، وعدم الانتماء الرسمى لتلك الدول إلى فرقة دينية واحدة، ولهذا الأمر أهمية خاصة فى الإسلام، حيث أن الدين والسياسة لا ينفصلان عن بعضهما بعضًا، كما أن الانضمام إلى هذه الطائفة أو تلك الأسرة الروحية يفضى للخليفة ببغداد بوصفه مصدرًا للشرعية إلى الاعتراف بها أو رفضها. لقد كانت الخلافة ببغداد فى أيدى الأسرة العباسية المنحدرة من العباس عم النبى محمد، يساندها هؤلاء المسلمون الذين أُطلق عليهم اسم أهل السنة، وهم بالتأكيد الأغلبية، بينما كان البويهيون ينتسبون إلى الشيعة، أو على وجه الدقة، إلى أحد فروعها، وهى فرقة (الاثنا عشرية) (*)، التى تؤمن بوجود مرشد نظرى للأمة، وهو إمام غائب من نسل علىّ بن عم النبى، ومن ابنته فاطمة، وبانتظار ظهور الإمام من جديد كان ثمة تسامح تجاه الخليفة العباسى حتى يرضى عنهم أهل السنة، لكنهم لم يتركوا له أية سلطة. أما بخصوص الفاطميين فكانت هناك شبكة من الدعاة تعمل بصورة سرية تقريبًا لنشر العقيدة الإسماعيلية، وهى كيان ثقافى مركب كان يعارض الخلافة العباسية، على الصعيد السياسى، عبر خلافة مضادة فى القاهرة. وتطورت فى الأوساط الغزنوية فكرة أن خلاص الخلافة العباسية «الأرثوذكسية(**) » سيأتى من الشرق، لكن تحقيق

(*) الاثنا عشرية أو الإمامية، اسم يطلق على أحد فروع الشيعة لقولهم باثنى عشر إمامًا، أولهم على بن أبى طالب زوج فاطمة... وآخرهم محمد المهدى. أصبحت الاثنا عشرية مذهب الدولة فى إيران منذ عهد الصفويين، وانتشرت فى جميع أنحاء العالم الإسلامى. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

(**) يستخدم المؤلف كلمة الأرثوذكسية هنا بمعناها العام - أى الطريق المستقيم للعقيدة - كما يستخدمها فى مواقع أخرى عبر الكتاب بمعناها التاريخى المحدد للدلالة على الكنائس المسيحية الشرقية وأتباعها فى منطقة الشرق الأدنى وأوروبا الشرقية الذين ينظرون لأنفسهم على أنهم حملة العقيدة الصحيحة وأنهم يتبعون العقيدة المسيحية كما ورثوها من الآباء الأوائل للكنيسة، وذلك فى مواجهة الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية (المترجم).

ذلك كان موكولا لغيرهم. وقد صاحب هذا التوزيع الجديد للأدوار السياسية والدينية نوع من التحول فى عالم التجارة. إننا لم نشدد فى هذا المقام على أهمية العلاقات البحرية بين الشرق الأقصى والأدنى فى القرن التاسع والعاشر، كانت بغداد هى مركز الجذب، وكان الوصول إليها يتم عبر الخليج الفارسى ومنها كانت بعض البضائع تتابع مسيرتها نحو الموانىء السورية، ولاسيما نحو العاصمة الكبرى الأخرى وهى القسطنطينية. وقد أدت أسباب عديدة، منها نشاط الدولة الفاطمية، إلى تحويل طريق التجارة نحو القاهرة عبر اليمن والبحر الأحمر[٣].

ما يهمنا - بصفة خاصة هنا - هو أن التفتت الدينى فى سوريا كان واضحًا بشكل ملحوظ. ولم تكن العقيدة الإسماعيلية قد كسبت كثيراً من الأتباع فى سوريا أو فى مصر، حتى بين رعايا الدولة الفاطمية ذاتها، غير أن الشيعة الاثنى عشرية تمكنت من اجتذاب قبائل عربية عديدة فى الشمال، خاصة قبيلة بنى كلاب سيدة حلب إبان حكم أسرة بنى مرداس، فى حين كانت أغلب قبائل الجنوب ودمشق من أهل السنة. وانضمت مجموعتان من السكان ذوى أصل اجتماعى وثقافى غير واضح إلى مذاهب أخرى، فالمذهب النصيرى الذى ظهر فى العراق ومارس أهم نشاطاته - فيما يبدو - فى ظل الحمدانيين، ثم بعد سقوطهم انسحب أفراد هذا المذهب إلى الجبال الواقعة بشمال سوريا على طرفى الحدود الإسلامية والبيزنطية. وكانوا قد اكتسبوا خصائص جديدة ورثوها من تقاليد السكان المحليين وكان عدد المسلمين والمسيحيين حتى هذه الفترة يمثلون نسبة قليلة منهم، من المستحيل تقريبًا كتابة تاريخ هذه الطائفة نظرًا للغموض الذى يحيط به النصيريون أنفسهم، إلا أن تجذرهم الراسخ فى الأراضى التى سيغزوها الصليبيون - فيما بعد - لم يكن موضع شك. أما المذهب الآخر وهو مذهب الدروز، الذين كانوا يؤلهون الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، فقد استوطن فى منطقة وادى التيم فى جنوب لبنان، وقلما برحوها قبل العصور الحديثة. ويلاحظ أنه قد انضاف إليها فى وقت لاحق فرع آخر للعقيدة الإسماعيلية، يسمى «الحشاشون». لقد وُجد طبعا بها المسيحيون واليهود

(*) وادى التَّيم : منطقة فى لبنان ينتهى عندها غربًا جبل الشيخ، من أهم قصباتها راشيا - المنجد فى اللغة والأعلام - (المترجم).

(**) الحَشّاشون : لقب أطلق على الإسماعيليين النزاريين أتباع الحسن بن الصباح وخلفائه والتسمية مأخوذة من الكلمة الفرنجية وهى بمعنى فاتك، أطلقها عليهم الصليبيون لاشتهارهم بالاغتيال.. عُرِف رئيسهم بـ «شيخ الجبل»، قضى عليهم المغول ١٢٥٦ - ١٢٦٠ ووجه إليهم بيبرس الضربة القاتلة عام ١٢٧٢ - المنجد فى اللغة والأعلام - (المترجم).

الذين كانوا بالمثل منقسمين على أنفسهم، وهو ما سنأتى على ذكره. ولا نستغرب فى هذا المناخ أن تخامر نزعة من نزعات الريبة والشك بعض المفكرين، وأشهرهم الشاعر الضرير أبو العلاء المعرى، لكن لا ينبغى أن نقع كذلك فى التعميم؛ فإذا كانت هناك خلافات بل عدوات بين الناس فقد كانت هناك – أيضًا – مظاهر للتقارب مماثلة بين مختلف الطوائف.

ولم تكن الطوائف المسيحية فى الشرق الأوسط أقل تشرذمًا من الطوائف المسلمة، إذ كان هناك كثير من الكنائس التى كان انفصالها عن بعضها بعضًا يعود إلى النزاعات اللاهوتية فى القرون الأخيرة السابقة على ظهور الإسلام. بيد أن هذا الانفصال كان يخفى فى واقع الأمر فوارق عرقية ولغوية. لقد توزعت الطوائف السامية، التى كانت الآرامية السريانية لغتها الدينية، بين الانتماء إلى الكنيسة النسطورية – التى آواها الساسانيون فى العراق وآسيا الوسطى قبل مجيء الإسلام – وبين اليعاقبة المونوفيزيين(*) والذين ظلوا مستقرين داخل الحدود البيزنطية قبل الإسلام. وقد اعتنقت تقريبًا الكنيسة القومية الأرمينية والكنيسة القبطية المصرية والكنيسة الأثيوبية المذهب المونوفيزى ولكنها كانت مستقلة بذاتها، وكان للكنيسة الجورجية استقلالها كذلك غير أنها كانت وفية لأرثوذكسية القسطنطينية. ولم يكن بعد للموارنة الذين توارثوا مذهب المونوتيليه (**) شأنٌ سوى فى الجبل اللبنانى.

وكان لا يزال هناك عدد معين من المسيحيين ذوى المذهب البيزنطى، غير أنهم كانوا داخل سوريا ينتمون إلى بَطْرِيَرْكيات مستقلة (أنطاكية والقدس) أما فى مصر فكانوا ينتمون إلى بطرِيَرْكية الإسكندرية، ولقد تعربوا لغويًا بسرعة، وعُرِفوا فى العالم السريانى والإسلامى باسم المَلَكِيين(***).

حسبنا أن نذكر بإيجاز أن الزرادشتية كعقيدة قومية فى إيران وجدت فى مواجهتها أشكالا مختلفة من المانوية تجاوزت حدودها الجغرافية. كما ظلت هناك بعض الطوائف التى

(*) المونوفيزية: بدعة مسيحية ظهرت فى القرن الخامس وقالت بطبيعة واحدة فى المسيح. أهم قادتها: أوطيخا فى القسطنطينية، وديوسقورس فى الإسكندرية. حرمها المجمع الخلقيدونى. أدخل عليها سايروس الأنطاكى تعديلات مهمة. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

(**) المونوتيلية: أو أصحاب المشيئة الواحدة. بدعة مسيحية ظهرت فى القرن السابع حرمها المجمع القسطنطينى الثانى عام ٦٨١ – المنجد فى اللغة والأعلام – (المترجم).

(***) الملكيون: هو الاسم الذى أطلقه العرب على مسيحيى سوريا الذين خضعوا لقرارات المجمع الخلقيدونى ٤٥١... انضم فرع منهم إلى الكنيسة الكاثوليكية فى القرن الثامن عشر والفرع الثانى هم الروم الأرثوذكس. لغتهم الطقسية اليونانية والعربية. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

عاودت الظهور مع الأزمنة الحديثة، برغم أننا لم نسمع عنها شيئًا. كل هذا يقدم لنا صورة متعددة الجوانب، فبرغم تفوقهم العددى على المسلمين فى القرون الأولى، فإنهم لم يتمكنوا من تكوين جبهة مشتركة فى مواجهتهم، أضف إلى ذلك أن الأحقاد ظلت موجهة نحو البيزنطيين أكثر منها ضد المسلمين القادمين حديثًا.

تميز اليهود عن المسيحيين فى كونهم كانوا يشكلون مجموعات إقليمية كبيرة، بل توزعوا فى كل مكان تقريبًا ولاسيما فى المدن حيث كانوا يمارسون مهنًا حرفية أو يشتغلون بالتجارة على امتداد الطرق التى تقطعها القوافل الدولية(٤). ومع أنهم انقسموا إلى طائفتين دينيتين : الربانيين(*) والقرائين(**)، فقد حافظوا بشكل ما على العلاقات مع إخوانهم فى الدين فى أماكن بعيدة وحتى فى أوروبا المسيحية أحيانًا (بصرف النظر عن قضية الخزر(٥) بروسيا الجنوبية). كان مركزهم الثقافى الرئيسى فى بغداد غير أن دورهم ظهر أكثر أهمية فى القيروان وجنوب إيطاليا. ففى فترة الفتوحات العربية كانوا متذمرين من البيزنطيين والقوطيين الغربيين إذ كانوا يعتبرون أنفسهم رعايا أوفياء للدول الإسلامية. وبتآلفهم مع الحضارة العربية الإسلامية استطاعوا أن يحققوا أعلى درجة من الازدهار الثقافى فى العصور الوسطى.

حسبنا أن نذكر هنا باقتضاب - على أن نعود لذلك فيما بعد - أن الشرق الأوسط، على الأقل فى مناطقه الحيوية، كان يختلف اجتماعيًا عن الشعوب المجاورة له بارتفاع نسبة تحضره، وبالنشاط المكثف للحرفيين ولتجارته القومية والدولية. ومن المؤكد أن نشاط أغلبية السكان ظل نشاطًا فلاحيًا، لقد كانوا أحرارًا من حيث المبدأ ولكنهم كانوا خاضعين فى الواقع للأرستقراطية البرجوازية العسكرية. وكان ازدهار البرجوازية (فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، والرابع الهجرى / العاشر الميلادى) ذا شأن كبير، ولو لم يصل إلى الحد الذى يمنع فيه الأرستقراطية العسكرية من الاستيلاء الفعلى على الحكومة والبلاد.

ولنذكر فى الختام بإيجاز أن المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى كان مجتمعًا

(*) الربانيون: هذه التسمية تحريف للكلمة العبرية «ربانيم» التى تعنى الإمام أو الحبر أو الفقيه، ويعود سبب هذه التسمية إلى أنهم أخذوا بتفسيرات أحبار اليهود وعلمائهم التى تضمنها التلمود والمشناة، وقد ذكر عنهم أنهم قبلوا تأويل نصوص التوراة، وقد شبههم بعضهم بالمعتزلة (المترجم) .

(**) القراؤون: هى طائفة يهودية اشتق اسمها من الكلمة العبرية التى تعنى «قرأ» وذلك لأنهم لا يؤمنون بغير التوراة المكتوبة التى يمكنهم قراءتها، وبالتالى لم يعترفوا بما جاء فى التلمود، أو غيره من الكتب التى اعترف بها الربانيون، (المترجم)

قائمًا على الرق بشكل مستمر وأشد مما كان عليه الأمر بأوروبا، وينطبق هذا حتى على أوروبا في جزئها المطل على البحر الأبيض المتوسط، وذلك في بداية العصر الوسيط، لكن ينبغي علينا أن نلاحظ أن الاسترقاق المذكور كان حاصلا في البيوت، وميدان الحرف - وداخل الحضر، ولم يرتبط قط بالعمل في الحقول، باستثناء الاسترقاق العسكري الذي اقتصر داخل الشرق على العنصر التركي وحده تقريبًا، ولهذا الاستثناء أهمية. أما بالنسبة للعبيد المدنيين فكانت أغلبيتهم من السود أو الصقالبة، وهؤلاء كانوا يحتلون كذلك وظائف عسكرية داخل الغرب الإسلامي.

شهد القرن العاشر والحادي عشر في كل منطقة الشرق الأوسط ظهور عملية انتشار البداوة التي قد لا تعني زيادة في النسبة العددية للبدو ولا في دورهم الاقتصادي، وإنما تعني تعاظم دورهم السياسي والعسكري، فكان أن تعذر على الأمراء الصغار أمر تكوين جيوش إضافية. أما حمدانيو الموصل وحلب فقد كانوا في منزلة وسطى خلال القرن العاشر، وكان بنو مرادس في حلب والعقيليون في الموصل رحلا بالفعل في القرن الحادي عشر. في هذا المناخ تأسست - في أغلب المدن - كتائب محلية تسمى «الأحداث» وكان لرئيسها سلطة مستقلة تقريبًا في مواجهة الأمير أو الحاكم، وستقود هذه الاستقلالية، فيما بعد، إلى صراعات علنية في ظل الأتراك على نحو ما سنتعرف عليها لاحقًا.

أما الغرب الإسلامي، وعلى الرغم من وجود روابط ثقافية واقتصادية مع الشرق، فقد كان يتمتع بحياة سياسية مختلفة اختلافًا كبيرًا عنه، إذ شهد في إسبانيا فترة كان فيها قويًا في ظل الخلافة في قرطبة، غير أنه في نهاية القرن الحادي عشر تفرق إلى طوائف متنافسة فيما بينها. وكانت منطقة شرق المغرب العربي قد توحدت على يد الفاطميين والمغرب الأقصى على يد الأدارسة، لكن منذ انتقال الفاطميين إلى مصر عادت التجزئة إلى الظهور في هذه المنطقة، وبشكل أشد في منطقة المغرب الأقصى. وعلى الصعيد الديني كان الزيريون(*) الذين أقطعهم الفاطميون قطعًا أرضية لقاء تعهدهم بخدمتهم قد قطعوا علاقتهم معهم بعد فترة من الوقت، وللانتقام منهم أرسلت حكومة القاهرة إلى المغرب بدوًا مقاتلين هم الهلاليون الذي أدى تدخلهم، بالإضافة إلى عوامل أخرى، إلى بداية مرحلة الانحطاط الاقتصادي والسياسي

(*) الزيريون: هم بنو زيري (٩٧١ - ١١٦٧) بربر من (قبيلة صنهاجة) استخلفهم الفاطميون في حكم أفريقية في عهد المعز لدين الله الفاطمي. أولهم زيري بن مناد. ظل بنوه يتوالون على إمارة أفريقية تابعين للفاطميين حتى ولاية المعز بن باديس الذي استقل عنهم وأعلن الخطبة للعباسيين. (المنجد في اللغة والأعلام) - المترجم.

أو اشتداده وتسارعه. وكانت صقلية متروكة لحالها عمليًا، إن الدعاية المنظمة حول الحروب الصليبية منذ بدايتها والجزء الأكبر من الوثائق التاريخية الحديثة التى انبنت على هذه الأخيرة قامت بتشكيل صورة يظهر فيها اضطهاد الإسلام للمسيحية، وقد نقلت إلينا هذه الصورة كحقيقة ضمنية تكاد تكون بديهية. ولا يتعلق الأمر بمناقشة ما إذا كانت تلك حقًا هى قناعة الرجال الذين حملوا الصليب بعد مجمع كليرمون، بيد أن صدقهم لا يكفى لإثبات أنهم لم يرتكبوا أى خطأ، فمن واجب المؤرخ الحديث حينما يظهر له خطأ رؤية من عايش الأحداث أن يفسر أسباب هذا التشويه.

ولا أعرف إذا كان هناك دين لا يعتبره أتباعه أسمى من غيره من الأديان بحيث يتطلب منهم العمل على نصرته. وإذا كانت المسيحية فى بداياتها لم تستخدم إلا الموعظة فإن المسيحية الظافرة فى العصور الوسطى لم تجد صعوبات فى اللجوء إلى الحروب الدفاعية أو حتى الهجومية (منذ شارلمان مع الساكسون) من أجل الحفاظ على الأراضى التى يملكها أصحاب الدين الحق وتوسيعها. وبناء عليه لا يوجد شىء يَسمُ الإسلام بسمة خاصة إذا ما تم تقديمه منذ البداية على أنه دين مقاتل جعل من الحرب المقدسة «الجهاد» فرضًا واجبًا. ليس المطلوب فيما يتعلق بهذا المبدأ كما بالنسبة لمبادئ أخرى أن نشير إليه؛ بل دراسة الكيفية التى تمت بها ممارسة هذا المبدأ عبر التاريخ.

لقد نشأ محمد نبى الإسلام، فى أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع، فى وسط إنسانى بشبه الجزيرة العربية تشرب أفكارًا يهودية ومسيحية فى أشكال شعبية. وعندما سمع كلام الله لم يشك فى أن من تحدث إليه هو إله إبراهيم وموسى وعيسى. فاعتبر أن وحيه إجمالاً هو ذاته الذى تلقاه الأنبياء من قبله (ومن بينهم عيسى) وأنه وحده فقط الذى تلقى الرواية النهائية المكتملة والخالصة من التحريفات التى ألحقها اليهود والمسيحيون بكتبهم المنزلة. فأدرك بصورة فطرية أنه آخر الأنبياء لدين واحد أبدى ولم يعتبر نفسه مبشرًا بدين جديد. صحيح أنه عندما رفض اليهود والمسيحيون الإقرار له بذلك وجد أنه أقام فى وجههم دينًا جديدًا بالفعل. ومع ذلك لم تغب أبدًا عن الإسلام فكرة أن «كتاب» اليهود والمسيحيين كتاب بالغ الصلاحيّة وأن دينهم يشارك فى الدين الحق كما يحق لمعتنقيه أن يكونوا محط احترام لا يستحقه غير المؤمنين كلية. ولا ريب أن النبى حينما أراد فى البداية أن يكوّن قاعدة اجتماعية متناغمة فى يثرب (المدينة) قام بطرد أو تقتيل اليهود الذين رفضوا الاعتراف برسالته وتعاونوا مع خصومه. لكن الإسلام لم يعتبر قط هذا الحادث بمثابة سابقة

يمكن الاستناد إليها خارج «دار الحرب». بل على العكس أقر الإسلام الاتفاقات التى وقعها النبى محمد ذاته بعد ذلك خارج يثرب مع يهود خيبر ومسيحيى نجران الذين ارتضوا أن تكون له السيادة. وكان مضمون هذه الاتفاقات يجعل للسكان الحق فى الاختيار بين الإسلام وبين ديانتهم القديمة ؛ فإذا بقوا على دينهم فقد وجب عليهم الإقرار بالسيادة السياسية للإسلام ولاسيما عن طريق دفع الجزية والامتناع بطبيعة الحال عن مهاجمته، فإذا أقروا بذلك وفقًا لتقاليد الضيافة العربية القديمة حُقَّ لهم أن يتمتعوا باستضافة تعاقدية (الذمة)(٧) تضمن لهم حماية شخصهم وأموالهم وممارسة أديانهم. وإذا لم يكن هذا بالطبع هو التصور الحديث للدولة غير الطائفية الذى لم يكن يدور بخلد أحد من الناس آنذاك فقد كان على الأقل يمثل شكلاً من أرقى أشكال التسامح التى لم يمارسها مجتمع من قبل.

لقد كانت الظروف التى تمت فيها الفتوحات العربية والتى بسطت الإسلام فى بضع سنوات السيادة على أراضٍ شاسعة امتدت من آسيا الوسطى إلى المحيط الأطلسى، تعزيزًا لهذا المسلك. إذ كان يستحيل على العرب، حتى لو أرادوا ذلك، الزعم بأنه يمكنهم، ولعل عددهم كان حوالى مائتى ألف مهاجر، أن يسيئوا إلى أديان عشرات الملايين من البشر الذين ورثوا ثقافات عريقة وراسخة. لم يفكر العرب فى ذلك، بل على العكس، لقد وسعوا مزايا شروط الحماية (الذمة) لتشمل الزرادشتيين وطوائف أخرى أصغر من ذلك. ينبغى الحكم على كل هذا ضمن السياق التاريخى حيث أنه عشية الفتح العربى كان هناك انشقاق داخل العالم المسيحى، وكان أغلب مسيحيى الشرق يعتبرون أنفسهم مضطهدين ومُضايَقين من قبل الكنيسة الأرثوذكسية الرومانية - البيزنطية، ولم يكن المانويون فى إيران أقل تعرضًا للاضطهاد والمضايقة من قبل الكهنة الزرادشتيين التابعين للسلالة الإمبراطورية الفارسية الساسانية. لقد جاء الفتح العربى فجعل منْ يمارس التضييق ومن يتعرض له على قدم المساواة : «لم يكن تحررنا من طغيان الرومان (البيزنطيين) ميزة بسيطة بالنسبة لنا» (٨) كما كتب فيما بعد أسقف سريانى مونوفيزى. ومن جهة أخرى كان هذا الوضع أحد العوامل التى سهلت بصورة غير عادية تحقق أغلب الفتوحات العربية. لقد كان انتشار الإسلام فى غالب الأحيان بمثابة تحرير لسكان البلاد التى وصل إليها ولم يُنظر له قط بوصفه تهديدًا لعقيدتهم. بل لقد وُجد هناك مسيحيون أقروا إلى حد ما بصدق الرسالة التى بلّغها محمد (٩) وذلك على سبيل الإقرار المتبادل.

ومن الثابت أن الجهاد ظل فريضة جماعية على الأمة الإسلامية وليس فريضة فردية.

وقد تم الجهاد فى فترة ما، على جبهات مختلفة بما فيها الجبهات المسيحية وتواصل حتى بعد أن أسهمت المقاومة البيزنطية والكارولنجية فى إيقاف الفتوحات وذلك على شكل غزوات مرحلية لكن ينبغى أن نميز جيداً بين شيئين، أن الهجوم والنهب والقتل حينما يحصل كان يتم ضد من لم يخضعوا للإسلام فى «دار الحرب» بينما كانت تتم الحماية الفورية لمن يستسلم ويدخل فى «دار الإسلام». ومن الإسراف فى الخطأ أن نستخلص من واقع الحرب المقدسة فى الخارج عدم التسامح فى الداخل. فالخلفاء أنفسهم الذين قادوا الحرب المقدسة ضد البيزنطيين كانوا يعينون المسيحيين فى الوظائف الإدارية العليا ويستقبلونهم ضمن حاشيتهم، حتى أولئك المسيحيون من أتباع المذهب اليونانى مثل والد القديس يوحنا الدمشقى، رئيس الطائفة المسيحية الدمشقية، حيث لم يكن أى منهما يجد فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة. أضف إلى ذلك أن الحرب الهجومية المقدسة ذاتها سرعان ما تقلصت، ومع القرن الثانى الهجرى لم تعد تستأثر سوى باهتمام سكان الحدود الذين كانوا أنفسهم يتآخون أحياناً بين هجوم وآخر مع محاربى الطرف الآخر من الحدود. وفى بداية القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) قلما تعلق الأمر بالمقاتلين فى سبيل العقيدة إلا فى آسيا الوسطى فى مواجهة عبدة الأوثان من البدو والنهابين، وهو مظهر جديد من مظاهر الكفاح القديم للإيرانيين ضد الطورانيين، وهو صراع لا علاقة له بالإسلام.

وفى الحقيقة فإن روح الحرب المقدسة قد هبت من جديد لفترة قصيرة على الحدود البيزنطية فى أواسط القرن العاشر، وقد أدت لدى الطرفين إلى ظهور ملاحم فروسية، يونانية وعربية، مشابهة لأنشودة رولان التى ظهرت عندنا(١٠). غير أن ما كان هجوماً آتياً من الجانب البيزنطى اعتُبر بمثابة هجوم مضاد بعد ثلاثة قرون، وكان ذلك فى الواقع نوعاً من الجهاد الدفاعى فى أساسه حتى لو اقتضى الأمر القيام بغزوات كثيفة فى عُقر دار العدو. وفى هذا المجال حقق سيف الدولة أمير حلب الحمدانى شهرة من خلال بطولاته التى تغنى بها شعراء بلاطه. غير أن هذا لم يكن سوى شعلة عابرة، بل نجد على النقيض من ذلك أنه عندما توزعت سوريا فى القرن الحادى عشر بين ولاءات سياسية ودينية عديدة ومتناحرة بشكل دائم لم يظهر أى بلد غيرها بمظهر اللامبالاة الدينية فى المجال السياسى، حيث كانت هناك تحالفات بين بيزنطة المسيحية وهذا الأمير المسلم أو ذاك ضد أمراء مسلمين آخرين. وفى الوقت نفسه كان الفاطميون فى الجنوب، بعد الاضطهاد الاستثنائى الذى مارسه الحاكم بأمر الله (انظر صفحة ١٩) قد منحوا الإمبراطور البيزنطى نوعاً من الحماية على إخوانه فى الدين بالأراضى

المقدسة. وإذا كان القرن الحادى عشر قد شهد تغييراً ما فإن مصدره لم يكن بيزنطة وإنما كان قادماً من أرجاء العالم الإسلامى وآسيا الوسطى والصحراء، وكذلك من خلال المبادرات الأوروبية، وسنتناول هذه المسألة لاحقاً.

وبناء على ذلك كانت أوضاع غير المسلمين، داخل الدول الإسلامية فى حالة لائقة، على أن هذا لم يمنع حدوث دخول شامل للمسيحيين إلى الإسلام لا سيما بين القرنين الرابع والعاشر. ولا يمكننا هنا أن نسهب فى تحليل أسباب هذا التحول، والتى من بينها، الضغط الاجتماعى الطبيعى للأوساط المهيمنة، بلا أى اضطهاد، والذى كان له دور بالتأكيد فى ذلك، بينما سهلت عملية المثاقفة والتداخل الطائفى فى الحياة الثقافية، الانتقال من عقيدة إلى أخرى. وكانت النتيجة بالطبع أن نسبة غير المسلمين لاسيما المسيحيين قد تضاءلت بعد أن كانت نسبة غالبة، وهو ما قلص من ثقلهم، غير أن هذا قد تم بدون حدوث قطيعة، والظاهر أنه لم يكن هناك ما يدفع إلى الاعتقاد بأن المعنيين قد استصعبوا وضعهم عن ذى قبل. ومن المفيد أن نضع نصب أعيننا هذا الاستنتاج حتى نفهم بعض الجوانب من سلوك الشرقيين إبان اندلاع الحروب الصليبية.

ليس هناك ما يدعو إلى أن نكون مثاليين فى نظرتنا للوقائع كما لا ينبغى أن نكون لا تاريخيين أيضاً. فأهل الذمة كانوا يخضعون لمعاملات ذات طابع تمييزى بخصوص الضرائب والمحاكم المختلطة، وكان من مظاهر هذا التمييز المتكرر وغير المجدى فى المعاملة فرض أزياء متميزة أهم مبرراتها تفادى التجسس أو الوقوع فى ممارسات خاطئة مخالفة للقوانين المنظمة للعلاقات بين الطوائف. وكان هناك أيضاً منع تشييد أماكن جديدة للعبادة (وإن كان التحايل ممكناً فى هذه الحالة مقابل مبلغ من المال)، وتجريم شتم الإسلام أو الارتداد عنه للمعتنقين، وكانت عقوبة ذلك هى الإعدام لكنها نادراً ما طبقت، وكان المسلمون فى الغالب يكنون نوعاً من الازدراء الأرستقراطى تجاه غيرهم. غير أنه بالنظر إلى هذه المظاهر وبالمقارنة مع المجتمعات الأخرى المعاصرة لها لا يظهر أن الحياة كانت شاقة بالنسبة للطوائف غير الإسلامية، فمن كان يستطيع الهجرة من المقيمين على الحدود لم يفعل ذلك، كما أن الأمثلة كثيرة بشأن الذين تقلدوا أعلى الوظائف أو الذين حققوا ثروات طائلة بين أهل الذمة مثلما هو الحال بالنسبة للمسلمين. وقد بقيت الثقافة المسيحية سائدة مع بعض الجمود الذى لحقها فى أعقاب تراجع علاقاتها مع بقية أفراد الكنيسة. أما الثقافة اليهودية فقد تطورت وصار العالم الإسلامى بمثابة الفردوس بالنسبة لليهود على الصعيد الثقافى والاقتصادى بين القرنين التاسع والحادى عشر، وما عدا أمور العقيدة لم يكن الأمر يتعلق بمجرد الثقافات المستقلة بذاتها وإنما كان

يتعلق بالإسهام داخل حضارة شاملة ومشتركة يلزم أن نسميها إسلامية لانعدام وجود تسمية أخرى، لاسيما فى الميدان العلمى حيث تآخى الأطباء والعلماء من كل الطوائف، وفى الحياة العامة كانت بعض الطوائف تستأثر بمهن أكثر من غيرها ويتجميع السكان حول أماكن العبادة الخاصة بها... إلخ، لكن لم يكن هناك قط أى نوع من العزل ولا ما يماثل المجبر على الإطلاق. كانت تحدث سورات غضب العامة لكن نادرًا ما كانت تحدث لأسباب طائفية مباشرة، وكانت السلطة تتدخل لإقرار الوضع ولو أدى الأمر إلى أن تفرض ثمن ذلك. وما نجده أحيانًا من تعبيرات الاستياء على ألسنة المسيحيين كانت تستهدف إما سكانًا معينين كالأكراد أو وكلاء الضرائب الذين لم تكن شكوى المسلمين منهم أقل حالاً.

حقاً لقد وُجدت كتابات عن الجدال الدينى بين الطوائف، وصلت لنا عنها نماذج مختلفة[١١]، وقد كان بعض الأمراء والسادة الكبار يستمتعون بتنظيم مناقشات بين علماء الدين كانت نتيجتها معروفة سلفًا، إذ غالبًا ما كان يعمل رجال الدين داخل كل طائفة على تثبيت عقائد رعاياهم وتشجيع أو محاربة اتجاهات تحول الأفراد عن أديانهم وهذا ما يفسر عدم وجود حوار حقيقى؛ فمن كلا الجانبين لم يكن أحد يستعلم حول الغير لمعرفته حق المعرفة من خلال نظرته هو عن نفسه. وكان كل طرف يكتفى بترديد ما يقوله أهل البدع الذين خضعوا لعملية الذوبان الثقافى أو الزعماء المعتمدين من قبل الكنيسة التى ينتمى إليها كل طرف. وإذا ذهب الأكثر وعيًا بعيدًا فإنهم سيقرأون القرآن أو الكتاب المقدس ولا يحفظون من هذه القراءة إلا ما له أهمية بالنسبة لهم وليس بالنسبة للآخر. وفى الحقيقة فإن من النادر أن نجد فى حوزة مسلم كتيبًا يتضمن مدحًا لليهودية أو المسيحية، أو نجد فى حوزة يهودى أو مسيحى كتيبًا يمتدح الإسلام. وبالأحرى أن يصير هذا الأمر مؤكدًا فى المناطق الحدودية حيث يوجد عدد كبير من الكتابات اليونانية – البيزنطية المعادية للإسلام التى استهدفت تقوية عزائم المقاتلين وتشجيع سكان المناطق الحدودية على محاربة خصومهم المسلمين[١٢]. وسنعود فيما بعد إلى بعض الموضوعات التى تدور حولها هذه الكتابات عند الحديث عن عقلية الصليبيين. وحسبنا أن نقول بأن هذه الكتابات لم تكن على صلة كبيرة بالشروط الحقة التى تفترضها العلاقات بين أتباع العقائد المختلفة.

فى هذه الأثناء خلف اضطهاد «أهل الكتاب» وما انتهى إليه من تدمير كنيسة القيامة فى القدس صدىً هامًا لدى الحجاج، وساعد تناقل هذا الحدث فى الغرب على إشعال فتيل

(*) المجبر : هو الحى الذى يجبر اليهود على الإقامة فيه، وهو يقابل اصطلاحيًا الكلمة الإيطالية جيتو (المنهل الوسيط) – المترجم.

الدعاية الصليبية[١٣]، وهو الاضطهاد الذى مارسه الخليفة المصرى الحاكم بأمر الله فى السنوات الأولى من القرن الحادى عشر. وكان عداؤه للمسيحيين ضئيلاً إلى درجة أنه تزوج شقيقة بطاركه القدس والإسكندرية الشقيقين لكن ذات صباح اتخذ إجراءات كان من شأنها أن وضعت أهل الذمة بين خيار النفى أو اعتناق الإسلام أو الموت جوعًا. وبعد ثمانية أعوام علق الحاكم أمر تنفيذ هذه الإجراءات وألغيت بصفة كاملة على يد من خلفه. أضف إلى ذلك أن الحاكم بأمر الله كان مختلاً عقليًا إذ طالب بمنع النساء من الخروج منعًا تامًا ويهجر اللهو البرىء، وحينما تقدمت به السن أعلن أن الله تجسد فيه لذا لا يمكن أن ينظر إليه بوصفه ممثلاً للإسلام الصحيح. وصحيح أن الأسرة الفاطمية الحاكمة التى ينتمى إليها الحاكم بأمر الله كانت تدعو إلى المذهب الإسماعيلى الذى يتسم بطابع خاص، إلا أن الحاكم بأمر الله فهمه فهما خاصًا به وفى الواقع فإن نظام الحكم هذا كان فى مجمله قبل مجىء الخليفة الحاكم بأمر الله وبعده قد بوأ المسيحيين واليهود مكانة هامة فى الإدارة ولقوا ترحيبًا حارًا فى دائرة العلاقات الخارجية إلى درجة أن خصوم هذا النظام كانوا يتهمونه بنوع من التأليف السرى بين العقائد ونبذ الإسلام.

من المؤكد أنه كان هناك فى الإسلام مظاهر للتعصب ولاسيما فى الداخل ومنها إعدام المتصوف الحلاج (فى بداية القرن العاشر) واضطهاد المانويين الذين سعوا لصبغ الإسلام بصبغة مانوية من داخله (فى نهاية القرن الثامن) وكذلك اتخاذ الإجراءات المناهضة لدعاة المذهب الشيعى.. إلخ. وقد ظلت هذه المظاهر والإجراءات نادرة الحدوث مادام أن الانشقاق الدينى لم يأخذ طابع المعارضة أو الانفصال السياسى، بل إن الأوساط الدينية الورعة التى حاولت إرسال القادمين الجدد من الأتراك السلاجقة لشن حملة معادية للفاطميين لم تستطع تعبئة الجماهير ففشل مسعاها.

وهكذا ظلت صورة العالم الإسلامى حتى القرن الحادى عشر صورة مجتمع متعدد الطوائف بشكل متميز، حيث ساد الإسلام سياسيًا واحتفظ بداخله بنسبة هائلة من المنتسبين لمختلف الأديان دون حرج، وذلك فى تآلف من المستحيل أن نجد له مثيلاً آنذاك فى مجتمعات أخرى.

الفصل الثانى

الشرق الأدنى فى القرن الحادى عشر

أفريقيا الغربية

تلك كانت الحالة السائدة فى أواسط القرن الحادى عشر. وفى هذه الفترة ظهرت تحولات متشابهة جزئياً سواء داخل الشرق أو الغرب، نتجت عنها أوضاع جديدة.

فى الغرب الإسلامى قام البربر(*) المقيمون بالتخوم السودانية الصحراوية – وكانوا حديثى العهد بالإسلام – بتشكيل نوع من النظام العسكرى وقد لقبوا بالمرابطين نسبة إلى الرباطات التى كانوا يقطنون بها ومن هنا جاءت تسميتهم بالمرابطين التى أخذناها من الأسبان. وكان أهل الورع فى غرب المغرب العربى الذين أثارهم ما رأوه من انحلال أخلاقى وسياسى داخل مجتمعهم قد استدعوهم للقيام «بعملية تطهير» ضرورية، بدأوا باحتلال المغرب الأقصى، ثم احتلوا جزءًا من المغرب الأوسط وهكذا أصبحوا مجاورين لأسبانيا، غير أن الطباع الخشنة والمتشددة، للمترهبنين الحديثى العهد كانت تنفر منهم ذوى الإحساس المرهف، هنا كذلك كان كثير منهم يعانون من حالة شبه الفوضى السياسية، وبفضلها شرع المسيحيون بالشمال فى العملية الظافرة للاسترداد المسيحى لأسبانيا كما سنتبين ذلك. ومن بين خطرين كان لابد من اختيار الأهون شراً، لذلك تم استدعاء المرابطين الذين قاموا بسحق الفرنجة وأعادوا توحيد المناطق الإسلامية بشبه الجزيرة الايبرية لصالحهم. وهكذا ظهر من جديد شكل من أشكال الإسلام القتالى ردًا على الروح القتالية الجديدة للمسيحية.

لقد تركت أحداث شمال افريقيا انعكاسات بعيدة المدى؛ فالأفول الاقتصادى للبلاد وما نتج عنه من حرمان سكان مناطق الساحل من مصادر معينة لتجارتهم، أرغمهم على ممارسة القرصنة خلافاً لما حدث لبعض الإيطاليين والاسبان من قبل(١). ومن ثم استشعر الإيطاليون ضرورة إنشاء شرطة بحرية، وفى الوقت نفسه، ونظرًا لتعذر الحصول من داخل المغرب على المنتجات التى كانت تجلبها القوافل والأساطيل البحرية القادمة من مصر، شعر الإيطاليون بالرغبة فى الذهاب لجلبها مباشرة من الشرق. على أن هذه الرغبة قد أحس بها يهود

(*) البربر : اسم يطلق على سكان أفريقيا الشمالية من برقة إلى المحيط، الذين يتكلمون لهجات أعجمية قبل استعرابهم يرجع أصلهم إلى فئات عرقية مختلفة استقرت فى البلاد قبل الميلاد.. كان منهم الأغالبة والرستميون والمرابطون والموحدون ثم زالت دولهم فى أواخر القرن الثالث عشر فاختلط أهل المدن منهم بالعرب وأعتصم الآخرون فى جبال الأوراس والأطلس وفى الريف وبلاد القبائل والصحراء حيث لايزالون حتى اليوم وقد حافظوا على عاداتهم ولهجاتهم، والجدير بالذكر أن هناك مدينة تدعى بربر فى السودان بين دنقله الأوردى والخرطوم، المنجد فى اللغة والأعلام (المترجم).

القيروان، قبل الاجتياح الهلالى، فنقلوا تدريجيًا مراكز نشاطهم فى اتجاه مصر من جهة وجنوب إيطاليا من جهة أخرى (٢)، وقد حذا الإيطاليون حذوهم فى هذا السبيل، وسرعان ما حلوا مكانهم.

أما فى الشرق فقد امتدت التحولات إلى مجالات أكثر اتساعًا وانتهت إلى نتائج أكثر تعقيدًا. فى هذه المنطقة كان الأتراك يمثلون عنصرًا جديدًا، ولا نعنى بهم أولئك الذين انخرطوا فى الجيش منذ قرنين ولم يحافظوا على أية رابطة مع شعوبهم الأصلية وظلوا على وثنيتهم يتنقلون فى السهول بوسط آسيا، وإنما أعنيا شعبًا تركيا هو الأجوز(*) الذى أطلق عليه فى العادة لقب التركمان، وكانوا هم أيضًا حديثى عهد بالإسلام، واستقروا قبل فترة قصيرة فى بلد إسلامى تقليدى، وسلموا السلطة فيه لقادتهم السلاجقة. لقد عرف هؤلاء كيف يعتمدون على العناصر المحلية الأرثوذكسية التى كان التفكك السياسى ولاسيما الطائفى للإسلام فى المشرق يستثير غضبها. وبفضل الوحدة القائمة بين القوة العسكرية الممثلة بالتركمان والأرستقراطية الإيرانية «الأرثوذكسية» اتسعت رقعة إمبراطورية السلاجقة بسرعة داخل جميع أنحاء إيران ثم فى العراق وقضت على البويهيين الشيعة فى سنة ١٠٥٥ للميلاد، وقبل ذلك طردت الغزنويين باتجاه الحدود الهندية. وحينما خلع الخليفة على طوغرل بيك لقب السلطان و«ملك الشرق والغرب» فوض إليه مهمة إتمام الوحدة السياسية والدينية لآسيا الإسلامية والتصدى بعد ذلك للخلافة الفاطمية المناوئة فى مصر. ومع ذلك فإن حربًا كهذه كانت قليلة النفع للتركمان داخل بلاد مناخها شديد الحرارة بالنسبة لدوابهم وسياستها مانعة لعمليات النهب المفرطة. وفى المقابل جذبتهم الهضاب الأناضولية وقبلها الهضاب الأرمينية التابعة للإمبراطورية البيزنطية، حيث كانت غزواتهم تتوافق مع مفهومهم المبسط عن الحرب المقدسة الذى أخذوه فى آسيا الوسطى عن المسلمين الذين حاربوهم عندما كانوا مشركين. وخوفًا من أن يستقل التركمان فيتعذر تسخيرهم، عمل السلاجقة على تشجيعهم على انتهاج هذا السبيل، فازدادت حظوتهم لدى من بقى من المسلمين المحليين يستشعر، من المسلمين المحليين، ذكريات الجهاد وما مضى من البطولات الغابرة، وهكذا بدأت سيرورة التغلغل التركى فى آسيا الصغرى، الذى تيسر بفعل الصراعات الداخلية بين الأرمن واليونانيين من جهة والبيزنطيين أنفسهم من جهة أخرى. وعندما قام السلطان ألب أرسلان فى

(*) الأجوز أو الغُزّ: قبيلة تركية رحلت من أواسط آسيا نحو الغرب منذ القرن التاسع. منها انحدر أحمد بن طولون. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

عام ١٠٧١ بإبادة جيش الإمبراطور رومانوس ديوجين الرابع فى موقعة ملاذجرت(*) لم يعد هناك ما يحول دون استيطان التركمان داخل البلد الذى قضوا فيه قضاءً مبرمًا على النظام البيزنطى بمجرد الاختلال الذى ألحقوه به ومن دون خطة محكمة، ولم يكن الهدف بالنسبة للسلطان الذى كانت إمبراطورية روما بالنسبة إليه نوعًا من الكيان الأبدى الذى لم يكن يجوز لأحد أن يفعل أكثر من المجادلة بشأن حدوده، كما لم يكن الهدف كذلك بالنسبة للتركمان، الذين لم تكن لديهم فكرة واضحة عن إقامة دولة خاصة بهم، هو الاستيلاء على آسيا الصغرى، مع أن ذلك هو ما حدث فعلاً باستثناء الشواطئ لفترة مؤقتة.

أما بالنسبة للصراع المناهض للفاطميين فلم يكن قد تجاوز سوريا - فلسطين، وقد صارت، على الأقل، كل بلاد ما بين النهرين وسوريا - فلسطين باستثناء الموانىء (ميناء طرابلس كان مستقلاً، والباقى كان للمصريين) تابعة منذ ذلك الحين للإمبراطورية السلجوقية، وفى مواجهة التساهل الطائفى الذى شاع آنفًا فى البلاد المفتوحة شرع السلاطين السلاجقة فى تنفيذ عملية إعادة بناء عقائدى مستقيم كان يرتكز على التشجيع المادى للمدارس التقليدية والمساجد والخانقات التى بدأت آنذاك فى الظهور أكثر من ارتكازه على الاضطهاد. على أن إحدى هذه الجماعات قامت بتنظيم المقاومة على نحو إرهابى، يلزمنا التطرق إليه بشىء من المداورة. ففى مصر انقسم الفاطميون إلى أنصار لاثنين متنافسين، فكان الإسماعيليون الإيرانيون ضد الغالب، وظلوا أوفياء لنزار المهزوم، وأسسوا مذهبًا جديدًا، وقاموا بالخصوص باستحداث أشكال من العمل الملائم للظروف فى مواجهتهم للسلاجقة. وبعد أن تجمعوا فى شمال إيران حول قلعة «ألموت»(***) انتهجوا سياسة معادية للسلاجقة وللأوساط التقليدية حيث لعب الاغتيال فيها دورًا كبيرًا بحيث أطلق عليهم عامة الناس لقب «الحشاشين» أى شاربو الحشيش، و«القتلة». وقد أسسوا فى شمال سوريا جماعة فرعية لها أهميتها وذلك إبان وصول الصليبيين.

(*) ملاذجرت : كانت تسمى قديمًا مانتزيكرت، تقع شمال شرقى تركيا، وقعت فيها معركة شهيرة انتصرفيها السلجوقيون بقيادة ألب أرسلان على البيزنطيين عام ١٠٧١م. (المترجم)

(**) يتعلق الأمر بتمرد نزار ابن الخليفة المستنصر الذى استبعد لصالح شقيقه المستعلى راجع توضيحًا لذلك فى الهامش رقم ثلاثة المتعلق بالوثيقة الخامسة بالملحق (المترجم).

(***) الموت: حصن فى جبال ألبُرز شمال غربى قزوين. كان قلعة الإسماعيلية، بناه حسن الواعى ٨٦٠ واحتله حسن الصباح وجعله مركزًا لقيادته ١٠٩٠. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

وفى عهد ملكشاه، الذى خلف ألب أرسلان، ووزيره الأعظم نظام الملك، وصلت رقعة الإمبراطورية إلى أقصى مداها، كما عرفت درجة من التنظيم السلمى لم تشهدها هذه البلدان منذ أمد طويل. بيد أن هذه الإمبراطورية كانت تتضمن مثل غيرها بذور ضعفها، فمنذ موت ملكشاه (١٠٩٢م) بدأت سيرورة الانحلال التى أدت إلى تفكك شبه فوضوى قبيل وصول الحملات الصليبية خاصة فى المناطق الخارجية مثل سوريا التى أدركتها تلك الحملات. وقد قام أقارب السلطان الأعظم بمعارضته مما اضطرهم للانشغال عما يجرى بعيدا عنهم وتقديم التنازلات التى كانت تضعف كثيرًا من حكومة الإمبراطورية لقاء أتعاب معاونيهم من الضباط، وعلى إثر ذلك تقريبًا أحرزت خوراسان مع ملحقاتها (الشمال الشرقى لإيران وآسيا الوسطى) استقلالاً ذاتيًا وكذلك فعل تركمان آسيا الصغرى حسب طريقتهم التى لم تكن تتضمن بعد الشكل التنظيمى للدول الحقيقية. وفى أعالى بلاد ما بين النهرين حصل حكام الموصل على استقلال جزئى، ومع ذلك لم يتمكنوا من منع مجموعة من القادة التركمان من الاستقرار فى الحوض الأعلى لنهر دجلة، حيث أخذ الأراتقة يظهرون بينهم شيئًا فشيئًا.

وفى سوريا تنازع أبناء شقيق ملكشاه، رضوان ودقاق، هذا الأخير كان حاكمًا على دمشق وذاك على حلب، وأقام العديد من كبار الضباط الأتراك أو بعض السادة العرب لأنفسهم إمارات صغيرة أو أعادوا تشكيلها من جديد كما حدث فى حمص والقدس. وكانت هذه الأخيرة لفترة فى يد الأراتقة الذين أتينا على ذكرهم آنفًا، أو فى طرابلس كذلك التى كانت فى يد القضاة الشيعة بطرابلس. وإذا كانت بيزنطة فى وضع لا يسمح لها بالاستفادة من هذه المشاجرات كى تستعيد سلطتها فى سوريا فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لرعاياها القدامى من الأرمن الذين كونوا لأنفسهم ما بين سوريا وبلاد ما بين النهرين العربية وآسيا الصغرى التركية وكل جبال الطوروس مناطق مستقلة عمليًا وهى تضم الرها وملطية(*). إضافة إلى ذلك كان الفاطميون يمتلكون موانئ النصف الجنوبى للشاطئ السورى - الفلسطينى، وفى عام ١٠٩٨م أعادوا إحكام سيطرتهم على مدينة القدس على يد الصليبيين، ولعل الاعتقاد السائد لديهم أن أطماع هؤلاء كانت أقل استهدافًا لمدينة القدس من أطماع الحملات البيزنطية السابقة.

(*) ملطية: مدينة تقع بالقرب من معبر الفرات إلى جبال طوروس، وقد سميت قديمًا مدينة ملطين. ولد فيها المؤرخان البطريرك ميخائيل السريانى (١١٢٦ - ١١٩٩) وغريغريوس ابن العبرى (١٢٣٦ - ١٢٨٦). (المترجم).

وسواء خضع المسلمون للهيمنة «العربية» التقليدية أو للأنظمة الجديدة ذات السيادة التركية فإنهم – وإن كان عددهم قد أخذ في الازدياد في معظم المناطق باستثناء آسيا الصغرى – ظلوا مجاورين لرعايا غير مسلمين مثل بعض اليهود في معظم المدن والزرادشتيين المقيمين في إيران وخاصة المسيحيين، وهو ما يهمنا هنا وهم كثر في الهلال الخصيب بكامله (سوريا وبلاد ما بين النهرين والعراق) ومصر وآسيا الصغرى. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هؤلاء المسيحيين لم يكونوا ذوى انتماء كنسى واحد بخلاف الصليبيين الأوائل، ولم تكن أية طائفة منهم تابعة لروما. وكانت الأغلبية العظمى من المسيحيين داخل الإمبراطورية البيزنطية تنتمى للكنيسة الرسمية للقسطنطينية التى كانت عقيدتها تتطابق مع عقيدة الكنيسة الرومانية باستثناء «مبدأ الفيليوك»(*) الذى يشوبه الغموض لدى هذه الأخيرة. وقد كان تنظيمها يختلف عن نظيرتها فى الغرب اللاتينى كما أن نظامها البطريركى كان قد قطع علاقاته مع النظام البابوى سنة ١٠٥٤م فى ظروف لم تكن بلا ريب أشد خطورة بالنسبة لمعاصريها من مناسبات سابقة عديدة، ومع ذلك فقد ترتب عنها انشقاق لا زال قائمًا إلى اليوم، ورغم الانفصال السياسى فقد وجد كذلك مؤمنون ذوى شعائر يونانية، وهم الملكيون فى مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين، غير أن أغلبهم (حتى فى مقاطعة شمال سوريا بأنطاكية التى استعادها البيزنطيون) قد تعربوا لغويًا، وصاروا يخضعون إلى بطاركة الإسكندرية وأنطاكية والقدس، وكانوا متساوين فى المرتبة مع بطريرك القسطنطينية وأكثر تحفظًا منه فى مسلكهم إزاء روما التى أصبح يأتى منها الحجاج، بل وحتى التجار، بأعداد كبيرة. على أن أكبر عدد من مسيحيى الشرق كانوا تابعين لكنائس أخرى انفصلت عن روما وكذلك عن القسطنطينية منذ زمن بعيد. ولنوجز الكلام عن الموارنة الذين تجمعوا فى لبنان على إثر هجرة خفية واستقروا فيها إلى اليوم. وباستثناء الموارنة ظل النساطرة مقيمين فى العراق وآسيا الوسطى، وقد وجدت دائمًا فى المناطق الممتدة من أرمينيا حتى مصر ثلاث كنائس متفقة تقريبًا فى طابعها المونوفيزى وهى الكنيسة الأرمينية القومية التى انفصلت عنها كبار الشخصيات التى كانت مع

(*) الفيليوك : تعنى حرفيًا «والابن» وهى بدعة ظهرت لمعارضة القوط الغربيين الذين تأثروا بالأريوسية التى تنكر وحدة جوهر الأقانيم الثلاثة، لذلك ظهرت هذه البدعة التى تقول بانبثاق الروح القدس عن الآب والابن وانتشرت فى البداية فى بلاد الغال (فرنسا) وجرمانيا، وأقرها شارلمان، كما سمح البابوات باستخدام هذه الإضافة الرمزية غير أنهم رفضوا إقرارها قبل القرن الحادى عشر، وكانت موضع خلاف بين المسيحيين الشرقيين والبابوية (المترجم) .

ذلك تطمع فى شغل مناصب فى بيزنطة فانضمت إلى الكنيسة اليونانية، والكنيسة اليعقوبية السريانية اللغة ممثلة بصفة خاصة لدى الساميين الذين استعربوا على نطاق واسع فى بلاد ما بين النهرين (بما فيها منطقة ملطية فى الأناضول الشرقى) وسوريا، وأخيراً الكنيسة القبطية المصرية التى تعربت بشكل كامل حتى فى لغتها الدينية وذلك منذ القرن العاشر. لقد ظلت هذه الكنائس معادية للكنيسة البيزنطية ومن ثم كانت تقبل بالخضوع لسيادة المسلمين أو حمايتهم، كما كان الأمر بالنسبة لأرمينيا الشرقية. وحتى المناقشات المذهبية اللاحقة وفقدان جزء من أتباعهم الذين انجذبوا نحو الإسلام لم يؤثر فى محو العداوة المستحكمة إلا قليلاً، ولم يكن من شأن المنازعة التى أبدتها الكنيسة البيزنطية فى تصرفها (ولا أتحدث بالطبع عن روما التى كانت غائبة ويتم بالفعل تجاهلها) داخل المقاطعات التى تم استعادتها بآسيا الصغرى وسوريا فى القرن العاشر والحادى عشر، ليساعد على إقرار المصالحة، فالمضايقات بشأن الشعائر وتوزيع ممتلكات الكنائس والاعتقالات والاضطهادات التى لحقت فى بعض الأحيان القادة الأرمن والمونوفيزيين أشاعت مناخًا ظهرت دلالته واضحة تمام الوضوح أثناء الغزو التركى. وأغلب الظن أنه حتى فى مدينة القدس استفاد اليونانيون من الحماية التى مارستها بيزنطة فى القرن الحادى عشر على مسيحيى هذه المدينة أكثر من السكان المحليين أنفسهم. وبما أن الصليبيين وصلوا إلى الشرق غداة الغزو التركى وكانت أوروبا فى القرن الحادى عشر قد تعودت على أن تنظر للأتراك على أنهم يضطهدون الشعوب المسيحية، فقد أصبح تقليديًا أن يعزى إليهم تفاقم مصير المسيحيين مما قد يكون السبب فى نشوب الحروب الصليبية. ونظراً لما كان عليه مسيحيو الشرق من تعاسة فى ظل الإسلام العربى فلم يكن ليتحقق خلاصهم دون تدخل الغرب، ويستند هذا التأكيد على ما حصل من التباسات ربما حان الوقت لتبديدها الآن بعد مرور تسعة قرون.

ومن الوجهة التى ننظر من خلالها الآن ينبغى التمييز بين ثلاث فئات من المسيحيين : المسيحيون فى آسيا الصغرى، ومسيحيو البلاد التى كانت خاضعة للسيطرة الإسلامية ثم انتقلت آنذاك إلى أيدى الأتراك، وأخيراً الحجاج الغربيون فى الأراضى المقدسة. بالطبع لا أحد يعترض على أن الغزو التركى قد شكل محنة اتخذت أحيانًا صيغة مأساوية بالنسبة للسكان المسيحيين فى آسيا الصغرى، ولكن ينبغى تسجيل ثلاثة تحفظات على هذا الرأى : أولاً أن التركمان لم يحسنوا التصرف إلا نادراً مع إخوانهم فى الدين من العرب أو الفرس، وثانيًا أن خصائص فترة الفتح لا تنسحب على فترة الاستقرار، وأخيراً فإن ثمة مجالاً للتمييز

بين الكنيسة البيزنطية وغيرها من الكنائس التى لم يكن أتباعها حتى أثناء محنتهم يستقبحون «العقاب» الذى وقع على الكنيسة البيزنطية. وفى اللحظة التى كان يتم التبشير فيها بالحروب الصليبية كانت مرحلة الغزو لا زالت قائمة بالرغم من أن الأمور كانت تنزع نحو الاستقرار خارج الحدود. ترى ماذا كانت الحصيلة فى هذه الفترة ؟ لقد تم طرد الطبقة الكنسية البيزنطية كلها تقريباً لأسباب لا تعود للقرار المتشدد من قبل الغزاة بقدر ما تعود إلى استصعابها العيش وامتلاكها وسائل الانسحاب خلف السواحل اليونانية. وقد مكث القساوسة والرهبان والمؤمنون بالطبع يمارسون عبادتهم، وذلك فى آسيا الصغرى الغربية والوسطى (إقليم الكابادوس الغربى حيث لاتزال هناك «الكنائس المغارية» الشهيرة).

بيد أن فى الشرق من الكابادوس الشرقى كانت آسيا الصغرى تابعة فى غالبيتها للكنيسة الأرمينية القومية، بينما فى منطقة ملطية وأقصى طوروس والفرات الأوسط وأعالى بلاد ما بين النهرين (ديار بكر) كانت تتبع الكنيسة اليعقوبية المونوفيزية. وبعد مرور عاصفة الغزو تصالح المسيحيون هناك مع الغزاة الذين كانوا يحمون المسيحيين على طريقتهم ويُخلصونَهم فى كل الأحوال، من مضايقات الكنيسة البيزنطية القديمة، مع ما بقوا عليه من الفظاعة والمقاتلة والشدة المستحكمة فى بعض الأحيان. ونحن نعلم بالطبع أن رهباناً سريانيين منتمين إلى منطقة مرعش على الأرجح قد التجؤا إلى مصر حيث وجدوا بها مهاجرين قدامى وذلك أثناء الحرب بين القائد الأرمنى المحلى فيلاريت والأتراك التابعين لسليمان بن قتلمش، غير أن الغالبية العظمى ظلت مقيمة هناك واستقرت بعد تلك الفاجعة كما أظهر تعاقب الأحداث. وبرغم أننا لا نملك أمثلة دقيقة إلا فيما يتعلق بأنطاكية فإنه من المحتمل أن المسيحيين من الأهالى قد استفادوا فى حالات مختلفة من اندثار الكنيسة اليونانية من حيث أن المعابد التابعة لها أسندت إليهم بعد ذلك بواسطة السادة الجدد عن طريق حساب سياسى بسيط ولم تتحول إلى مساجد. وكان هناك وعى واضح بهذه الوقائع فى القسطنطينية لدرجة أن المسيحيين غير اليونانيين بالأناضول، الذين غامروا بأنفسهم بداخلها، كانوا يعاملون معاملة المشتبه فيهم(٤).

ولننتقل الآن إلى البلاد التى أسلمت منذ فترة بعيدة، بما فيها بالطبع سوريا - فلسطين، حيث استفاد بالفعل بعض المسيحيين من الأفول البيزنطى. وبما أن فاتح القدس إتسز لم يستطع تعيين قائد مسلم على هذه المدينة لاحتمال أن يشتبه فى تعاطفه مع الفاطميين فقد نصب عليها أحد اليعاقبة. وفى عام ١٠٧٦ أغرق إتسز إحدى التمردات بالقدس فى حمام

من الدم وكان ضحاياه من المسلمين خلافًا لما يشاع عادة، أما المسيحيون فلأسباب خاصة بالسمات التى لها صلة بالعلاقة بين الطوائف داخل المدينة كانت الحكومة الفاطمية قد حشدتهم بصفة استثنائية فى حى خاص مثلما فعلت باليهود فلم يتعرضوا للقتل. حتى البطريرك اليونانى سيميون الذى لم يكن ممثلاً للسلطة الزمنية لبيزنطة خلافًا لأقرانه فى آسيا الصغرى كان قد سُمِحَ له بالبقاء فى القدس. كما نجد مؤلفًا قبطيًا معاصرًا للأحداث، صاحب كتاب «تاريخ بطاركة الإسكندرية» (وهو كتاب جماعى لحقته إضافات من جيل لآخر) يمجد القائد إتسز، وهو أمر يثير الانتباه بمقدار تذمره بعد ذلك من الصليبيين.

صحيح أن الأتراك رفضوا الإيمان بمعجزة النار المقدسة التى كانت تهبط من السماء فى كل عام خلال أعياد القيامة لتضىء سراجًا فى كنيسة القيامة، غير أنه بعد مجىء الفرنجة تأخرت المعجزة مدة عامين قبل أن تعاود الظهور تحت التهديد. لقد صدم الأرتق المشاعر المسيحية عندما رشق سهمًا فى سقف كنيسة القيامة، لكن هذا ينبغى أن يُفْهَم بالأخص على أنه طريقة تركية تقليدية للدلالة على إحكام السيطرة ولا يُحمل محمل الاحتقار الدينى أو التعصب(٥).

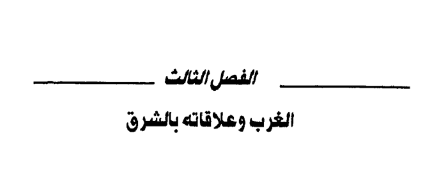
وبشكل عام فإن أوضاع المسيحيين، فى كل البلدان المندمجة داخل إمبراطورية السلاجقة، كانت طبيعية. وكان مسلك التركمان موضع تذمر الجميع مسلمين وغير مسلمين، لكن تنظيم أمور الحكم قد تم فورًا على وجه التقريب، كما أن السلاجقة ذوى الاستقامة والنباهة جعلوا من أنفسهم حماةً للذود عن الشريعة الإسلامية بما تشتمل عليه من وضعية قانونية لغير المسلمين. وإذا كان هناك ما ينم عن التعصب فينبغى أن نذكر بأنه لم يكن موجهًا ضد المسيحيين بل ضد الإسماعيليين فى الداخل والخارج، وبشكل أقل تشددًا ضد الشيعة العاديين. ولن يدعى أحد بأن النفوذ المسيحى فى نهاية القرن الحادى عشر كان لا يزال كما كان عليه فى القرن التاسع، إذ أن الفترة الوسيطة كانت قد تميزت بتحول اعداد كبيرة من المسيحيين إلى الإسلام بحيث صار المسيحيون بعد ذلك قلة. فكانت الحاجة إلى استخدامهم فى الإدارة وغيرها قد تناقصت على العكس مما حدث بالنسبة للأقباط فى مصر. لكن نادرًا ما كان هذا الأمر موضع اهتمام عامة الناس ولا يجوز أن ينسب إلى التعصب من جانب الأتراك. أضف إلى ذلك أننا نتحدث بالطبع عن العراق وبلاد ما بين النهرين، ففى إيران لم يكن هناك مسيحيون غير أن هذا المنطق المعمول به ينطبق على الزرادشتيين.

على أية حال إذ كانت فترة حكم أوائل كبار الفاتحين السلاجقة التابعين للإمبراطورية

وهمـا طغـرل بك وألب أرسـلان قد تضمنت التقلبات والصعـوبات التى تتميـز بها كل فترات الحروب وتكون الحدود فيها غير مستقرة فإن فترة حكم الفاتح السلجوقى الثالث ملكشاه (١٠٧٣ – ١٠٩٢) ووزيره المعروف نظام الملك كانت فترة تنظيم مستقر تلتها مباشرة الحروب الصليبية. وربما تم تضخيم مزايا هذه الفترة بالنظر إلى ما سبقها من قلاقل نقيضة لها، بيد أنها مزايا يصعب أن تكون وهمية. وما هو جدير بالانتباه أن يوجد ثناء مماثل لدى الكتاب المسلمين والمسيحيين، فهؤلاء كانوا يكتبون بلغات قلما يجر الإفصاح الصادق بها خطراً عليهم. ربما ترك الأسـلوب التفخيـمى للمؤلفيـن الأرمن مثل متى الرهاوى وسـاركافاج (فى حوليـات صموئيـل الأنوى) وإتيـان أوبيليـان، انطباعـاً بالمبالغـة، لكن النغـمة هـى ذاتها عند ميخـائيل السورى والنسطورى عمرو بار صليبا (باللغة العربية عند هذا الأخير) حيث يتم الثناء على شيم النظام والأمن والعدالة السائدة بالنسبة لكل الطوائف بالتساوى(٦). صحيح أنه بعد موت ملكشاه مزقت الشجارات الداخلية وحدة الإمبراطورية، لكنها لم تفسد أوضاع غير المسلمين ولم تتخذ أى طابع معاد للمسيحية. فى سنة ١٠٩٧ سجن الأتراك يوحنا بطريرك أنطاكية اليونانى وفى سنة ١٠٩٩ قام المصريون، الذين استعادوا القدس، بنفى البطريرك سيمون وغيره من الأعيان الملكيين، غير أن الصليبيين فى كلتا الحالتين كانوا على أبواب المدينة، فلا يجوز النظر لهذه الإجراءات إلا من زاوية الاحتياطات المبدئية. إذ أن من الثابت أن مسيحيى الشرق من غير اليونانين لم يطلبوا أية استغاثة من الغرب ولم يرد ذكر أى شىء من هذا القبيل فى الرسائل المتبادلة بين البابا جيرجوار السابع والبطريرك الأرمنى المعاصر له والتى كانت تهدف إلى عقد روابط الصداقة على حساب الخصم اليونانى المشترك. وفضلاً عن ذلك فإن الشرقيين المنتمين إلى منطقة النفوذ البيزنطى رغم تعارفهم لبعض الوقت مع المرتزقة النورمانديين المنخرطين فى الجيش البيزنطى فقد تعذر عليهم التفكير فى إرسال جيش حقيقى من الغرب حتى لو كان لديهم ما يدعو للرغبة فى ذلك. وإذا كنا نعثر دائمًا على مراثى صيغت فى قوالب معروفة هناك حول سيطرة الكفار فلا شىء يدعو للاعتقاد فى أن تكون هذه المراثى قد أخذت مظهراً بارزًا يحيل إلى صنوف جلية من المعاناة. من المحقق أن الغرب كان يستقبل رهبانًا فلسطينيين لجمع الصدقات واستثارة شفقة من يستمع إليهم من الناس، غير أن تلك كانت ممارسة قديمة تعمقت غداة تدمير الحاكم بأمر الله لكنيسة القيامة ولا صلة لها باستبداد الأتراك. وكان الدعاة البيزنطيون هم وحدهم الذين يثيرون الوقائع الحديثة والدقيقة وهذه قضية ثانية. ومع الغزو التركى فقد تعذر بطبيعة الحال مرور الحجاج الغربيين عن طريق آسيا

الصغرى أو كاد، وذلك فى الوقت الذى كان لاعتناق المجريين المسيحية أثر فى تفضيلهم السفر براً وليس بحراً لاسيما بالنسبة للألمان. ومع ذلك لا ينبغى أن نبالغ فى نتائج هذا الحدث، لأن الوضع فى فلسطين لم يكن سيئاً إلى هذا الحد، فكان بمقدور المرء أن يذهب إليها بحراً، وكما رأينا فقد انتزعت فلسطين من أيدى الفاطميين سنة ١٠٧١ من قبل القائد التركى المستقل إتسز وضمت سنة ١٠٧٩ إلى الإمبراطورية السلجوقية التى كانت حكراً على الأمير تُتُش، وفى سنة ١٠٨٦ أقطعها هذا الأخير للقائد التركى أرتق الذى كان يعمل منذ زمن طويل فى خدمة السلاجقة. ولا ننكر أن أول مجىء للأتراك تسبب وقتها فى معاناة أهل البلد، غير أن النظام سرعان ما استتب. وأغلب الظن أن القوة التركية الجديدة قد ساعدت على إرجاع البدو إلى صوابهم هم الذين كانوا العامل الرئيسى فى انعدام الأمن لفترات طويلة قبل مجىء الأتراك. ومن الغريب أن بعض المؤلفين الجادين قد جعلوا الفتوحات التركية سبباً للحوادث المزعجة التى تعرضت لها رحلة الحج الكبرى التى قام بها الألمان عام ١٠٦٤ وأكدوا أن إدراك مخاطر المرور ربما حرض أفراد هذه الحملة على تنظيم أنفسهم فى شكل جماعى ضخم على النحو الذى تميزت به، إضافة إلى أنه حتى الوصف التاريخى للحج(٧) يُفهم منه أن ضخامة فرقة الحجاج والتباهى الفاحش لدى بعض رجال الكنيسة بثرواتهم قد فتّح شهية البدو لمهاجمتهم، وعلى أية حال لا يتعلق الأمر فى عام ١٠٦٤ سوى بالبدو، حيث أن الأتراك الأوائل لم يظهروا فى هذه المنطقة إلا فى عام ١٠٧١، والمسؤول الحقيقى عن ذلك، إن كان ثمة مسؤول، هو الدولة الفاطمية، وذلك لا يرجع بطبيعة الحال إلى إرادتها فى مهاجمة الحجاج حيث كانت تستفيد من الضرائب التى فرضتها عليهم ولكن يرجع إلى عجزها عن المحافظة على الأمن فى مقاطعاتها الخارجية، لذلك فإن الدرس المستفاد، خلافاً لما يقال، لم يكن إلغاء الحج، بل القيام به بكثير من الكتمان. وإذا قصرنا الحديث عن الفترة التركية واستحضرنا ضآلة الوثائق(٨) فإننا نعرف أمثلة كثيرة عن رحلات الحج وهى كلها تكفى لإثبات أنها لم تختف ولكنها كانت تتم، فى جزء منها، عن طريق البحر، أو انطلاقاً من القسطنطينية بالنسبة للحجاج الغربيين. لم يكن الغزو التركى لسوريا قد وصل للموانىء إلا بصفة استثنائية، غير أن لدينا مثالاً لسفينة من مدينة البندقية قادمة إلى أنطاكية فى الفترة التى تلت استيلاء الأتراك على المدينة، كما أن بيوت ضيافة الحجاج الأمالفيين المخصصة لمن كان يُزاوج منهم بين الحج والتجارة مع البلاد المجاورة ظلت تشتغل بالفعل تحت سيطرة الأتراك كما كان الأمر سابقاً، وليس من المستبعد أن زوال الحماية البيزنطية كان مفيداً للحجاج غير البيزنطيين مثلما كان الحال بالنسبة

للمسيحيين المحليين. إن الأصداء التى نجدها فى الكتابات الغربية غالبًا بعد الحروب الصليبية حول سوء المعاملة التى ربما عانى منها الحجاج تثير بعض السخرية؛ فأحيانًا كان الأمر يدور حول الأقاويل التى تشاع كما هو الشأن فى كل العصور حول أتباع الديانات المنافسة وأحيانًا أخرى تكشف الشكاوى أن الغربيين لم يكن لهم أدنى فكرة عن المتطلبات التى تقتضيها الدولة المنظمة إداريًا. من المقبول أن يتحرج الحجاج المعدمون الذين قدموا إلى المدينة المقدسة من دفع الرسوم الواجبة، لكن كان ينبغى عليهم دفع رسوم مماثلة لعبور الإمبراطورية البيزنطية، وليس ثمة ما يدفعنا لنرى فى ذلك دلالة على عدم التسامح. وفضلاً عن ذلك فإن الحالة الأكثر إيلامًا مما نعرفه، وهى حالة الحجاج الذين منعوا من دخول الأراضى المقدسة لعدم توافر المال لديهم، كانت معاصرة لحج الكونت فولك الأنجى وذلك قبل حوالى ثلثى قرن من ظهور الأتراك فى هذه المنطقة. ولم يتحدث أى كاتب شرقى مسلمًا كان أم مسيحيًا عن سوء المعاملة التى لقيها الحجاج. وعندما ألمح إلى ذلك بشكل عام أحد المسلمين المجاورين للفرنجة واسمه العزيمى بصدد تفسيره للحروب الصليبية فإنه كان يحيل بالطبع إلى ما ذكره الفرنجة له أو لحمدان بن عبد الرحيم صاحب كتاب تاريخ الفرنجة الذين قدموا لشرق، وهو كتاب مفقود من المحتمل أن يكون العزيمى قد اعتمد عليه. وبالطبع فإن مجموعة الأخبار المتداولة حول الحجاج، والتى تنسب وفقًا للحالات إلى هؤلاء الأمراء الصليبيين الأوائل، والتى سنجدها فيما بعد لدى بعض الكتاب المسيحيين فى الشرق، صدرت هى كذلك بالطبع عن كُتاب لاتينيين(٩).



الفصل الثالث

الغرب وعلاقاته بالشرق

لقد عرفت أوروبا الغربية قرونا من الشقاء. فما كادت الأنظمة الناشئة من الغزوات الجرمانية تتخذ بمشقة وبطء تنظيماً به شيء من الاستقرار حتى ظهر العرب على تخومها الجنوبية وسرعان ما انتزعوا منهما منطقة غرب البحر المتوسط بكاملها. وما كادت الإمبراطورية الكارولنجية تتشكل بفرنسا وألمانيا (فى الغرب من منطقة الالب) حتى وصل النورمانديون من الشمال والمجريون من الشرق فضلاً عن عدة شعوب من الصقالبة على التخوم الشرقية الممتدة من البلطيق إلى البحر الأدرياتيكى وكانت لاتزال خارجة عن نطاق الحضارة المسيحية.

كان المستوى الثقافى والاقتصاد فى كافة العالم الجرمانى اللاتينى نفسه قد هبط إلى مستوى منخفض جداً، على الرغم من بعض الجهود المؤثرة. ولم تستطع الكنيسة أن تفلت من هذه القاعدة، ومع أن البابوية كانت لها آنذاك سيادة على إحدى المقاطعات فى إيطاليا الوسطى فإنها قد عرفت فى القرن العاشر انحطاطًا بلغ من الشدة ما جعل المؤرخ فى حالة إندهاش من جراء صمود بعض التقاليد التى ستتمكن الكنيسة بفضلها من النهوض بعد ذلك.

أما الأباطرة الكارولنجيون فقد انحصر وجودهم داخل إيطاليا وقام أتباعهم الألمان بمساعدتهم على مراقبة هذه المدينة طبقًا لطريقتهم فى ذلك. غير أن ممارستهم للسلطة بأنفسهم لم تكن ممارسة تامة أو متوازنة، كما أن مدينة البندقية (وهى اسمياً من ممتلكات بيزنطة) لم تكن خاضعة لسلطتهم. وفى جنوب «دول الكنيسة» كانت لا تزال هناك بعض الإمارات اللومباردية (إمارة بنيفانت، وساليرنو، إلخ) وما تبقى من إيطاليا الجنوبية وجزيرة صقلية قبل الفتح العربى كان تابعًا اسمياً لبيزنطة التى تحررت منها بعض «الدوقيات» وبصفة خاصة فى المدن النشطة مثل نابولى وأمالفى الواقعة على الساحل التيرانى(*). وفى القرن التاسع وبداية العاشر تحالف الأمالفيون فعلاً مع الدول الإسلامية المجاورة وبدأوا فى تحقيق أرباح اقتصادية سنشاهد نتائجها فيما بعد، وذلك فى الوقت الذى كان فيه مسيحيو إيطاليا الجنوبية يقاتلون ضد الغزوات العربية المنظمة انطلاقًا من كالابرا وبارى... إلخ.

وقد توقفت الغزوات فى القرن العاشر، وفى القرن الحادى عشر كان الوضع قد تطور ولن يكون من المجدى أن نستعرض أوضاع كل البلاد، غير أن بعض التدقيقات لن تكون غير

(*) البحر التيرانى: من متفرعات البحر الأبيض المتوسط، تحده جزيرتا كورسيكا وسردينيا فى الغرب وشبه الجزيرة الإيطالية وصقلية فى الشرق والجنوب الشرقى، يتصل فى الشمال بالبحر الليجورى. أهم جزره ألبا. (المترجم).

عديمة البضع بالنسبة لإيطاليا التى أضفى عليها موقعها المتوسطى من وجهة نظرنا أهمية خاصة قد تكون مألوفة كثيراً بالنسبة للقارئ. باستثناء إيطاليا يكفى أن نتذكر أن القوة الرئيسية للغرب كانت «الإمبراطورية المقدسة» التى مارست مع ألمانيا هيمنة تكاد تكون فعلية على الشمال الإيطالى وفى الوسط، وبعد فترة من التعاون الجيد نسبياً مع البابوية الواهنة وجدت الإمبراطورية نفسها أمام الكنيسة الآخذة فى التشدد، وقد وصل الأمر إلى قطيعة كاملة بين السلطتين فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، وهو ما سنطلع على بعض نتائجه، وكانت فرنسا بإزاء الإمبراطورية أقرب ما تكون إلى مجموعة من الإقطاعات الكبرى منها إلى مملكة، وقد ظهر ضمن هذه الإقطاعات الدوقيات والكونتيات فى مناطق النورماندى، والفالاندر والأكيتان وتولوز – بروفانس وبعض المناطق الأخرى. وقد قام النورمانديون، وهم ورثة الذين حكموا كثيراً من المناطق بالشمال الغربى لأوروبا، بالهجرة من فرنسا إلى إنجلترا التى قاموا بغزوها فى عام ١٠٦٦، وإلى إيطاليا الجنوبية حيث سنقتفى أثرهم بعد برهة؛ فى حين ذهب أهل الجنوب والبورجون للقتال فى أسبانيا، وهناك قامت الدول المسيحية الصغرى فى الشمال بتوسيع حدودها قليلاً غير أنهم ظلوا منقسمين على أنفسهم. وكانوا عاجزين لوحدهم أن يتباروا مع جيرانهم المسلمين. وعلى الصعيد الاجتماعى كان هذا العصر عصر تكوين النظام الإقطاعى بالمعنى الكامل للكلمة. وبجانبه بدأت الكنيسة بوصفها ديناً وتنظيماً فى النهوض بعد شتاء طويل، وكان من شأن التداخل بينهما أن جعل الكنيسة تميل باتجاه أشكال معينة من الحرب من جهة، ومن جهة أخرى شعر عدد متزايد من الناس بالحاجة إلى الحياة الدينية. وهذه أمور معروفة سقناها على سبيل التذكير فقط حتى نربط بين الوقائع التى سنتطرق لدراستها بعد قليل.

لقد حافظت الإمبراطورية البيزنطية طوال العصور القديمة، وبدون انقطاع، على كل ما كان فى حوزتها سابقًا من مواقع بالمنطقة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، أو على الأقل، على المواقع الرئيسية للمرور من البحر المتوسط إلى البحر الأسود ومن آسيا فى الجانب الأمامى إلى أوروبا. وبعد أن عاشت فترات التصحيح التى قادت جيوشها فى القرن العاشر وبداية الحادى عشر من الدانوب إلى أرمينيا وسوريا(١)، أصابها الضعف نظراً لمشاكلها الاجتماعية الداخلية وبسبب الغزوات الجديدة كذلك التى جرت سواء على جبهة أوروبا أو آسيا حيث وضعتها الشعوب التركية، الوثنية فى الشمال الشرقى والمسلمة فى آسيا الصغرى، بين فكّى كماشة.

ومع ذلك فقد صمدت القسطنطينية والبلاد الواقعة على بحر إيجة كقوة سياسية بارزة وساعدتها مكانتها التجارية والثقافية على تدعيم هيبتها ووسائلها المادية. وقد زاد الوعى المتعلق بهذه القوة من تشدد الكنيسة اليونانية إزاء البابوية التى كانت بدورها فى طريقها إلى تنمية ممتلكاتها، وفى عام ١٠٥٤ انفجر الشقاق الذى تحدثنا عنه آنفًا. آنذاك دخل البحر الأدرياتيكى الواقع بين بيزنطة وإيطاليا، والذى كان مرتعًا للقراصنة الصقالبة لمدة طويلة، فى فلك العالم المسيحى واللاتينى خاصة، ولم يعد للصقالبة دور نشط ولم تعد تتعرض العلاقات القائمة بين العالم اللاتينى والإغريقى لأى خطر من جانبهم على الأقل فى الخلفية الشرقية لهذه المنطقة. كما أصبحت العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية المقدسة بشكل عام محايدة نسبيًا وذلك بعد فترات مد وجزر فلم تعد مصدرًا للقلق لا لهذا الطرف ولا لذاك.

ومن المفيد، فى هذا الكتاب على الأخص، أن نفهم جيداً وضع القوى المسيحية فى إيطاليا؛ فخلال الربع الثانى والثالث من القرن الحادى عشر قام النورمانديون بغزو إيطاليا ونزعها من يد بيزنطة واللومبارديين أولاً ثم احتلال جزيرة صقلية التى كانت خاضعة للمسلمين. وكان أولئك المقيمون بجانب روبير جيسكار فى المنطقة البرية من إيطاليا فى حالة حرب باردة أو ساخنة وفقًا للظروف مع الإمبراطورية البيزنطية فيما وراء البحر الأيونى. وقد واجهم الأباطرة اليونانيون باعتمادهم على مدينة البندقية التى كانت بمفردها - وقد غزا الأتراك آسيا الصغرى - قادرة على أن تمدهم بالأسطول الضرورى؛ ومن هنا حصل سنة ١٠٨٢ أو١٠٨٤(٢) الامتياز الذى كان له وزنه التاريخى فيما بعد والذى خوَّل لأهل البندقية جملة من المنافع فى كل الأراضى البيزنطية بما فيها الإعفاء الكامل من الرسوم، الأمر الذى وضعهم فى أعلى المراتب التجارية فوق كل المنافسين لهم بما فيهم الأمالفيين. وفى هذه الفترة لم يكن منافسو النورمانديين وهم يحتلون جزيرة صقلية التى كانت فى حرب مع مسلمى الجزيرة المتلقين لبعض العون من إخوانهم المغاربة يكترثون بالتوسع على حساب البيزنطيين، فأبصارهم كانت شاخصة صوب العدو المسلم. لكن هذا الموقف لم يدم طويلاً، فبوصفهم سادة صقلية كانوا فى حاجة للدعم من لدن رعاياهم المسلمين وهؤلاء كانوا على استعداد لذلك لأن المغرب وقد مزقه غزو البدو الهلاليين لم يعد فى إمكانه مساعدتهم. وكان النورمانديون شأنهم فى ذلك شأن المغاربة يأملون فى إقامة علاقات حسن الجوار والحفاظ على ما تسمح به الظروف من فائدة تجارية مشتركة، ومن المحتمل أن النورمانديين كذلك كانوا يأملون فى

الإبقاء على العلاقات التجارية التى أقامها رعاياهم المسلمين مع مصر منذ زمن بعيد(٣). هذا المسلك كان يتعارض مع مسلك عناصر أخرى أشد حبًا للقتال سواء من جانب المسيحيين أو من جانب المسلمين. فمن الجانب الإسلامى يلزم التذكير بأن التقلص الاقتصادى فى الأراضى الخلفية للمغرب على إثر الغزو الهلالى قد شجع نشاطات القراصنة انطلاقًا من الشواطئ المغربية الشرقية أو من المواقع المتقدمة فى بعض الجهات التى استولوا عليها فى شواطئ سردينيا، ولم يجد مسلمو شبه الجزيرة الإيبيرية أو جزر البليار غضاضة فى الانضمام إليهم. وكان الإيطاليون أنفسهم قد مارسوا القرصنة أحيانًا، واستمروا فى ذلك، غير أنهم فى فترات الازدهار الاقتصادى كانوا يطمحون بصفة خاصة إلى إقامة الأمن فى غرب البحر الأبيض المتوسط، تلك كانت وجهة نظر البيازنة وكذلك الجنوية ولكن بشكل أقل وضوحًا وهم الذين قاموا بحملة بحرية كبرى سنة ١٠٨٨ ميلادية على مدينة المهدية عاصمة أفريقيا (تونس) التى تم الاستيلاء عليها ولم يشارك النورمانديون فى هذه المغامرة التى ما كان لها إلا أن تزيد من قوة الخصوم ضدهم، ولما لم يكن فى مقدور البيازنة احتلال هذه المدينة البعيدة بأنفسهم لمدة أطول فقد قدموها هدية إلى دوق صقلية النورماندى الذى رفضها بحيث سقطت هذه المدينة بين أيدى المسلمين من جديد بعد تعرضها للنهب(٤). ومن جهة أخرى فقد اختارت البابوية، كما نعلم، طوعًا أو كرهًا، الاعتماد على النورمانديين فى إيطاليا ضد الإمبراطور الألمانى. وهكذا نرى أن هذه البابوية ذاتها، التى كانت بصدد إكمال الفكرة والسياسة اللتين ستصبحان فيما بعد قاعدة الحملة الصليبية، تبشر بالسلام مع المسلمين. وبطبيعة الحال فقد انتهى الأمر بفيكتور الثالث ذى الطبع المتردد إلى مباركة الحملة إلى المهدية(٥)، غير أن هذه المباركة جاءت متأخرة جدًا عن موعدها بحيث لم تنفع فى شىء الجنود الغزاة. وكان جريجوار السابع نفسه قد كتب من قبل رسالة لا تزال محفوظة إلى الأمير المسلم فى مدينة بجاية بخصوص قضايا ليست ذا بال حيث يقول بوضوح – وهو صاحب فكرة الحرب المقدسة المناهضة للمسلمين – إنه هو والأمير المسلم يتوجهان بالعبادة إلى إله واحد كل على طريقته الأمر الذى يستوجب العيش فى وفاق. لقد تبقى عدد قليل من المسيحيين بإفريقيا الشمالية ولم يكن البابا ليجنى فائدة تذكر من حدوث أية قطيعة ما.

من الضرورى أن نملك رؤية واضحة لما كانت عليه تجارة البحر المتوسط قبل الحملة الصليبية. نحن نعرف أن ثمة خلاف طويل يفصل بين أولئك الذين كانوا يعتقدون بأن الفتح العربى للنصف الجنوبى لحوض المتوسط قد تبعه تدهور ما وأولئك الذين يعتقدون بأنه قد تبعه

إنعاش للعلاقات الاقتصادية بين أوروبا والشرق، ويمكن أن نوافق على أنه أثناء فترة معينة حدثت اتصالات لكنها ظلت محصورة فى بعض المناطق الوسطية مثل علاقات البندقية مع القسطنطينية عبر البحر الأدرياتيكى واليونان وموانىء جنوب إيطاليا مع مناطق الشمال الأفريقى القريب دون أن نتطرق هنا للاتصالات بين أسبانيا المسلمة والغرب المجاور أو بين بيزنطة والشعوب المجاورة. وهكذا كانت البضائع تصل من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق ولكن بطريقة أقل وبكميات محدودة وعبر فترات متتالية. ومن المستحيل الاعتقاد بوجود علاقات بارزة ومباشرة بين الشرق الإسلامى وأوروبا قبل نهاية القرن العاشر(٧). يبدو فقط أن الفترة التى انتهت آنذاك قد مهدت إلى تحول لا مرد له كما اتضح لاحقًا، ففى العصور القديمة وحتى غداة الغزوات الهمجية على الغرب، كانت الاتصالات الجارية فى البحر المتوسط تتم على أيدى الشرقيين وبصفة خاصة السوريين، أما فى تلك الآونة فإن مسيحيى الشرق إذا كانوا قد استمروا فى الاهتمام بالتجارة فى أقصى بلاد الشرق برًا وبحرًا فإنهم لم يصلوا إلى الغرب، وإنما اليهود والمسلمون المنتمون إلى غرب البحر المتوسط هم الذين كانوا يأتون إلى المشرق فى انتظار أن يحل محلهم فيما بعد مسيحيو الغرب(٨).

لقد تطور الوضع، فى القرن الحادى عشر، بل ربما منذ نهاية القرن العاشر، وهو ما يهمنا هنا، فمن الجانب الأوروبى توقفت الغزوات وأصبح فى إمكان الناس أخيرًا، وقد تحرروا من وطأتها، أن يستأنفوا نشاطهم المعتاد. أما من الجانب الإسلامى فقد أدى غزو الفاطميين لمصر إلى سلسلة من النتائج.

كان الفاطميون يمارسون «إمبريالية» تتطلب شكلاً معينًا من النشاط الاقتصادى من أجل الأرباح التى يمكن تحقيقها والإمدادات التى توفرها. ونظرًا لاعتيادهم على الأعمال التجارية مع إيطاليى/الجنوب وبصفة خاصة مع الأمالفيين فإنه مما لا ريب فيه أنهم اجتذبوهم نحو الشرق طواعية حتى لا يعتمدوا على وسطاء مغاربة، واضطرارًا بسبب وحيد وهو وجود بلاط حافل بمظاهر البذخ والترف آنذاك فى مدينة القاهرة. وحتى عهد قريب كنا لا نملك غير الانطباعات الذاتية لانعدام الوثائق الدقيقة فى هذا الشأن، لكن تأكد لدينا الآن عبر إحدى النصوص أنه فى سنة ٩٩٦ ميلادية كان يوجد فى القاهرة حوالى ٢٠٠ تاجر من مدينة أمالفى ذهبوا ضحية عقاب شعبى إثر الحريق الذى أصاب أسطولاً بحريًا كان معدًا لمهاجمة بيزنطة(٩). غير أن الوثائق اليهودية العربية فى «الجنيزة» بالقاهرة أثبتت أن ملف الحريق قد أغلق وأن التجارة أخذت مسارها من جديد ولم يكن فى إمكان الفاطميين أثناء صراعهم مع

جيرانهم فى الشرق أن يحصلوا على الحديد والخشب(١٠) وهى مواد ضرورية لتسيير مؤسساتهم البحرية وتسليحهم البرى فكان الأمالفيون يربحون أموالاً طائلة من الإتجار فى المواد التى فى إمكانهم جلبها من مصر، وفى الوقت نفسه من القسطنطينية حيث كانوا يذهبون إليها أحيانًا وربما أثناء الرحلة نفسها(١١).

ومن أجل فهم دقيق للنصوص، من المهم أن نمعن النظر فى دلالة كلمة «روم» وحدها، فهى المصطلح العام الذى يستخدمه الشرقيون للدلالة على التجار المسيحيين الأجانب، من غير أن نستبعد الإشارة إلى مدينة أمالفى التى ترد من حين لآخر أو غيرها من المدن، فمن الناحية الاشتقاقية أطلق هذا المصطلح على الرومان، وهم فى تلك الفترة البيزنطيون، ولكنه داخل مصر كان يشمل فى الواقع، حسب السياق والفترة المعنية، كافة التجار المسيحيين الأجانب، أو إن شئنا التمييز، رعايا الإمبراطورية البيزنطية التى كانت تضم آنذاك قانونيًا سكان جنوب إيطاليا مقابل «الفرنجة» وهم رعايا الإمبراطورية الكارولنجية السابقة وتضم إيطاليا الشمالية والوسطى. وبدون أن نستثنى تمامًا وجود بعض التجار البيزنطيين فى مصر لا شك أن هؤلاء الروم الذين نتحدث عنهم داخل مصر إبان القرن الحادى عشر كانوا إيطاليين أصلاً. ففى هذه الفترة كان إيطاليو الجنوب يتغلبون على إيطاليى الشمال، وعمومًا ليس لهذا الأمر أهمية تذكر. وما هو أهم، وتؤكده وثائق الجنيزة بلا أدنى شك، أن مجيء الروم كان منذ ذلك الحين أحد العناصر الرئيسية فى إقامة التجارة من جهة ومن جهة ثانية تبين أنهم هم الذين كانوا يأتون إلى الشرق لهذا الغرض لا الوسطاء. وليس من قبيل المصادفة إذن أن يعرف الرحالة الفارسى ناصر خسرو فى أواسط القرن الحادى عشر، سفنًا إسلامية ومسيحية غربية بطرابلس فى سوريا بينما لم تكن ترحل من طرابلس آنذاك إلا السفن المتوجهة إلى البلاد الإسلامية الواقعة على البحر المتوسط(١٢). ومن هنا نتبين مدى خطأ الرأى التقليدى الذى يريد أن يجعل التجارة الغربية «بالشرق»، تبدأ بعد فترة قصيرة من الحملة الصليبية(١٣). ومن البديهى أن يساهم الازدهار المتجدد للتجارة الإيطالية فى التحويل الجزئى للتجارة من المحيط الهندى والخليج الفارسى إلى البحر الأحمر كما أسلفنا القول. ومما لا شك فيه كذلك أن التقدم التجارى فى شرق البحر المتوسط قد استفاد من العلاقات الطيبة التى أعيدت بين بيزنطة والفاطميين.

ومن الممكن أن يكون توجه الأمالفيين نحو مصر قد تدعم أكثر عبر الامتيازات الممنوحة من قبل البيزنطيين لأهل مدينة البندقية التى أبعدوا عنها علانية. ومنذ أواسط القرن الحادى عشر اضطر مسلمو الغرب أحيانًا إلى استعارة السفن المسيحية للذهاب إلى الشرق(١٤).

لقد كان هذا الازدهار التجارى متميزاً بمقدار تزامنه مع الاختفاء شبه الكامل لأحد المصادر التجارية وهو العبيد. فقبل القرن الحادى عشر، وبدون التطرق إلى العبيد الذين جمعهم المسلمون أثناء غزواتهم فى أسبانيا أو فى جنوب إيطاليا، نجد أنه قد بيع لهم عبيد آخرون بأسبانيا من قبل يهود فرنسا وأهل البندقية فى إيطاليا. فهؤلاء وأولئك كانوا يحصلون على العبيد من بين الشعوب «السلافية» ومن هنا أطلقت عليهم هذه التسمية بأوروبا الوسطى أو البلقانية التى كانت آنذاك شعوباً وثنية (باستثناء التشيك). غير أنه فى حوالى عام ألف اعتنقت الشعوب السلافية سواء داخل البلقان أو فى أوروبا الوسطى والشرقية الديانة المسيحية. ومنذ ذلك الحين لم يعد فى الإمكان مواصلة تهريبهم عبر الدول المسيحية. واستمر المسلمون بطبيعة الحال فى الحصول على العبيد من أسواق أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى وأفريقيا السوداء لكن هذه المرة من غير وسيط أوروبى. بيد أن هذا التحول فى تجارة العبيد من الغرب إلى الشرق لم يكن فى إمكان أوروبا أن تعوضه اقتصادياً إلا بتصديرها سلعاً غذائية بديلة. ولا يظهر أن الأمر كان كذلك فى القرون السابقة فقد تيسر للمسلمين أن يجدوا لديهم قسطاً وافراً من الخشب والحديد والقطران مما كانوا فى حاجة إليه، غير أنه من المؤكد أن هذه المنتجات كانت آنذاك بالنسبة إليهم ضرورية للغاية وقد جرت العادة لاحقاً على طلبها من الإيطاليين(١٥).

أما هؤلاء فكانوا يجلبون من الشرق بضائع غذائية متنوعة، بعضها كانت تأتى من مصر أو سوريا ذاتها وبعضها الآخر، مثل التوابل المعروفة، كان يُنقل عبرها. وضمن هذه المواد ينبغى أن نميز بين مجموعتين لكل واحدة منهما وظيفة مختلفة جداً عن الأخرى : مجموعة منها كانت تستخدم فقط للاستهلاك داخل بلاط الحكام أو لدى الفئات الميسورة من السكان، والمجموعة الأخرى كانت تدخل كمواد أولية ضمن عملية الإنتاج. وكمثال على ذلك حجر الشب الذى سنتوسع فى الحديث عنه خلال فترة القرن الثالث عشر، وقد شهدت بأهميته فى التجارة الدولية إحدى العقود الموثقة بمدينة البندقية عام ١٠٧١، وفى الوقت نفسه بعض وثائق الجنيزة. فمنذ القدم وصناعة النسيج تستخدم هذا المعدن الطبيعى فى الصباغة لتثبيت الألوان، وهو يوجد بوفرة فى البلاد الجافة الواقعة على أطراف البحر المتوسط، ولم يشهد الغرب فى العصر الوسيط ابتكاراً فى هذا الشأن. وقد نتج عن ذلك أن صناعة النسيج على قدر نموها كانت تعتمد فى جزء منها على مواد موجودة فى مناجم بعيدة وأحياناً فى أراض غير مسيحية (كانت هذه المواد توجد قبل القرن الحادى عشر فى إيطاليا وأسبانيا والمغرب بشكل ردىء وبكميات قليلة على وجه العموم).

ولا نعرف إذا كانت هذه الظاهرة قد أصابت من قبل منطقة الفالاندر التى أصبحت فيما بعد فى أمس الحاجة إلى أحجار الشب، وما كان يوجد من هذه المادة داخل الأراضى البيزنطية لم يكن له فى هذه الفترة أى شأن فى التجارة الدولية على عكس ما سيحدث فيما بعد. ففى إحدى الفترات التى لا نستطيع تحديدها بدقة وهى بلا ريب فى بداية القرن الحادى عشر بدأ الإيطاليون يتزودون بأحجار الشب من الصحراء بجنوب مصر؛ فقد وجد فيها بكميات وافرة وبجودة أفضل فيما يبدو مما هى عليه فى غرب البحر الأبيض المتوسط الذى اكتشف آنذاك (فأحجار الشب التى تم اكتشافها فى القرن الخامس عشر بدول الكنيسة لم تكن معروفة آنذاك). ومن المحتمل أن البدو كانوا يجمعون أحجار الشب ويسلمونها إلى الدولة لتسديد الأداءات الضريبية. وفى القرن الحادى عشر كان التجار اليهود، وغيرهم بلا شك، يشترونها من الدولة لبيعها إلى الزبائن الإيطاليين. وقد أدى ظهور هذه العمالة الجديدة إلى زيادة استغلال أحجار الشب، التى يحتمل ألا تكون لها فيما مضى أهمية كبرى فى مصر، ودرّت أرباحاً طائلة على خزانة الدولة والتجار. ولدينا هنا مثالاً مهماً عن هذه العلاقة الاقتصادية المشهورة خلال فترة تاريخية ضاربة فى القدم(١٦).

ومن المعروف منذ فترة طويلة أن سياسة مدينة أمالفى، منذ ظهور العرب فى صقلية وجنوب إيطاليا كانت مبنية على التفاهم معهم ولو على حساب إخوانهم فى الدين، وقد نتج عن ذلك منافع جلية. ولم يكن التوسع التجارى من مدينة أمالفى إلى الشرق إلا امتداداً للموقف نفسه. إن هذه المدينة فى نصوص الجنيزة التى ترجع إلى ما قبل الحملة الصليبية هى المدينة الإيطالية الوحيدة التى ورد ذكرها بانتظام فى معظم النصوص الرومية، وحتى إذا افترضنا أن مصطلح «أمالفى» كان يتضمن بعضاً من غير الأمالفيين فمن البديهى أنه يعنى الغلبة لأهل هذه المدينة. ولا شك أن التجاهل الذى تكشف عن هذه الوثائق إزاء بعض التجار الآخرين كان سببه المصادفة العشوائية للأعمال التجارية التى ذكرت بشأنها أسماء التجار فى مصادر الجنيزة، ويظهر أن ذلك هو ما حدث بالنسبة لمدينة البندقية وهى التى نملك دلائل عن تجارتها مع الشرق الإسلامى وبشكل أقوى مع بيزنطة فى الوقت ذاته. ويودنا أن نعرف ما هى المدن الإيطالية الأخرى التى كانت ترسل مواطنيها إلى الشرق، فربما كانت موانىء بوى وبارى وبريندیسی، لكن هناك حالتان تستحقان فحصاً دقيقاً، أولاهما حالة الصقليين؛ فقد وجدت اتصالات مباشرة لها ما يكفى من الأهمية بين صقلية المسلمة ومصر أو سوريا قبل الغزو النورماندى للجزيرة. ففى القرن الثانى عشر نجد صقليين فى الشرق لا نعرف على وجه الدقة إذا كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود وربما كانوا كل ذلك معاً.

وعلى أية حال فهم الآن رعايا النورمانديين، وهو أمر لم يحل دون احتفاظهم بوضع متميز تقريباً، ولا يمكنني هنا إثبات استمرار العلاقات التجارية بين صقلية ومصر أثناء فترة الغزو النورماندى غير أننا سنجد بشأنها دلائل ويبدو فى كل الأحوال أنها أخذت مجراها الطبيعى بسرعة قبل الحملة الصليبية(١٧).

والحالة الثانية هى حالة موانىء جنوة وبيزا. فنشاط سكان مدينة بيزا فى غرب البحر الأبيض المتوسط كان قائماً بالتأكيد غير أنه لا توجد الآن وثيقة تثبت، فحرى بها أن تنفى، أن بواخر هذه المدينة قد مارست التجارة مع الشرق الإسلامى قبل الحملة الصليبية. وبالنسبة لمدينة جنوة ثمة شهادتين أو ثلاث شهادات عارضة وأقل دقة مما عرف إلى الآن، ويمكن أن تستكمل بشهادات أخرى أدق منها، وهى واردة فى وثائق الجنيزة. مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنهم قد تعودوا ارتياد هذا الطريق منذ بعض الوقت أننا نجد عدداً لا يستهان به من تجار مدينة جنوة بمصر بعد نشوب الحملة الصليبية بقليل وفى فترة كانت مشاركة مواطنيهم فى غزوات الفرنجة على الشاطىء السورى تجعلهم محل شبهة. ومهما يكن من أمر فإن وجودهم إن كان ملحوظاً بشكل جلى فلا يغلب على الظن أنه وصل آنذاك إلى حد أن يتشكك بشأنهم الأمالفيون، إذ كانوا لا يزالون يسافرون غالباً على متن سفنهم.

ويحتمل أن يكون تغلغل البنادقة تغلغلاً أقوى حسبما تشهد به بعض النصوص، ويبدو أنهم لعبوا دوراً كبيراً فى تجارة أحجار الشب منذ عام ١٠٧١، ومع ذلك يحتمل أنهم كانوا يوجهون نشاطهم الرئيسى نحو الإمبراطورية البيزنطية التى كانوا يعبرون منها للوصول إلى أنطاكية. بل إن المصادفة أطلعتنا على وثيقة تجعلنا نتثبت من استمرار ارتيادهم لهذه المدينة بعد سقوطها فى أيدى سليمان بن قتلمش الذى يمكن اعتباره، من زوايا معينة، أحد قادة الإمبراطور البيزنطى.

وخلاصة القول فإنه، ومع مراعاة الأهمية الكبرى التى ظلت لجنوب إيطاليا حتى تلك الفترة، يظهر أن تجارة البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الحادى عشر كانت إجمالاً تتشابه آنذاك مع ما حصل فى القرن الثانى عشر حسب ما تطلعنا عليه وثائق أغنى.

* * *

لقد انطلقت أولى المعارك ضد المسلمين فى أوروبا الغربية من طرف جيرانهم المباشرين فى إسبانيا أو إيطاليا الذين كانوا لا محالة يعرفون جيداً خصمهم معرفة مباشرة أو بواسطة سجناء الحرب أو إخوانهم فى الدين الذين عاشوا فى ظل الشريعة الإسلامية، وكما رأينا

سالفًا كانت هناك أيضًا فترات وأماكن شهدت تعايشًا سلميًا[١٨]. وكان أحد الملامح الجديدة للعداوة التى أصبحت تواجه الإسلام بالمسيحية الغربية آنذاك هو تدخل محاربين قدموا من أماكن أبعد من جبال الألب والبرانس والذين لم يكن فى مقدورهم تملك أية دراية مباشرة بالإسلام. فماذا كان يعرف هؤلاء الرجال عن الإسلام قبل الاتصالات الكبرى التى حدثت فى القرن الثانى عشر؟ ربما ساعد هذا السؤال على فهم الظروف الجديدة للمعركة التى دشنتها الحملة الصليبية.

كان لدى أوروبا المسيحية البيزنطية أو اللاتينية مناسبات قليلة للقيام بأية تجربة تعايش طائفى مشابهة لتجربة العالم الإسلامى، فقد كان للمؤمنين بالكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية جيران «وثنيون» جاهدوا من أجل أن يتحولوا إلى المسيحية بالعمل التبشيرى والسياسى، أو قسرًا بالسيف انطلاقًا من العالم الجرمانى. وكان البيزنطيون كلما جددوا فتوحاتهم وجدوا فى آسيا الصغرى أرمن ويعاقبة وهم من ذوى المذاهب المسيحية المختلفة، وفى القرن التاسع قام البيزنطيون بإبادة البوالسة، أو نفيهم منها، هؤلاء البوالسة الذين عثروا على ورثتهم لدى البلغار ويتعلق الأمر فيما يبدو بالمانويين الذين قسا المسلمون هم كذلك فى معاملتهم لبعض أبناء عمومتهم المقيمين فى ديارهم، وقد عامل الغربيون فيما بعد ذويهم (الألبيجيين)(*) بقسوة لا مثيل لها. وكان البيزنطيون على حدودهم الواقعة فى بلاد ما بين النهرين أو سوريا قد أدمجوا بعض المجموعات من المسلمين التى ظلت مع ذلك شبه مستقلة فلم تكن تنتمى حقًا إلى الإمبراطورية[١٩]. أما عدد المسلمين المندمجين فى الدول المسيحية بالغرب فلم يكن يعتد به قبل أواسط القرن الحادى عشر، وكانت الجماعة الوحيدة المنشقة التى كان يلتقى بها هذا الجانب أو ذاك بصفة منتظمة هى جماعة اليهود التى لم تكن كثيرة العدد، وإن كانت منتشرة فى كل مكان تقريبًا وفى كل زمان. وقد حافظت فى الغرب على نشاط ريفى معين لكنها لعبت دورًا خاصًا فى ميدان المهن الحرفية والتجارة فى شتى الأماكن تقريبًا كما فى العالم الإسلامى[٢٠]. وبينما كانت نظرة الناس إليهم نظرة سيئة كما جرت التقاليد بذلك فى بيزنطة فقد كان وضعهم فى الغرب كما فى دول البابوية. وضعًا طبيعيًا تقريبًا دون أى

(*) الألبيجيون أو الكتار : بدعة دينية مسيحية ظهرت فى أواخر القرن الثانى عشر جنوبى فرنسا. قال أتباعها بالثنوية (إله الخير وإله الشر). أنكروا الحرية وبعث الأجساد والكهنوت. وحرموا القسم والزواج حاربهم ملوك فرنسا بالسلاح حتى سنة ١٢٩٩، ورهبان مار عبد الأحد بالوعظ وممارسة الفقر الأنجيلى- المنجد فى اللغة والأعلام - (المترجم).

تمييز عنصرى حقيقى رغم سورة الغضب الموجهة تجاههم. ولا نلاحظ مواقف التشدد تجاههم إلا حوالى السنة الألف الأولى. وهو تشدد ربما كان مرتبطًا بالظروف الاجتماعية والاقتصادية وبصورة أكثر مباشرة بالتطور الدينى حيث كان انتشار العقيدة يتخذ منحى قتاليًا فى عرف الناس آنذاك. وثمة ملمح له أهمية خاصة بالنسبة لموضوعنا وهو التهمة الموجهة آنذاك فى بعض المدن الفرنسية إلى اليهود بأنهم قد تسببوا فى الاضطهاد الذى مارسه الحاكم بأمر الله فى الشرق كما لو لم يكن هذا الاضطهاد قد مس اليهود والمسيحيين على حد سواء. أضف إلى ذلك أن التزامن بين التطور الحاصل فى الغرب وهذا الاضطهاد هو محض مصادفة مادام أن الأمر يتعلق بحادث عرضى. وقد حصل تشدد كذلك من قبل الإسلام ولكن فى فترة لاحقة وسنتكلم بشأنه. أما فى الغرب فقد وصل الأمر إلى اقتراف مذابح بالمناطق الرينانية ومآسى أخرى فى جنوب فرنسا أثناء الدعوة الحملة الصليبية.

ابتداءً من أواسط القرن الحادى عشر عرف مجتمعان متميزان، لم يشاركا بحق فى الحملة الصليبية، تجربة إدماج الرعايا المسلمين وذلك لأول مرة، وهما مجتمع أسبانيا الوسطى التى تم استعادتها آنذاك من الدول الإسلامية الآفلة، ومجتمع صقلية التى استولى عليها النورمانديون. ورغم بعض الفروق فإن المناخ السائد فى كليهما كان مناخًا متسامحًا، وقد نهض الرعايا المسلمون بمهام كبيرة بالنسبة للسادة المسيحيين الذين كانوا يكنون لهم تقديرًا ومن الطريف أن نتذكر التفسير الخاطىء الذى جعل من شخصية «السيد»(*) رودريجو، فيما روى لاحقًا، مهاجمًا للمسلمين فى حين أن الشخصية التاريخية، وهو سيد منطقة فلانسيا كان محل التقدير من قبل رعاياه المنتمين للديانتين، ولم يتردد فى التفاهم، بحسب المصادفات مع جيرانه المسلمين ضد خصوم مسيحيين، وأذعنت أرملته أمام تقدم المرابطين، أولئك الأجانب الذين دعوا لمحاربة غيرهم من الأجانب وكانوا غرباء كذلك عن العقلية التى أبان عنها.

والحق أن المحاربة لا تستدعى التعرف على من نحاربه، وحتى خلال القرن الثانى عشر نلمح نشوب منازعات حول المواقف الممكنة التى توحى بها مواربة الرسائل المتبادلة بين منظم الحملة الصليبية الثانية وهو القديس برنار، وبطرس المبجل(**) الداعى لأول ترجمة لاتينية

(*) السيد : من فرسان قشتالة، لعب دورًا خطيرًا فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر. اسمه الحقيقى رودريجو دياس بيفار. تزوج يمنه سنة ١٠٧٤، وقاتل فى جيش المسلمين والمسيحيين ثم صالح ملكه ألفونس القشتالى. قُتل فى محاربة المرابطين سنة ١٠٩٩. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

(**) بطرس المبجل : (نحو ١٠٩٢ – ١١٥٦) رئيس ومصلح رهبنة كلونى فى فرنسا عام ١١٢٢. ترجم القرآن إلى اللاتينية. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

للقرآن. فلا حاجة قط إلى المعرفة أو لعل من الأفضل ألا نعرف أكثر مما يلزم غير أنه ينبغى للمرء أن يضع نصب عينيه فكرة أو فكرتين رئيسيتين وأوليتين تجعل للمعركة مغزى ما، إذ لم يكن المهم آنذاك معرفة عادات العدو التى لم يكن بمستطاع أحد تملكها من غير السكان المقيمين على الحدود أو الرعايا، ولا ثقافته التى ستعترف أوروبا تدريجيًا بعظمة شأنها إلى الحد الذى سعت فيه لإدماجها فى محيطها، وإنما المهم هو معرفة سبب محاربته؛ أى معرفة خطئه وانحرافه الرئيسى وبكلمة واحدة دينه، فماذا كانت أوروبا تعرف إذن عن الدين الإسلامى قبل نهاية القرن الحادى عشر ؟

من الطبيعى أن نميز بين مظاهر مختلفة. فمعظم كبار كتاب الحوليات الغربيين يعرفون بعض الوقائع البارزة عن الحروب بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا وفى إيطاليا وبصفة استثنائية فى الشرق. غير أنها معرفة تتعلق بوقائع عسكرية لا تتضمن أية معرفة أخرى غيرها ولا اعتقد أن بإمكاننا أن نجد فى الفترة المعنية إذا تركنا جانبًا الألمان أو الإنجليز، كاتبا فرنسيا يذكر اسم النبى محمد، ومع ذلك ينبغى أن تكون معرفة هذا الاسم شائعة بما يكفى مادام أن أحد علماء اللاهوت الكارولنجيين جعل منه مسيحا دجالاً لكن لا يبدو أن كتاب الحوليات أو أحدًا من الكتاب قد شعر بالحاجة للاستعلام بصدده. بطبيعة الحال كان هناك حجاج قد دخلوا العالم الإسلامى وهم فى طريقهم إلى القدس. غير أن من بين من نملك عنهم روايات فى هذا الصدد هناك برنار الراهب (حوالى ٨٦٥) وهو الوحيد الذى سجل وقائع لا ترتبط بالأماكن المسيحية المقدسة، وإن كنا لا نعرف ما إذا كانت رواياته قد عرفت على نطاق واسع، أما بالنسبة لغيره فإن الأمر يبدو وكأن البيئة المجاورة لهذه الأماكن المقدسة غير موجودة. لابد أن بعض السفراء لدى الكارولنجيين أو الأباطرة الألمان أو السفير المغربى المبعوث إلى بيرت التوسكانى(٢١) وبصفة خاصة تجار مدينة البندقية وأمالفى وكذلك بعض اليهود قد رووا بعض الأشياء لكن ينبغى الاعتقاد بأن ما روى لم يكن ذا أهمية طالما لم يُسجل شىء منه. وحتى غداة الحملة الصليبية فقد ذهب كاتب فى منزلة جيبير النوجنتى علمًا وذكاءً إلى القول إنه لم يتمكن من تعلم أى شىء عن محمد بواسطة ما هو مكتوب».

وقد رأينا مزاعم مسيحيى الشرق حول اطلاعهم على الإسلام(٢٢)، وبالأحرى مسيحيى الغرب الذين لم يخطر على بالهم قط استشارة المسلمين فى هذا الشأن على أنه حتى الكتابات التى اشتملت على المعلومات، الصحيحة أو الخاطئة، ظلت غير معروفة فى الغرب حيث لم تكن تصل إليه سوى الشائعات الشفاهية. ونظرًا لنقص المعلومات المستقاة مباشرة من بلاد

الإسلام فقد ترجم المكتبى أناستاس فى إيطاليا الحوليات البيزنطية لتيوفان، وفيها يشكل الفصل المخصص لمحمد كل ما كان معروفاً بشأنه فعلاً قبل الحملة الصليبية. وقد عُرفت هذه الترجمة من قبل بعض كتاب الحوليات اللاحقين، لكن لم يعلم بها أحد فيما يبدو خارج إيطاليا قبل الحملة الصليبية.

كان من الممكن إذن أن يحصل المرء فى روما على بعض التصورات المتعلقة بالأنساب العربية التقليدية وبشباب محمد وزواجه وبمعارف دينية أمكنه اكتسابها باتصاله مع اليهود والمسيحيين، وأن يعتقد أنه كان مصابًا بالصرع(*) وأن راهباً أُبْعد عن القسطنطينية كان قد نصحه أن يتخذ نوباته علامة على وحى النبوة تعزية لزوجته، وأن اليهود شجعوا دعوته لاحقًا بدافع الكراهية للمسيحية. كما يمكن للمرء أن يعرف كذلك أنه أمر بالحرب المقدسة، وأنه فى النهاية كان يتخيل أنه يتوجه بالعبادة للإلهة فينوس(**) ولا شىء يسمح بافتراض أن البابوية لم يصلها مصدر شرقى آخر. صحيح أن جريجوار السابع يشير فى خطابه إلى أمير بجاية إلى الإيمان المشترك بالإله نفسه والأصل الإبراهيمى للديانتين وهو أمر لافت للنظر غير أن جوفروا مالاتيرا كان على اقتناع بأن المسلمين يعبدون وثنًا يرمز لمحمد مع أنه قد عاين سابقًا منشآت الاستحمام والحمام الزاجل لدى المسلمين(***). ويحق لنا أن نتصور أن مسيحيى أسبانيا كانوا على معرفة أفضل بالمسلمين حيث عايشوهم عن قرب خلال أجيال ومع ذلك لم يذكر حسب علمى حتى الآن سوى نص واحد جدير بالذكر هو نص أولوج، وعيبه أنه صادر من «شهداء قرطبة» (القرن التاسع) وهو وسط كنسى متشدد، مما يدل على أنه وسط خارج عن المألوف. لكنه يطلعنا على الأقل بما كان يروى عن محمد فى الحرب الكلامية المعادية للإسلام بإسبانيا. وتجدر الإشارة إلى أن «أولوج» فى حديثه عن الإسلام ونبيه لم يرجع لأى نص إسلامى ولا مسيحى متعلق بميدان الإسلام وإنما رجع إلى مخطوط غير محدد المصدر، قرأه هو نفسه فى بامبلونا(****) أى فى منطقة تشهد حربًا سياسية بين العقيدتين. وعنه نعلم

(*) آثرنا ترك هذه الفقرة كما هى، لأننا لا نملك الحق فى الحذف أو التغيير فى نص مترجم، ولأنها من جهة أخرى تكشف إلى أى مدى وصلت عقلية أوروبا العصور الوسطى فى جهلها وعدائها لعالم الإسلام ورمزه الأول. على أن مثل هذه المزاعم حول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لازالت رائجة فى بعض الدوائر الفكرية إلى يومنا هذا (المترجم)

(**) فينوس: إلهة الحب والجمال عند الرومان.

(***) أى أن الرجل رغم اطلاعه على الأوضاع عن قرب فإنه يملك وعيًا زائفًا بها يصل إلى هذا الأمر المذكور. (المترجم)

(****) بامبلونا: مدينة فى شمال إسبانيا احتلها فيما مضى القوط والعرب. (المترجم)

إذن أن محمداً قد ظهر فى السنة السابعة من عهد الإمبراطور هيراقليوس وسنة ٦٥٦ من تاريخ أسبانيا، وسنستأنف الحديث عن حوليات كاتب قرطبة المجهول. وبغض النظر عن التعبيرات غير المهذبة التى رصع بها أولوج خطابه فإننا نقرأ فيه بعد ذلك أن محمداً لما كان تاجراً شاباً فى خدمة أرملة شارك فى اجتماعات مسيحية، بحيث بدا «للعرب الأجلاف» بمظهر العالم. «ولتأجج عاطفته تزوج من ربة عمله وفقاً للقانون الجاهلى». ثم تمثلت له روح الضلال فى شكل نسر فصيح اللسان ادعى انه الملاك جبريل، وحينئذ بشر محمد بأشياء معقولة ظاهراً مثل : التخلى عن عبادة الأوثان وعبادة إله معنوى غير مادى فى السماء وشن الحرب على الكفار وحينها قتل العرب شقيق الإمبراطور واستولوا على دمشق (نجد هذا القلب نفسه للتسلسل الزمنى فى حوليات كاتب قرطبة المجهول) وتسهيلاً للحفظ ألف محمد حكايات عن بقرة حمراء وعنكبوت وهدهد وضفدعة وعن يوسف نفسه وزكرياء ومريم العذراء. كما خطف زوجة جاره زيد الذى وهبه إياها لتجنيب النبى ارتكاب الخطيئة. عند ذاك مات وقد تكهن بانبعاثه فى اليوم الثالث. ولما لم ير الشهود شيئاً من ذلك خشوا من أن يكون حضورهم سبباً فى ذلك فانقطعوا عن حراسة الجسد فأكلته الكلاب التى صدر قرار إثر ذلك بقتلها جميعاً وينتهى المؤلف قائلاً إنه يمكنه أن يسهب فى القول إذا... إلخ.

يتعرف المرء فى هذا العرض، بالإضافة إلى التفاصيل غير المألوفة على روايات تناقلتها الأدبيات الشرقية السجالية مع فروق بسيطة وتلميح إلى سور القرآن مع عناوينها، غير أن النبرة السائدة فى الحوليات المسماة بحوليات المؤلف القرطبى المجهول كانت أكثر موضوعية، وقد أُلفت بعد الفتح العربى لإسبانيا بأربعين عاماً، انطلاقاً من معلومات صادرة فى جزء منها من الشرق. وقد ظلت هذه الحوليات معروفة من طرف الأوساط الإكليروسية الأسبانية عبر العصر الوسيط بكامله غير أن ما دونته عن نبى الإسلام كان من الاقتضاب بحيث لا يضاهى الفصل الذى كتبه أولوج. وإذا كان هذا هو وضع «العلم» فى إسبانيا وفى إيطاليا فيمكننا أن نفكر فيما كان عليه الأمر فيما وراء جبال الألب والبرانس حيث ظلت هذه الروايات غير معروفة. وعلى غير المألوف فقد استطاع أحد الرجال ممن كانت لديهم علاقة مع «المور»(*) وهو القديس مايول الكلونى من جماعة جارد فرينى، وكان سجيناً لهم، أن يتعلم منهم أن المسلمين

(*) أطلقت هذه الكلمة خلال العصر الوسيط على المسلمين الذين فتحوا إسبانيا، وإن كانت من قبل قد أطلقت من قِبل الرومان على الشعوب المستقلة بذاتها والتى كانت أنماط معيشتها وتقاليدها خارجة عما ألفته الشعوب التى تضع نفسها فى موقع الصدارة من الحضارة والتقدم الفكرى والخلقى. (المترجم)

يعظمون أنبياء اليهود والمسيحيين ويكرمون ذرية إبراهيم، وهو ما كان يرويه لزمانه المؤرخ الكلونى البورجونى راؤول جلابير. وكان هذا المؤلف ذاته على علم بالاضطهاد الذى مارسه الحاكم بأمر الله كما كان مطلعًا على العلاقات التى حافظ عليها يهود أوروبا وأورليان حسب قوله مع العالم الإسلامى. لقد اتُّهم هؤلاء اليهود كما رأينا سابقًا بأنهم كانوا وراء الاضطهاد الذى حصل وذلك حينما أشعروا الخليفة بخطر الغزو المسيحى (وهذه إشارة مهمة فى حد ذاتها سواء تضمنت تلميحًا أم لا إلى الانتصارات البيزنطية السابقة أو المشاريع المبتدئة للبورجونيين بإسبانيا) وقبل ذلك كان بعض الحجاج أمثال الإنجليزى أركولف (حوالى عام ٦٧٠) ويليبالد (حوالى عام ٧٢٥) ثم الفرنسى برنار الكوربى (حوالى عام ٨٦٥) قد أعطوا معلومات متحفظة عن شروط السفر إلى الشرق غير أن الشخص الأول هو وحده الذى حظى ببعض الشهرة لأن «بيدا المعظم» قد أعاد نشر معلوماته تلك، وكان الأخير هو وحده الذى تحدث قليلاً عن المسلمين. ولا يعرف كاتب الحوليات «فرديجير» من التاريخ الإسلامى إلا القليل عن الغزوات التى وقعت فى الغرب ومع ذلك فقد اهتم بما ورد من معلومات عن الشرق على نحو ما يظهر فى الانتباه الذى أولاه للأتراك منذ القرن الثامن[٢٥].

ولعل ذلك هو مبعث عنايته بالأصل الاشتقاقى للفظى «هاجرى» و«سارى» نسبة لهاجر وسارة. وقد اطلع على النبوءة المتصلة بدمار الإمبراطورية البيزنطية على يد شعب مختون من خلال الخطاب الذى كتبه هيراقليوس إلى داجوبير (وربما لهذا السبب قام هذا الأمير بطرد اليهود شأنه فى ذلك شأن الإمبراطور وفقًا لما يرويه صاحب كتاب حياة داجوبير فى القرن التاسع وهو من الكتاب المتأخرين)؛ وهذه القصة تعود، فيما يبدو، إلى أقباط مصر وربما تم نقلها بعد ذلك من طرف الحجاج. غير أن الكاتب قام بربطها بالاضطهاد الواقعى لليهود فى القسطنطينية وفرنسا. كانت هذه هى كل المعلومات السائدة حتى نهاية القرن الحادى عشر حيث كان الكتاب الأوائل لأناشيد المآثر على اقتناع بأن المسلمين كانوا يعبدون الثالوث المكون من أبولون وماهون وتيرفاجانا... ومن المحتمل ان يكون ذلك راجعًا إلى تفسير معكوس لبعض التعابير الغامضة.

ومن الممكن أن نتصور أن توسع عمليات الحج إبان القرن الحادى عشر قد أحدث بعض التغيير، وتشهد بذلك قصيدة أسطورية مفصلة خصصها المدعو هيلدبير اللافاردانى لمحمد، وقد ساد الاعتقاد لمدة طويلة أنها كتبت بعد الحملة الصليبية الأولى، غير أنها فى الحقيقة سابقة لها كما تفيد الدراسات الصادرة حديثًا وإنى لست مؤهلاً للتدخل فى نقاش لا

يقطع بصحته أى دليل. والأمر الوحيد المؤكد هو أن هذه القصيدة حتى لو وجدت حوالى عام ١١٠٠ فهى لم تكن معروفة من طرف من كانت ثقافته فى مستوى ما وصل إليه جيبر النوجنتى كما أنها لم تذكر فى أى مكان آخر حسب علمى. وغاية ما فى الأمر أن هذه القصيدة من النوادر التى لم يتبعها شىء وأعتبر أن هذا الصمت حجة تضاف إلى هذا الملف(٢٦). ويبقى أنه فى فرنسا ولاسيما المنطقة الشمالية منها لم يكن لأحد تصورات عن محمد ولا عن الإسلام وأن العالم الإسلامى بصفة عامة لم يكن لديه وجود واقعى فى أذهان الناس إلا فيما يتصل بإسبانيا. ففى بعض الروايات عن الحملة الصليبية الأولى كانت كلمة «أسبانيا» هى التى تدل على العالم الإسلامى فى مجمله(٢٧).

كل هذا يعنى أن الأوساط التى كانت ستخرج منها الحملة الصليبية هى الأوساط التى كانت معرفتها بـ«العدو» أشد تفاهة وضعفًا (٢٨). أما رحلات الحج التى نسبتها الروايات المختلفة تارة إلى جودفروا البويونى، وتارة إلى ريمون الصنجيلى فقد كانت ملفقة كذلك، وربما كان بوهيمون التارنتى هو الوحيد الذى كان يعرف شيئًا ما عن هذا الأمر أما عن جهل الشرقيين بالغرب فكان أقل خطورة فى هذه الحالة طالما لم يكن الشرقيون هم الذين سيقيمون فى بلاد الغرب بل العكس، وعلى أية حال ينبغى أن يقارن مع جهل الغربيين بالشرق إذ كان أشد صخبًا إذا جاز القول بحيث سجلت دلالته فيما حصل من ضعف فى العلاقات التجارية مع أوروبا اللاتينية — الجرمانية انطلاقًا من الشرق(٣٠).

أما فيما يتعلق بالمسلمين، فباستثناء بعض التقاليد شبه الأسطورية عن روما وبعض المعطيات عن شبه الجزيرة الإيطالية فإن الادبيات الجغرافية أو التاريخية عندهم، قبل الحروب الصليبية لا تتضمن شيئًا آخر غير ما نُقل عن القدماء (بطليموس) أو ما كان مصدره إسبانى عربى ولو أن الأمر يتعلق أساسًا، فيما يتصل بهذا الصنف الأخير، بحكايات لرحالة يهودى عربى اللسان عاش فى القرن العاشر، وقد استخدمت هذه الحكايات بعد ذلك بقرن من الزمان من طرف المؤرخ المغربى البكرى ولم تستخدم فى الشرق فى حدود معرفتنا إلا بعد ذلك بكثير من طرف القزوينى فى نهاية القرن الثالث عشر(٣١). وحتى فى عنفوان الحروب الصليبية فإن الكتابين العربيين الوحيدين اللذين يمكن للمهتمين أن ينهلوا منهما معارف عن الغرب المسيحى هما للإدريسى الذى عاش فى ظل النورمانديين بصقلية فى القرن الثانى عشر، وابن صاعد الأندلسى وهو مسلم هاجر إلى الشرق، وهما بمثابة الاستثناء الذى يؤكد القاعدة. وما عدا ما أورده المسعودى فى فقرة مختصرة حوالى سنة ٩٥٠(٣٢) فإن أول مؤرخ مسلم اهتم بمعرفة

بعض تاريخ الفرنجة هو رشيد الدين(*) وذلك حوالى سنة ١٣٠٠ وكان يهوديًا ثم أسلم وصار وزيرًا فى الإمبراطورية المغولية وهى إمبراطورية دولية جمعت بين مختلف الطوائف الدينية، على أنه كان من العسير حقًا أن يتعلم المرء شيئًا من خلال الحوليات اللاتينية لراهب بولندى ربما كان من أصل أرمنى ظل بدون منافس حتى العصور الحديثة.

لقد رأينا من وجهة نظر طائفية بأى شكل كان يتعرف المسلمون على المسيحيين بفضل رعاياهم المسيحيين وجيرانهم البيزنطيين. أما عن العالم المسيحى اللاتينى فى عنفوان الحروب الصليبية فلم يكن يعرف شيئًا، وبرغم التجزئة السياسية فقد كان للمسيحيين والمسلمين وعى معين بشخصياتهم التى تميزهم عن بعضهم البعض وتجعلهم بشكل عام فى موضع التعارض، ومع ذلك فإن الصراعات القائمة بين الكنائس المسيحية المختلفة وانزواء الكنائس الشرقية قد حصرت هذا الوعى بالنسبة للأوروبى العادى فى الكنيسة الرومانية مع اتجاه معين نحو الكنيسة البيزنطية التى كانت تابعة لها مبدئيًا. ولا يبدو أن الكنائس الشرقية التى كانت منفصلة عقائدياً ومحمية من التدخلات الخارجية بفعل الهيمنة الإسلامية قد سعت يومًا للبحث عن تجديد الصلة مع روما، باستثناء ما فعله أحد الكاثوليكيين الأرمن بوقت قليل قبل الحملة الصليبية وذلك ضد بيزنطة، لكن لم تكن له أية نية فى طلب النجدة العسكرية. وكان الإحساس بالتضامن العميق لدى المسلمين مع مجموع «الأمة» إحساسًا أقوى بالرغم من تعدد الفرق وغياب السلطة العقائدية رسمية، وكان القانون يميز بين أراضٍ خاضعة لدار الإسلام حيث كانت تتم حماية الذميين وأراضٍ خارجة عنها حيث تسرى أحكام الحرب أى الجهاد ضد الكفار.

* * *

ويمكن ان ندرك ما للحج إلى الأماكن المقدسة التى شهدت آلام المسيح وأحداث أخرى

(*) رشيد الدين (حوالى ١٢٤٧ - ١٣١٨) له عدة مؤلفات أشهرها «جامع التواريخ». وهو عبارة عن تاريخ للمغول بدأ فى تدوينه استجابة لطلب غازان محمود خان ولذا يعرف الكتاب أيضًا باسم «تاريخ غازانى». ثم بعد موت غازان قام باستكماله ليصبح تاريخًا عامًا للعالم الإسلامى ويشمل الكتاب على جزئين : الأول تناول تاريخ القبائل التركية والمغولية مع الإشارة إلى الأساطير المتعلقة بهم وكذلك عصر جينكيز خان وأسلافه أما الجزء الثانى فيحتوى على مقدمة منذ بداية الخلق ثم الملوك القدامى والأسرات الحاكمة فى فارس وتاريخ العالم الإسلامى حتى سنة ١٢٥٨ كذلك تكلم عن الهند والصين وتناول تاريخ الفرنجة فى غرب أوروبا. انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة : رشيد الدين - طبيب (المترجم).

محفورة فى ذاكرة المؤمنين، من قيمة عاطفية عظمى بالنسبة إليهم. وأكثر من ذلك كانت العقلية السائدة تعزو لهذه الأماكن المقدسة ولرفات القديسين قيمة ذاتية خاصة تخلص الإنسان من الخطايا والأمراض وتستجيب لأدعيته. وفوق ذلك فإن مما يجدر ملاحظته أن التعلق بأماكن الحج لم يكن مرتبطًا بالضرورة بوفرة الذكريات التاريخية؛ فالشهرة شبه الفجائية التى نالتها هذه المعجزة فى البداية جعلت للقديس جاك الكومبوستيلى مكانة مضارعة لشهرة مدينة القدس ذاتها وذلك راجع بلا ريب إلى مهارة أتباعه من الرهبان من غير أن يقع أى حدث وارد فى الكتب المقدسة. إضافة إلى ذلك ينبغى التأكيد على أن الخلط بين السلطتين الأخروية والسياسية لم يحدث قط فى ذهن المؤمنين وقلما نازع أحد فى الغرب أولوية روما وإن لم تكن مزارًا للحجاج بشكل ملحوظ. وفى المقابل لم يطمع القديس جاك الكومبوستيلى فى أية سلطة قيادية داخل الكنيسة. وعلى الرغم من بعض المطالب الناتجة عن الكبرياء الذاتى فإن رجال الدين اللاتينيين لم يتصوروا قط أن تكون مدينة القدس نفسها فى منزلة روما، ومع ما لنداء الأرض المقدسة من قوة روحية فلم يؤخذ قط مأخذًا إلزاميًا، وحتى القرن الحادى عشر كان الحج بوصفه ظاهرة جماهيرية واقعة حديثة وقبله كان يتم بأعداد قليلة جدًا وبأشكال فردية. ومن المؤكد أن توسع حركة الحج إبان القرن الحادى عشر كان يرتبط بانتشار الإيمان كما يرتبط كذلك بالتسهيلات الجديدة الناتجة عن تحول شعوب أوروبا الوسطى إلى المسيحية وانتعاش التجارة بالبحر الأبيض المتوسط(٣٣).

يمثل الشرق من خلال هذه اللوحة خطوطًا متوازية غير كاملة إلا أنها متواترة. فالمسيحية، على الأقل، بعد الفترة الآبائية قد طورت مزارات محلية أو فى أماكن بعيدة من غير أن يكون لأى منها أهمية خاصة. وبالطبع كانت مدينة القدس تجتذب الناس من كل الكنائس، وبصفة خاصة الكنائس الشرقية المتأثرة بمعجزة النار المقدسة(٣٤) فى أعياد الفصح لكنها لم تكن مقصدًا لعدد كثيف من الحجاج، ولا حائزة على امتيازات خاصة(٣٥). فلا يبدو أن الناس قد اغتاظوا بشدة من الهيمنة السياسية لغير المسيحيين على الأماكن التى شهدت حياة المسيح وآلامه.

كان للعرب، قبل الإسلام، مزارات من بينها مكة التى كانت مزارًا أساسيًا فى السابق، وكان الحج إليها يقع فى تاريخ محدد، فكان مناسبة للالتقاء بين الرحل وتموين السوق. وقد قام محمد بأسلمة الحج ولم يلغه ولو أن اعتماد السنة القمرية قد منع عنه التسهيلات الزراعية – المناخية.

وبالطبع لقد غير انتشار الإسلام فى العالم معطيات هذا الأمر. فنحن نجهل ما كان عليه الحج فى القرون الهجرية الأولى. أما فيما بعد صار واحداً من أعظم اهتمامات الأنظمة الحاكمة جميعها ومكانًا للقاءات الدولية فى تاريخ محدد. وهو فى الوقت نفسه إلزامى وغير إلزامى بمعنى أنه فريضة سنوية بالنسبة للأمة ولمن استطاع إليه سبيلاً من الأفراد مرة فى العمر، ومن لم يستطع وهو قادر عليه ساعد عليه الآخرين أو استناب عنه غيره. ولم تكن مكة قط عاصمة إسلامية ولم يتضمن الحج إليها أى مقصد من هذا النوع. وقد حفظت جيداً الحجر الأسود الذى يفترض أن يكون إبراهيم قد عرفه ولكن لم يدفن فيها الرسول ولا أحد من صحابته الأكثر شهرة. كان العبور يتم من مكة إلى المدينة التى كانت عاصمة الأمة خلال نشأتها وفى عهد الخلفاء الثلاثة وحتى هناك لم يكن الأمر يتعلق بعبادة رفات القديسين ولا باستثارة المطامع السياسية(٣٦). فإقامة الحج الأكبر لم يكن مانعًا لتنظيم رحلات حج صغرى إقليمية وأحياناً بين مختلف الطوائف(٣٧). أما مدينة القدس فقد تنوعت المكانة التى احتلتها فى سلم المقدسات بتنوع الأزمان.

لقد حافظ يهود الشرق والغرب هم كذلك على ارتباط عاطفى بهذه المدينة التى يوجد بها هيكل سليمان (٣٨)، ومن كانت لديهم الاستطاعة فإنهم كانوا يتوقون للحج إليها مرة فى حياتهم حتى ولو كان ذلك عبر رحلاتهم التجارية. ومن المهم أن نلاحظ اتساع حركة الحج لديهم، حسبما يبدو، أثناء القرن الحادى عشر مثلما كان الأمر لدى المسيحيين مع مراعاة الفروق بينهما فى هذا الشأن. زد على ذلك أنهم كانوا يعرفون تقريباً أن إخوانهم فى الدين بالشرق كانوا أرفع درجة منهم ثقافيًا وعقائديًا فكانوا يأملون زيارتهم واستشارتهم. وربما حصل فى القرن الحادى عشر نوع من الإحياء اليهودى فى البحر الأبيض المتوسط الغربى فى إطار التجارة بين الطوائف بالمغرب الشرقى وصقلية وجنوب إيطاليا، ولعله اتخذ إلى حد ما مظهراً تبشيريًا كما قد تشهد بذلك قصة هذا الفارس النورماندى عُبَاديه الذى اعتنق اليهودية وقضى بقية حياته فى الشرق وسط إخوانه فى الدين فى فترة الحملة الصليبية الأولى تقريبًا. غالبًا ما قيل إن الغزو التركى قد ألحق ضرراً بالحجاج، لكن ثمة ما يدعو لإبداء كل التحفظات التى تبيناها فى هذا الشأن.

الفصل الرابع

الغرب عشية الحرب الصليبية

بدايات الحملة

لن أسهب فى الحديث عن تطور مسلك الكنيسة فيما يتعلق بالحرب المقدسة أو بالحرب بصفة عامة فى أواسط العصر الوسيط(١)، فهو أمر أجاد المختصون فى هذه الحقبة توضيحه منذ فترة. ومن غير أن نرجع إلى بداية تاريخ المسيحية يمكن القول بأن الكنيسة قد سلمت السلطة الزمنية للإمبراطورية طوال فترة بدايات العصر الوسيط واقتصرت على تشجيع أو مباركة تلك الحروب التى اقيمت دفاعًا عن العالم المسيحى بل وحتى لتوسيع مجاله. غير أنها كانت قد انتهت آنذاك إلى فكرة مؤداها أنه إذا كانت السلطة الزمنية قاصرة أو بالأحرى معادية فإنه يحق للكنيسة بل من واجبها أن تقرر شن الحروب التى لم يكن رجال الدين بطبيعة الحال يقاتلون فيها بأنفسهم وإنما كانوا يصاحبون الجيوش فقط. وبارتباط مع هذه الفكرة الجديدة تطورت كذلك فكرة كان قد صرح بها من قبل جريجوار السابع وكانت فكرة معتادة بالنسبة لرجال الكهنوت الذين اختيروا بكثرة من داخل طبقة السادة الإقطاعيين، وهى أن الخدمة العسكرية يمكن أن تؤدَّى فى سبيل الكنيسة أو فى سبيل الرؤساء الدنيويين، وهكذا كان يمكن للحروب الداخلية المدمرة التى سعى سلام الرب وهدنة الرب(*) لمحاصرتها أن تلغى أو أن تتحول فى أضعف الأحوال إلى حروب فى سبيل العقيدة. لقد كان هذا التطور صفة مميزة للغرب إذ كان غريبًا عن العقلية البيزنطية. صحيح أن البيزنطيين خاضوا حربًا ضد المسلمين حيث صاحب الصليب حملاتهم التى كان لها أحيانًا لدى عامة الناس قيمة يشوبها شعور تقديسى عميق(٢). ومع ذلك فقد كان ثمة اختلاف جوهرى جعل روما تقترب دائمًا فى مسلكها من الإسلام، وفى الواقع كانت هناك فى الغرب فكرة منحتها البابوية صفة رسمية وهى أن المشاركة فى حرب مقدسة هو إحدى عوامل الخلاص بالنسبة للمحارب بينما لم تمنح الكنيسة البيزنطية لفكرة الحرب المقدسة كل قوتها قط. إضافة إلى ذلك بما أنه لا يوجد فصل بين السلطة الزمنية والروحية فى الشرق بالكيفية نفسها التى يوجد عليها فى الغرب فإن مفهوم حرب منظمة من قبل الكنيسة لم يكن يظهر فيه بالطريقة نفسها.

(*) (سلام الرب وهدنة الرب) عندما كانت الحروب الإقطاعية تمزق أوروبا فى القرنين العاشر والحادى عشر ظهرت حركة تدعو إلى السلام من خلال تيارين أساسيين هما سلام الرب وهدنة الرب. واستهدفت هذه الحركة تقييد الحروب الإقطاعية فى أيام معينة لتحديد نطاقها ومحاصرة أضرارها، وقد تولت الكنيسة الكاثوليكية دورًا مهمًا فى حركة السلام هذه واستخدمتها كوسيلة لزيادة سلطاتها حيث كونت لنفسها فرقًا لفرض السلام بالحرب ضد من ينتهكون هدنة الرب وسلام الرب، وكانت هذه خطوة مهمة نحو عسكرة الكنيسة الكاثوليكية وإرهاصًا لدورها الكبير فى الدعوة للحروب الصليبية كما يذهب إلى ذلك د. قاسم عبده قاسم الذى ترجم نصين لمعاهدتين إحداهما تتعلق بسلام الرب والأخرى تتعلق بهدنة الرب. راجع فى ذلك: الحروب الصليبية – نصوص ووثائق ترجمها وعلق عليها د. قاسم عبده قاسم – العربية للدرسات والنشر. (المترجم)

ومن جهة أخرى إذا كان الإمبراطور يوحنا تزمسكيس (ابن شمشقيق)(*) فى القرن العاشر قد دفع بكتيبة عسكرية استطلاعية نحو القدس (بدون الوصول إليها ومن غير إصرار كبير على الرغم من إصرار منشوره الدعائى) فإن المؤكد أن ما كان يهم بيزنطة هو وجود أحدور مانع على الحدود الممتدة من شمال سوريا إلى أرمينيا لا السيطرة على المدينة المقدسة من خارج المركز. أجل لقد كانت القدس مدينة مقدسة غير أن ذلك لم يكن يستتبع أن تكون تحت سلطة المسيحيين فقط، ولعل تعصباً إسلامياً قد عَجّل بطرح هذا السؤال، إلا انه فى الواقع لم يكن وارداً فسيادة المدينة على الصعيد الدينى لم تكن قد امتدت بعد فى شكل التزام سياسى، من المؤكد أن بيزنطة، على صعيد المبادىء، لم تقبل أبداً أن يكون لفقدانها بعض أراضيها دلالة على أنها لم تعد تنتمى إليها إلا أن ذلك فى الواقع لم يكن ينطبق إلا على مقاطعاتها المفقودة حديثًا لصالح الأتراك بالنسبة للحدود القائمة فى القرن الحادى عشر وليس بالنسبة لفلسطين التى فقدت منذ الفتوحات العربية فى القرن السابع.

لقد تطورت فى الغرب فكرة الحرب المقدسة وممارستها تحت رعاية البابوية. ومع حسن معرفتنا للوقائع فإن من المجدى تحديد بعض منها ولاسيما التذكير بأن أخذ المبادرات فى هذا الشأن تم قبل موقعة ملاذجرت فى آسيا الصغرى تجاه الأتراك وبالأحرى قبل وصول المرابطين إلى أسبانيا. أما فى القرون السابقة فإن هجوم المسلمين هو الذى دفع المسيحيين بأسبانيا أو البابوية فى إيطاليا إلى حمل السلاح أو الحث على حمله. لكن الخطر الإسلامى، فى أواسط القرن الحادى عشر، قد تضاءل كثيراً وشارف على الزوال فتفككت الدول الإسلامية فى أسبانيا وأفريقيا الشمالية وصقلية. ولتخفيف أثر الدمار الذى أحدثه الغزو الهلالى عكف المغاربة على ممارسة القرصنة بحدة متزايدة. وكان الهدف الذى توخاه البيازنة والجنوية من حملة المهدية (**) عام ١٠٨٨، هو تدمير أحد أوكارهم الرئيسية. لكننا لا نجد أن البابوية قد أولت اهتماماً فعالاً ومستمراً لهذه الحلقة من الصراع المعادى للمسلمين. لعل جريجوار فى مراسلته الودية مع أمير بجاية(***) كان يرمى إلى تقوية التحالف معه ضد أبناء عمه المعادين

(*) يعرف يوحنا تزمسكيس فى الأدبيات العربية باسم ابن شمشقيق، دخل دمشق والناصرة وبيروت بين عامى ٩٧٤ - ٩٧٦ ومات مسموماً على يد خلفه. (المنجد) - المترجم.

(**) توجد بلدة المهدية على البحر المتوسط فى تونس، بناها المهدى عبيد الله، لجا إليها الزيريون هرباً من غزوات الهلاليين، احتلها النورمانديين عام ١١٤٨، أصبحت مركزاً للقرصنة.

(***) بجاية : مدينة ساحلية ميناء فى الجزائر. كانت فى القرن الخامس مدينة منيعة بحصونها التى شيدها الفاندال... (المنجد فى اللغة) - المترجم.

له، وهم الزيريون فى تونس الذين كانوا يساندون مسلمى صقلية، غير أن موضوع المراسلة كان ينصب بالخصوص على وضع الجزء المحلى الصغير للعالم المسيحى وربما كان القصد الخفى منها بعض التجار الإيطاليين المرتبطين بالكرسى البابوى(٤).

ولم يكن الجهد الأول والأكبر للبابوية ضد المسلمين يسير فى هذا الاتجاه، وهنا كذلك نعثر من جديد على السياسة النورماندية للبابوية.. فحينما تم أول تفاهم بين النورمانديين والبابوية عام ١٠٥٩، قام النورمانديون بإهداء هذه الأخيرة أراضٍ كانوا يمتلكونها أو يملكون حق غزوها، أى الأراضى التى كانوا يستهدفون أخذها من أيدى المسلمين فى صقلية إضافة إلى الأراضى التى انتزعوها من بيزنطة، وفيما بعد عندما صار روجيه الأول سيداً فعلياً على الجزيرة الكبرى، حصل على منصب مندوب بالكرسى البابوى بديلاً لأحد رجال الدين خلافاً لما جرت عليه العادة وعلينا أن نستخلص من هذه القصة أولاً وقبل أى شىء أن البابوية كانت تبارك مشروع حرب هجومية ضد الإسلام (أو مشروع هجوم مضاد مؤجل) من جهة ومن جهة ثانية كانت تسعى لتأسيس شبكة من الإقطاعيات الدنيوية التى كانت على سعتها تغتصب منطقة النفوذ التى ظلت إلى ذلك الحين مخصصة للإمبراطورية. وبالإضافة إلى ذلك فإن معاملة المسيحيين اليونانيين فى جنوب إيطاليا رغم ما تحلت به من تسامح فعلى فقد ألحقوا بروما على الصعيد التنظيمى وكان استقرار النورمانديين يعنى بالطبع بالنسبة للكنيسة الرومانية أن تقدماً قد تحقق.

وتتقارب هنا الملاحظات بالنسبة لاسبانيا. ففى البداية لم يكن تدخل سادة الإقطاع فيما وراء جبال البرانس من عمل البابوية. فقد كان الأمراء المسيحيون باسبانيا الشمالية يسعون للاستفادة من ضعف جيرانهم المسلمين للتوسع على حسابهم وقد استقبلوا بحرارة المساعدات التى أرسلها لهم السادة الاقطاعيون الفرنسيون المنتمون لمناطق الأكيتان أو البورجونيون، وقد تم تجنيدهم عموماً عبر الدعاية وتحت قيادة نظام كلونى. من هنا أطلقت خطأ تسمية حملة بارباسرو الصليبية (عام ١٠٦٣) ومع أن هذه الحملة قد ربطت منذ مدة طويلة بتدخل البابا الكسندر الثانى فإن من المحقق الآن أنها كانت ترجع إلى ظروف أخرى، غير أن ما يهم هنا هو تدخل البابا. لقد حدث ذلك تحت تأثير كلونى بما أن الأمر كان متعلقاً ببابوات كلونيين. ويلاحظ من جهة ثانية أن بعض الرجال المرسلين إلى أسبانيا، على الأقل، كانت لديهم علاقة ما بالنورمانديين بإيطاليا. لكن الأمر الجوهرى لا يكمن هنا، لقد قلنا سابقاً أن الفرنسيين جاؤوا إلى أسبانيا بعقلية مختلفة عن عقلية الأسبانيين. والحال أن الكرسى

البابوى كان يتبع فى أسبانيا، كما فى إيطاليا الجنوبية، سياسة إعادة الإدماج الدينى على حساب الكنيسة اليونانية فى إيطاليا الجنوبية وعلى حساب الكنيسة المحلية فى أسبانيا حيث كانت علاقتها مع كنيسة روما قد انقطعت بفعل الظروف المختلفة للحياة فى عهد الإسلام وكانت قد شهدت نمواً مختلفًا من نواح عديدة عن ممارسات الكنيسة الرومانية. لقد كان إصلاح الكنيسة يتضمن حسب الفهم السائد فى روما وحدة قيادية تابعة للبابوية مما ينتج عنه استيعاب الاتجاهات ذات الطابع الاستقلالى الذاتى. كانت تلك فكرة كلونى، غير أن الأمر سار أبعد من فهم كلونى: حيث نشأت الفكرة القائلة بأن للكنيسة الرومانية أحقية خاصة فى الكنائس الواقعة فى الأراضى المسترجعة من أيدى الكفار. فى هذه الظروف صارت أسبانيا مجالاً للنفوذ الذى كانت البابوية تطالب به بصفة خاصة، وقد أدى إدخال العناصر الفرنجية (نظرًا لما كانوا يؤدونه من مساعدة عسكرية وما يتلقونه فى المقابل من مناطق نفوذ) إلى دعم الاتجاه الغربى الموالى لروما (وكان هذا أمرًا طبيعيًا آنذاك فى فرنسا) على حساب استقلال السلطة الكنسية فى أسبانيا(٥).

كان هناك اتجاهان بين الأمراء الأسبان أنفسهم. فقد أصبحت منطقة أرجونه وهى أكثر انفتاحًا جغرافيًا على التأثيرات الخارجية خاضعة لنفوذ الكرسى البابوى شأنها فى ذلك شأن النورمانديين بينما حدث العكس فى منطقة قشتالة حيث أثارت المطالب البابوية صراعًا ربما كان سببًا فى تخلى الإسكندر الثانى عن مشروع التدخل العسكرى الذى كان قد أعده فى نهاية مدة رئاسة البابوية. ولا نرى إن كانت ثمة عقوبة بابوية وجهت إلى الحملات الفرنسية التى استؤنفت بعد ذلك فى أسبانيا حتى قيام التحالف المعادى للمرابطين عام ١٠٨٧، وقد جاء سلوكهم مخالفًا للتقاليد الاسبانية السائدة إلى درجة الاصطدام مع مشاعر المسيحيين أنفسهم برغم أنهم قد جاؤا لنجدتهم. وقد توصل أوربان الثانى، وهو الدبلوماسى المحنك، أثناء جولاته، إلى مصالحة مع الكنيسة الاسبانية فشجع منذ ذلك الحين الحملات الفرنسية تشجيعًا بارزًا فيما وراء جبال البرانس.

والحال أنه لم يكن يعول كثيرًا على العنصر البورجونى. ومن المؤكد أن الكرسى البابوى لم يَستَهِنْ قط بأمر تثبيت نفوذه ولو فى ممالك بعيدة، عندما تسنح الظروف بذلك كما حدث لوليام الفاتح بالنسبة لانجلترا. غير أن البابوية كانت تسعى بالخصوص لإحاطة نفسها بحلقة من الدول المقطعية(*) الواقعة على البحر المتوسط والقادرة على مساعدتها عند الضرورة لمواجهة

(*) تعود العلاقة التى تربط بين السيد الإقطاعى والمقطع (الفصل) إلى أواخر العصر الرومانى وبدايات =

الإمبراطور الألمانى والمسلمين بل وضد بيزنطة إذا تطلب الأمر ذلك. يبدو من خلال هذه الخطط أن دير سان فكتور بمارسيليا كان بمثابة المنافس لدير كلونى.

ولقد صار كونت مقاطعة بروفنسيا (عام ١٠٨١) وفيكونت مقاطعة ملجيل – مونبيليى (عام ١٠٨٦) وكونت مدينة برشلونة (وكانت تحت بابوية أوربان الثانى) مقطعين لروما شأنهم فى ذلك شأن الكونتيسة توسكان ماتيلد التى تركت وصية ميراث مقاطعاتها إلى البابوية. وكان جريجوار السابع هو الذى قدم التاج الملكى لزفونيمر الكرواتى كما حافظت البابوية على علاقات جيدة مع ريمون الصنجيلى الذى ألحق كونتية تولوز (عام ١٠٨٨) وبروفنسيا (عام ١٠٩٤) إلى ميراثه بإقليم اللانجدوك (عام ١٠٦٦).

وفى عام ١٠٨٧ كان ريمون واحداً من قادة التحالف المناهض للمرابطين باسبانيا وشارك كثير من مقطعيه فى الحملات خلال الأعوام التالية بتشجيع من البابا أوربان الثانى. ومن الغريب أن هذه الاعتداءات لم توجه ضد المرابطين وإنما ضد الدول الإسلامية الصغرى التى تعانى من الضعف بشمال شبه الجزيرة، وذلك إما لأنها اعتبرت حليفة للمرابطين أو بسبب الرغبة فى تحين فرصة انحطاطها. لكن النتيجة أن كل المسلمين بأسبانيا وهبوا أنفسهم فى نهاية المطاف للمرابطين الذين كانوا أبطال الحرب المقدسة المناهضة للمسيحيين. وهكذا لم يبق ثمة وجود فى بداية القرن الثانى عشر بأسبانيا سوى لكتلتين متنازعتين صارتا تشنان على بعضهما البعض حروباً مقدسة بانتظار مجىء الموحدين فى أواسط القرن وهم خلفاء المرابطين ليبدأوا فترة التعصب ضد المسيحيين الذين اشتُبه فى توافقهم مع بقية الشعوب اللاتينية.

وما سبق يعطى الانطباع بأن العلاقة المتعارف عليها منذ زمن بعيد بين السياسة الغربية والسياسة الشرقية للبابا أوربان الثانى لا تنحصر فى القيام بعمل مشترك ضد

= المجتمع الجرومانى. حيث يحيط أحد الأثرياء صاحب النفوذ نفسه بمجموعة من الأتباع ويكون حامياً لهم ويطلبون هم عونه ودعمه فى مواجهة الأخطار المتوقعة فى الداخل أو الخارج كما فى النظام الرومانى القديم الخاص بالحماية. وكذلك كانت العلاقة بين السيد والمقطع فى النظام الإقطاعى الغربى بالعصور الوسطى فى جوهرها ذات صفة تعاقدية وإن لم يكن ذلك بصورة مدونة فعلاً، ذلك أن السيد الإقطاعى كان يتوقع من مقطعه أن يؤدى له خدمات بعينها ويدفع له ضرائب معينة وكذلك كان المقطع يرى أن على السيد الإقطاعى تجاهه نوعاً من الواجبات عليه أن يؤديها من بينها أن يوفر القوة العسكرية الكافية للدفاع عن إقطاعته وقلعته. انظر فى ذلك الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٨، والعالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٤. (المترجم).

الإسلام أو استخدام الرجال الذين اكتسبوا فى الغرب التجربة اللازمة داخل الشرق. هذا أمر صحيح ولكن هناك شيء آخر؛ إذ لا يمكن أن نتحاشى التساؤل حول ما إذا كانت سياسة البابا أوربان الثانى فى البحر المتوسط وإسبانيا لا تقدم تفسيراً ولو جزئياً لما كان يدور فى ذهنه حول هدف الحروب الصليبية ألا وهو إنشاء قاعدة نفوذ فى الشرق لحساب كنيسة روما(٦). وقد أكدت الدراسات الحديثة أن الحملات الصليبية قد أرسلت إلى الشرق من قِبَلِ البابا لأداء مهمة صادقة ومخلصة تتمثل فى مساعدة الكسيس كومنين. وقد حاول المندوب البابوى أدهيمار المونتانى، وريمون الصنجيلى التولوزى – وهو الزعيم الذى يفترض أنه منظم الحملة – حماية هذه الخطة على الرغم من الموقف المخالف لغيره من القادة الآخرين لهذه الحملة. ومع ذلك لم تكن الأمور بسيطة إلى هذا الحد فما كان يأمله الكسيس كومنين هو الحصول على دعم أقوى ولكن من النوع نفسه المتعلق بوحدات القوات العسكرية الخاصة بالمرتزقة التى دأب على تجنيدها. ويستحيل ألا يكون قد شعر بأنه أمام قوة مستقلة عنه. وكان يلزمه بالتأكيد أن يتمكن من الحصول، وذلك بمشقة، على قسم الولاء من قبل معظم قادة الصليبيين بحيث يمتنعون بموجبه عن الاحتفاظ لأنفسهم بأية أرض كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية قبل الغزو التركى. على أن الأمر لم يكن يتعلق بمنعهم من غزو سوريا وفلسطين. وبما أن قضية الحملة الصليبية كانت من اختصاص البابا فلم يكن ممكنا بالطبع التماس الولاء من البابا ولا من مندوبه، ولاريب أن هذا يقدم أيضاً تفسيراً لرفض قسم الولاء من جانب ريمون الذى لم يكن معادياً لبيزنطة.

لقد أراد البابا أوربان الثانى نجدة بيزنطة، بدون تحفظ أو تحايل، لكن لم يمنعه ذلك من تدبير برنامجه الخاص، فهذا ما يمكننا أن نستنتجه من خلال التفكير فى الأحداث طالما لا نملك أى نص مكتوب. من الصعب الاعتقاد بأن أوربان الثانى لم يتوقع أو لم يبحث مسألة إنشاء دولة لاتينية فى سوريا وفلسطين يكون من شأنها تأسيس قاعدة نفوذ لاتينية ورومانية فى الشرق وذلك مهما اختلفت تصوراتنا حول العلاقات مع الكرسى البابوى وحتى لو بقى بالشرق مؤمنون ينتمون إلى عوالم مسيحية أخرى. وكانت بيزنطة ستقبل ذلك مادام أن النجدة اللاتينية كانت ستتيح لها استعادة أقاليمها المفقودة، أو فى كل الأحوال النجاة من التهديد التركى. ربما كان ذلك سيؤدى إلى ازدياد النفوذ اللاتينى فى الشرق بمقدار تضاؤل نفوذ بطرياركية القسطنطينية على بطرياركية أنطاكية والقدس. وما كان قد بدأ إنجازه فى صقلية وأسبانيا لزم أن يشمل فلسطين. وكون هذا البرنامج لم يكتب له التحقق لا يعنى أنه لم يكن فى الحسبان، وفى كل الأحوال فإن هذه الفرضية جديرة بالاعتبار(٧).

فى عام ١٠٩٥ قام أوربان الثانى بمبادرة انبثقت منها الحملة الصليبية الأولى. وكون أن هذه الحملة قد تمت وفقًا للشكل والمسار اللذين تصورهما أوربان الثانى أم لا فهذا ما سيظل مثارًا للجدال نظرًا لانعدام الوثائق التى من شأنها أن تطلعنا على آراء البابا التى لم تكن بالضرورة واضحة حول نتائج المشروع أو طريقة تنفيذه، ومهما يكن من أمر فإن الحملة الصليبية كانت بالنسبة له، ولأغلبية المشاركين بلا شك، قضية مرتبطة به مباشرة، لكنه لم يكن يستطيع المشاركة فيها كما أننا لا نتبين بوضوح ما إذا كان قد اعتبر الكونت التولوزى موكلاً بمهمة القيادة العامة للحملة والمندوب البابوى أدهيمار البويى مكلفًا بالسلطة الروحية.

ما هى الحالة التى كانت عليها العلاقات مع بيزنطة ؟ لقد وُجه نداء من بيزنطة، غير أنه فى عقول الأباطرة كان يتعلق بتلقى إمدادات متزايدة من قبيل المرتزقة النورمانديين الذين كانوا يجندونهم فى الغرب منذ فترة من الزمن، أو الفرسان الذين استقدموهم من طرف كونت اقليم الفالاندر. كان من الطبيعى أن يسعوا لإثارة اهتمام الكنيسة بوصفها ممثلة لإحدى السلطتين فى الغرب وأكثر إحساسًا بتعاسة العالم المسيحى، بيد أن هذا النداء ينبغى كذلك أن يوضع فى سياق آخر؛ فمنذ عام ١٠٥٤ حدث انشقاق بين مقرى كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما، الأمر الذى لم يؤد إلا إلى المخاطرة بالعلاقات السياسية بين البابوية والأباطرة البيزنطيين، ومع ذلك فإن الدراسات الحديثة تسمح بإعطاء تفسير أقل جذرية مما كان عليه الأمر سابقًا (٨).

بداية إن الحدث الذى حصل فى عام ١٠٥٤ كان تكريسًا لانفصال فعلى حصل سابقًا أكثر منه حدثًا جديدًا. وفى الأكثر كان ردًا على جهود التقارب التى أثارها الخطر النورماندى الذى كان يتربص بروما وبيزنطة على السواء. وبعد حدوث الانشقاق بقليل قررت روما أن تتفاهم مع النورمانديين حيث لم يكن بإمكانها أن تعتمد على بيزنطة وأن وتحارب فى الوقت ذاته الإمبراطورية الألمانية وغيرها. ثم إن الانشقاق الذى ازداد سوءًا مع الأيام لم يكن مختلفًا آنذاك عن الانشقاقات العارضة التى عرفها الناس سابقًا، وعلى أية حال لم يكن الأمر يتعلق ببدعة خارجة عن المألوف، ولم تكن القطيعة مع التنظيم الكنسى تعنى عدم الشعور بالانتماء إلى نفس الكنيسة الواحدة. وأخيرًا إذا كانت إرادة الانفصال عن الكنيسة الرومانية قوية لدى بطرياركية القسطنطينية فإنها كانت أقل قوة بكثير لدى بطرياركية أنطاكية التى قلما كان بينها وبين روما ما يثير النزاع وبشكل أقل فى القدس حيث كان البطريارك الإغريقى يحسن معاملة الحجاج اللاتينيين بالقدر نفسه أيضًا. فى هذه الظروف كانت المفاوضات بشأن تقديم

المساعدة العسكرية لبيزنطة بواسطة البابوية تتخذ شكل المساومة بين المسائل الروحية والدنيوية، وقد ظلت كذلك طوال أكثر من ثلاثة قرون وحتى نهاية الإمبراطورية البيزنطية إذ كان هناك شعور طبيعى من كلا الجانبين بالتعاون بين الغرب والشرق المسيحى فى مواجهة التهديد الإسلامى لكن ظلت مسألة الامدادات المادية، من الجانبين، مرتبطة تمام الارتباط بانضمام الكنائس، وقد جعلت بيزنطة الناس يعتقدون بأنها ستدفع الثمن المقابل للحصول على الإمدادات الكافية وكانت روما تبحث عن أفضل الطرق لاستخدام الإسعافات المادية من أجل تحقيق انضمام الكنائس وغالبًا ما كانت تجعل هذا شرطًا لذلك، لكن موقف البابوية لم يكن كذلك فى القرن الحادى عشر حول هذا الموضوع وسنرى ذلك بعد لحظة.

ومع أن الغزو التركى لم يظهر مغزاه كاملاً إلا بعد مرور فترة من الوقت فقد حث الأباطرة فى بيزنطة ابتداء من رومانوس ديوجين الرابع على توخى السلام مع النورمانديين والبابوية فى إيطاليا. وفى عام ١٠٧٤ لم يحصل ميشيل السابع على السلام مع النورمانديين فحسب بل كسب تحالفهم المؤقت معه مقابل تنازله عن إيطاليا. وكانت المسألة الدينية حجر عثرة فى طريق الجهود الموازية للتصالح مع البابوية غير أن هذه الجهود كانت أقل لزومًا فيما يبدو منذ أن حصل التحالف مع النورمانديين. غير أن القطيعة التدريجية التى أحدثتها حركة الإصلاح وتحرر الكنيسة بين روما وإمبراطورية الغرب قادت من جانبها البابوية إلى تحالف مع النورمانديين حيث تدعم على يد جريجوار السابع بعد فترة من التردد عام ١٠٧٦. ونظرًا للإطاحة بميشيل السابع عام ١٠٧٨ وظهور حزب جديد تقلد نيقفور بوتَّنيات السلطة، قام روبير جيسكار بإعداد حملة على الشاطئ الغربى لليونان بعد أن تمت له السيادة على إيطاليا الجنوبية وأصبح يتطلع لبسط سيطرته على ضفتى قناة الأوترانت. ولم يكن جريجوار السابع الذى كان فى حاجة إليه لمواجهة هنرى الرابع فى موضع يسمح له بالنقاش معه فمنحه مباركته وهذا يعنى التخلى عن سياسة التصالح مع القسطنطينية. لكن فى عام ١٠٨٥ توفى روبير جيسكار وجريجوار السابع، وبعد ثلاث سنوات توفى فيكتور الثالث بابا النورمانديين الذى خلف جريجوار وكان من بين النورمانديين الذين اقتسموا إرث جيسكار شقيقه الذى احتل المقام الأول ويدعى روجيه الأول فاتح جزيرة صقلية ولم يكن له أية مصلحة فى استمرار الحرب مع بيزنطة، إذ كان من الممكن أن تؤدى الحرب إلى تخلى اليونانيين بصقلية وأهل منطقة كالابرا عن مساعدته فى حالة حصول مصاعب مع مسلمى الجزيرة أو المغرب القريب. وفى القسطنطينية حل الكسيس كومنيين محل بوتينات وبعد أن ردَّ الغزو النورماندى بمساعدة

سكان مدينة البندقية، كما سنرى ذلك، أخذ يستشعر بصفة خاصة تفاقم الخطر التركى فى آسيا الصغرى بالأخص حيث وضع الإمبراطورية بين فكى كماشة بعد أن تضافر هذا الخطر مع التهديد الذى يمثله أبناء عمومتهم البتشنج على نهر الدانوب. وأخيراً فى عام ١٠٨٨ تولى البابوية البابا الجديد أوربان الثانى الذى كان دبلوماسيا مدركًا للخطر الناجم عن تحالف الإمبراطوريتين البيزنطية والألمانية واتحاد الكنائس لصالح البابا الزائف الذى عُين فى روما من قبل هنرى الرابع. ولم تحقق المفاوضات التى حفلت بها سنة ١٠٨٩ نتائج واضحة بل خلقت مناخًا جديداً. وكانت هناك محاولة للقضاء على الخلاف وتحاشى كل ما من شأنه أن يؤججه من جديد. وكان الأمل معقوداً على أن يؤدى التعاون الفعلى فى مجالات أخرى إلى جمع الشمل شيئًا فشيئًا. فبعث البابا إلى الكسيس بقليل من المعونات للتغلب على البتشنج، ولا ريب أن المناخ الجديد قد سمح كذلك بإرسال فرقة فلاندرية (انظر فيما بعد) كان من المتعذر إرسالها وقت قطع العلاقات. وعندما تم تنظيم الحملة لم يكن الغربيون يكنون لبيزنطة أى شعور بالعداء الدينى وبما أن الكسيس كومنين كان يطلب المعونة للإمبراطورية البيزنطية فقد أرسل له الغرب جيشًا لغزو الأراضى المقدسة. وكان هذا هو الهدف الوحيد الذى يمكن أن يحرك شعور العالم المسيحى اللاتينى. ومع ذلك حصلت عملية استبدال للهدف المتوخى ولو أن ذلك لم يظهر عند أى أحد من الرواة القدامى (أو المحدثين) فيما دونوه عن الحملة الصليبية. غير أن كاتبًا واحدًا من كتاب العصور الوسطى، على الأقل، تنبه لهذه المشكلة. فقد نبه الكاتب ب. شارانيس عام ١٩٤٩ إلى فقرة لكاتب حوليات بيزنطى فى بداية القرن الثالث عشر وهى توحى جيداً فيما يبدو أن الإمبراطور الكسيس كومنين ذاته هو الذى ركز دعوته أساسًا على إنقاذ الأماكن المقدسة وذلك بعد أن أدرك أن الإشارة إلى وضعية بيزنطة وحدها ليس كافيًا لكى يمنى المرء نفسه بالحصول على إمدادات هامة من الغرب وقد استخدم البيزنطيون أنفسهم من قبل موضوع إنقاذ الأماكن المقدسة وخاصة أثناء الحملة الخاطفة التى قام بها يوحنا تزمسكيس تحت أسوار(*) المدينة المقدسة عام ٩٧٥. غير أن الأمر هنا يتعلق بحدث

(*) يقول عزيز سوريال عطية فى هذا الشان : .. وعندما وصل إلى الجليل لم يحاول الاستيلاء على القدس، ولذلك لم يطلق عليه لقب أول محرر للقبر المقدس... ويتعذر علينا الآن أن نعرف الأسباب الحقيقية لهذا الانسحاب ولعله شعر أنه غير قادر على أداء هذه المهمة. وكيفما كان فقد عاد إلى معسكره فى أنطاكية عام ٩٧٥ بعد أن أضاف إلى الأمبراطورية وادى نهر الكلب (العاصى) وفرض سيادته على إقليم دمشق. انظر : العلاقات بين الشرق والغرب. تجارية، ثقافية، صليبية، دار الثقافة المسيحية بمصر - ١٩٧٢ طبعة أولى - المترجم -

استثنائى إذ من المؤكد أن سياسة بيزنطة فى آسيا كانت تتجه نحو استعادة الأراضى التى تحمى مباشرة آسيا الصغرى أكثر من اتجاهها نحو امتلاك الأراضى البعيدة عن المركز مثل مدينة القدس. وليس مؤكداً أن بطريارك القسطنطينية الذى كانت استعادة أنطاكية سبباً فى حصوله على شريك ضمن الإمبراطورية. قد استعجل منح نفسه شريكاً ثانياً يتمثل فى شخص بطريارك القدس. لقد انشغل الأباطرة البيزنطيون فى بتريث فى إعادة ترميم قبر السيد المسيح بعد التخريب الذى أحدثه الحاكم بأمر الله وكان الحجاج اليونانيون يأتون إلى الأماكن المقدسة، ومع ذلك لا يمكن القول بأن القدس كانت تحتل فى الحياة الروحانية البيزنطية المكانة نفسها التى كانت لها فى الغرب. ومهما يكن من أمر فإذا كان لنص المؤرخ البيزنطى أهمية من حيث هو شهادة على ظاهرة الحملة الصليبية بعد قرن من حدوثها فهو لا يملك القيمة التى كان يمكن أن يكتسبها بقلم كاتب معاصر للأحداث. على أية حال فإن الحملة الصليبية كانت منظمة من طرف البابا الذى يعرف جيداً أن القسطنطينية ليست القدس، فقد تبنى سياسة محددة فى هذا الشأن لأنها كانت ملائمة له ولذا ينبغى أن نبحث هذه المرة حسبما هو مألوف عن منطق الأشياء من هذه الوجهة، أى من جهة البابا.

- وفى الفترة التى كان فيها مبعوثو الإمبراطور البيزنطى يمثلون أمام مجمع بولونيا، وحينما كان أوربان الثانى يدعو إلى الحملة الصليبية فى كليرمون بعد ذلك فإن الخطر التركى فى آسيا شأنه فى ذلك شأن الخطر الإسلامى فى إيطاليا وأسبانيا من قبل كان فى طريقه إلى الزوال منذ فترة. لقد توفى ملكشاه عام ١٠٩٢، وكان ورثته فى تنازع فيما بينهم وفى آسيا الصغرى الغربية على الأقل. كانت دسائس باسيللوس(*) تحييد صغار قادة التركمان بتسليط بعضهم على بعض ومن ثم أصبح استعادة الأراضى التى انتقلت مؤقتاً إلى أيدى البرابرة أمنية ممكنة كما حدث مراراً فى تاريخ الإمبراطورية. ولم يكن نداء بولونيا نداء يأس أو إعلان طوارئ بل كان مرتبطاً بالسياسة الواقعية لاسترداد الأراضى المغتصبة ولا ريب أن أوربان الثانى قد أدرك ذلك، لكنه لم ير أى سبب يدفعه لإبطاء جهده، بل على العكس إذ عهد تحقيق هذا الأمر فى البداية إلى أصدقائه الأوفياء وهم الكونت التولوزى ريمون الصنجيلى وأسقف بوى أدهيمار المونتايى، وكانت تجمع بينهما هما كذلك أواصر الصداقة. أما عن التفاصيل

(*) لقب يطلق على ملك الفرس وأباطرة بيزنطة وهو اسم لإثنين من أباطرة بيزنطة الأول الملقب بالمقدونى الذى أسس السلالة المقدونية وكان قد حارب العرب وعزل البطريرك فوتيوس، أما الثانى (٩٦٣ - ١٠٢٥) فقد لقب بقاتل البلغار وعقد صلحاً مع الخليفة الفاطمى الحاكم وازدهرت فى عهده الإمبراطورية البيزنطية (المترجم)

الخاصة بما سينجم من نتائج فمن غير المجدى الاعتقاد بأن أفكاره كانت دقيقة فى هذا الشأن.

فى هذا الوقت بالذات تدخلت قوى جديدة بشكل غير متوقع أدت إلى تغيير وجه الحملة الصليبية إلى حال مختلف عما فكر فيه الكسيس وأوربان أو ريمون الصنجيلى على السواء. وينبغى علينا أن نوجه أنظارنا من جديد إلى الغرب.

كان إرسال الفرق المكونة على وجه خاص من الفرسان وعدة آلاف من الرجال على أقصى تقدير قد بُحث من كلا الجانبين. هل كان يدل ذلك على طموح أكبر للبابا أم أنه كان يخشى أن يتم التقصير فى تلبية ندائه وهل كانت القيمة الوجدانية المتصلة بالقدس تتجاوز ما كان يمكن أن يتخيله هو نفسه ؟ مهما يكن من أمر فإننا نعرف أن مجمع كليرمون قد أثار حماساً شعبيًا ربما أقلق البابا ذاته بسبب الفوضى التى يمكن أن تنشب عنه والمجازفة بسيطرة الكنيسة عليه. ولن نعود للكلام عما هو معلوم لدينا جيداً من الأحداث التى تطورت فى مناخ ازدهار الإيمان والآمال الاجتماعية والصوفية معاً. وإذا لم يكن من اللازم المبالغة فى عدد الصليبيين فإن ذلك لا يقلل من كونه شكل حركة جماهيرية بمقياس العصور الوسطى. وكانت عصابات فظة وغير منظمة قد سبقت الحملة الصليبية الرسمية وبصفة خاصة فى المنطقة الواقعة بين السوم والراين مؤكدة بذلك حركة اتجاه الرأى الذى ساد خلال القرن المنصرم فبدأت الحرب المقدسة بمذابح فى حق اليهود. غير أن هذه العصابات سرعان ما اندحرت عند لقائها بالأتراك وما تبقى منها التحق بأعضاء الحملات الصليبية الرسمية المكونة من السادة. لكن هذه الثنائية الأصلية ستظل واقعة محسوسة حتى نهاية الحملة الصليبية.

* * *

ترى ما هى القدرات العسكرية التى توافر عليها كلا الجانبين قبل أن يبدأ الصليبيون مهاجمة الشرقيين ؟

سنرى فى عدة مناسبات لاحقة مدى الأهمية التى كان يوليها المسلمون للسيوف الفرنجية فى مجال التسليح. من المؤكد أن صناعة الفولاذ المسقّى والمعروف فى الغرب تحت اسم «فولاذ دمشق» قد تمت فى الشرق ومن الممكن أن تكون هذه التقنية قد استوردت من الهند (مع ذلك لا يبدو أن الهند، التى تفتقر إلى الحديد، كانت المهد الحقيقى لتلك التقنية). وهى تعطى فولاذاً جذاباً بلمعانه وذا صلابة خاصة فى الوقت نفسه[٩] إلا أنه ليس ثمة شك فى أن صناعة الحديد قد حققت فى أوروبا الوسطى منذ العصور القديمة تقدماً نالت معه السيوف الفرنجية شهرة كانت كبيرة بمقدار ما كان يبدو هناك من عجز عن تقليدها فى الشرق[١٠]

وحتى القرن الثالث عشر كان الأوروبيون كما يروى الكاتب الفارسى ناصر الدين الطوسى يمنعون بيع هذه الأسلحة إلى الخارج بحيث أن السيف الفرنجى كان يباع فى مصر بألف دينار، فقد كان يضرب بالحد والسن معًا وذلك على النقيض من السيف الشرقى المعقوف الذى كان يضرب بالحد فقط.

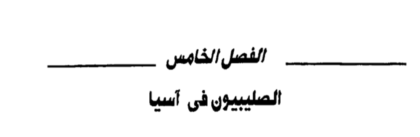
على العموم كانت إجراءات المعركة لدى الشرقيين والغربيين تعتمد، لدى كل منهما، على أولوية الخيالة، وهذا أمر معروف جيدًا غير أن سلاح الفرسان فى الغرب كان مدججًا وكثيفًا بينما فى الشرق كان خفيفًا. لقد تم فى أواخر العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى بالضبط اختراع أو إتقان السَّرْج والشكيمة ولاسيما الرِكاب الذى ييسر للفارس ثباتًا أكبر على ظهر الفرس وقدرة على تسلح أكثر ثقلاً. من الأمور المسلم بها فى الغرب أن هذا التجديد قد ساهم كثيرًا فى ازدهار الخيالة وبما أن حفظ الدواب وصيانة السلاح كانت تكلف غاليًا فقد أدى ذلك إلى أن تصبح الخيالة حكرًا على الأرستقراطية وربما كان هذا هو السبب فى ظهور نظام الإقطاع[١١]. ولكن علينا أن نلاحظ أن هذه الأسباب ذاتها لم يترتب عنها نتائج مماثلة داخل الشرق. فمن المحقق أن تطور الفن العسكرى الذى وصل فيه إلى حد الأسلحة النارية على الأقل كان يتم لصالح الخيالة ولطبقة من الفرسان. سواء كان الطقس يحول دون تغذية الخيول القوية مثل خيول أوروبا، أو كان الرجال لا يطيقون التدجج بالسلاح فإن التطور اتجه نحو الخيالة الخفيفة المتحركة القادرة على الفرار المصطنع والعودة المباغتة. وهذا الاختلاف نفسه نجده بشأن الرمح والحربة. إذ لم يكن العرب الأوائل يستخدمون سوى الحربة الخفيفة بينما كان الغربيون يحكمون قبضتهم على الرماح ويضربون بها بشدة. بيد أن الشرق قد حقق تقدمًا كبيرًا فى مجال قاذفات القلاع. ولم يهتم العرب الفاتحون كثيرًا بالقوس فقد كان سلاحًا للمشاة ويتصف بقوة ومدى محدودين. فما هو شبه مؤكد أن الأتراك هم الذين ابتكروا القذف من فوق الحصان بشكل أكثر إتقانًا وكان الاستقرار الجديد للفارس من فوق صهوة جواده يسمح له أن يستخدم أقوى الأقواس التى ترشق رماحها الفتاكة إلى أبعد مدى. أضف إلى ذلك أنهم طوروا فى الوقت ذاته طريقة قوامها الأقواس الخفيفة التى تطلق قذائفها من شتى الجهات بفضل حركية الخيول مما كان يربك للخصم. وكانت قاذفات القلاع والحصون التركية قد أصبحت سلاحًا لا غنى عنه لكافة الجيوش الشرقية وقد ضمنت لهم الانتصار فى كل معاركهم تقريبًا على البيزنطيين والعرب على السواء[١٢]. كان الغربيون يعرفون عملية القذف بالأقواس من فوق صهوة الحصان، كمرحلة وسيطة، وهو أمر لا يمنع من

ممارسة قذف المشاة، لكن يبدو أن التقدم الرئيسى فى الغرب كان إتقان القذافة التى تسمح باستهداف أفضل واستخدام رماح أقوى رغم ثقل السلاح الذى كان استخدامه يعتمد على ثلاثة رجال إلا نادراً.

لقد عرف الشرق منذ القدم القذافة (المنجنيق) ويبدو أن اللفظة الدالة عليها فى اللغة الإغريقية البيزنطية مطابقة لكلمة «إتشارك» الفارسية. غير أن الأميرة الكاتبة أن كومينين فى استخدامها لهذه الكلمة أثناء وصفها لمجىء الصليبيين إلى القسطنطينية كانت تمجد القذافات الفرنجية بوصفها ابتكاراً عظيماً مما يجعل تفوقها أمراً جلياً (١٣). لقد عرف الأتراك ولاسيما فرق الغلمان(*) بتخصصهم فى هذا الشأن من خلال ما سجلته أغانى المآثر(١٤) عندنا، وكانوا يحملون مثل الفرنجة شكات وإن كانت أخف. ففى إحدى المعارك قهرت الذخيرة الفرنجية الشهيرة الخصم بشكل لا يقاوم لكنه غالباً ما كان يتظاهر بالفرار وبينما كان الفرسان والمشاة الفرنجة ينهبون معسكر الخصم إذ به يعود فجأة إلى ساحة المعركة. كان المشاة والفرسان الفرنجة يحملون دروعاً أكثر ثقلاً وأشد وقاية من المجنات الدائرية الخفيفة التى كان يحتمى بها الشرقيون. وقد أخذ المسلمون بعد ذلك يلبسون الدرع الفرنجى تدريجياً. ويبدو أن كلمة طارقاً التى كانت تعنى لدى جيش المسلمين فى عهد صلاح الدين، شكلاً من الدروع الكبيرة يبدو أنها مشتقة من كلمة «تارج» الأوروبية. فربما كان الأوروبيون أكثر تفوقاً على المستوى التكنولوجى من خصومهم فى بعض الجوانب لكن لا داعى للمبالغة فى هذا الشأن. إذ لم يحقق الأوروبيون تقدماً هائلاً فى مجال التحصينات ومدفعية الحصار إلا بعد استقرارهم فى الشرق فقد تطلب الاستيلاء على أنطاكية سبعة أشهر من الحصار وتم الاستيلاء على المدن الأخرى بسبب المجاعة السائدة أو تدنى معنويات الخصم. أضف إلى ذلك أن مدفعية الحصار ربما كان من العسير أن تنقل من الغرب إلى الشرق فكانوا يصنعونها فى المكان عينه، على أية حال فإن التقنية التى تُبتكر فى منطقة معينة لمواجهة خصم بعينه لا تكون صالحة بالضرورة فى ظروف أخرى مختلفة. ومن الصعب أن نقيّم ما تتضمنه الحماسة الدينية لدى بعض الصليبيين، أو

(*) يقول هاملتون جب عن فرق الغلمان : وعلى أى حال فإننا هنا لا نوجه اهتماماً مباشراً إلى الأيج الوغلانات وذلك بحكم أنهم لم يكونوا تابعين للجيش بل للخدمة فى القصور السلطانية ولهذا سنقتصر اهتمامنا هنا على ما تبقى من المجندين الذين كان يطلق عليهم اسم (عجمى أو غلان) ومعناه الحرفى الغلمان الأجانب وكان هؤلاء الأخيرون يخضعون لنوع مختلف من التعليم كان يتوخى منه فى المحل الأول أن يعودوا على قوة الاحتمال. انظر المجتمع الإسلامى والغرب - تأليف هاملتون جب جـ ١ عن دار المعارف ١٩٧١ انظر كذلك، لمزيد من الإيضاح، مادة غلام GHULAM بالموسوعة الإسلامية (المترجم).

إنهاكم الجسدى من عناصر إيجابية أو سلبية فى الحرب. كما ليس من السهل أن نقيم العوامل الأخلاقية لدى الجيوش التركية التى كانت فى مواجهتهم. لقد رأينا أن هذه الجيوش كانت تتميز بكونها أجنبية التكوين مما ترتب عليه عدم استثارة حماسة الجهاد لدى السكان المحليين. ومع ذلك لا ينبغى أن نهمل روح التضامن الإسلامى والتماسك اللذين يتوافران لدى جحافل العساكر إن لم يكن لدى قادتهم. ونحن لا نعرف عدد القوات المقاتلة فى جيوش الصليبيين، أما الجيوش التركية المواجهة لهم فلم تكن كثيرة العدد لكن ميزتها أنها لم تكن مزدحمة بالحشود غير المحاربة. ومهما يكن من أمر فإن عدداً مهماً من الصليبيين عاد إلى أوروبا بعد أن تم الاستيلاء على القدس، ومن المؤكد أن إتمام الغزو لم يقم به من الناحية العسكرية إلا بضع مئات من الفرسان المحاطين ببضعة آلاف من المشاة الذين ساهموا إلى حد ما فى الحرب.



الفصل الخامس

الصليبيون فى آسيا

سيكون من غير المجدى أن نكرر الحديث فى هذا الفصل عن الحملة الصليبية الأولى(١). وسنقتصر على التذكير ببعض أهم الخصائص والوقائع الرئيسية. لقد قيل مراراً إن الحملة الصليبية هى عمل فرنسى أساساً وهذا صحيح إذا حمّلنا هذه الكلمة دلالة عرقية أكثر منها سياسية طالما أن جودفروا البويونى كان يرتبط سياسياً بالإمبراطورية. بالطبع كان هناك رينانيون(*) وإنجليز وإيطاليون بل وحتى إسكندنافيون ومع ذلك لا يمكن لأحد أن ينكر غلبة الجانب الفرنسى فى هذا الشأن.

إذا تركنا جانبا التأملات المجانية حول طباع أسلافنا أو طباعنا الخاصة فإننا سنكتفى بملاحظة أن هذه المشاركة الفرنسية كانت متفاوتة وأن الامتناع عن المشاركة فى فرنسا أو فى غيرها ترجع لأسباب عديدة. ففى ألمانيا حال الصراع بين الإمبراطورية والبابوية دون الدعاية الرسمية للحملة الصليبية حيث أن العصابات التى انضمت إلى صفوف الصليبيين فى منطقة الرين أو سبقت انطلاق الحملة انما جندت من قبل الخطباء الشعبيين. فالصليبيون المنحدرون من الإمبراطورية وحتى غيرهم من الذين قادهم سابقًا بطرس الناسك من شمال فرنسا، ولم يتيسر لهم العبور البحرى عبر إيطاليا، وصلوا إلى الشرق عبر ألمانيا (الأمر الذى صار ممكنًا منذ تحول المجريون إلى المسيحية) دون معارضة من الإمبراطور، لكنه لم يستطع تشجيع الحملة التى أرادها البابا فهو ولاريب كان يفضل الاحتفاظ بجنوده داخل بلده استعداداً لحروبه فى إيطاليا بينما كانت الغالبية العظمى من الألمان الشرقيين تعتبر أن ما يجاورها من الأعداء سواء كانوا مسيحيين أم لا يحول بينها وبين تعقب الأعداء فى أماكن نائية. وفوق ذلك كله فإن شن حملة على الشرق كان يجب أن يتم من قبل الإمبراطور كما حدث فى الحروب الدينية السابقة فى سبيل العقيدة، هذا الأمبراطور الذى بورك من طرف البابا وإن لم يكن لهذا الأخير دور فى هذا الشأن وكانت مثل هذه الأفكار موضع إثارة ونقاش من قبل حاشية البابا الزائف جيبير وهنرى الرابع(٢)، بقى أن نذكر بعد ذلك أن جودفروا قام أثناء مغادرته الإمبراطورية برهن أراضيه عند مقطعين علمانيين وكنسيين تابعين للإمبراطور ويمكن ان يفسر اختياره الطريق الذى سلكه فى رحلته برغبته تجنب المناطق الإيطالية المراقبة من قبل البابا أوربان الثانى خلافًا لبقية الصليبيين.

فى فرنسا بالذات يمكن ملاحظة أن أهل منطقة الاكيتان وبواتييه وبورجونيا الذين تعودوا على الحروب المندلعة فى أسبانيا امتنعوا عن الالتحاق بالحملة الصليبية بمعناها الدقيق

(*) نسبة إلى نهر الرين الذى ينبع فى جبال الألب ويخترق سويسرا وفرنسا وألمانيا الغربية وهولندا ليصب فى بحر الشمال – المترجم –

ولم يذعنوا للانقياد نحو الشرق إلا لاحقًا بعد فوز من سبقهم[٣] ويجب أن نضيف إلى أن هذا الانقياد قد تم بشكل جر عليهم عواقب وخيمة.

فإذا صح أن جيش ريمون الصنجيلى كان جيشًا قويًا نسبيًا فيغلب على الظن أن معظم أفراد الحملة الصليبية كانوا منحدرين من الشمال مما يدل على أنهم كانوا أقل اطلاعًا بأمور الشرق وأقل استعدادًا للتعايش السلمى فى أى شكل من أشكاله - باستثناء النورمانديين البوهيمدنين الذين نقلوا إلى الجنوب الأقصى[٤]. كما ضمت الحملة أفرادًا إيطاليين. ويستدعى الأمر هنا كذلك إجراء تمييزات دقيقة فى هذا الشأن ففى الحملة الصليبية بمعناها الدقيق وفى الحملات الصليبية المتأخرة أخذ البواتيون(*) والبرجونيون مكان الإيطاليين بالشمال رغم أن البابا كان يميل أكثر لاستبقائهم مخافة أن تضعف قواه. إذ لم يكن عدد الجنود مرتفعًا، ولم يكن لهم قائد يتزعمهم وكانوا مندمجين فى جيش ريمون الصنجيلى وكان ضمن أعضاء الحملة كذلك بحارة وتجار من موانىء مختلفة، ومهما تعاظم دورهم بفضل نشاطهم البحرى فقد كان عددهم متواضعًا، إضافة إلى أنه لم يمكث أى منهم تقريبًا فى الشرق وأخيرًا فإن آخر فئة كانت مكونة من نورماندى الجنوب وهى ما سنركز عليه الحديث بعض الشىء.

لقد رأينا كيف أن موقفهم قبل الحملة الصليبية لم يكن يؤهلهم للقيام بأية مبادرة فى هذه الحملة. صحيح ان إحدى الجيوش التى شاركت فى الحملة الصليبية كان لها أن تحتل مكانة هامة بها تحت قيادة بوهيموند الترانتى وكان هذا الأخير يمثل ضمن النورمانديين الشخص الذى واجه بيزنطة والذى ورث من أبيه السياسة المعادية لبيزنطة وهى السياسة التى كان شريكًا فيها من قبل. وينبغى أن نفهم كذلك أن حالة التجزئة التى كانت عليها الأراضى النورماندية منذ وفاة روبير جيسكار أضعفت أمل بوهيموند فى العثور فيها على منطقة نفوذ فى مستوى طموحاته. وأخيرًا فقد كان يحيط ببوهيموند بعض هؤلاء النورمانديين ممن كان أبناء عمومتهم قد امتهنوا وظائف عسكرية فى الجيش البيزنطى منذ زمن طويل وأفادوا منها أرباحًا طائلة. لقد وجد كل هؤلاء الناس فى الحملة الصليبية التى نظمت بالارتباط مع الإمبراطورية البيزنطية، وابتداء على أرضها، فرصة لاستعادة الأحلام الغابرة التى لم تكن لها بالقدس إلا صلة واهية، وبالمقابل فإن بقية النورمانديين الآخرين من صقلية وحتى من الساحل التيرانى فى شبه الجزيرة الإيطالية قد مكثوا فى ديارهم، ولم يسترعِ هذا الأمر ما يستحق من انتباه. لقد تضمنت رواية المؤرخ العربى ابن الأثير التى كتبت بعد الحملة الصليبية بقرن وربع،

(*) نسبة إلى مدينة بواتييه الفرنسية - المترجم -

ولم يكن من دأبه الاختلاق، جانبًا فلكوريًا يحتمل أن يكون قد وقع فيها بعض الخلط مع الحملة الصليبية الثانية غير أنها كانت تحتوى على حقيقة جوهرية لها دلالتها. وربما أجاب الأمير النورماندى على قادة الصليبيين الفرنسيين حينما عبروا بالقرب منه للاستنجاد به ضد مسلمى أفريقيا، بأنه لا يرى داعيًا للمغامرة بعلاقاته الطيبة مع العالم الإسلامى بسبب غزوات غير محققة النتائج وهى غزوات عليه فى كل الأحوال أن يتقاسم غنائمها معهم، لذا عليهم أن يذهبوا إلى فلسطين وسيقتصر هو على تشجيعهم على ذلك. وسواء كانت هذه الرواية صادقة أم كاذبة فمن الواضح أنها كانت صحيحة من حيث السياسة التى رسمها(٦).

أما فيما يتعلق بالموانئ الإيطالية فينبغى أن نميز بين أمالفى من جهة وموانىء الشمال وهى جنوه وبيزا والبندقية من جهة ثانية، ويجب أن نضيف أنها لم تكن تقوم بالدور نفسه (فالموانىء الابولية(*) لم تساهم إلا فى نقل الصليبيين إلى اليونان). وعادة ما يقال إن الموانئ الشمالية الثلاثة شاركت فى الحملة الصليبية، وهذا أمر لاريب فيه ولكن كيف تم ذلك؛ يمكن أن نقول مسبقًا ونظيرًا لمعرفتنا كذلك بما حدث فيما بعد فى مصر والقسطنطينية إن تجار هذه الموانئ كان يتنازعهم الطمع فى الحصول على كنوز الشرق وذلك ليس على حساب المسلمين فحسب بل حتى على حساب منافسيهم الغربيين، والخشية من تضييع الفرص المتاحة لهم لممارسة التجارة فى بعض البلدان الإسلامية من جراء هذا المشروع المغامر.

كانت هذه هى التشكيلة التى تكون قوى الحملة الصليبية إذًا وذلك بصرف النظر عن العامة من الناس لاسيما الذين شاركوا بها من شمال فرنسا. كانت الرحلة، بالنسبة لهؤلاء الذين لم يكن فى علمهم شيئًا عن شروطها، ذات صلة وثيقة بالذكريات التوراتية إلى الحد الذى كان يصعب معه التمييز بين القدس الدنيوية والقدس السماوية. ترى كم كان عدد الناس فى كل ذلك ؟ من المخاطرة بمكان أن نضخم عدد المشاركين. فمن المؤكد أنه عدد ضخم بمقياس ذلك العصر، لكن كم منهم بلغ الهدف ؟ من الأفضل ألا نرجم بالغيب. إذ لم يكن هناك بالطبع هيئة إدارية ومن ثم لا يمكن التنبؤ بنفاد صبر ومطامع ذلك الحشد الذى لا يعرف شيئًا يذكر وهو فى طريقه لاجتياز بلاد وعرة يتكلم أهلها لغات غير مفهومة بالنسبة إليهم، فحدث النهب بل ونشبت المعارك. وقلما كان لديهم أتباع فى أوروبا الوسطى والبلقانية مع أنه من المفيد أن نسجل حالة الرعب واختلال النظام الذى اتسم بها مرور الصليبيين حتى داخل الأراضى البيزنطية(٨) كما ورد فى مراسلات ثيوفيلاكت الأوشريدى. أما من جانب الذين قدموا من إيطاليا وقاموا بعبور اليونان فقط، فإن الأذى كان أقل. غير أن كافة الصليبين أحدثوا مناخًا

(*) نسبة إلى منطقة أبولى الواقعة بوسط إيطاليا.

من الهيجان فى اللحظة التى كانت الحاجة تدعو إلى الثبات لتسوية المشاكل المستعصية الناتجة عن الاتصال مع بيزنطة.

لقد كانت المشاكل السياسية فى الحقيقة أشد خطورة وأبعد أثرًا. أما الانفصال عن الكنيسة الرومانية فقد كان آنذاك أقل أهمية. غير أنه كان من المحتم أن يحدث الصدام بين السلطات البيزنطية و«البرابرة» العصاة الذين اكتشفوا حضارة جديدة بالنسبة إليهم من جهة وبين الحكومة البيزنطية وقادة الصليبيين حول تصوراتهم لأوجه التعاون اللاحق بينهم من جهة أخرى. لقد ارتأى إمبراطور القسطنطينية أن يندمج الجيش القادم من الغرب فى النظام البيزنطى وأن يقاتل فى سبيل الأهداف المرسومة لهم مقابل الحصول على أجر وذلك على الرغم من أنه كان أكثر عددًا من المرتزقة الذين كانت بيزنطة قد جندتهم منذ جيلين فى أوروبا اللاتينية أو الجرمانية. وهكذا فإن ذكريات الفوضى التى تسبب فيها بعض المرتزقة خاصة النورمانديون خلال نصف القرن السابق ووجود رجل مثل بوهيموند ضمن القادة الصليبيين، وقد كان بالأمس عدوًا معلنًا لبيزنطة، أثار لدى هذه الأخيرة الشعور بعدم الثقة أو الانشغال بأخذ إحتياطات خاصة، فتمشيًا مع أعراف الغربيين طالبهم الإمبراطور بإعلان الولاء الذى يضمن له الاستعادة التامة لكل ما كان فى حوزة الإمبراطورية من قبل : لم يكن ذلك الأمر يشكل صعوبة خطيرة بالنسبة لكثير من القادة الصليبيين الذين اعتادوا عدة ممارسات لإعلان الولاء، إضافة إلى عدم رغبتهم فى الاستقرار الدائم فى الشرق، وكذلك الشأن بالنسبة لغيرهم إذ لم تكن لبيزنطة مطالب بشأن القدس وبلاد أخرى خارجة عن الأراضى التابعة لها. ولم يتبين بوهيموند الذى ينقصه الكثير من الحذق، لماذا لم يكن يستطيع بوصفه مقطعًا أن يحصل حتى داخل الأمبراطورية على ما حاول عبثًا الفوز به فى السابق حينما كان يقف فى صف الاعداء. وكان ريمون الصنجيلى هو الوحيد الذى رفض تأدية يمين الولاء إلا فيما يتصل بعدم الإضرار بالإمبراطورية. وبما أن الواجب كان يقتضى منه أن يسلك مسلك المتحالف الأمين مع الإمبراطورية فى السنوات اللاحقة فقد استغرب الناس من موقفه هذا. ومن المحتمل أن يكون ريمون الصنجيلى، وقد أشرك منذ البداية فى مشروع الحملة الصليبية كما صممها أوربان الثانى الذى كان يمثله فى قلب الجيش البروفنسالى صديقهما المشترك المندوب الرسولى أدهيمار المونتيلى، قد رأى استحالة أن يلحق الإذلال من خلال شخصه بقائده الأعلى هو أمام أى كان من غير أن يتضمن هذا الموقف رفض قسم الولاة عداوة لأحد (*). لقد نجحت

(*) عندما طلب الامبراطور البيزنطى من ريمون الصنجيلى أن يقسم له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل من =

المفاوضات أخيراً لكن كان من المحتم أن تخلف المساومات ونفاد الصبر فى نفوس الكثير من المحاربين الصليبيين الذين بهرتهم مفاتن المدينة الإمبراطورية[٩]، أحقاداً لا يقوى الاتفاق الرسمى بين القادة على تبديدها. لقد عمق مسار الحملة حدة الخلاف. فقد كان المقاتلون على استعداد لمحاربة الأتراك المقيمين فى الأراضى البيزنطية غير أن هدفهم كان مدينة القدس ولم يرغبوا إطلاقاً فى البقاء فى بلاد آسيا الصغرى غير المضيافة. وبخلاف ذلك لم يكن الأمر بالنسبة للإمبراطور الكسيس كومنين يتطلب الدخول فى الحرب قبل استرجاع المقاطعات القريبة من مضيقى الداردنيل والبوسفور وبحر إيجه والطرق المؤدية إلى سوريا أو أرمينيا. فلم تشارك بيزنطة فى مسيرة المقاتلين الصليبيين.

وبمجرد ما اجتاز الصليبيون حدود الإمبراطورية فى اتجاه آسيا وجدوا أنفسهم فى اتصال مع الشعوب «الشرقية»، التى كان يجمع بينها، على الرغم من تنوعها الشديد، عدم تمكنها من إدراك الجدة فى الحملة الفرنجية. ففى البلاد ذات السيادة الإسلامية التقليدية، التى لم تتغير بداخلها علاقات المسلمين بغير المسلمين فى شىء كما رأينا، ولم يصدر عنها أى نداء استغاثة فى اتجاه الغرب اتخذت الحملة الصليبية بالنسبة لهم مظهراً من المظاهر المتنوعة لما ألفوه من الحملات البيزنطية التى قلما كانت تخلف نتائج تذكر حتى حينما تحقق النصر. فى آسيا الصغرى كان الأتراك قد حاربوا مسيحيين محليين متشيعين لبيزنطة لكنهم اعتقدوا لهذا السبب ذاته أن الجيش القادم من القسطنطينية جيشاً بيزنطياً. كان الإفرنج معروفين فى الشرق غير أن الأمر كان يتعلق بالمرتزقة الذين أدمجوا فى الجيش البيزنطى وذلك ما عدا فى الموانئ السورية والمصرية والقدس. لذا بدا الفرنجة الجدد بيزنطيين تقريباً. لاريب أن الإشاعة انتشرت بسرعة حول جيش ضخم بشكل خاص لكن لم يكن فى الإمكان أن يدركوا فى الحال خصائصه النوعية.

= سبقه من القادة الصليبين رفض ذلك لأن زعامته التى اعتمدت على تأييد البابوية لا يمكن أن تتفق ويمين الولاء للإمبراطور البيزنطى راعى الكنيسة الأرثوذكسية وكان معنى قبول ريمون أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور هو أنه سيضطر أيضاً فى المستقبل إلى قبول العمل تحت زعامة غريمه بوهيموند وهو ما لا يمكن أن يقبله. ثم اضطر بعد ذلك تحت تأثير الضغط الواقع عليه إلى الوصول إلى اتفاق مع الامبراطور البيزنطى. فهو إن كان قد رفض تماماً أن يقسم يمين الولاء والتبعية للإمبراطور إلا أنه وافق على أن يقسم على احترام حياة الإمبراطور وشرفه وألا يقوم هو ورجاله بعمل يسىء إلى الإمبراطور. انظر تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب : سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١١١ (المترجم).

بعد أن خرج الصليبيون من الإمبراطورية البيزنطية عبروا آسيا الصغرى باتجاه سوريا ولم يكن فى نيتهم البقاء فيها. وقد داهموا الأتراك بقوة واستولوا على مدينة نيقية القريبة من المضايق، ولم يتم ذلك من غير أن يتكبدوا الخسائر لكن إذا كان قادة الأتراك قد أُدخلوا إلى هذه المدينة وفى غيرها من المدن بواسطة الجماعات البيزنطية المقاتلة فإن الشعب التركى ظل يعيش شبه متنقل خارج المدن. لذا تراجعت الفرق والعصابات المطاردة إلى الخلف كما اعتادت ان تفعل فى الصحراء، وبعد رحيل الفرنجة عادت إلى حيث كانت بإستثناء الشواطىء المستعادة من قبل البيزنطيين التى لم تكن ملائمة كثيراً لدوابهم فلم يكن هناك داعٍ لتترك الحملة الصليبية فى ذاكرتهم أثراً عميقاً، أما القصص المروية التى نسجت اعتماداً على تراث شعبى قديم بشأن السلاجقة فى أول عهدهم أو حول الدانشمنديين (دانش – مند – نا)(*) فهى إن كانت تكشف للقارئ الحديث بعض الذكريات التى تعود للحروب الصليبية، فإنها بالنسبة للمستمع أو القارئ المعاصر لها كانت تحدث التباسات وخلطاً بين كل المسيحيين فى شكل ملامح مسيحية بيزنطية أو مسيحية أرمنية وفقاً للمعرفة المباشرة التى كانت لكتاب هذه القصص بهم. لقد أعجب الفرنجة الحربية بالخِصال لخصومهم ولم يتأسفوا لشىء إلا لكونهم غير مسيحيين، ثم إنهم أكثر من ذلك كانوا ينحدرون من ترويان (١٠) شأنهم فى ذلك شأن الفرنجة كما كان يقال آنذاك. ونحن نجهل آراء الأتراك حول الفرنجة فى هذه الفترة.

لم يكن الصليبيون قد قابلوا كثيراً من المسيحيين اليونانيين أو غيرهم فوق هضبة الأناضول الوسطى القليلة الخصوبة. وقد عثروا عليهم من جديد عندما بلغوا طوروس حيث وجدوا إقطاعات أرمنية مستقلة تقريباً ظلت قائمة أو تم تجديدها. عند وصول الصليبيين إلى سوريا وجدوا أنفسهم أخيراً، ولأول مرة، وجها لوجه أمام شعوب قديمة مسلمة أو غير مسلمة قدر لهم محاربتها أو إخضاعها وقيادتها لمدة قرنين من الزمان. صحيح أن اختيار الجيوش السورية المسلمة يكاد يكون مقتصراً على العناصر التركية، لكنها كانت تختلف عن أتراك الأناضول من حيث أنهم كانوا تركمان شبه رحل من جهة التسليح بينما كان الأمر يتعلق فى سوريا بمتخصصين أجانب من النمط التقليدى فى وسط سكانى غير تركى. ومع ذلك فإن

(*) الدانشمنديون: نسبة إلى (ملك أحمد غازى) (توفى حوالى ١١٠٦)، أسس فى آسيا الصغرى مملكة مستقلة شملت سيواس وأماسيا وملطية فى عهد السلاجقة وأنشأ سلالة دانشمند التى استمرت فى الحكم حتى عام ١١٤٧، وصار بطل ملحمة شهيرة عنوانها «انتصار الملك دانشمند» وهى تصور فتح ملطية التى يرى مؤلفو الملحمة أن سقوطها كان منعطفاً حاسماً نحو اعتناق تركيا الإسلام فيما بعد. (المترجم)

غزوات الفرنجة وتخريبهم قد أصاب الناس كافة محليين وأتراكًا حيث دهمتهم الكارثة على حين غرة تقريبًا فلم يعرفوا جيدًا ما كان يرمى إليه الفرنجة.

فى سوريا كذلك لاقى الصليبيون أفرادًا مسيحيين غير أنهم كانوا مسيحيين تابعين لكنائس «هرطوقية» وكانوا يتحدثون غالبًا اللغة نفسها التى يتحدث بها المسلمون ولم يكن الصليبيون يفكرون فى معاملتهم معاملة أفضل من معاملتهم للمسلمين غير أنه ينبغى استثناء حالة الأرمن. فمن بين مسيحيى الشرق كانوا أقل جهلاً بالفرنجة من غيرهم. كما انفردوا بذكريات لهم حديثة العهد عن القوة السياسية وممارسة المهن المتعلقة بالسلاح. لاريب أنهم تمنوا أن يجدوا فى الجيش الجديد دعمًا مناهضًا للأتراك على طريقة مرتزقة الأمس، وهو الدعم الذى كانت ميزته أنه لا يكشف عن ملامح البيزنطى المزعج كما فى السابق.

لقد علمتهم التجربة أن يتعرفوا بسرعة على الأطماع الخاصة لهؤلاء الفرنجة وإثارة بعض الأتراك ضد بعض الفرنجة وذلك تبعًا لخصوماتهم الداخلية كذلك. أما أرمن قيليقية فقد وجدوا أنفسهم غداة الحملة الصليبية تارة مدمجين من جديد فى الأراضى البيزنطية وتارة أخرى خاضعين لفرنجة أنطاكية، أما أرمن سوريا الشمالية فقد كانوا خاضعين قطعًا لهؤلاء الأخيرين دون أن يكون لهم دور أساسى إلى جانبهم(١١). كان الأمر على خلاف ذلك فى الأراضى التى يقع معظمها فى الشرق بين ضفاف الفرات الأوسط حيث يمكن أن ننعت الإمارة التى أسسها بودوان البولونى حول عاصمة الرها بأنها كانت فرنسية أرمنية منذ البدء وقد تم ذلك بمساعدة السادة الإقطاعيين الأرمن المستقلين الذين ينتمون لمنطقة الطوروس الشرقية وبمعاداة غيرهم ولاسيما فى منطقة الطوروس الوسطى (مرعش إلخ). وقد رسخ التزاوج بين القادة هذا الطابع مما نتج عنه، كما سنرى، أن ملكة مملكة القدس صارت نصف أرمينية وكذلك صار آخر كونت فرنجى لإمارة الرها، نصف أرمنى(١٢).

ونجد من بين المسيحيين الآخرين الذين قابلهم الفرنجة تدريجيًا وكانوا أقل عددًا، موارنة لبنان الذين أحسنوا استقبالهم حال وصولهم تقريبًا. غير أن هؤلاء الفلاحين شبه الجبليين لم يكن لهم شأن كبير آنذاك. وشهد اليعاقبة بلا اكتراث الأحداث التى لم يكن لها مبرر لتغيير وضعهم الثابت كأناس هامشيين خاضعين لسادة أجانب؛ فالفرنجة الذين لا يعرفون شيئًا عنهم وينظرون إليهم على أنهم مستعربين اعتبروهم هراطقة ليسوا أفضل من المسلمين إلا قليلا وإذا لم يكن فى الإمكان تقتيلهم كان بالمستطاع سلب كنائسهم وأراضيهم(١٣). فإذا كان الفرنجة قد قدموا من أجل نجدة العالم المسيحى الشرقى، نظريًا،

فإن قدومهم لم ينجم عنه مساعدة أيًا كان من المسيحيين وبالأحرى المسيحيين ذوى الطقوس اليونانية وهم أصحاب النفوذ فى كبريات المدن بالشمال والقدس، لأن هؤلاء «اليونانيين» كانوا متهمين من طرف الفرنجة بالتواطؤ مع بيزنطة ولو أنهم كانوا يتمنون إتخاذ مواقف أكثر تحفظًا فيما يتصل بالمسائل الدينية.

وفى آسيا الصغرى لم يكن ينوى الصليبيون مباشرة أى احتلال للمدن لا لصالحهم ولا لصالح بيزنطة. لكن بمجرد اجتيازهم لجبال طوروس سارت الأمور على غير ذلك. وبينما كان بودوان فى طريقة للاستقرار ضمن أرمن الرها دون مقاومة إذا بجزء مهم من الجيش يعمد إلى محاصرة أنطاكية التى كانت بالأمس القريب مركزًا لمقاطعة بيزنطية كبرى، وقد تم هذا الحصار، طبقًا لخطة قام الجيش بتدبيرها ولاشك بالاتفاق مع الكسيس كومنين.

كانت للمدينة حامية تركية، غير أن السكان كانوا موزعين بين مختلف الكنائس المسيحية وفوق ذلك فإن الإنشقاقات الحاصلة بين سلاجقة سوريا بل وحتى بين رضوان الحلبى وحاكم أنطاكية ياغى سيان أضعفت كثيرًا جهود المسلمين لتحرير المدينة المحاصرة. والأجدر بالملاحظة فى كل ذلك أنه كان يلزم الصليبيين مدة سبعة أشهر لإتمام الحصار على هذه المدينة التى لم يبرحها منذ مدة طويلة الأهالى من المسيحيين عجزًا أو إرادة. ولم يصل الجيش السلجوقى للإنقاذ بقيادة كربوغا إلا غداة الاستيلاء على إنطاكية وكان جيشًا مكونًا من فرق كان قادتها فى تنافس متبادل دفعهم لمحاربة بعضهم البعض ولم تكن هذه المحنة أقل قسوة بالنسبة للصليبيين الذين اشتد غيظهم وهم يرون أنه حتى فى اللحظات الأشد خطرًا كان الجيش البيزنطى لايزال متباطئًا وعرف بوهيموند كيف ينتهز الفرصة ليضمن السيطرة على المدينة وتوابعها، وكان فى ذلك نهاية التعاون الفرنسى – البيزنطى.

فى أثناء هذا الوقت هاجم صليبيون، لاسيما ريمون الصنجيلى أماكن أخرى فحدثت عمليات نهب وتقتيل كما هو الشأن فى معرة النعمان مما خلف فى نفوس المسلمين ذكرى أليمة. لاشك أن هذا التصرف الصليبى يعود إلى حالة الغضب الناتج من تأخر المؤونة وعدم انتظام التموين ولكنها ترجع كذلك لرغبة جمهور الحملة فى تأمين اقتسام فورى للغنيمة بدون اعتبار للمفاوضات التى كانت تجرى بغرض الاستسلام مقابل دفع الجزية التى كانت تظل فى أيدى القادة (١٤). وبشكل عام لم تكن هناك فى هذه الحملة والحملات التى تلتها عداوات حقيقية إلا حول المدن ومنها كان يفر من تبقى من المسلمين. ومن المؤكد أنه فى المناطق المنبسطة لم تكن الأمور تسير بغير مشقة، غير أننا لا نعرف جيداً بأية طريقة كان يتم تأمين

إمدادات الجيش : هل بواسطة النهب ؟ أم المصادرة أم التجارة ؟ ولا يبدو أنه كان هناك اضطراب حقيقى فى هذا الشأن كما سنرى. كان لابد من انقضاء عدة أشهر حتى تستأنف الحملة الصليبية مسيرتها نحو هدفها المعلن وهو القدس. من المؤكد أن الجيش كان فى حاجة إلى إعادة تنظيم نفسه (١٥). لكن الجمهور كان نافد الصبر ولم تكن الأسباب الحقيقية للتأخير تكمن فى هذه الحاجة للاستراحة (١٦). ثمة عدة مسائل كان يختلف حولها القادة فيما بينهم فمنهم من كان يريد البقاء فى الشرق ومنهم من كان يريد العودة إليه بمجرد الاستيلاء على القدس، كما اختلفوا حول مسألة العلاقات مع بيزنطة ومن ثم مع بوهيموند. وأكثر من ذلك يمكن أن نعتقد بأن القادة لم يكن يعرفون جيداً ما كانوا يريدونه ولا أى طريق يسلكون ولا حتى إذا كانوا سيجتازون البلد الذى لم تعد تطالب به بيزنطة أو يغزونه كما فى آسيا الصغرى. فى هذه الحالة الأخيرة كانوا سيجدون أنفسهم أمام خصم جديد وهو الدولة الفاطمية بمصر، التى انتهزت ظروف الحملة الصليبية لاستعادة القدس من يد الأراتقة وإحكام قبضتها تقريبًا على موانىء فلسطين وسوريا الجنوبية (طرابلس ومنطقتها شكلتا دولة محلية مستقلة). ربما كان المصريون قد قبلوا بترك الحجاج الجدد يصلون إلى القدس مثل أسلافهم بالأمس أو قبل الأمس، لكن هذا لم يكن ليرضى الصليبيين، فقد قطع هؤلاء الساحل اللبنانى السورى بصورة سلمية بفضل الاتفاقات التى أقرتها السلطات المحلية بينما تم الاستيلاء على القدس فى بحر من الدم.

لم يكن من المؤكد تمامًا أن التفكير قد تم منذ ذلك الوقت فى الاستيلاء على البلد بكامله. لكن الاهتمام بهذا الأمر قد برز بسبب عدم إمكان القدس الواقعة بداخل فلسطين تلقى الإمدادات التى بدأ الإيطاليون إرسالها إلا بشرط الحصول على بعض الموانئ على الأقل، كما أن القطيعة مع مصر كانت تضطرها إلى احتلال النقاط التى يمكنها أن تتدخل من خلالها. وفضلاً عن ذلك فإن الاستيلاء على هذه الموانىء كان يثير اهتمام التجار الغربيين. وهو استيلاء تطلب عدة سنوات نظرًا لنقص عدد القوات المسلحة وللانشقاقات، أو على الأقل غياب التنسيق بين القادة الذين مكثوا فى الشرق فلم يتوقع أحد مبادرة ريمون التولوزى أمام طرابلس ولا أن تصير البلاد المحتلة موزعة بين مختلف الجيوش، فبالأحرى أن تقسم بينها ولم ترسم خريطة الأراضى المحتلة إلا حوالى عام ١١١٠.

وفى النهاية صار هناك أربع إمارات كانت مملكة بيت المقدس أكثرها شهرة ولكن لم يكن لها سلطة مؤسساتية على الإمارات الأخرى. ومن ثم يتضح لنا بأى قدر من الحذر علينا

أن نتحدث عن شرق لاتينى حقًا، لقد أصبح كل فرنجة الشرق مجتمعين مع بعض فى ظروف معيشية متشابهة وعلى وعى بالأخطار التى تحدق بهم من جراء تلك المغامرة الجماعية لكن لم توجد بينهم أية وحدة سياسية ولا أى ائتلاف مبدئى، والشعور بالتضامن لم يكن فاعلاً لكى تهب دول لنجدة دولة فى حالة الخطر إلا فى حالات استثنائية.

لا يهمنا فى هذا الصدد أن نفصل القول فى تاريخ الإمارات الأربع، فلنوجز خصائصها بكلمة. لقد كانت إمارة الرها أولى الإمارات التى أسسها بودوان فى الأراضى التى كانت بالأمس بيزنطية - أرمينية حيث كانت الآمال معقودة على الفرنجة كمساندين لا كمحتلين فلم يتطور فيها التوطين الفرنجى قط ولن تتمكن أبدًا من تلقى دعم الحجاج ولا إمدادات التجار الإيطاليين، فى حين كان لموقعها الجغرافى المتواصل مع الدول الإسلامية والمهدد للاتصالات بين سوريا وبلاد ما بين النهرين أثر فى تعرضها بالضرورة لردود أفعال الأعداء سريعًا.

ولم تكن إمارة أنطاكية على صلة بالأرمن إلا على مستوى محدود، فالسكان المسيحيون المحليون كانوا يشكلون الأغلبية على الأقل فى قسمها الأوسط. وكانت التقاليد المكونة من الإدارة البيزنطية بالأمس والخبرة النورماندية تحول دون تأسيس مناطق النفوذ الكبرى التى ستميز مملكة بيت المقدس، فالموقع الجغرافى للإمارة جعلها فى صلة مع الإمبراطورية البيزنطية والإقطاعات الأرمينية الواقعة بجبال الطوروس الغربى، فى الوقت نفسه التى كانت تجعل منها نقطة وصول الهجمات الإسلامية القادمة من «الهلال الخصيب». وكانت مملكة بيت المقدس، وقد أضفت عليها المدينة المقدسة هيبة خاصة تجتذب إليها الحجاج، أكثر اهتمامًا بقضايا مصر. وهى المملكة التى ينتمى سكانها الفرنجة إلى شمال فرنسا. وأخيرًا كانت إمارة طرابلس الصغيرة، وهى آخر الإمارات التى تشكلت بين إمارة أنطاكية والمملكة، تحكم ثغر طرابلس الواقع جهة أعالى نهر العاصى وكانت بذلك تحقق قيمة استراتيجية إلى حد ما. من الصعب التأكد مما إذا كانت العناصر البشرية التى جمعها ريمون الصنجيلى، بعد تأسيس الدول الفرنجية الأخرى، مكونة من عدد كاف من سكان الجنوب وما قد ينتج عن ذلك من خصائص مميزة.

كانت رغبة الصليبيين تقتضى الوصول إلى القدس ولو باللجوء إلى القتال إذا لزم الأمر ذلك، لم تفصح عن ضرورة المكوث بها بعد ذلك لاحتلال البلد، فبعض كبار الأمراء كانت لديهم النية فى ذلك كما كانوا ينوون، بدون شك، الاحتفاظ بمقطعيهم ليتخذوا بعد ذلك الوسائل

الكفيلة بتشغيلهم وبعضهم الآخر لم تكن لديه الرغبة فى الاستقرار فى الشرق رغم مشاركته فى الحملة وبالفعل لم يمكث به. أما بالنسبة لصغار المشاركين فى الحملة الصليبية فإن كثيراً منهم قد هلك ومن بين من ظلوا أحياء آثر البعض منهم البقاء ورحل البعض الآخر من الذين أحبطت آمالهم ومنهم من ذهب ببساطة لزيارة أوطانهم ورؤية ذويهم، ولا نعرف على وجه الدقة كيف وصلوا بحراً (١٨) عبر مجموعات صغيرة بواسطة ما صادفوه من السفن العائدة إلى إيطاليا. وكانت النتيجة أن عدد الفرنجة الذين ظلوا فى الشرق لم يكن يتجاوز بالتأكيد بضع مئات من الفرسان وبضع آلاف من البشر، ولعل هذا الأمر كان سيؤدى إلى إبادتهم لو كان العالم الإسلامى قد تمكن من تنظيم نفسه فى الحال، وعلى أية حال فقد أحدث ذلك تأخراً فى غزو الموانىء، هذا الغزو الذى كان فى ذاته أمراً ضرورياً ارتبط بما قد يجىء من حجاج جدد وسفن إيطالية جديدة.

وعلى صعيد السياسة الداخلية، ونظراً للطابع المقدس للمدينة فقد طرح فى مملكة بيت المقدس السؤال التالى: هل يمارس السلطة فى المملكة أمير علمانى كما هو الشأن فى الأماكن الأخرى أم ينبغى أن تمارس بها سلطة روحية بوصفها جزءًا من الدول التابعة للكنيسة أو عن طريق بطرياركية مستقلة على الطريقة البيزنطية ؟ من المحتمل أن أوربان الثانى لم تكن لديه فكرة محددة فى هذا الشأن، ولم يتقدم خلفه بسكال بأى جواب لهذه المشكلة. بيد أن الحل قد تم فى المكان عينه بعد أن أعطى رجال الدين امتيازات جوهرية، ويتمثل هذا الحل فى اعتبار القدس مملكة عادية نظراً لضرورة وجود سلطة عسكرية قوية لمواجهة ما يعترى الحدود الجغرافية من تغير مستمر حسبما اعترف بذلك رجال الدين أنفسهم. وبالإجمال إذا كانت مملكة بيت المقدس هى وليدة الحملة الصليبية فهل كانت حقًا دولة صليبية (١٩) ؟ من الأفضل، بلا ريب، تضييق استخدام هذا التعبير.

فى الواقع الفعلى كان الفرنجة كلما غزوا مدينة استقروا فيها مغتنمين حالة الفراغ التى أحدثتها الحرب غير أنهم لم يغيروا طبيعة هذه المدن. وأدى تفرق الغزو إلى تفرق المحاربين وإبطاء تركيزهم فى منطقة واحدة وهو ما كان ضرورياً.

* * *

ومن البديهى، كما قلنا إن الإستيلاء على مختلف الموانىء التى يمكن أن تمون وتأتيها الإمدادات عن طريق البحر، رغم اختلاف الأعداء، لم يكن ممكنا إلا بمشاركة الأساطيل التى لم تكن فى ملك الصليبيين. وفى هذا الشأن كان دور الأساطيل الإيطالية حاسماً غير أنه يتطلب تفسيراً سليماً.

ليس هناك جدال فى أن بعض الجنوية والبيازنة والبنادقة أمكنهم أن يستشعروا ورعًا خالصًا فى سبيل الصليب حتى لو كانت هناك بعض النزعات التجارية. ومع ذلك لا شيء يثبت أنهم جميعًا رحلوا إلى الشرق فى أعقاب التبشير بالحملة الصليبية، لقد ظلوا وقتًا طويلاً قبل أن ينضموا إلى الحملة وتقاضوا ثمن ذلك. بالطبع كان السادة الإقطاعيون الصليبيون عندما يمكثون فى البلد يمارسون سياسة التوسع ويحصلون على مناطق نفوذ، وفى أضعف الأحوال، كانوا متجددى النشاط دائمًا فى هذا الشأن. أما أولئك الذين عادوا إلى الغرب فقد قنعوا بما ينتظرهم من جزاء إلهى. بينما حصل التجار الإيطاليون على امتيازات دائمة من الناحية النظرية مقابل تأدية خدمة ومؤقتة. من المؤكد أنهم كانوا سيعودون، وهو أمر كان يخدم مصلحة الشرق اللاتينى، لكنهم كانوا هم المستفيدون قبل غيرهم من جهة الأعمال والأرباح. ربما كانوا حلفاء ولكنهم لم يكونوا حقًا أعضاء فى الشرق اللاتينى أثناء فترة التكوين.

ماذا كان موقف هؤلاء وأولئك فى اللعبة السياسية القائمة بالشرق ؟ هذا الموقف لا يمكن أن يكون واحدًا بالنسبة للجميع فقد كان مشروطًا بمواقفهم فى الغرب وبمواقف الصليبيين فى الشرق. إن ما نلاحظه فى الواقع كان كما يلى: فيما يتعلق بالبندقية التى لم تكن غزواتها التجارية الحديثة فى الأراضى البيزنطية تحول دون ممارسة نشاط ثانوى فى بلد إسلامى، لو أمكن أن تخشى المجازفة بهذا النشاط من جراء الارتباط مع الصليبيين فى وقت سابق لأوانه لخشيت أكثر فقدان الكنوز البيزنطية بالارتباط مع الصليبيين ولاسيما النورمانديين الذين كان تحالفهم مع بيزنطة تحالفًا هشًا. وبالأحرى عندما أدت قضية أنطاكية إلى إحداث القطيعة بينهما. والواقع أنه طوال فترة الحملة الصليبية لم تتدخل البندقية إلا بأعداد قليلة وبالمشاركة مع سفن بيزنطية. وعندما ظهر تغلب الصليبيين على الإسلام(*) وتبين أن الامتناع لفترة طويلة عن المشاركة سيؤدى إلى حرمانهم من نصيبهم فى الغنائم وصلت حملة قادمة من مدينة البندقية إلى فلسطين حيث لم يكن بها نورمانديون ولا كانت موضع أطماع بيزنطية ولم يحدث ذلك إلا عام ١١٠٠. لقد أتاحت الظروف العسكرية للبندقية أن تحصل على تعويض عن هذه المؤازرة المتأخرة وهو تعويض يليق بها كقوة عظمى. بيد أن هذه المؤازرة لم تكن كافية لإسدال ستار النسيان على سنوات الامتناع عن المشاركة(٢٠).

(*) المقصود تغلبهم على المسلمين لكن المؤلف يتبع هنا الموضة السائدة فى الخلط بين الإسلام والمسلمين وهو ما لا يفعله عندما يكون الحديث دائرًا حول المسيحية والعالم المسيحى حيث نجد التمييز بينهما واضحًا لا لبس فيه. (المترجم)

ولم يكن قد تدخل البيازنة إلا ببضعة أشهر قبل البنادقة تحت قيادة ديمبير رئيس أساقفتهم الخاص، وهذا صحيح، بتشجيع من البابوية. وهم كانوا آنذاك مرتبطين بالحزب النورماندى وعلى علاقة سيئة سواء مع بيزنطة أو مع البنادقة الذين لم يخشوا مهاجمة أسطولهم خوفًا من إرادتها فى منازعتهم احتكار المياه اليونانية. لذا استطاعوا بدون مشقة إغاثة الأمير بوهيموند الذى كافأهم بسخاء. وكان بإمكانهم القيام بالشىء نفسه فى مملكة بيت المقدس لو لم يكن قد حدث الصدام فى حينه بين ديمبير وبودوان الأول. يبقى أن نشير إلى أنهم كذلك مكثوا حوالى أربع سنوات قبل أن تتزعزع مواقعهم. ولاشك أن السبب الرئيسى فى ذلك لم يكن الخشية من التنازع مع مسلمى الشرق الذين كانت صلاتهم بهم قليلة والذين كانوا يحاربون إخوانهم فى الغرب وإنما كانت خشيتهم من تبذير قواهم هباء. ففكرة الحملة الصليبية إذن لا تدين لهم بشىء (٢١).

ومن بين كل إيطاليى المدن البحرية فإن الجنوية هم وحدهم الذين شاركوا فى الحملة الصليبية منذ بدايتها بدون توقف منذ ذلك الحين، وقد تم ذلك أولاً عبر مبادرات خاصة فقط وبعد ذلك شاركوا مشاركة رسمية عندما لاحظوا انخراط البنادقة والبيازنة ومن موقع الحياد فمن بقية الأطراف كانوا وحدهم الذين عرفوا كيف يساعدون كلا الطرفين ويحصلون بالمقابل على تنازلات مهمة من الدول الفرنجية الثلاث الناشئة فى سوريا/ فلسطين.

ولم تكن لديهم أية علاقة مع بيزنطة. أما فيما يتعلق بالإسلام فنحن لم نكن لنفاجأ لو كان مسلكهم إزاءه شبيهًا بمسلك البيازنة. ترى هل كان هذا الاختلاف راجعًا إلى علاقاتهم البروفنسالية أم إلى ما جبلوا عليه من الجرأة ؟ أم إلى المصاعب التى لاقوها من قبل البيازنة أثناء توسعهم داخل البحر التيرانى أم لمجرد الرغبة فى النهب كما حدث فى سان سيميون عام ١٠٩٩ وفى قيصرية (*) عام ١١٠٠؟ وفى كل الأحوال فقد لزم أن تقتصر فكرة مساهمة المدن التجارية فى تكوين الحملة الصليبية على بعض مشاهير الأغنياء(٢٢)، وعليهم كذلك اقتصرت فكرة التعاون على إقامة نشاطات الغزو خلال السنوات العشر التى تلت الحملة الصليبية وذلك بدون انقطاع تقريبًا (اللاذقية وقيصرية عام ١١٠٠، طرطوس عام ١١٠٢، عكا وجبلة عام

(*) قيصرية أو قيسارية: مدينة فى تركيا الأسيوية، ٦٠٠٠ر١٠٦ ن. عاصمة كبدوقية قديمًا... تنازعها العرب والبيزنطيون إلى أن احتلها السلجوقيون عام ١٠٨٢. دخلها العثمانيون عام ١٥١٥. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

١١٠٤، طرابلس وجبيل(*) عام ١١٠٩، بيروت عام ١١١٠) ولا نستغرب أن تتخذ الحكومة المصرية تجاه بعض الجنوية(٢٣) الذين قدموا لممارسة التجارة فى الإسكندرية والقاهرة إجراءات انتقامية تم ذكرها فى وثائق الجنيزة (انظر أدناه) ولو أنهم، وقد ظلوا بمنأى عن هذه الحملات، لم ينتبهوا إلى هذا الأمر إلا فى وقت متأخر جداً (٢٤)، وتتمثل هذه الإجراءات فى الاعتقالات التى أدت إلى توقف مؤقت لكافة أنشطة التجارة الغربية فى بلاد النيل تقريباً. آنذاك خطر ببال الجنوية فكرة غزو محتمل لمصر، الأمر الذى يمكن أن يجعلهم فى موقع امتياز لا على حساب المصريين فقط بل وعلى حساب الأمالفيين كذلك (٢٥).

ومع ذلك لابد من إبداء تحفظين حول الامتيازات التى حصل عليها الإيطاليون فمن جهة نرى أن التنازل القانونى لا يفضى تلقائياً إلى حصول النتائج الفعلية الملموسة كما سنرى ذلك ومن جهة أخرى فإن الامتيازات الأولى التى حصلت عليها المدن الإيطالية فى فترة كان تنظيمها البلدى مازال فى بدايته لم تصل إلينا ضمن مجموعة الوثائق الرسمية اللاحقة ولا يمكن أن نستبعد أن بعضها قد تم اختلاقه أو إكماله أثناء الصراعات التى نشبت لاحقاً (٢٦).

بقى أن نذكر الموانئ الإيطالية الجنوبية التى لم يقل أحد بشأنها إنها شاركت فى الحملة الصليبية. وبما أن امتناعها عن المشاركة عُدّ حادثاً استثنائياً فقد فسر ببواعث لا يمكن أنَ نقبلها على علاتها. ويكفى أن نبحث حالة الميناء الرئيسى وهو هنا ميناء أمالفى.

لقد تم التأكيد بشكل عام على أن أمالفى لم تشارك بتاتاً فى الحملة الصليبية إلا فى تجارة الشرق المنحدرة منها أو لعل مشاركتها كانت ضئيلة جداً وأن ذلك كان يرجع أولاً إلى أنه فى فترة الحملة الصليبية هوجمت أمالفى من طرف النورمانديين وثانياً إلى سياسة هؤلاء النورمانديين أنفسهم الذين كانوا يناهضون الاستقلالات الحضرية وخاصة استقلال أمالفى. كل هذا - وهو ليس خاطئاً - يتطلب منا إعادة النظر. فى المقام الأول لا ينبغى أن يغيب عن

(*) جَبْلة وجبيل : جبلة مرفأ فى سوريا جنوبى اللاذقية.. هى جبلة الفينيقية ابنة أرواد، احتلها الأشوريون... ثم الرومان عام ٦٤ ق.م. أضحت كرسياً أسقفياً. فتحها العرب عام ٦٣٦. انتقلت إلى أيدى الصليبيين عام ١٠٩٨ واسترجعها السلطان قلاوون نهائياً عام ١٢٨٥. أما جبيل فهى بيبلوس القديمة، وهى مدينة ومرفأ فى لبنان. أقدم المدن الفينيقية. ورد ذكرها فى الكتاب المقدس. خضعت للسيطرة المصرية.. كانت منذ القدم مركزاً دينياً خطيراً. عرفت عبادة أدونيس فيها انتشاراً واسعاً فى العهد اليونانى الرومانى. عادت إلى الازدهار فى أيام الصليبيين بين عامى ١١٠٤ - ١٢٦٦. وأهم آثارها: هيكل البعلة والمقابر الملكية ومعبد الأنصاب والمسرح الرومانى وكنيسة القديس يوحنا المعمدان. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

بالنا أن أرشيفات مدينة أمالفى كانت مفقودة على خلاف أرشيفات موانئ شمال إيطاليا، ومن ثم فإن عدم تساوى الوثائق قد يحمل على الاعتقاد أن ثمة غياب حقيقى عن المشاركة بينما الأمر يتعلق بانعدام القرائن مما يفرض علينا واجب جمع أدنى الآثار وتأويلها. فالهجوم النورماندى عام ١٠٩٦ قد يقدم بلا شك تفسيراً لهذا الغياب المؤقت ولكن من الصعب أن نكتفى به فى لتفسير غياب دائم، فقد كان صليبيو الشرق فى حاجة ماسة للحلفاء بحيث يمكننا الاعتقاد أن المكان الذى أخذه البعض الآخر كان يستبعد وصول الأمالفيين بعد فوات الأوان. ولو لم يقع الهجوم النورماندى فلا شيء يثبت أن الأمالفيين كانوا سيشاركون فى الحملة الصليبية، فامتناعهم اللاحق يعطى انطباعاً بعكس ذلك. ويسهل علينا تبين السبب إذ كانوا بالضبط يحتلون مكانة مهمة فى تجارة مصر وسوريا كذلك ولكن بدرجة أقل ولا شك. لقد لزم أن يتمهلوا كثيراً قبل أن يبدوا قواهم فى مشروعات عشوائية وحيث يغامرون بفقدان علاقتهم بالمسلمين وكل امتيازاتهم تبعاً لذلك. ومما يدعم هذا الرأى واقعتان اثنتان أولاهما أن تجارة أمالفى استمرت داخل البلاد الإسلامية. وثانيهما أنه من المستبعد أن تكون السياسة النورماندية مناهضة للتجارة فى الشرق بل كانت على العكس مشابهة لتلك التى وصفناها قبل قليل بشأن أمالفى، وسنجد فيما بعد توضيحاً لهاتين القضيتين.



الفصل السادس

الإتصالات الأولى

ليس من اليسير أن نتبين كيف كانت ردود الأفعال الأولى للعالم الإسلامى إزاء الغزو الفرنجى طالما أن التاريخ لم يحفظ لنا أية رواية معاصرة للأحداث من جانب المسلمين. ولا يمكن القول بأن الحملات الصليبية كانت أمرا غير ذى بال بالنسبة لسوريا وفلسطين، لكن كيف كان الأمر بالنسبة لبلدان أخرى ؟ إن الوثائق التاريخية العراقية المتعلقة بالاحتلال الفرنجى الذى دام أكثر من قرنين، لم تتضمن إلا إشارات عابرة عن الأحداث السورية. وإذا كان هناك بعض الإيرانيين الذين ربما كانوا فى طريقهم للانخراط على جبهة الحرب المقدسة لبعض الوقت(1) فإنه من العبث أن نجد كلمة واحدة عن الحرب الصليبية(*) للشرق اللاتينى. فى كل الوثائق التاريخية لكبار المؤرخين السلاجقة وأتباعهم فى إيران وقل الشىء نفسه بالنسبة للمغرب(2) وحتى فى مصر. إذ لن تنضج أبدا فكرة التضامن بين المسلمين تجاه ما يحدق بهم جميعًا من الأخطار.

وعودة بنا إلى سوريا نجد أن ثمة حوليات محلية. أو على الأقل يوجد مؤرخين سوريين عاصروا الحدث وكتبوا عنه بعد فترة قصيرة بل هناك من يدعى حمدان بن عبد الرحيم الذى ألّف تاريخ الحروب الصليبية وفرنجة سوريا أثناء العقود الثلاثة اللاحقة حيث عاش فى اتصال مستمر معهم(3). غير أن هذه الحوليات كانت ذات صبغة محلية صرفة نتيجة التجزئة التى لحقت سوريا، وذات أسلوب تشوبه بعض الرعونة والذى استهجنته على أية حال الأجيال اللاحقة وسرعان ما أهملت إهمالاً مقصوداً بلا شك وذلك منذ اللحظة التى أصبحت فيها الحوليات التى تجمع بين سعة المعرفة وحسن العرض ودقة الحس فى متناول أيدى القراء الفضوليين. وفى بداية القرن الثالث عشر لم يعد فى إمكان المرء أن يظفر من آثار حمدان بن عبد الرحيم إلا بصفحات حفظت صدفة من الضياع الذى لحقها جملة(4) بل إن الحولية الشهيرة المتأخرة وهى حولية على بن منقذ الشيعى المذهب يحتمل أن تكون قد فقدت نهائيًا خلال رد فعل أهل السنة وهو ما سنعود للحديث عنه.

ومن ثم لا نملك إلا أن نقرأ ما بين السطور فى ما وصلنا لاحقًا من المؤلفات ذات المشارب المتعددة بغرض تقييم سلوك المسلمين. ومع ذلك فإن لبعض هذه المؤلفات قيمة معينة، وعلى رأسها الحولية الدمشقية لابن القلانسى(5) وقد كتبها الرجل فى أواسط القرن الثانى عشر وفى ذهنه ذكريات شخصية عالقة منذ الحملة الصليبية ثم الحوليات الحلبية لمؤلفها كمال

(*) يحاول المؤلف أن يميز بين الشرق اللاتينى بعد تأسيسه فى أعقاب الحملة الصليبية الأولى وبين الحملات الصليبية اللاحقة. وفى هذا الإطار يمكن فهم العبارة المذكورة أعلاه (المترجم).

الدين بن العديم السنى المذهب، وابن أبى طى الشيعى المذهب (وذلك اعتماداً على حولية ابن الفرات(٧) الذى يستشهد حرفيًا بكثير من النصوص القديمة). يمكننا أن نشير أيضًا إلى عدة مؤلفين من نوع مختلف مثل أسامة بن منقذ الذى خلف لنا عن شبابه ذكريات مشوشة لكنها حية وكان فيها محافظًا على روح العصر(٨) ولو أنه أنهى كتابتها فى سن متقدمة جداً وفى مناخ مختلف.

استنتاجًا من هذه الشهادات والإشارات المتفرقة يلاحظ عامة أنه إذا كان بعض القادة المحليون قد وقعوا اتفاقيات مؤقتة مع الصليبيين لإبعاد الخطر فإن الشعوب الإسلامية قد استشعرت منذ البداية هول المذابح المرتكبة كتلك التى حدثت فى معرة النعمان أو القدس، وقد أصيب المتعلمون منهم بذعر من جراء التعصب الذى دمر به الصليبيون تدميرًا منتظمًا مكتبة طرابلس على سبيل المثال(٩). فنزح كثير من الناس إلى داخل سوريا أو أبعد من ذلك ومما يدل على اتساع حركة الهجرة أن الكاتب البغدادى الحريرى، على سبيل المثال، اتخذ بطلاً لمقاماته التى استقاها من الحياة اليومية أحد الشحاذين الذى هرب من مدينة سروج الواقعة على الفرات فى إمارة الرها الجديدة(١٠). وكان من الطبيعى بعد أن هدأت العاصفة أن يسعى من بقى هناك إلى التكيف مع الأوضاع، وتعاقبت بين الأرستقراطيين المحليين والسادة الفرنج المعارك البطولية الصغيرة والدعوات الودية. وكانت هناك فى المدن وداخل الأوساط الدينية بعض المحاولات لفهم الحملة الصليبية. كما تنامى الشعور بفريضة الجهاد كما يشهد بذلك كتاب السلمى الذى اكتشف حديثًا (١١)، وهو يعود إلى سنة ١١٠٦ خلافًا لما هو متوقع ولو أنه من الصعب أن نطعن فى صحة هذا التاريخ. المؤلف دمشقى ينتمى إلى أوساط دينية محلية. ولا ينبغى أن تدفعنا المصادفة التى حفظت لنا هذا الكتيب إلى المبالغة فى تقدير مدى انتشاره أو تأثيره، وكل مالدينا يحمل على الاعتقاد بأن هذا الانتشار والتأثير كانا ضعيفين(١٢). ومع ذلك يعد هذا الكتاب مؤشرًا على التفكير فى هذا الأمر، وهو مؤشر له أهميته بمقدار ما يجمع بين إثارة الموضوعات التقليدية فى هذا الشأن وبين اعتبارات أصيلة حول الحملة الصليبية فى سياق السياسة المسيحية المناهضة للإسلام فى منطقة البحر المتوسط بكاملها(١٣). والسلوك السلبى والأنانى للأمراء المكلفين بالدفاع عن الإسلام، ومما يدل على احتمال أن يكون هذا الكتاب من أقل الكتب انتشاراً أن ابن الأثير صاحب المعجم الدمشقى الضخم لا يشير إليه. وفى حلب أيضًا كانت حركة المقاومة التى لا نعرفها هناك إلا عبر التجليات الخارجية، فى طريقها للظهور داخل البورجوازية المحلية المستاءة من جمود أميرها،

ولم تكن هذه الحركة من صنع رجال الدين، وكان قائدها فيما يبدو القاضى الشيعى ابن الخشاب (كانت حلب لاتزال آنذاك ذات أغلبية شيعية). وفى عام ١١١١ وصل وفد من حلب إلى بغداد مع أن أهلها سنيين لمعاتبة الخليفة والسلطان على اللامبالاة وضعف الهمة لديهما. وإلى الفترة نفسها، وببغداد تحديداً يرجع تاريخ كتاب مقامات الحريرى وانتشارها وقد سبق الحديث عنها أعلاه(١٤). كانت النتيجة إرسال دفعات متلاحقة من الجيوش «السلاجقة» ما بين سنة ١١١٠ و١١١٥، وهى لم تنجح إلا فى التقاتل والتدمير المتبادل أو ترسيخ التحالفات المحلية بين الفرنجة والمسلمين، بالإضافة إلى ذلك ينبغى أن نكرر القول بأن سوريا المسلمة كانت محمية من طرف الجيوش التركية الأجنبية دون مشاركة حقيقية من جانب السكان المحليين شأنها فى ذلك شأن بيزنطة التى كان يدافع عنها المرتزقة الأجانب ولاسيما الأتراك. لكن لا ينبغى أن يغيب عن بالنا أبداً أنه إذا كان قد تم قبول متطوعين محليين بصفة فردية فى الجيوش الملحقة، فالقاعده العامة أن الحرب المقدسة كانت منوطة بالجيوش التركية المتخصصة التى كان أفرادها من الأجانب. وقد اعتقد البعض فى البداية أن الغزو الجديد قد يكون غزواً عابراً يمكن استيعابه مثل بقية الغزوات التى سبقته.

ولقد أثبتت التجربة أن شيئاً من ذلك لم يقع كما أن الفرنجة قد اقترفوا المظالم (مثلما وقع فى حلب سنة ١١٢٤) وكانوا فى مجملهم جنساً فخوراً بنفسه لا يختلط بالآخرين(١٥). ولعلنا نستثنى، فى بداية القرن الثانى عشر، صغار السادة العرب الذين ظلوا مع ذلك مستقلين إلى حد ما رغم اندماجهم فى ظل السيطرة التركية، ومنهم أسامة بن منقذ حاكم شيرز على نهر العاصى. لقد قيل إن التغلغل التركى قد تعمق فى كل مكان على حساب الإقطاعات المحلية، ففى سوريا تسارعت هذه الظاهرة ومما ساعد على انتشارها أن هذه الإقطاعات قد كشفت عن فتور الهمة فى مناهضة الفرنجة. بل لقد شوهد البدوى المغامر دُبَيس(*) عام ١١٢٤ وهو يشارك فى حصار حلب من قبل الفرنجة الذين لم يترددوا بهذه المناسبة فى مهاجمة أماكن العبادة الإسلامية. ومن هنا حدث تطور تدريجى للعقليات(١٦).

لقد صار الوضع شاقاً فى سوريا بالنسبة للسكان المسلمين بالمدن تحت الهيمنة الفرنجية إلا فى حالات استثنائية ويرجع ذلك إلى إغلاق المساجد وعزل موظفيها ولاسيما

(*) دُبَيس : هو دُبَيس بن صدقة (توفى ٥٢٩ هـ / ١١٣٥م): أمير الحلة وبادية العراق من بنى مزيد. أحد الفرسان العرب. لقب بملك العرب أثناء الحروب الصليبية. وذكره مخلد فى مقامات الحريرى. اتهم بقتل المسترشد وكان على خلاف معه. اغتيل فى بغداد. المنجد فى اللغة والأعلام (المترجم).

القضاة. وتستحق بعض المجموعات الإسلامية المحلية أن نوليها الاهتمام رغم أن النصوص التاريخية بشأنها تكاد لا تذكر عنها شيئًا، فالنُّصيريون (العلويون) المقيمون فى الجبال الخلفية للاذقية منذ القرن الحادى عشر لم تصل إليهم الحملة الصليبية بالمعنى الدقيق للكلمة، إذ أن تحصنهم داخل القصور المنيعة جعل إخضاعهم أمرًا عسيرًا للغاية. وفى الجنوب الشرقى من هذه المنطقة التى أقام فيها النصيريون ظلت عدة قلاع صغيرة خالية من أصحابها، ذلك أن «الحشاشين» بعد أن حاولوا التقرب من أمراء حلب ودمشق، وبعد أن طُرِدوا من هذه المدن، احتموا بهذه القلاع بدون صعوبة ويظهر أنهم سعوا إلى عقد التحالف، ولو بشكل عارض، مع الفرنجة ضد المسلمين «الأرثوذكسيين»، فاشتهر رئيسهم الأكبر بين عامة الفرنجة باسم «شيخ الجبل». وفى جنوب لبنان كان الدروز بوادى التيم(١٧) يقطنون منذ القدم ويبدو أنهم تصرفوا بمهارة مع الفرنجة والمسلمين فضمنوا أراضيهم بأنفسهم من كلا الطرفين وكانوا يعملون جواسيس لهذا الطرف ضد ذاك.

وباستثناء الأرمن فقد كانت ردود أفعال المسيحيين الأهالى، خاصة المونوفيزيين، ومحليًا الموارنة تبدو محايدة، وعلى العموم لا نراهم قد شاركوا الفرنجة أو عارضوهم، وكان الفرنجة لا يختلفون فى النظر إليهم كغرباء مثل المسلمين إلا نادرًا، أضف إلى ذلك أنه للسبب ذاته لم تتهمهم السلطات الإسلامية بتدبير أية دسيسة فلم تسبب لهم إزعاجًا أو اضطهادًا، أما الفرنجة فبعد أن اعتبروهم هراطقة، ونظروا إليهم، فى أفضل الأحوال نظرة احتقار، وما ترتب على ذلك من مصادرة ثروات أعيانهم أو كنائسهم قبلوا إرجاع جزء منها بواسطة الملكة ميلوزين(١٨).

ينبغى التركيز على الحالة الخاصة للموارنة. فهذه الطائفة الصغيرة التى تركزت فى الجبل اللبنانى تدريجيًا وظلت معزولة من قبل المسلمين ومسيحيى الكنائس الأخرى، كانت قد فقدت بالفعل كل صلة بروما والقسطنطينية. لكن لهذا السبب ذاته لم تكن تعتقد أنها قد قطعت الصلة بهما، لقد مال الموارنة، مع استغرابهم، إلى اعتبار الفرنجة بمثابة أبناء عمومتهم الذين كانوا يتحينون لهم فرصة الخروج من عزلتهم والثأر من تعاسة حالهم سابقًا. وحتى لا نغالى فى القول نذكر أن الكنيسة المارونية كان لابد لها أن تنتظر ثلاثة أرباع القرن قبل أن تعترف رسميًا بارتباطها بروما، وفوق ذلك كله لم تفقد شيئًا من استقلالها.

ولم يكن هناك موضع تفكير فى تجنيد أى مارونى فى الجيش، لكنهم فى داخل الأقاليم المركزية على الأقل كانوا بمثابة المساعدين الرئيسيين للفرنجة فى تكييفهم مع أعراف البلد ومؤسساته، فكان للحملة الصليبية ولا شك أثر فى استقدامهم إلى المدينة وإدماجهم فى مجتمع أكثر رحابة.

لم يكن للملكيين الشرقيين أهمية إلا فى شمال سوريا وربما فى القدس كذلك. وبما أنهم لم يُعتبروا فى حكم الهراطقة كان الرأى المسبق عنهم فى صالحهم. والواقع أن استعرابهم الشامل[١٩] لم يقربهم من الفرنجة بل إن شبهة تواطئهم مع بيزنطة التى ألصقت بهم قد فاقمت ضعفهم. ومن جهة أخرى بما أن اللاتين والملكيين كانوا ينتسبون إلى كنيسة واحدة فقد وجد اللاتين أنه من الطبيعى أن يحلوا محل الملكيين أو بجانبهم فى الوظائف الدينية وبذلك قلصوا نصيب رجال الدين المحليين من الوظائف وألغوا البطرياركيتين الإغريقية - الملكية.

كان الأرمن الذين يشكلون قسماً مهماً من طبقة الفلاحين فى شمال سوريا وفى سهل قيليقية يطرحون مشكلة خاصة فى جبال طوروس حيث كانت إقطاعاتهم المستقلة تمتلك قوات عسكرية صغرى. وفى الغرب منها كانوا يميلون آنذاك إلى الاعتماد على الفرنجة ضد البيزنطيين، أما فى الشرق منها فقد وازنوا بين كونتات الرها ومسلمى سوريا (وليس أتراك الأناضول) كما كان شأن كواسيل المرعشى على نحو خاص، وقد تداخلت هذه الصراعات مع النزاعات العشائرية بين الأرمن أنفسهم ولم يعد هناك أرمن فى خدمة بيزنطة، غير أن البعض منهم ظل تابعاً بالوراثة للكنيسة البيزنطية ولم تنقطع الخلافات العائلية القديمة التى نشبت بينهم فى مسقط رأسهم بارمينيا. وقد رأينا أن عدداً مهماً من مواطنيهم قد فضلوا الهجرة إلى مصر الفاطمية حيث كانت إحدى عائلاتهم التى اعتنقت الإسلام تحارب الصليبيين غير أن نفوذهم هناك أصبح بعد ذلك مواتياً أكثر لإقامة علاقات سلمية مع الفرنجة بفلسطين وصقلية. وقد أشار المقريزى عام ٥٣١ هجرية / ١١٣٦ ميلادية فى كتابه «الاتعاظ»(*) إلى مجيء الأرمن من تل البشير إلى مصر فنحن لانزال إذن فى عهد إمارة الرها.

أما اليهود فلم تكن كثرتهم العددية كافية لإحكام تأثيرهم على مجرى الأحداث برغم احتكارهم شبه التام لبعض الحرف الحضرية (كالصباغة وصناعة الزجاج) ومع ذلك فمن المهم أن نلاحظ حسبما تُطلعنا عليه وثائق الجنيزة[٢٠] أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم رعايا أوفياء للأمراء المسلمين وأن الحملة الصليبية كانت بالنسبة لهم محنة مؤلمة رغم جهلهم للأحداث الجارية فى أوروبا (**)[٢١].

(*) المقريزى فى كتابه : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. (تحقيق محمد حلمى محمد أحمد) القاهرة ١٩٧١م. (المترجم)

(**) ربما المقصود بالأحداث الجارية ما تعرض له اليهود من مذابح فى أوروبا مع بداية الحملات الصليبية. (المترجم)

وقد ذكر أحد المؤرخين المسلمين وليس لديه ما يدعوه لاختلاق ذلك أن أولئك الذين التجأوا إلى كنيس القدس تم إحراقهم فيه وهم أحياء عند الاستيلاء على المدينة. أما بعض ما حفظ من الخطابات اليهودية فهى تكتفى بالحديث عن معاناة الطائفة اليهودية وعن المبالغ الطائلة التى ينبغى جمعها لافتداء الأسرى. كما ذُكر فيها أن الإشكيناز هم أقوم مسلكًا من الفرنسيين فى معاملتهم للنساء. لكن بمن يتعلق الأمر هنا ؟ هل يتعلق باللوريين ؟ ففى المدن التى خضعت فيما بعد للغزو تم إدراج اليهود فى البنود العامة لاتفاقيات الاستسلام.

كان أغلبية الفرنجة يقيمون فى المدن ولاسيما فى الموانىء وذلك تبعًا لتوسع فتوحاتهم. وحتى النبلاء كانوا يستقرون فى الغالب هم أيضًا، مثل نبلاء إيطاليا، فى المدن وهى أكثر عددًا من فرنسا. لكنهم كانوا قد اعتادوا فى فرنسا أن يحصلوا على مساكن للإقامة فى سهول البلد إذ كان لابد لهم من وضع قبضتهم على الداخل ولو من أجل التموين الغذائى. وقد رأينا أن القادة المحليين فى القرن الماضى كانوا قد شيدوا قلاعاً صغيرة أو حصونًا حقيقية فهذه، لاسيما فى شمال سوريا، كانت فى الغالب عسيرة الانقياد ومع ذلك تمكنت أكثر العائلات الفرنجية منذ البداية أن تستقر فى القلاع الصغيرة، وعملت على تطويرها شيئًا فشيئًا. ولا نلاحظ معارضة من جانب الفلاحين، فقد واصلوا زراعة أراضيهم ودفع ضرائبهم كما كانوا يفعلون دائمًا دون أن يغير الفرنجة شيئًا من ذلك إلى حد أن الغلال فى بعض المناطق ربما كانت تقسم بين الحاكم المسلم والحاكم الفرنجى. فنحن لا نرى أن الغزو قد تسبب فى إحداث مجاعة أو عمليات النهب التى قد لا يمنع الغزو من حدوثها.

كانت الحملة الصليبية قد جمعت جنودًا من أصول مختلفة ظلت متمايزة وأسست دولاً منفصلة بل ومتعارضة أحيانًا. لكننا لا ينبغى أن نغالى فى الحديث عن وحدة الشرق اللاتينى فى مواجهة الشرق الإسلامى فقد جمعت بين دول الشرق اللاتينى ظروف معيشية متشابهة ولكنها لم تمح كل ما تبقى من تقاليدها الذاتية. فالتضامن بشكل خاص كان أبعد عن أن يكون تضامنًا كاملاً بين الدول إذ سرعان ما شوهد أمراء فرنجة ومسلمين يتحالفون ضد أمراء آخرين فرنجة ومسلمين، وإذا كان للأمراء وعى بفائدة الاستنجاد ببعضهم البعض، فى حالة الأخطار القصوى (مما يوحى بنوع من التفوق فى حالة مملكة بيت المقدس) فإن بارونات الدولة قلما قبلوا الذهاب إلى دولة أخرى لخدمتها ولاسيما إذا تطلب ذلك مدة طويلة(٢٣).

بالنسبة للصليبيين فى البداية وبالنسبة للغربيين لفترة أطول ولعديد من مؤرخى العصر كانت الدول الإسلامية فى الشرق تعتبر دولاً متعارضة بحيث أن العداء الصادر من إحداها أو

الموجه ضدها أو بالعكس التحالف معها يدل على موقف مماثل بالنسبة لأيٍ من الدول الأخرى. لكن الواقع كان أبسط بكثير من ذلك ويقتضى الأمر تبين خطوطه الرئيسية.

كانت دول الشرق اللاتينى تتجاور من الجهتين مع آسيا الصغرى «التركية» بالشمال ومصر الفاطمية بالجنوب. وكانت مصر الفاطمية قد سَلِمتْ مؤقتاً من التفكك الداخلى بفضل الإجراءات القوية لإعادة التنظيم وهى الإجراءات التى قام بها الوزيران الأرمينيان اللذان اعتنقا الإسلام وهما بدر الجمالى وابنه الأفضل[٢٤]. وآل المذهب الإسماعيلى الذى كانت الأسرة الحاكمة تنتسب إليه إلى الانشقاق . إن القسم الاكبر من السكان لم يكترث بالانشقاق الحاصل أو كان معارضًا له غير أنه كان راضياً على هذا النظام الذى كان يجسد استقلاله ويضمنه له، وقد حقق الاقتصاد المصرى فى عهده، رغم ما حصل من اضطرابات، تقدما مشهوداً يعود إليه الفضل على أية حال. وكانت مصر الفاطمية تعتقد بأنها مهددة من قبل التوسع السلجوقى غير أن الانقسامات الحاصلة بين خلفاء ملكشاه قد قللت من حدة الخطر، ذلك أن الصليبيين فى هذا الشأن كانوا بمثابة الخلاص بالنسبة لمصر، خلال ثلثى قرن على الأقل من غير أن تخطر هذه الفكرة على بالهم. ونظراً لتوسطهم بين الأتراك ومصر تلقوا منذ ذلك الحين ضربات لم يكن الأتراك ليتخلوا عن محاولة توجيهها للفاطميين. بهذا المعنى تم استبدال خطر بآخر. وإذا كان الفرنجة قد انشغلوا بغزو الممتلكات الفاطمية بفلسطين وسوريا الساحلية ومن ثم رد الهجمات المضادة فإنهم سرعان ما تخلوا عنوة عن فكرة الذهاب لمهاجمة المصريين فى مصر وهى فكرة ربما خطرت فى ذهنهم أو أوحاها إليهم على أية حال بعض الإيطاليين[٢٥]. وإذا كان المصريون من جانبهم قد اهتموا اهتمامًا دائمًا بأحدورهم السورى العربى فإنهم لم يكونوا أبدًا من كبار الغزاة، وكان من المستبعد أن يتمكنوا فى القرن الثانى عشر من الحصول على ما يلزم من الرجال لتأسيس جيش مشابه لجيش الدول التركية بآسيا أو بناء أسطول قادر على إلحاق الهزيمة بإسطول الإيطاليين.

لما تبين رسوخ أقدام الفرنجة وأنه لا يمكن طردهم إلا بثمن فادح ولقاء تحالف هو بذاته محفوف بالأخطار مع الدول التركية المحيطة بالشرق اللاتينى من جهة الشرق، سلك الفاطميون فى الواقع مسلك التعايش السلمى الذى تميز كذلك بتسهيل العلاقات التجارية مع مختلف الدول المسيحية بمنطقة البحر المتوسط، التى كان يهتم بها أغلب الظن، المسيحيون المحليون أو الأرمن وقد كانوا ذوى نفوذ آنذاك وهم أشقاء أرمن شمال سوريا. وما بين فترة استيلاء الفرنجة[٢٧] على صُور (١١٢٣)، وهذا الاستيلاء كان فى ذاته نتيجة هدنة طويلة، والاستيلاء

على عسقلان (١١٥٣) الذى سجل بداية فترة أخرى سنتحدث عنها فى حينها لم يكن هناك أية عداوة حقيقية على الحدود المصرية الفلسطينية.

لم تكن آسيا الصغرى بلداً قديم العهد بالإسلام، وما كان يوجد بها من المسلمين حوالى عام ١١١٠ كانوا من الأتراك أو التركمان وكانت طباعهم لاتزال خشنة وعلى غير علمٍ يذكر بتقاليد البلاد العربية أو الإيرانية التى دخلها الإسلام منذ أمد بعيد، ولم يكن لديهم معرفة بتقاليد الإمبراطورية البيزنطية التى كانت حتى فترة وصولهم صاحبة البلد كما ظلت فى وعى رجال الدولة بالقسطنطينية وربما فى وعى التركمان كذلك فى البداية سيدة الأمر العليا. ولم يظهر سوى ملامح بعض المجموعات السياسية الصغرى على الحدود الواسعة والمتغيرة وبصفة أساسية على الحدود الخاصة بالسلاجقة، أبناء عم سلاجقة إيران وبلاد ما بين النهرين على امتداد طرق الجنوب والدانشمنديين على طرق الشمال وأحياناً على طرق الطوروس الشرقى. وإذا كان لدى هؤلاء الأتراك نوع من الشعور المتأصل بالحرب المقدسة فقد أقاموها فى بداية الأمر ضد البيزنطيين وكانوا غير مبالين بما كان يحدث فى سوريا وكذلك فى القدس التى لم تكن تحتل أية مكانة فى وعيهم الدينى، وقد صادف أن وقعوا فى اشتباكات مع الدول الفرنجية الأرمنية فيما وراء جبال طوروس وهى دول مجاورة لهم فى الجنوب الشرقى لكن لا نرى لديهم إطلاقاً قبل أواسط القرن الثالث عشر أية نية فى التوسع فى هذا الاتجاه حيث حال بينهم المناخ والبدو. ولم يكن لديهم كذلك الشعور بالتضامن مع مسلمى سوريا وبالطبع كان على رأس هؤلاء أمراء أتراك (ونادراً ما كانوا تركمان) غير أنهم كانوا يحكمون على رعايا عرب وكان ثلاثة أرباعهم هم أنفسهم قد استعربوا وكانوا ينظرون لبعضهم البعض نظرتهم إلى من ينتمى إلى عوالم أجنبية شبه مجهولة(٢٨).

لم يكن هناك إذن خصم حقيقى بالنسبة للفرنجة فى النصف الأول من القرن الثانى عشر إلا على امتداد حدودهم الشرقية التى كانت المكان الوحيد للمتاعب المتجددة على الدوام؛ إذ لم تكن محددة جغرافياً فى أى جهة بما يكفى لكى تعتبر من هؤلاء أو أولئك على أنها حدود نهائية(٢٩). ولم يكن الفرنجة فى الممرات الضيقة فى الموانئ والجبال المتوسطة ينقصهم الشعور بالخطر المحدق بهم نظراً لثبات سوريا الإسلامية فى الداخل حيث توجد أكبر الحواضر والتى حافظت على علاقاتها مع القوى الكامنة فى عمق بلاد آسيوية شبه لا متناهية فكان لابد للمسلمين أن يعانوا من فقدان أراضٍ كانت فى حوزتهم زهاء أربعة قرون فقد استعربوا بشكل

كامل إن لم يكن قد أسلموا وكانوا يعدون ضمن الأثرياء ناهيك عما كانوا يقدمونه من انفتاح على تجارة البحر المتوسط. ومع ذلك فقد اعوزتهم أشياء كثيرة لإقامة جبهة مشتركة من أجل الكفاح ضد الفرنجة.

ومجرد واقع تفرقهم على إمارات مختلفة، منها إمارتى حلب ودمشق الرئيسيتين وبعضها إمارات تابعة، كان بطبيعة الحال يستحق تلك التى كانت أشد خشية وأكثر رغبة فى الحياد بل التحالف مع الفرنجة أو مع البعض منهم ضد البعض الآخر حينما كان الفرنجة أنفسهم منقسمين، وهو ما حدث على سبيل المثال عام ١١١٥(٣٠). وما هو أكثر من ذلك أن هذه الإمارات حينما اقتطع قسم كبير من أراضيها لم يكن يحالفها الحظ فى تمالك أمرها إلا عن طريق المعونات التى قدمها لهم إخوانهم فى الدين ببلاد ما بين النهرين. وكان الأمر يتعلق دائمًا فى سوريا بأمراء قد تحرروا من سلطنة السلاجقة فهؤلاء كان يرون أيضًا فى القوات المرسلة لنجدتهم خطرًا كبيرًا كرد فعل ضد استقلالهم(٣١). وحتى عندما كانت السلطنة السلجوقية بالمعنى الدقيق للكلمة أضعف من أن تهاب ظل قادة بلاد ما بين النهرين يمثلون قوة أجنبية على نحو ما كانت تستشعره الاتجاهات الاستقلالية المحلية القوية، كما كانوا يمثلون قوة أكبر بالمقارنة مع قوة أمراء سوريا بحيث لم يتبينوا خطرها فيعملون على عزلها.

غير أنه يلزم التمييز بين مرحلتين بصدد ردود أفعال سوريا تجاه الاحتلال الفرنجى. فى المرحلة الأولى لم يكن يوجد فى سوريا إلا أمراء مستقلين وبصفة خاصة رضوان وخلفائه المؤقتين فى حلب ودقاق فى دمشق وأتابكه(*) طغتكين الذى خلعه فيما بعد. وفى مواجهتهم للفرنجة والشرقيين الذين كانوا تارة متحدين وأخرى مستقلين، بل ومتعادين مارس الأمراء – وكانوا أنفسهم متخاصمين تارة ومتصالحين تارة أخرى – سياسة تناوبت فيها الحرب والهدنة المحلية مع الفرنجة حيث لم يكن يظهر خلاف كبير فى التوجه العام بين الشمال والجنوب. لكن شيئًا فشيئًا تغيرت الأمور ما بين عام ١١١٨ و١١٢٨. وقد حمت الجغرافيا دمشق من الخطر

(*) أتابك أو أتابك : لقب تركى أطلقه السلجوقيون على بعض كبار رجال البلاط ومعناه الأب الوصى. كان ملكشاه أول من أطلق هذا اللقب على وزيره نظام الملك. قام الأتابكه أولاً بدور المربين للأمراء القاصرين. تعددت الأتابكه بعدما أطلق اللقب على القادة العسكريين وتوسعت صلاحياتهم تدريجيًا حتى تمكن بعضهم من إقصاء الأمراء السلاجقة وجعل امتيازاتهم وراثية كأتابكه أذربيجان (القرن ١٢) ودمشق والموصل بعد وفاة زنكى (١١٤٤) – المنجد فى اللغة والأعلام – (المترجم).

الفرنجى بشكل أفضل من حمايتها لحلب كما جعلت الوحدات العسكرية الشرقية تأتى من شمال سوريا لتحيط بالصحراء الغربية السورية قبل أن تصل، إن أرادت، وسط سوريا. وقد نتج عن ذلك أن المقاومة بأنواعها كانت مقتصرة على شمال سوريا أو على الأقل كان ذلك فى أغلب الأحيان غير أن ما ينتج عن ذلك أيضًا أن إمكان الإستغاثة بهم كان سيتم هناك أكثر من أى مكان آخر حينما تعاظم الخطر الفرنجى. وأدت مثابرتها وقسوة الفرنجة أن تغلب الفريق الذى كان يرى أن الفرنجة أشد خطرًا من الشرقيين وأنه من الأفضل الخضوع لأمير مسلم ببلاد ما بين النهرين واستثارة اهتمامه للدفاع عن سوريا المسلمة. وكانت هذه التجربة قد تمت أولاً لصالح إيلغازى وهو الأمير التركمانى فى سلالة الأراتقة فى ديار بكر(٣٢) فى أعالى بلاد ما بين النهرين وقد كان له فضل المحافظة الدائمة على استعداد وحدات قواتها من التركمان وكانوا لايزالوا شبه رحل وكان لأهل حلب نظرة سيئة عنهم ولكن كان من السهل استعداؤهم ضد الفرنجة. وكان إيلغازى على قدر من الاستقلال يجعله خالى الذهن من أية خلفية فكرية عن إعادة الغزو السلجوقى. وقد أدى موت إيلغازى وخلفائه بعد فترة قصيرة أن اتجه ولاء أهل حلب نحو حكام الموصل الذين كانوا قد استقلوا فعلاً ولو أنهم كانوا لايزالون رسميًا يمثلون سلطة سلجوقية. وهكذا وبعد فترة بعض الوسطاء المؤقتين احتلت حلب عام ١١٢٨ من قبل زنكى حاكم الموصل منذ فترة قصيرة وسيصير مؤسسًا للأسرة الحاكمة التى سيطرت على شمال سوريا المسلمة خلال نصف قرن وبعدها على سوريا بكاملها وستمتد سيطرتها على أعالى بلاد ما بين النهرين حتى أواسط القرن الثالث عشر.

انطلاقًا إذن من سنة ١١١٨ حتى سنة ١١٢٨ حدث اختلال فى ميزان القوى بين الإمارة الإسلامية فى الشمال المستندة إلى أراضى خلفية فى بلاد ما بين النهرين وبين إمارة دمشق المقتصرة على ذاتها. ومع ذلك فإن دمشق بموقعها خلف لبنان وسلسلته الجبلية الشرقية، كان يصعب على الفرنجة مهاجمتها وكانت أقل أهمية بشكل عام بالنسبة لهم من حلب التى كانت تعوق التواصل بين إمارة أنطاكية وإمارة الرها. ورغم الأزمات التى كانت تنشب من حين لآخر فقد نشأت بالفعل سياسة التعايش السلمى بين الفرنجة والدمشقيين والتى اتجهت ضد الجيران التوسعيين الأقوياء بالشمال. وسنرى ما سيحدث بها فى أواسط القرن الثانى عشر. فى هذه الفترة حولت سياسة زنكى الوضع لصالحه فى شمال سوريا وفى ملحقاتها الواقعة غرب بلاد ما بين النهرين. ومنذ تلك الفترة لم يعد الهجوم يأتى من قبل الفرنجى بل من قبل المسلم، وقد تم الاستيلاء تدريجيًا على إمارة أنطاكية ونزع القسم الأكبر

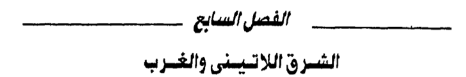
من إمارة الرها وعاصمتها (١١٤٤) وهو القسم الواقع فى الشرق من منعطف نهر الفرات فلم تحتفظ إلا بالجزء الغربى المستند إلى إمارة انطاكية والإقطاعيات الأرمينية فى الطوروس الأوسط. لم تكن قد تكونت لدى زنكى أفكار حول الحرب المقدسة بالشرق بيد أنه كان يمارس هذه الحرب على الصعيد السياسى (٣٣).

كيف نظرت بيزنطة إلى نتيجة الحملة الصليبية لقد سمحت بإعادة غزو غرب آسيا الصغرى وتأمين المواقع الساحلية، وهو أمر ذو قيمة كبرى. وكون أن الحملة لم تسمح باستعادة معظم بلاد الأناضول فإن ذلك فى الظاهر لم يكن أمرًا بالغ الخطورة، فربما تعرض الأتراك الذين لم يكن لديهم دولة حقيقية للتلاشى شيئًا فشيئًا أو للاستيعاب حسبما يبدو. وعلى أية حال فإن البلد فى الداخل ليس غنيًا أو لم يَعُد بالغ الغنى، وفيما وراء الكابادوس الغربى لم يعد تابعًا كليًا لليونان تمامًا إلا قليلاً وفى المقابل فإن تكوين إمارة الرها وبصفة خاصة إمارة أنطاكية هى من الأحداث الخطيرة بالنسبة لبيزنطة التى كانت تعتبر هذه البلدان من ممتلكاتها، فقد كانت رؤوسًا للجسور التجارية وكانت تتيح إيقاف تقدم الأرمن الذى كان وجودهم بها منذ حوالى مائة عام يعمق الإقليمية وفضلاً عن ذلك فإن إقامة الفرنجة فى سوريا وفلسطين كان يعنى توطيد النفوذ اللاتينى المضر بالمصالح البيزنطية كما يعرض للخطر تجنيد المرتزقة الفرنجة ضمن إطار النظام العسكرى البيزنطى. ومن الأمور الجديرة بالانتباه أن جهود باسيلوس، خلال أكثر من خمسة عشر عامًا كانت موجهة أكثر نحو سوريا وقيليقية ضد الفرنجة وبشكل أقل ضد الأتراك، وقد كانت المفاوضات أو الدسائس سبيلاً لإضعاف تأثيرهم عن طريق الاستفادة من صعوباتهم الداخلية. فى الأكثر كان هناك اهتمام بالحفاظ على الشواطىء الموصلة إلى خليج الإسكندرونة وقد وصلت هذه السياسة إلى درجة عقد اتفاقات إن لم تكن مع أتراك آسيا الصغرى. فعلى الأقل مع ما تبقى من السلطنة فى بلاد ما بين النهرين والعراق من أجل التدخل ضد الفرنجة.

ولم يشرع الكسيس كومنين فى تخطيط عملية التغيير إلا فى الأيام الأخيرة من حياته وهى العملية التى شددها ابنه وخليفته جان كومنين. وربما طالب الرأى العام بسياسة حازمة فى الأناضول تؤدى بالمقابل إلى مرونة فى الجهود المبذولة فى سوريا. وعلى أية حال فقد فشلت هذه الجهود وكان لابد من محاولة اعتماد الطرق الدبلوماسية لاستعادة ما قد تم فقدانه بالقوة. وبالطبع لم يكن الفرنجة مستعدين للتنازل لبيزنطة عن شىء من أراضيها لكن الموقف لديهم كان قد تطور كذلك فقد اتضحت ملامح الهجوم الإسلامى المضاد أكثر فأكثر وصارت إمدادات

الغرب بعيدة وبطيئة ومحدودة. وكان قبول نوع من أنواع الحماية البيزنطية أمرًا ممكنًا لو لم يكن يمس بالاستقلال الحقيقى، ونحن نعرف أن بيزنطة كانت تستريح بسهولة لما يشبع حاجتها إلى المكانة المرموقة أو المبدأ.

على الأقل كان لابد للفرنجة من الحصول على حياد بيزنطة. ومنذ مجىء جان كومنيين عام ١١١٨ وحتى حوالى ١١٣٥ تركزت جهوده على آسيا الصغرى حيث تحققت نتائج جزئية إلا أنها أساسية. فى هذه الفترة صار زنكى حاكمًا على حلب مع ما ترتب عن ذلك من نتائج على نحو ما رأينا، وقد اعتقد باسيلوس أنه يمكنه الحصول على مقطعية ريمون بأنطاكية مقابل تقديم مساعدة مناهضة للأمير التركى وكان رد فعل البورجوازية الفرنجية أقسى مما كان يتصور. فلجأ الأمير الفرنجى إلى الخدعة. لقد حورب زنكى بعد حساب كل الاعتبارات، غير أن باسيليوس، وهو أمر سيتكرر فيما بعد، توقف فى اللحظة التى كان يمكن فيها أن يظهر قوته إذ كان من المحتمل أن يلغى حاجة الفرنجة إليه، واقتصر على ضمان مناطقه القيليقية الداخلية على حساب الأرمن.



الفصل السابع

الشـرق اللاتـيـنى والغـرب

الأوضاع السياسية حتى الحملة الصليبية الثانية

هل كانت أواصر الصلة بين الصليبيين العائدين إلى أوروبا متباعدة مع أبناء عمومتهم المقيمين فى الشرق ؟ من الطبيعى أن الفرنجة الذين استقروا فى الشرق كانوا فى وضع حرج. فمن جهة لم يكن بإمكانهم الانفصال عن أوروبا دون أن تُقْطَع عنهم المعونات فيوشكون على التعرض للهلاك. ومن جهة أخرى فقد شعروا بعد إقلاعهم عن فكرة العودة بعد فترة من الزمن بأنهم أعضاء فى الدول الجديدة التى عملوا على تأسيسها، ومن ثم لم يكن ليقبلوا نوايا القادمين الجدد فى منازعتهم الأوضاع المكتسبة بالشرق أو مشاركتهم فيها بدعوى أنهم قدموا لإغاثتهم. وهنا نجد تشابهًا مفهومًا مع سلوك صغار الأمراء الأتراك إزاء أبناء عمومتهم فى بلاد ما بين النهرين.

كان جودفروا البويونى قد استثمر ممتلكاته ومات بالشرق بعد فترة قصيرة. ولم يكن فى إمكان أحد من خلفائه الأوربيين أن يطالب بممتلكاته بالشرق. أما بالنسبة لأخيه بودوان فلم يكن فى واقع الأمر يملك شيئًا فى أوروبا.(١)، وعاد غيرهما من القادة الصليبيين إلى أوروبا. ولقد ظل ريمون الصنجيلى وحده فى الشرق، فى الوقت نفسه الذى كان فيه كونتًا على تولوز وبروفنسيا. وهذا يعنى أن ما عداه من أن الفرنجة الذين مكثوا فى الشرق كانوا يشعرون بأنهم بمنأى عن هذه الوصاية أو تلك من الوصايات الممكنة. من المؤكد أننا لا نعرف ما إذا كان لهذا العامل دخل فى هذا الشأن لكن يبقى أن الأمور تمت فى الواقع بهذا الشكل. لقد كانت أقل وضوحًا فى أنطاكية بشأن بوهيموند الذى ظل حاكمًا على ترانتو، غير أن الأمر كان يتعلق بمنطقة نفوذ صغيرة ساءت بسببها علاقاته مع شقيقة وأبناء عمومته، زد على ذلك أن بوهيموند عمل فيما بعد على تصفية هذه الإقطاعة ولابد أن نلاحظ كذلك أن قيامه بتشكيل جيش ضد بيزنطة عام ١١٠٦ قد تم فى فرنسا وليس فى إيطاليا، وعلى أية حال لم تكن المسألة تتعلق بأية تبعية، وقد بينت عدة أحداث عارضة كتلك التى وقعت عند موت بودوان الأول بالقدس أن بارونات الشرق لم يكونوا راضين بهذه التبعية.

فريمون البوايتيى، الذى استدعى إلى إمارة أنطاكية، لم يكن قط كونتًا على كونتية بواتو، أما فولك الأنجى فقد تخلى عن كونتية أنجو، كما لم يكونا كذلك مُقْطَعين تابعين لكونتات هذه الإمارات، وفضلاً عن ذلك فإن أيًا منهما لم يكن ينتمى للمناطق أو العائلات الأصلية للأمراء الذين خلفوهم فى الشرق. ولا نعرف على وجه الدقة الأسباب التى من أجلها وقع اختيار البارونات عليهم(٢)، وما هو مؤكد أن ريمون كان يعارض الطموحات المحتملة لنورمانديى إيطاليا(٣).

أما ريمون التولوزى فإننا لا يمكننا معرفة كيف كان يتصرف كملك على القدس أو ككونت على طرابلس فيما بعد لأن الموت كان قد أدركه، وتنازع أبناؤه بشكل جعل كونتية الشرق لا تنتمى أبدًا لمن يمسك زمام دولة الغرب، مع أن هذا الأخير ربما كان قد تمنى ذلك أو ظن الناس كذلك (حتى الحملة الصليبية الثانية). بالطبع لا يعنى هذا أن أيًا من الأمراء المقيمين فى الشرق لم يحافظ على صلته بوطنه الأصلى. وهذا لا يستبعد أن تكون بعض الأسر الأميرية قد فكرت فى ممارسة شكل ما من أشكال الوصاية. ولم تكن فترة كبار الملوك قد حانت بعد غير أن المسألة كانت واردة رغم أن الناس لم يطرحوها قط فيما يبدو بالنسبة للأسرة الفالاندرية والصقلية التى صارت موحدة لاحقًا ولو لم تكن مسألة جوهرية بالنسبة لكليهما.

فلنتحدث أولاً عن صقلية، وهى واقعة تقريبًا، فى منتصف الطريق بين الغرب والشرق. لقد دارت الحملة الصليبية ولم يشارك بها من النورمانديين إلا نورماندييى بوهيموند وانتهت إلى إقامة دائمة لـ «لاتين» فى سوريا – فلسطين. وكان أغلب الجنود والقادة بها من الفرنسيين بل وغالبًا من شمال فرنسا فبلادهم الأصلية كانت بعيدة والجانب الساحلى المتقدم داخل منطقة البحر المتوسط والدول النورماندية بإيطاليا الجنوبية وصقلية كانت أكثر قربًا. ولم يكن الغياب النورماندى فى البداية يمنع أن تكون هذه الدول أكثر اهتمامًا بصورة مباشرة من مناطق النفوذ الفرنسية الكبرى بما كان يدور فى منطقة الشرق الأوسط ولاسيما فى سوريا. ولم تحظ هذه الأمور بما يكفى من الاهتمام، وقد كانت هناك مبالغة فى تصورها كما لو أن امتلاك مملكة بيت المقدس من قبل الإمبراطور فريدريك الثانى المنحدر من النورمانديين فى القرن الثالث عشر، كانت حدثًا بدون مقدمات، ولم يكن الأمر كذلك فى شىء.

ثمة معطى أولى فرضته الجغرافيا وهو أن الشرق اللاتينى كان ضعيفًا وهشًا ومحاطًا بالأعداء ولم تكن موارده الخاصة كافية من حيث الرجال والسلع المختلفة والوسائل المادية لجلبها. وكانت أقرب منطقة تسمح بالحصول عليها هى الأراضى الإيطالية النورماندية. وقد حفظ لنا التاريخ عن طريق الصدفة ذكرًا لسفينة كانت تنقل الإمدادات من مدينة أوترانتو(*) إلى أنطاكية (لابد أن الأمر يتصل هنا بقضية تخص بوهيموند) وبعد ذلك بفترة قصيرة كانت هناك إمدادات لفرسان الداوية وفرسان مستشفى القديس(**) يوحنا ببيت المقدس عن طريق

(*) مدينة واقعة بجنوب إيطاليا – المترجم –

(**) استخدم المؤلف هنا الاستبارية – الفرسان البيض أو فرسان القديس يوحنا – كمستشفى وكجماعة وككنيسة فى آن معًا. – المترجم)

إيطاليا الجنوبية. غير أنه من المفيد أن نتم، بصفة خاصة، دراسة توزيع الثروات الأولى التى حاولت الكنائس اللاتينية بالشرق منذ البداية اكتسابها أو امتلاكها بفضل هبات المؤمنين بالغرب مثل كنائس نوتردام يهوشافاط وسانت مارى اللاتينية ومستشفى القديس يوحنا حتى نقتصر على بداية القرن وعلى الكنائس التى لدينا معرفة بها[4]. ولهذه الملاحظة دلالة معبرة ذلك أنه إذا كانت أغلبية ممتلكات كنيسة قبر السيد المسيح موجودة فى جنوب فرنسا وشمال إسبانيا لسبب يصعب التأكد منه (هل بسبب عطايا جيش الصنجيلى ؟) فقد كان لها مع ذلك الكثير منها فى إيطاليا القارية بالجنوب (بارليتا وفينوساوتروا وبنيفانت، إلخ). فقد خصص لكنيسة سانت مارى اللاتينية وقف فى صقلية. وكان لنوتردام يهوشافاط ثروة مالية كبيرة سواء فى صقلية وكالابريا نتيجة إرث روجيه الأول أو فى أبولى نتيجة إرث بوهيموند. وسرعان ما اكتسب مستشفى القديس يوحنا، الذى كانت له أيضاً ثرواته الأولى بجنوب فرنسا، ثروات أخرى على الطريق المؤدية من فرنسا إلى بارى وتارنتو وأوترانتو من جهة وبصقلية من جهة أخرى حيث وجدت بها إحدى القيادات قبل عام ١١٣٦ (الأمر الذى يفترض وجود خيرات وفيرة) وقد أضيف إليها فيما بعد ثروات أخرى بنابولى وكابو وبارليتا، ولا ينبغى أن ننسى أن الأرشيفات المتعلقة بها قد ضاعت. ومن المعروف جيداً أنه عندما سقطت الأراضى اللاتينية بالشرق فى القرن الثالث عشر. التجأت مختلف الطوائف الكنسية إلى إيطاليا الجنوبية وهناك تم العثور على بعض الأرشيفات الخاصة بهما. وللسبب نفسه يمكن أن تكون كنيسة جتسمانى(*) [5] قد احتجزت بعض الثروات فى صقلية. ولا معنى لهذه الممتلكات إذا لم تكن هناك علاقات بحرية منتظمة بين إيطاليا النورماندية والشرق اللاتينى حتى ولو أمكن تأمينها بصفة وقتية بواسطة بحارة الموانىء الشمالية فى رسوهم بإيطاليا الجنوبية قبل أن يعبروا شرق البحر المتوسط.

وتفسر هذه العلاقات ذاتها أن الأمراء النورمانديين قد استطاعوا أن يولوا اهتماماً نشطاً بالشرق اللاتينى ؛ وذلك بإرسال الأموال الذى كان يتم بشكل أكثر خفاء من المشاركة العسكرية، كما ثبت ابتداءً من عام ١٠٩٩ و١١٠٢[6]، وبعد ذلك بقليل أولوا اهتماماً بدامبرت البيزى الذى صار بطرياركاً على القدس. على إثر ذلك استقرت العلاقات بين الفاطميين والشرق اللاتينى (فلم تحدث عداوات بينهما من عام ١١٢٤ إلى عام ١١٥٣) ولم يكن الاهتمام

(*) جتسمانى : قرية شرقى أورشليم فيها بستان الزيتون الذى نازع فيه السيد المسيح. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

المعقود على القدس في تناقض مع الصداقة الفاطمية، كما كان الحال بالنسبة للصداقة الحلبية على سبيل المثال.

ولا نعرف شيئًا عن الامتيازات الممنوحة للرعايا النورمانديين بشكل عام ولا في مدينة أمالفي(٧) بشكل خاص أو في مدينة سالرنو في النصف الأول من القرن الثاني عشر في الشرق اللاتيني، وعدم معرفتنا بها ليس دليلاً على أنها لم تكن موجودة، وفي كل الأحوال لم يكن بوسع الصليبين أن يكونوا متشددين جدًا على صعيد الضرائب تجاه من يجلبون إليهم المواد الغذائية التي يحتاجونها. ونظرًا للمكانة التي كان إيطاليو الجنوب يحتلونها في مصر فمن المؤكد أنه لم يكن هناك ثمة ما يدعوهم لكي يولوا أهمية تجارية كبرى للشرق اللاتيني الذي كان أقل قدرة بكثير على إمدادهم بالمواد الاستهلاكية التي يرغبونها، كما كان عاجزًا عن شراء السلع التي يمكنهم بيعها. غير أن الأمور قد سارت سياسيًا بصورة مختلفة، وقد حفظ التاريخ لنا في هذا المقام بعض الجوانب المهمة.

وكان الأمر الرئيسي هو زواج بودوان الأول المقدسي(*) للمرة الثانية، وهو أمر مناف جدًا للأصول الشرعية، بأديلاييد وهي ابنة واحد من عائلات المونتيفراتي التي سنعود للحديث عنها، ولاسيما أنها كانت أرملة روجيه الأول الصقلي ووالدة روجيه الثاني الشاب. وكانت منفعة بودوان جلب مهر غال، وكانت مصلحة الأسرة النورماندية الحاكمة قد فُهِمَ بأنه إذا لم يولد طفل من جراء هذا الزواج (وهو أمر محتمل جدًا نظرًا لسن العروس) فإن خلافة بودوان الأول الذي لم ينجب أطفالاً كذلك من زواجه الأول، ستؤول إلى روجيه الثاني، وهكذا كانت ستتحقق قبل مائة عام وحدة الأرض التي تحققت فيما بعد على يد فريدريك الثاني. لقد أخفقت هذه الوحدة نظرًا لأن بودوان الأول اعتراه الخوف وهو على فراش الموت فطلق أديلاييد ولكنه لم يُعد المهر، ونظرًا بلا ريب، إلى أنه كانت هناك طائفة من البارونات المستندين إلى البطريارك يؤثرون على روجيه الثاني بودوان البورجي الأقرب إليهم والأقل مقدرة، فهو ابن عم بودوان الأول وكان آنذاك كونتا على الرها، غير أن مغزى هذه القصة كان واضحًا(٨).

وكان بوهيموند الأول قد امتلك لفترة قصيرة تارنتو وأنطاكية في الوقت نفسه. وعندما مات في عام ١١١١ ترك ابنًا شابًا باسمه تولى الحكم تانكريد(**) وروجيه على التوالي مع احتفاظهم في الوقت ذاته بألقابهم كأمراء من دون أن يبدى أبناء عمومتهم بإيطاليا مشاعر

(*) بودوان الأول المقدسي. نسبة إلى بيت المقدس. (المترجم)

(**) تانكريد. يعرف في الكتب العربية القديمة باسم دنكري. (المترجم)

القلق من جراء ذلك بل العكس إذ أرسلوا إليهم إعانات مالية (٩). وعندما بلغ بوهيموند الثانى سن الرشد، بعد وفاة روجيه، أبحر باتجاه الشرق عام ١١٢٧. وقد ساعده الدوق وليام البوبى وأعطاه أسطولاً بحريًا غير أنه فى المقابل لم يحصل على منطقة نفوذ بل حصل أيضًا على الوعد بأن يتوارثا إذا مات أحدهما بدون إنجاب(١٠). وهنا أيضًا فشل الأمر ؛ فقد مات بوهيموند الثانى أثناء عام ١١٣٠ مقتولاً فى صدام مع الأتراك فى قيليقية، لكنه كان قد تزوج إحدى بنات بودوان الثانى وانجب منها طفلة تزوجت فيما بعد بريمون البواتيى مما تسبب فى بعض الخصومات، وفى هذه الأثناء انتقل عرش القدس كذلك إلى فولك الأنجى عن طريق الزواج.

من كل هذا يتملكنا شعور واضح بالتعارض بين أحد الأحزاب «النورماندية» (الإيطالية) والبارونات الفرنسيين الذين كانوا يبحثون فى فرنسا عمن يقودهم(١١). غير أننا لا نرى أن عائلة الأنجى، أو عائلة بواتييه قد سلكتا فى الشرق مسلك النورمانديين قط رغم قوتهما وهو أمر مفهوم تمامًا. لقد قبلتا العروض المقدمة إلى أحد أفراد عائلتهما لكننا لا نرى أنهما قد تحركتا من أجل هذه العروض ولا زعمتا التحكم فيما يحدث بالدول التى عُين أحد أقاربهما رئيسًا عليها. ويبدو بالنسبة للنورمانديين أنهم توقفوا عن التطلع إلى أنطاكية، بيد أننا سنراهم يعاودون الظهور من جديد فى ظروف أخرى بالشرق فى نهاية القرن. ولأول وهلة يمكن أن نجد تناقضًا بين تلك السياسة التى اتبعها النورمانديون فى بداية القرن بالشرق اللاتينى وموقفهم إزاء المسلمين كما لاحظناه. وقد تفوتنا بعض المعطيات فى هذا الشأن غير أن التناقض كان قد تضاءل من جراء الهدنة القائمة بين مصر ومملكة بيت المقدس. لقد بينا بالنسبة للغرب المسلم كيف أن نورماندیی صقلية قد شرعوا عشية الحملة الصليبية فى ممارسة سياسة حسن الجوار معه. آنذاك كان الأمر يتعلق أساسًا بالزيريين فى تونس الذين اضعفتهم تبعات الغزو الهلالى. وبما أن المرابطين لم يكونوا قد وصلوا إلى المغرب الشرقى فلم يكن يعبأ بهم النورمانديون كثيرًا فيما يبدو، إذ كان اهتمامهم بمصر أكبر نظرًا للعلاقات التجارية التى كانت تربط رعاياهم بها. ولا تسمح لنا الوثائق التى فى حوزتنا بمعرفة ما إذا كانوا فى بداية القرن قد حافظوا على السلام مع الفاطميين والزيريين فى الوقت نفسه حيث لم يعد الفاطميون يكترثون بالزيريين قط منذ القطيعة الدينية فى أواسط القرن الحادى عشر. وفى هذا الشأن لم تكن ثمة دلالة تذكر لاحتلال مالطه التى كانت موقعًا إسلاميًا متقدمًا غير تابع آنذاك لأحد من الناحية السياسية. وعلى أية حال ومع مرور الوقت كان التحالف الفاطمى يتجلى بوضوح أكثر.

لقد حُفظت لنا مصادفة وثائق تتضمن ذكريات السفارات فى سنة ١٠٩٩ ذاتها (أى أثناء الحملة الصليبية) وفى عام ١١٢٢ عشية قيام فرنجة الشرق وأهل البندقية بالهجوم على صور[١٢]. غير أن الأكثر إثارة للانتباه هو تلك المراسلات بين روجيه الثانى والخليفة الحافظ عام ١١٣٥[١٣] والتى اكتشفت حديثًا فى مجموعة متأخرة من الرسائل النموذجية.

وثمة رسالة ليس هناك ما يدعو للتشكيك فى صحتها ذات نبرة مثيرة جداً تفصح عن تعاون وثيق أقرب ما يكون إلى الصداقة. لا شك أن وجود بهرام الأرمنى المسيحى بالوزارة وهو شقيق البطريارك الأرمنى بسوريا – قيليقية قد مكن من تدعيم هذه الصداقة. لكن على الرغم من الأهمية التى استمر روجيه من جهة والخليفة من جهة أخرى يظهرانها إزاءه فلم تختف هذه الصداقة عبر المراسلة فى عهد وزارة رضوان، الذى كان خصمًا وخلفًا لبهرام فى فترة لم تتغير سياسة القائدين إزاء بعضهما البعض. وبرغم أن الطابع المتكلف والمسهب للأسلوب القنصلى يحول دون إعادة نشر النص فإن تحليل المضمون سيكون بليغًا بما فيه الكفاية. فقد فسر روجيه كيف قادته التصرفات السيئة لسكان جربه إلى احتلال الجزيرة، وحينما علِمَ الخليفة، عبر هذه الرسالة، نبأ احتلال المسيحيين للأرض الإسلامية الواقعة على خطوط التواصل بين مصر والمغرب تفهم الأمر وأبدى الموافقة. وكانت إحدى السفن المصرية قد تعرضت للتفتيش من طرف مجهول داخل المياه الصقلية فقام الملك بتحريرها ووضعها تحت حمايته، والحق لم تكن هذه السفينة سفينة عادية بل كانت تتاجر لصالح الحساب الشخصى للخليفة. ونعلم فى المقابل أن روجيه كان يتاجر فى الإسكندرية والقاهرة حيث تُدفَع عنه نفقات حقوق الاستخدام. بل لقد حصل على الامتيازات نفسها عن قائده البحرى الكبير المسمى جورج الأنطاكى وهو من عائلة سورية يونانية مهاجرة كان قد استولى قبل قليل على جربه بعد أن انقطع عن خدمة المسلمين الزيريين ليتولى خدمة روجيه المسيحى، كان هناك فى سجون الخليفة مسيحيون مما أعطى لروجيه بعض المبررات كى يجعلهم تحت حمايته فأطلق الخليفة سراحهم. وسأل روجيه عما آل إليه أمر صديقه الوزير بهرام بعد أن أطاح به رضوان المسلم وكان هذا السؤال أشبه ما يكون بالتدخل فى الشؤون الداخلية لدولة أخرى، وقد قُدِّمَ له بيان عن أسباب هذا الانقلاب من وجهة نظر رضوان غير أنه قد تم التأكيد له على الاهتمام بأمر بهرام وكان اهتمامًا صادقًا إذ أن الخليفة بعد أن عمل على إرجاعه سرًا إلى مكان منعزل داخل قصره حيث مات، شارك بنفسه فى تشييع جثمانه. وأخيرًا أُعلن عن تبادل السفراء وعقدت الآمال على تلقى الأخبار. وبغض النظر عن التفاصيل فإن هذا كله كان يفترض بالطبع

مُناخًا كان بذاته جديراً بالملاحظة، فلا غرابة أن يستفيد الصقليون وأهل مدينة سالرنو وغيرها من المدن من هذا المناخ، كما استفادت منه ولا شك مدينة أمالفى التى استمرت فى التجارة بالشرق، حتى بعد ما تعرضت له من مصائب. وبما أن البيازنة قاموا بتخريبها عام ١١٣٥ فلابد من التسليم أنه حتى بعد خضوعها للنورمانديين فإنها ظلت فى موقع المنافسة فكان لابد لها أن تحافظ على امتيازاتها القديمة بمصر(١٤). ربما كانت هناك حالة أخرى لعائلة إقطاعية أولت الشرق اللاتينى أهمية مميزة قبل تطور الملكيات الفرنسية والإنجليزية وسيكون من المبالغة أن ندعى، كما يفعل البعض، أن الميول والمنازعات السياسية للغرب قبل القرن الثالث عشر لم تتداخل فى الشرق. وسنرى ذلك مع الدول الإيطالية لكننا نود التحدث هنا عن الفالاندر. لاشك أن روبرت الفالاندرى لم يكن سوى قائدًا صليبيًا ضمن غيره من القواد. وبما أنه لم يكن يطمع فى البقاء فى الشرق كما لم يكن قد تلقى أى تفويض من البابا أو من أى شخص آخر فإننا لا ينبغى أن ننسب له آنذاك أطماعًا فى الشرق اللاتينى الذى كان لايزال فى طور النشوء. ومع ذلك فإن والد روبرت وهو روبرت لوفريسون كان قد أدى الحج قبل الحملة الصليبية وعمل فترة من الوقت فى خدمة الإمبراطور البيزنطى الكسيس كومنين، ومع عودته إلى دياره أرسل إليه محاربين ضد الأتراك والبتشنج(*). ونظراً للدعاية التى قام بها بوهيموند، أثناء حملته المعادية لبيزنطة، فقد نسبت إليه رسالة تدعو للاعتقاد بأنها مرسلة من طرف الكسيس كومنين إلى روبرت لوفريسون وهى رسالة مزورة فى جزء منها بلا شك، والحق أنه يصعب على المرء ألا يعتقد أن الجزء الأصيل منها على الأرجح كان يتعلق بالكونت الفالاندرى أكثر من تعلقه ببوهيموند الذى لا يرد ذكره بها فى أى مكان (١٥). من المؤكد أن موقف ابنه روبرت الذى لم يكن يفكر فى البقاء بالشرق كان موقفًا متحفظًا طالما بقى فى فلسطين وذلك برغم قرابته لبوهيموند. فلم يعارض انتخاب جودفروا البوييونى الذى كان فى أوروبا جاره وحليفه وقد خلف جودفروا شقيقه بودوان البولونى ثم ابن عم هذا الأخير بودوان البورجى. وعندما انتقلت خلافة المملكة بعد ذلك إلى أيدى أسرة أخرى كان ذلك قد تم عبر الزواج مع الوريثة التى كانت المالكة الوحيدة للعرش. يمكن للمرء إذنْ أن يتساءل عما إذا لم يكن الكونتات الفلاندريين قد خولوا لأنفسهم نوعًا من حق الاطلاع على ما كان يجرى بالمملكة مع أنهم لم يكونوا قط سادة على إقطاعاتها. ومن المحتمل أن ما يرويه أحد كتاب الحوليات الفالاندريين حول إحدى الوقائع لم يكن كله من قبيل الأوهام، فهو يرجح أن يكون حزب

(*) البتشنج : شعوب تترية أقامت على البحر الأسود فى القرن التاسع ووجهت حملاتها على بيزنطية وتراقيا، أبادها الإمبراطور يوحنا الثانى كومنين ١٢٢٣. المنجد فى اللغة والإعلام – المترجم.

البارونات الفلسطينيين المنافسين لبودوان الثانى، ولعله كان مناصراً لأوستاش البولونى منذ عهد حديث، قد أوفد من يقدم التاج إلى الكونت شارل الفالاندرى، ويشهد ذلك، على الأقل أنهم فى إقليم الفالاندر كانوا يفكرون فى مسألة العرش(١٦)، ولم يكن تييرى الألزاسى، خليفة شارل، معادياً لوالد زوجته فولك الأنجى الملك الجديد للقدس؛ وفى عام ١١٣٠ حمل إلى الشرق معونات لا نملك بشأنها رأياً حاسماً.

إن سلوك تييرى نفسه سيبدو أكثر اضطراباً وكذلك سلوك ابنه فيليب من بعده فى الحملات المتتالية التى قاما بها فى الشرق. فقد شارك تييرى فى الحملة الصليبية الثانية وفى حصار دمشق. وبعد استيلائه على المدينة كان يرغب فى تسلمها كمنطقة نفوذ من ملك فرنسا أو الإمبراطور الألمانى وذلك بمعزل عن ملك القدس الذى كان صاحب إقطاعية غير جدير بلقب السيد الأعظم. وقد كان عداء البارونات الفلسطينيين لهذا المشروع أحد الأسباب المؤدية لفشل هذه الحملة، فكون هذه الحملة كانت موجهة ضد دمشق وليس ضد العدو الرئيسى وهو نور الدين الحلبى كان خطأ لعل تييرى تنبه إليه، وعندما عاد مرة ثالثة بدأ بنجدة فرنجة أنطاكية بيد أنهم سعوا دائماً للبحث عن إقطاعة كبيرة لمنحها إياه حتى تتوثق صلته بالشرق أو على الأقل حتى يتم الحصول على مساعدات منتظمة منه. وربما أراد بودوان الثالث بالقدس أن يمنحه القسم الأوسط من نهر العاصى غير أن هذه المنطقة كانت تنتمى لأمير أنطاكية، فكان بودوان يود أن يستلمها منه، وهو أمر لا يتصور بالنسبة لكونت فالاندرى. ومع عودة تييرى للمرة الرابعة إلى الشرق عام ١١٦٤ شارك فى الدفاع عن أنطاكية التى كانت مهددة من قبل نور الدين، بدون أن نعرف ما إذا كان الأمر يتعلق بالنسبة إليه بشىء آخر.

لقد وقعت القصة نفسها بالنسبة لابنه فيليب، ففى عام ١١٧٧ جاء إلى الشرق بالاتفاق مع بيزنطة حيث تم الاعتماد عليه من أجل الاشتراك فى حملة موجهة إلى مصر. وكان ابن عمه بودوان الرابع أبرصاً، ومع وفاة الوصى على العرش تم إعطاء الوصاية إلى فيليب مع قيادة الشؤون العسكرية غير أنه لم يكن يستطيع تمديد فترة إقامته بعيداً عن كونتيته إلا مخاطراً. وكانت خطته تقتضى تزويج الوريثتين الشابتين للقدس مع ابنى أحد مُقطعيه الصغار. لكن هذا الحل على الصعيد العسكرى كان سيئاً ولم يقبله البارونات وكان على فيليب أن يعود مرة أخرى مع الحملة الصليبية الموجهة آنذاك من قبل فيليب أوجست وريشار قلب الأسد حيث لقى حتفه. ونعرف فى النهاية أن العائلة الفالاندرية كان لابد أن تكون ممثلة فى الحملة الصليبية الرابعة بشخص الكونت الجديد بودوان الذى آلت إليه إمبراطورية القسطنطينية. هل أثارت

طموحه ؟ هل كان وجوده، فى أضعف الأحوال، لاستلامها وكان عليه هذه المرة أن يقبل بدون تردد.

لقد وصلنا إلى فترة كان النفوذ المهيمن فى الشرق قد انتقل إلى الحكام الكبار غير أن أسبقية الفلامانديين واستمرار تدخلاتهم تفترض أن الكونتات الفالاندريين كانوا يشعرون بنوع من الأحقية، ولو كانت غامضة، على شؤون الشرق اللاتينى. وعلى أية حال فإن هذه المسألة جديرة بالذكر.

فى مستوى أقل كان الشرق اللاتينى، يتلقى زيارات من الغرب، وجاء بعض صغار السادة الإقطاعيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم غير محظوظين فى الغرب بما فيه الكفاية للبحث عن الثروة فى الشرق، ولا نعرف منهم إلا أولئك الذين «نجحوا».

ومن بين هؤلاء نجد على سبيل المثال، أسرة الأبلين الذين ينحدرون فيما يبدو من أصل إيطالى نورماندى متواضع جداً (إلا أنهم كانوا مستقلين عن نورماندى أنطاكية) وفى مرتبة أعلى بعض الشىء نجد آل الكورتيناى الذين سيكونون فيما بعد ممثلين فى الإمبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ثم أفراد أسرة اللوزينيان وأسرة البريان.... إلخ[١٨]. لابد من إعداد قائمة وتاريخ هذه الأسر «العالمية» التى يحتمل أن تكون قليلة العدد. بيد أن هناك نمطاً آخر هو نمط الأسر التى نجد أفرادها يتميزون بالجرأة والمغامرة فى كل مكان تقريباً إلا أنهم ظلوا مرتبطين بأصولهم الأسرية التى استفادت من ثرواتهم. وتعتبر أسرة الأليراميسى سادة منطقة مونفيرات بشمال إيطاليا أفضل نموذج فى هذا الشأن.

وقد تزوج أفراد أسرة الأليراميسى المونفيراتية، وهى أسرة كثيرة العدد، فى أماكن عديدة. وجاء الأخ الأصغر ليحارب مع روجيه الأول الصقلى الذى تزوج أخته أديلايد والتى ستكون الزوجة الثانية لبودوان الأول المقدسى ووالدة روجيه الثانى، ومن الجائز أن يكون هناك فرد آخر من العائلة قد انخرط فى جيش الحملة الصليبية بقيادة بوهيموند أو تانكريد. وقد شارك وليام الخامس، الذى تصاهر مع كل من الأسرة الملكية الألمانية والأسرة الملكية الفرنسية، تارة فى الجيش الفرنسى وتارة أخرى فى الجيش الملكى الألمانى خلال الحملة الصليبية الثانية. وفيما بعد تزوج ابنه البكر وليام الملقب بذى السيف الطويل من سيبيل التى كان يفترض أن ترث عرش مملكة بيت المقدس على أثر إصابة بودوان الرابع بالجذام، ونُصِبَ فيكونتًا على يافا وعسقلان، فهو والد بودوان الخامس إلا أنه مات مبكرًا وربما دس له السم بإيعاز من أعضاء الحزب الفلسطينى المعادى. وفى الفترة نفسها تقريبًا تزوج رونيه أحد أخوته وهو فى السابعة عشرة من عمره مريم ابنة الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين وكانت تبلغ من العمر ثلاثين عامًا. ومن الجائز أنه حصل على مقاطعة تسالونيك أو جزء منها بشكل أو

بآخر. وفي عهد الكسيس الثاني تمرد، باسم زوجته، فسجن بأمر من أندرونيك. وفي هذا الوقت مات بودوان الرابع بالشرق وهو في ريعان الشباب. وذهب وليام المونفيراتي في شيخوخته إلى الأراضي المقدسة حيث تم أسره في حطين ومات عام ١١٩٠. وقد استدعى ابن ثالث له هو كونراد من قبل الإمبراطور الجديد إسحاق أنج ليتزوج من أخته تيودورا، وبتحالفه مع اللاتين بالقسطنطينية سحق تمرد البراناس لصالح إسحاق. ومع ذلك لم يشعر بالأمان فكان أن رحل كذلك إلى الأراضي المقدسة ووصل أثناء معركة حطين بعد أن اقترض مالاً من أحد رجال الأعمال[١٩] في كونت، فأنقذ صور وتمكن من الإفراج عن أبيه. وبقية القصة معروفة حيث وصل إلى السلطة (عن طريق زواجه الثاني الذي لم يسبقه طلاق مع إيزابيل التي كانت متزوجة أيضاً) ثم تم اغتياله.

وغني عن البيان أن شقيقه بونيفاس سيكون واحداً من القادة الرئيسيين للحملة الصليبية الرابعة وسيصير حاكماً على تسالونيك حيث سيخلفه أفراد أسرته، فهذه الأسرة، كما نرى كانت رائعة.

سنلاحظ أنه، في كل هذا، لم يكن الأمر متعلقاً في شيء بالبابوية[٢٠]. ومع ذلك فالحملة الصليبية. ولو أنها كانت مخالفة بعض الشيء لما توقعه أوربان الثاني فإنها تمت قبل كل شيء بمشيئته وتنظيمه. وبعدما تحقق النصر ومات أوروبان الثاني فإن الأمر الجدير بالانتباه هو التحفظ النسبي للبابوية في القرن الثاني عشر. فقد رحل أوروبان الثاني بدون أن يفشي ما قد يكون لديه من آراء، حول مستقبل البلاد المحتلة ويبدو أن خلفاءه كان لديهم القلة القليلة منها. ولا شك أنهم كرسوا تنظيم الكنيسة اللاتينية بالشرق عبر المنازعات بين الملوك الأوائل والبطاركة بدون اكتراث بما يمكن أن يطرحه هذا التنظيم من مشاكل بشأن العلاقات مع الكنيسة الملكية أو غيرها من كنائس الشرق الأخرى. وأقروا الهبات التي كان يقدمها الأمراء والمؤمنون لهذه الكنائس وقلما اهتموا بتأسيس جماعة فرسان الداوية، ولم تكن هذه الفكرة قد صدرت عنهم، بيد أن سياستهم كانت أقل حزماً فيما يتعلق بالمشكلة الرئيسية التي نتجت عن ميلاد مملكة بيت المقدس، إذ لم يفكر أحد في أن يجعل منها دولة ثانية للكنيسة الرومانية. وما هو أجدر بالملاحظة أن أحداً لم يقترح أن تكون مملكة بيت المقدس إقطاعة للكرسي البابوي على غرار ما فعلته بعض دول أوروبا، فالمناقشات التي تركت أثرها في السنوات الأولى لتأسيس الملكة كانت تتركز حول ما إذا كانت ستصبح مملكة مثل غيرها من الممالك الأخرى أم دولة لها إدارة مباشرة أو مُسيَّرة بوسيط معين من قبل كنيسة القدس وما إذا كان ينبغي أن يكون للمدينة المقدسة وضعية قانونية خاصة[٢١]. من المحتمل أن البابوية كانت تتمنى إقامة مملكة عادية، ربما خوفاً من أطماع كنيسة منافسة[٢٢]، قد يساعد نفوذ المدينة المقدسة على ظهورها، ونظراً كذلك لاحتياجاتها إلى الدفاع العسكري. غير أننا لا نستطيع القول إنها كانت

تملك فى هذا الشأن سياسة نشطة وحازمة. ورغم العلاقات المميزة للبابوية فى أوروبا مع النورمانديين والبروفنسيين لا نرى أن البابوات كان لهم ما يدفعهم إلى التدخل حتى فى أنطاكية أو طرابلس تدخلاً أكبر من تدخلهم فى أكثر الدول لامبالاة (٢٣). وحتى فى مسألة تتعلق بالنظام الداخلى مثل مسألة ضم أسقفية صور إلى بطاركة أنطاكية أو بطاركة القدس، لا نرى أن روما عرفت كيف تختار بوضوح بين مطلب الأولى وهو مطلب مؤسس على خريطة كنسية تقليدية ومطلب الثانية التى تدعى قيامها بمطابقة حدودها مع الحدود السياسية للملكة. كما لايبدو أنه تم استشارة البابوية بالقدس أو بأنطاكية بصدد مشاكل الخلافة.

إذا نظرنا إلى القدس من جهة الغرب(٢٤) فإنها كانت لاتزال بالطبع تتمتع بحظوة المدينة المقدسة. لقد عمل الغزو الفرنجى ونمو الرحلات البحرية انطلاقًا من المدن الإيطالية على تحسين أوضاع الحج وتعاظم عدد الحجاج القادمين إلى الشرق. كان البعض يطيل المكوث فيه ويشارك فى حملة عسكرية ما إذا أنس فى نفسه شيئًا من الاستعداد للقتال، حاملاً بعض العون دعمًا صغيرًا لأبناء عمومتهم بالشرق مع تزويدهم بأخبار الغرب، والحفاظ على الوعى بالانتماء كما يشهد على ذلك إرسال رفات القديسين إلى كنائس الوطن الأصلى (٢٥). لكن يكاد ألا يستقر أى أحد منهم استقرارًا نهائيًا بالشرق (٢٦). وكذلك كان شأن التجار يأخذون ولو أن عديدًا منهم كانوا يتخذون وقتًا إضافيًا لزيارة الأماكن المقدسة أثناء تنقلاتهم التجارية. ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لأعضاء الجماعات الدينية أو العسكرية كالبندكتية(*) والداوية(**) والإسبتارية(***). فالخيرات التى تملكها طوائفهم فى الغرب كانت تفترض حدًا أدنى من العلاقات وكان لديهم على الأقل سفينة خاصة بهم.

وكان فرنجة الشرق أنفسهم يهتمون برحلات الحج بقدر ما كانوا يستطيعون الاستنفاع

(*) البَنْدكْتية : نسبة إلى راهب إيطالى يدعى بنديكتيس أو مبارك (بنوا) (٤٨٠ ؟ - ٥٤٧) الذى أسس رهبانية سميت باسم (البندكتين) فى جبل كاسينو ٥٢٩م، ووضع دستورًا للحياة الرهبانية مازال متبعًا حتى اليوم فى الكثير من الرهبنات الغربية. (المترجم)

(**) الداوية : منظمة دينية عسكرية كونها فارس فرنسى يدعى هوج البايني وبعض رفاقه حيث أصروا عام ١١١٩ على تكوين قوة خاصة لحماية الحجاج والدفاع عن الأرض المقدسة وقد منحهم بودوان الثانى مكانًا للإقامة على مقربة من «هيكل سليمان» فسموه باسمه وكانوا يرتدون الملابس البيضاء وعليها الصليب الأحمر. والداوية تحريف لاسم النبى داود والد سليمان الحكيم. (المترجم)

(***) الإسبتارية : هم الفرسان البيض (أو فرسان القديس يوحنا) وتعود قصتهم إلى عام ١٠٤٨ حينما سمح حاكم القدس المسلم لتجار أمالفى ببناء مستشفى للحجاج المسيحيين وبعد الحرب الصليبية الأولى قام بعض أعضاء المستشفى بالعناية بالمرضى وتضميد جروح المحاربين. وفى عام ١١١٣ أصر ريمون البويى ومن معه فى المستشفى على أن يطلقوا على أنفسهم اسم فرسان مستشفى القديس يوحنا. والإسبتارية هى الترجمة الصَوتية لها فى الأدبيات الكلاسيكية. (المترجم)

منها، كما فعل من قبلهم المسيحيون المحليون (٢٧) ولو باستغلالهم سذاجة الزائرين. وقد جاء غيرهم من الغربيين إلى الشرق اللاتيني بحثًا عن الثراء الذى منع عنهم، ولاشك أنهم كانوا يصابون غالبًا بخيبة الآمال مع أن النصوص لا تحدثنا إلا عن أولئك الذين نجحوا فى تحقيق آمالهم عن طريق الحظ أو عن طريق مهارتهم الفنية. وما جلبوه لم يكن يفوق ثرواتهم الشخصية، وإذا ما تحقق نجاحهم فى ذلك فإن أسرهم كانت قليلة الانتفاع به، ولم يكن ذلك يدفعها إلى الزج بنفسها فى شؤون الشرق. وغاية ما فى الأمر أن حضورهم ربما أسدى بعض الخدمات لنفوذ السيد الإقطاعى الذى كانوا تحت إمرته فى الغرب وإليه كانوا يتوجهون بطلباتهم عند الضرورة.

ومن الصعب معرفة ما إذا كان الاستيطان اللاتينى فى الشرق قد تمكن من النمو ببطء، حتى ولو كان هناك فى الفترات الأولى ما يكفى من القادمين الجدد لتعويض الوفيات المبكرة الناتجة عن الحرب. وكان من شأن هذه الوفيات فى الغالب أن تحث الشبان الطموحين على المغامرة وكانت الفجوات التى تحدث داخل الأسر الإقطاعية عاملاً مساعداً على تجددها عن طريق تزويج الأرامل أو بطرق أخرى غيرها. ولا نعرف ما إذا كان يلزمنا أن نضع فى حسابنا اعتبارات نسبة المواليد، غير أنه لابد من التسليم بأن إعادة التوطين اللاتينى كان كافيًا لتأمين البقاء بعد عودة الصليبيين الأوائل وضمان نوع من الازدهار فيما بعد.

أما من جانب الغرب فقد كان يتم تزويده بأخبار الشرق بواسطة الحجاج والتجار العائدين وإن كنا لا نستطيع أن نثبت أن هذه الأمور قد احتلت المرتبة الأولى ضمن اهتماماته. وغالبًا ما كان الاهتمام ينصب على إحياء ذكريات الحملة الصليبية وتحسين صورتها فى الذهن تدريجيًا وباستثناء فوشيه الشارترى فإن كُتّاب الحوليات التاريخية الذين رووا أخبار الحملة الصليبية كانوا قد عادوا إلى أوروبا حاملين معهم ما دونوه من كتب بل إن حوليات فوشيه نقلت بذاتها إلى أوروبا التى كان أهلها على علم بالحوليات الفريدة لألبرت الإكسى الذى استقصى الأخبار على الوجه الأكمل وإن لم يكن قد ذهب إلى الشرق (من الثابت تقريبًا الآن أنه استخدم قصيدة ريشار الحاج (٢٨) فى استعلامه عن الحملة الصليبية ذاتها). واعتماداً على هذه المؤلفات تم القيام بعملية إشاعة هذه الأخبار بين الناس حيث داخلتها روايات عجيبة (٢٩) والحق أن الصليبيين أنفسهم كان لهم يدٌ فيها، فقد كان الأمر يتعلق فى بعض الأحيان بتمجيد انتصارات أسرة قائدة (٣٠). ولنقتصر على ذكر مثال لأهم الروايات اللاتينية انتشاراً كتلك التى قام بها روبير الراهب (٣١) وأنشودة انطاكية لجراندور الدووى فى

نهاية القرن. وسنلاحظ أن الشرق اللاتينى كان أقل حساسية بكثير إزاء هذه الحاجة إذ لم تتم أية إشاعة لأخبار الحملة الصليبية بين الناس بل ليس من المؤكد أن كل هذه الأخبار كانت معروفة بداخله (٣٢). وفى الغرب ذاته بدأت مناقشة فكرة الحملة الصليبية ومزايا الهجرة من الأوطان وسلبياتها ووسائل الخلاص الروحى.

فى مثل هذه الظروف لم يتم التعرف فى الغرب على سقوط إمارة الرها فحسب، وهى مدينة لم تحرك مشاعر الناس لقلة من يعرفها(*)، بل لقد تم التوصل على نحو خاص إلى معرفة طلبات الاستغاثة التى كان ينقلها السفراء من الشرق. ترى هل كان يتم الاستجابة لهذه النداءات وكيف كان يتم ذلك ؟ على كل حال لم يدر فى خلد المشاركين بالحملة الصليبية أنها ستكون الحملة الأولى وأنه سيتلوها حملة ثانية وثالثة. فبرنار الكليرفى هو الذى طرحها، غير أن الحملة الثانية قد أحدثت مع الحملة الأولى تباينًا له دلالته. وبما أنها كانت مسيرة من قبل قائدين كانت بيدهما السلطة وعلى صلة طبيعية بالبابوية وهما الإمبراطور كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا فقد كانت مؤشرًا ضمنيًا على العودة إلى المقدرة الطبيعية للسلطات العلمانية التى اقتصر البابا على تشجيعها ومباركتها (٣٣). كما كانت مؤشرًا على أول تدخل رسمى للألمان (٣٤). لقد تمت الحملة الثانية رغم إرادة نورمانديى إيطاليا الذين كانوا منشغلين بالاستعداد للحرب ضد بيزنطة كما لم تلتمس أية مشاركة من مدن إيطاليا التجارية. وقد استفادت من تسامح بيزنطة، غير أن هذه تخلفت عن المشاركة فى هذه الحملة إذ كانت حذرة من الأخطار النورماندية والتركية وقليلة الاكتراث بتعاظم النفوذ اللاتينى، بينما كانت قد قامت فى السابق وستقوم بعد ذلك بحملات مستقلة، أضف إلى ذلك أن الحملة الصليبية لم تهتم باستعادة بيزنطة للأراضى التى كانت تابعة لها فى آسيا الصغرى حيث كانت الدولة السلجوقية تقوم بإنشاء نظام لها حول قونية.

وأقل ما يمكن أن يقال عن البابا يوجين الثالث إنه نظرًا لتورطه فى الصراع ضد ثورة

(*) على النقيض مما يشير إليه المؤلف فى هذه الفقرة نجد أن هذا الحدث - وهو سقوط أول إمارة لاتينية فى الشرق - كان له صدى غير عادى ونتج عنه ردود فعل عنيفة فى الأوساط الأوروبية حيث عهد البابا إلى القديس برنارد بالدعوة إلى حملة صليبية جديدة ومن المعروف أن هذا الأخير كتب يقول إنه نتيجة لاستجابة المسيحيين فى الغرب لدعوته أقفرت المدن من ساكنيها حتى أن ملكين من أشهر ملوك أوروبا آنذاك أمكن استمالتهما لحمل الصليب هما لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا. بينما صياغة كلود كاهن للفقرة المشار إليها ترى نقيض ذلك ! (المترجم)

أرنو البريسى(*) فقد كان أقل حماسًا بالإضافة إلى ذلك فقد ظهر من مسار الحملة الصليبية السابقة أن التقارب الكنسى مع القسطنطينية كان سيئًا بالنسبة للهدف الرئيسى المتوخى من قبل روما. وسينضاف إلى ذلك نزاع أنطاكية الذى سنتحدث عنه فيما بعد.

ومن البديهى ألا نرى، فى الغرب ذاته، تطوعًا عامًا للجماهير المتحمسة فى الجيش كما حدث إبان الحملة الصليبية الأولى، ومن المحتمل أن القادة لم يرغبوا فى هذا التطوع (٣٥). وبالإضافة إلى فتور أشكال الورع التى قادت إلى الحملة الصليبية فإننا سنرى بعد لحظة أن البعض كان يفكر فى اتخاذ مواقف جديدة فى مواجهة الإسلام.

هل كانت هناك رغبة فى الشرق اللاتينى لقيام حملة صليبية ثانية ؟ من المؤكد أنهم كانوا يرغبون فى الحصول على الإمدادات لكن فيما يخص إقامة الحملة الصليبية بما تعنيه من إنزال واسع تقتضى أن تسلم قيادته للحكام فذلك أمر يجوز التشكيك فيه. على أن هذه الحملة قد كشفت للعيان إهمالاً متزايداً من قبل مملكة القدس إزاء سوريا الشمالية التى تخلت عنها للمجال البيزنطى. فقد كان حصار دمشق، حيث اجْتُذِب إليه الصليبيون، بعيداً تمامًا عن الكفاح الذى ينبغى خوضه ضد نور الدين الذى كان من ألد الأعداء، وقد أستفاد من هذا الحصار لنشر دعايته الشخصية بين الدمشقيين بإحكام، وعندما انسحب الصليبيون على إثر خلافاتهم الخاصة تركوا بالفعل المجال مفتوحًا أمام نور الدين ليحقق انتصاراته اللاحقة. على أننا نلاحظ أن حجم التأثر لم يكن كبيرًا فى العالم الإسلامى حيث لم ترسل منه أية معونة.

لقد بلغ الاستياء فى أوروبا ذاتها إلى درجة أن جيروح الريشنبيرجى قد ذهب فى اتهامه للحملة الصليبية بأن من أثاروا قيامها كانوا من الأنبياء الكذبة ومن فرنجة القدس الذين لم يكونوا فى حاجة إلى شىء وإنما كانوا يرغبون فى مزيد من الرجال والأموال. وكانت الأخطار الوحيدة التى تحدق بالحدود من تدبير الفرنجة أنفسهم (٣٦).

(*) نسبة إلى مدينة بريسيا الواقعة بمنطقة لومبرديا فى شمال إيطاليا (المترجم).

الفصل الثامن

النصف الأول من القرن الثانى عشر :

التجارة والتطور الروحى

إن مجرد إقامة الصليبيين بالشرق لم يكن قادراً على قلب أوضاع التجارة رأساً على عقب. من المؤكد أنه كانت للصليبيين هناك مطالبهم الخاصة غير أنها لم تكن تتضمن بالضرورة إمكانية التمويل ولا السبيل لتحقيق فعلى لكل ما ينبغى إنجازه وكان التفاوض بشأن البضائع التى تهم التجار الغربيين فى الشرق يتم دائماً فى مصر بصفة أساسية. وبما أن هذه البضائع كانت تصل فى السابق إلى الموانئ السورية فمن المؤكد أيضاً أن سقوط طرابلس وعكا وصور، ومناخ الحرب وعدم الاستقرار إبان السنوات الأولى للقرن الثانى عشر، مع إقامة حد فاصل بين سوريا الوسطى المسلمة والمناطق الفرنجية، كل هذه الأمور لم يكن بوسعها إلا أن تؤدى إلى تحويل حركة المرور عن هذه الموانىء. أما بالنسبة للزبائن الشرقيين المهتمين بالتصديرات الأوروبية فلم يكونوا موجودين بكثافة فى الشرق اللاتينى (١). لم يفقد التجار السوريون شجاعتهم غير أنهم اتجهوا إلى تحويل عملياتهم نحو مصر، وليس من قبيل المصادفة أن يقدم لهم مستودع خاص (دار الوكالة) (٢) بالقاهرة بعد الحملة الصليبية الأولى ببضع سنوات. لا ينبغى النظر إلى الدول اللاتينية الجديدة كما لم تكن موجودة وكذلك ينبغى تجنب النظر إليها بمعزل عن غيرها كما لو أن أوضاع التجارة فى البحر المتوسط لم تكن تتوقف إلا عليهم وكأنهم أصبحوا بين عشية وضحاها فى موقع الصدارة.

كانت التجارة البحرية بالنسبة للشرق اللاتينى كما بالنسبة لمصر مرتبطة بالتجارة البرية سواء تعلق الأمر بمنتجات البلد (انظر أدناه) أو بمنتجات قادمة من مناطق بعيدة عبر القوافل. وقد اعتبر كثير من الفرنجة، غداة الحملة الصليبية، أن أى تاجر أو بضاعة تقع بين أيديهم هى ولا شك غنيمة جيدة، الأمر الذى جعل القوافل تتردد بالطبع فى الإبقاء على مساراتها التقليدية ومع ذلك فإن هذا المسلك لم يستمر إلا فترة من الوقت إذ أن الفرنجة بعد أن دعموا بقاءهم فى رقعة أرضية لا تحتوى على المناطق الواقعة خلف الشواطئ النائية، وإن كانت تتحكم فى ربط الاتصالات بين مصر وآسيا الأدنى، أدركوا أهمية وضع صيغة للتعايش السلمى والانتفاع من جباية المكوس(*) على القوافل العابرة كما كانت تفعل الدول والقبائل العربية فى المنطقة منذ مدة طويلة.

وحتى فى زمن الحرب كان يتم اعتبار الأمراء والأرستقراطيين بمثابة المعنيين بهذا الأمر(٣). إضافة إلى أن العدوات كانت تتسم دوماً بطابع محلى. وكانت تهمة انتهاك حقوق

(*) المكوس : هى دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى أسواق الجاهلية. أو ما يأخذه أعوان الدولة عن أشياء معينة عند بيعها أو عند إدخالها المدن. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

الناس والخروج عن نطاق الحضارة تطال بشدة من يمد يده إلى قافلة، أو من كان أثناء الحصار يهلك المزروعات أو يدمر أعمال الرى التى كان إصلاحها يكلف كثيراً من المال والوقت حتى بالنسبة للفئة الغالية. ولا يعنى هذا أن حالة الحرب كانت خالية من المساوىء ؛ فقد كان من المعروف جيداً أن مظهر التاجر كان غالبًا ما يخفى نشاط التجسس والعمالة للعدو، ويرجع السبب فى ذلك بالضبط إلى حرية المرور التى كانت تعطى للتجار. ولم يكن من المسموح به أن يكون أعضاء أمة من الأمم تجاراً اليوم وغداً جنوداً ضمن الأعداء أو بائعى أسلحة للعدو. وبينما كان التمييز بين هذه الأشياء أمراً يسيراً فى الغرب فقد كان أمراً عسيراً بين الشرقيين.

لقد طلب تجار مدينة جنوه وبيزا والبندقية جملة من التنازلات والامتيازات داخل الشرق اللاتينى، وحصلوا عليها فى ظل الأوضاع التى مرت بنا سابقًا، لكن لم يترتب عنها بالضرورة انتفاع تام على الفور بل ولا يبدو أنهم حصلوا دائمًا وبشكل فعلى على الأراضى والأحياء التى تم تسليمها لهم. أضف إلى ذلك أن هذا التسليم كان يقوم على أساس خريطة اقتصادية كان للغزو الفرنجى بالتحديد دخل فى تعديلها. وتعتبر الوثائق التى فى حوزتنا عن النصف الأول من القرن الثانى عشر ضئيلة العدد وهو أمر قد يكون له فى حد ذاته دلالة، وذلك بمقدار ما يحوم الشك حول صحة بعض عقود الامتيازات، كما هى فى حوزتنا، على الأقل فى جزء منها، فليس من المؤكد أنها لم تُزَوّر خلال الفترة التى أخذ فيها الإيطاليون يولونها اهتمامًا أكبر (٤). على أية حال فإن ما نعرفه عن هذه الفترة يختلف كثيراً عن الصورة التقليدية التى تعطى لنا عن العصر اللاحق، وهى صورة قد يكون مبالغًا فيها ؛ فالتجارة بالشرق اللاتينى على وجه الخصوص لم تكن قادرة على الاكتفاء الذاتى بخلاف التجارة بمصر. فإذا كانت رحلة الذهاب والإياب من الإسكندرية تحقق لسفينة ما توازنًا تجاريًا دون أن تضطر إلى الذهاب لسوريا فإن العكس كان متعذراً من الناحية التجارية بالنسبة للسفينة التى تبحر فى سوريا ولا تمر عبر مصر.

وهناك اختلافان آخران على قدر من الأهمية بين النصف الأول من هذا القرن والقرون التالية وهما وهى من جهة استمرار أحد الأساطيل المغربية (٥) التى كانت تنقل التجار المسلمين واليهود من جهة، ومن جهة أخرى الأهمية المشهودة نسبيًا لإيطاليا الجنوبية فى مواجهة موانىء الشمال. ففى مؤلف كتب حوالى عام ١١٧٠ (٦)، حسب وثيقة ترجع جزئيًا إلى فترة سابقة، ورد ذكر عدد من التجار الصقليين وحتى السردينيين (أكان ذلك قبل الحملة

الصليبية ؟) الذين كانوا يأتون إلى مصر، بل وحتى التجار الجنويون كانوا لايزالون يأتون إليها فى بعض الأحيان على ظهر السفن الأمالفية.

وسنعود فى النهاية للحديث عما يجب أن نلفت إليه الانتباه حالاً، وهو أن تلبية حاجات فرنجة الشرق لم يكن بالإمكان أن تتحقق إلا بواسطة رؤوس الأموال التى لم تكن الأرباح المحصلة فى المرحلة الأولى تضمن تجددها بانتظام وبرغم ضياع أرشيفات مدينة أمالفى فإن استمرار بعض أنواع الأنشطة التجارية لدى الأمالفيين أمر تثبته وثائق الجنيزة وهى ترجع إلى خلافة الأمير (١١٠١ - ١١٣٠) (٨) ويظهر منها أن الأمالفيين كانوا دائمًا يجلبون الأخشاب لبناء المنشآت البحرية (٩). ولدينا وثيقة من مدينة البندقية تشير إلى أن تجاراً من هذه المدينة أبحروا من مصر باتجاه القسطنطينية على متن سفينة أمالفية، وهى وثيقة يمنحها التاريخ الذى كتبت فيه (عام ١١٤٤) بعداً خاصًا لأنها أعقبت النهب الذى ألحقه البيازنة بمدينة أمالفى فى عام ١١٣٥، وهو ما سنتحدث عنه (١٠). وقد رأينا أن الموقف النورماندى لم يكن يعبر إطلاقًا عن الامتناع عن المشاركة السياسية أو التجارية بالشرق. وطالما لم يكن للنورمانديين سيادة على مدينة أمالفى فقد سعوا لمساعدة رعاياهم الصقليين والسالرنيين، كما سعوا حتى منتصف القرن ليؤمنوا لهم وضعًا تجاريًا مميزًا مع الدولة الفاطمية. وحتى ما بين عام ١١٤٣ و١١٤٨ وقعت المعاهدات بين روجيه الثانى والخليفة الفاطمى لتجديد الاتفاقيات السابقة التى لا نعرف عنها شيئًا (١١). وفى عام ١١٣٧ وعد روجيه الثانى أهل ساليرنو بمحاولة الحصول على الامتيازات التى كان أهل مدينة أمالفى يتمتعون بها منذ زمن بعيد فى مصر. وتشير إحدى الوثائق المؤرخة عام ١١٣٥ إلى وجود سفينة من ميناء بارى فى مصر، وتشير وثيقة أخرى مؤرخة فى عام ١١١٩ إلى سفينة أخرى فى دمياط. كما يذكر خطاب الخليفة إلى روجيه الثانى وجود سفينة مصرية فى مسينا (*) عام ١١٣٦ (١٢)، ووفقًا لهذه الوثيقة فقد كان لملك صقلية والخليفة أمور شخصية فى هذه التجارة (١٣). وربما لم تكن تقتضى هذه الامتيازات سوى الالتزام بأداء الأعشار التقليدية داخل مصر حيث غالبًا ما كانت الحكومة الفاطمية تقتطع الرسوم بنسبة ١٩٪ (١٤) خلافًا لغيرها من الدول الإسلامية.

ومع ذلك فقد بدأ فى هذه الفترة نمو نشاط منافسى الأمالفيين بالشمال. لقد انتهز الجنويون فرصة نشوب الصراعات بين أمراء أنطاكية والبيزنطيين الذين لم يرعوا لهم جانبًا،

(*) مسينا : هو اسم لمدينة إيطالية تقع فى شمالى شرقى جزيرة صقلية وتقع على مضيق مسينا، زارها ابن جبير فوصفها فى كتاب رحلته الشهير. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

ليقروا لأنفسهم الحق فى استلام ثلث دخل ميناء سان سيميون وهو منفذ لأنطاكية فيما بعد وامتيازات شبيهة بامتيازات ميناء اللاذقية لصالح البيازنة هذه المرة. وتوحى السمة النمطية للتأكيدات التى منحها لهم أمراء أنطاكية حتى بوهيموند الثالث أنه لم تكن لديهم الرغبة أو القدرة على تطوير نشاطاتهم (١٥). ويبدو أن الأمر كان كذلك فى مملكة بيت المقدس وطرابلس مع تأخر بسيط فى البداية. كانت الامتيازات التى حصل عليها أهل جنوه، لاسيما فى عكا، بمثابة تعويض عما قدموه من عون فى غزو هذا الميناء، وقد وُعدوا بتعويضات مماثلة بالنسبة للموانىء الأخرى التى قد يتم الاستيلاء عليها بمساعدتهم (١٦). غير أن النزاعات التى حدثت فى أواسط القرن حول حقوق سابقة موثوق بها على وجه التقريب اثبتت أن نجاعتهم كانت إلى ذلك الحين ضئيلة للغاية (١٧). ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لمصر حيث تشير مجموعة خطابات متخيلة كتبت حوالى عام ١١٣٥ أن مشاركة الجنوية ولاسيما عائلة الإمبرياشى كانت معروفة جيداً بين الناس، وتؤكد مراجع عديدة وجود الجنوية فى الإسكندرية فى ثلث القرن السابق.

ويبدو أن النشاطات التجارية السائدة للمدن الإيطالية بالشرق والتى كان لها علاقة بادية للعيان مع الاضطراب الذى عرفته التجارة الإيطالية فى القرن الثالث عشر لم تكن هى كذلك غريبة عنهم خلال القرن الثانى عشر. لقد احتلت مدينة البندقية منذ أجيال عديدة موقع الصدارة الفعلية فى ميدان التجارة بالبحر الأدرياتيكى، وقد تبينا المكانة الفائقة التى كانت لها فى هذا الميدان داخل الإمبراطورية البيزنطية. ونظراً لحاجتها لإقامة السلم مع الغرب من أجل مناطقها الواقعة خلف السواحل فقد حاولت قدر المستطاع أن تظل خارج الصراعات التى كانت تنشب بلا انقطاع بين أنصار الإمبراطورية والمناهضين لها داخل شبه الجزيرة. وكان لايزال للبيازنة والجنوية مصلحة مشتركة فى أمن المنطقة الغربية للبحر المتوسط ؛ فقادا معًا حملة ضد ألميرية (*) كانت لها نتائج مدمرة (١٩). لكن بمقدار ما كانت طموحاتهم تتجاوز حدود البحر التيرانى، كانوا يجدون أنفسهم فى الغالب فى موقع المنافسة. إذ كانت بيزا مناصرة للحزب الإمبراطورى، منذ زمن بعيد بينما انقسم أهل جنوة إلى أسر أرستقراطية موالية للإمبراطورية فى حين كان عامة الناس أقرب إلى المعارضة. غير أنه فى بداية القرن واصلت البابوية معارضتها للإمبراطور استناداً على النورمانديين وبعد تصالحهم أثناء معاهدة وورمز

(*) ألميريَّة : مرفأ فى إسبانيا (الأندلس) على البحر المتوسط، قاعدة إقليم المريَّة، ٨٩٫٥٠٠ نسمة، قديماً من مدن مملكة غرناطة، عظم شأنها على أيام عبد الرحمن الأول. احتلها فرديناند الخامس الأرعونى ١٤٨٩، مركز صناعى. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

عام ١١٢٣، غيرت فجأة موقفها فاستنصرت الإمبراطورية ضد التوسع النورماندى فى إيطاليا الوسطى. ومن ثم وجد البيازنة أنفسهم منقادين إلى حرب ضد المملكة النورماندية ولعل الأمالفيون المنفيون عن بلادهم مثل آل بنتاليونى (٢٠) قد حرضوهم على ذلك. فى هذه الأثناء كانت أمالفى تابعة للمملكة النورماندية. وقد انتهز البيازنة هذه الفرصة لتخريبها من غير أن يبددوا قواهم فى مشروعات أخرى.

ولا نعرف بوضوح كيف تطورت آنذاك تجارة الإيطاليين فى بيزنطة حيث كان البنادقة يحتفظون بالمرتبة الأولى فى هذا الشأن، ولو أن البيازنة ومن بعدهم الجنوية قد حصلوا أيضًا على اتفاقيات أكثر ملاءمة. ومع أن لهذه التجارة أهمية لا تنكر إلا أن طبيعة البضائع المموَّنة لها كانت أقل وضوحًا. من البديهى أن يشترى الإيطاليون منتجات الصناعة البيزنطية الفاخرة، ولا يقل بداهة عن ذلك ألا تصل إلى القسطنطينية القوافل التى عبرت الأناضول وهى حاملة لبضائع قادمة من أقاصى الشرق إلا فى حالات استثنائية، الأمر الذى كان يجعل لمصر أهمية متزايدة بالقدر نفسه. لكننا كنا نود أن نعرف ما إذا لم يكن الإيطاليون يجلبون إلى مصر الخشب والحديد البيزنطى والإيطالى على السواء. ويمكن التسليم بأنهم كانوا على أية حال يحملون إليها القطران الذى كان يجلب إلى القسطنطينية من روسيا عبر البحر الأسود(٢١).

قد يكون من المهم بالنسبة لنا أن نعرف طبيعة ومدى الآثار التى تركتها أحداث البحر المتوسط فى التجارة نحو المناطق الواقعة فى أقاصى الشرق ولاسيما فى المحيط الهندى.

وإذا كانت التجارة البحرية بالمحيط الهندى قد وجدت قبل الحملة الصليبية بفترة طويلة، والتى أصبحت بعد ذلك موجهة بصفة خاصة نحو اليمن والبحر الأحمر فإن معرفتنا بالتنظيم الذى اتخذته محدودة للغاية ومن الصعب علينا أن ندرك إذا كان لوجود الشرق اللاتينى أثر فى تعديلها وكيف حدث ذلك(٢٢). ومن اللازم أن يكون لذلك صلة ولا شك بتطور ميناء عيذاب(*) فى أعالى مصر، الذى كان أقل عرضة للهجمات الفرنجية المحتملة من السويس والقلزم. وعلى الرغم من اتخاذ القراصنة بعض الأوكار فى البحر الأحمر (دهلك (**) فى الجنوب) فقد كان

(*) عيذاب : مرفأ فى جنوب مصر (محافظة البحر الأحمر) على ساحل البحر الأحمر قرب الحدود السودانية. كان يبحر منه الحجاج المصريون إلى جدة. أهمل شأنه فى القرن الرابع عشر عند تحويل طريق التجارة إلى شمال البحر الأحمر. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

(**) دهلك : أرخبيل من ١٢٢ جزيرة، فى جنوب البحر الأحمر، يتبع أريتريا، أهم جزره دهلك الكبير. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

هذا البحر آمنًا تقريبًا، ولاسيما، بالنسبة للعبور نحو جدة والمدن المقدسة بالحجاز. أما بالنسبة للمحيط الهندى تحديدًا فلا نملك إلا أن نذكر بعض الوقائع كما هى والتى حدثت فى ظروف لاتزال غامضة.

لقد رأينا أن التجارة القائمة بالخليج العربى - الفارسى كانت قد تدهورت تدهورًا شديدًا. ولم يعد لميناء سيراف الكبير الذى كان يتصدرها وجود فعلى حيث تم استبداله، على الصعيد الإقليمى، بدولة شبه قرصانة بجزيرة قيس (*) الصغرى وبموانئ عمان على ساحل الجزيرة العربية. لكن يبدو أنه تم الاحتفاظ بتسمية السيرافى للدلالة على كبار التجار بهذه المنطقة.

وبالطبع كانوا يقومون بمهاجمة اليمنيين الذين أصبحوا منذ ذلك الحين خصومًا لهم أو على الأرجح قد يكون حدث صراع ولاسيما فى عدن بين حزب كان يرغب فى التفاهم معهم وآخر كان يولى وجهه أكثر نحو مصر. ربما أقيمت فى القرن الثانى عشر وحدة سياسية بين جزيرة قيس وعدن على الأقل لبعض الوقت. ففى هذه الفترة برزت إحدى الشخصيات المهمة من الناحية الاقتصادية، وهو ما جعلها تبدى مظاهر الكرم فى مكة ذاتها وكذلك من الناحية السياسية والعسكرية نظرًا لتدخله فى شؤون عدن. أنه السيرافى رامشت الذى ظهر فى النصف الأول من القرن الثانى عشر (٢٣).

ونلحظ فى الفترة نفسها مشاركة متعاظمة للتجار اليهود فى الشؤون التجارية بالمحيط الهندى (ولكن ليس فى ملكية السفن)؛ إذ اتجهوا بنشاطاتهم نحو هذا الشاطىء بعيدًا عن المغرب موطنهم الأصلى بعد أن تم إقصاؤهم إقصاءً فعليًا من البحر المتوسط من جراء توسع الإيطاليين المسيحيين. وكانت المواد الغذائية التى يجلبها الإيطاليون إلى مصر، فى قسم كبير منها، يتم توزيعها من قبل المسيحيين الأقباط بدون أن يساهم اليهود آنذاك فى قسط منها.

وفى هذه الفترة كذلك بلغنا الحديث لأول مرة عن الكارم ثم الكارميين بعد فترة قصيرة وقد تم هذا حقًا عن طريق رسائل يهودية أولاً. فكلمة «كارم» التى لا نعرف أصلها الاشتقاقى والتى يحتمل ألا تكون كلمة عربية تعنى قافلة منتظمة من السفن التجارية القادمة من الهند كان يتبعها كل الطوائف ولو أن المسلمين كانوا يشكلون الأغلبية فيها، وقد أطلقت كلمة

(*) قيس : جزيرة فارسية فى الخليج، ١٢٠ كم٢، ذكرها الجغرافيون العرب ووصفوا خصبها ووفرة أشجارها. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

«الكارميين» على من كان يتبع الكارم(*) (٢٤). وربما كانوا متخصصين فى تجارة التوابل وبعض المنتجات الأخرى الباهظة، ومتمتعين ببعض المزايا خاصة الجمركية، لكن لا نرى أنهم شكلوا اتحادات مهنية أو جمعيات، وسيكون لهم فى نهاية القرن دور كبير فى مصر، إلا أننا لا نعرف ما إذا كانوا قد وصلوا إليها من قبل فى عهد أواخر الحكام الفاطميين.

ربما ليس من قبيل المصادفة كذلك أن تكون الأدبيات الجغرافية لهذه الفترة - وهى التى تكتفى بالنقل عن الأسلاف الكبار فى القرن العاشر - قد أضافت لهم ملحقات جوهرية بالمحيط الهندى الذى كان لهؤلاء معرفة جيدة به فذلك كان شأن الإدريسى الذى كان يؤلف فى صقلية. وكذلك الأمر بالنسبة للقارئ أو الناسخ لما كتبه ابن حوقل(**)، هذا الجغرافى العظيم الذى ظهر فى القرن العاشر وقد أضاف إلى مصنفه إضافات مهمة لحسن الحظ أنها وصلتنا. وبعد ذلك بفترة قصيرة قدم لنا ابن مجاور باليمن صورة عن التجارة بعدن لا نملك لها نظيراً لدى المؤلفين القدامى (٢٥).

فالقضية تتعلق بمعرفة ما إذا كان تعاظم الطلب الأوروبى على المنتجات القادمة من المحيط الهندى وآسيا الجنوبية - الشرقية والتى تنقل عبر مصر بصفة خاصة قد أدى إلى ندرة هذه البضائع وارتفاع أسعارها فى هذا البلد أو تعاظم شامل لتجارتها. ونحن نميل إلى هذا الرأى الأخير ولو أننا لا نملك برهاناً موثقاً كما أن كتاب «المنهاج» فيما يبدو لم يجعل لهذه البضائع مكانة مهمة ضمن تصديرات الموانئ المصرية الواقعة على البحر المتوسط.

بالطبع سيكون من المبالغة بمكان أن نعتقد بأنه لم تعد هناك سفن بالخليج العربى - الفارسى. لقد حفظنا رواية أحد الحجاج الصينيين الذى زار بغداد، وعندما يحدثنا المؤرخ ابن الجوزى عن عاصفة تسببت فى غرق سفينة على ظهرها ١٨٠٠ تاجر مسافر فإن الأمر لا يتعلق بحالة فريدة؛ فهذه التجارة التى كانت تقوم فى أصقاع بعيدة قد وصلت كما نرى إلى

(*) تجار الكارم : ويقال أيضاً الكارمية والاكارم ومفرده كارمى، المقصود بهذا اللفظ فئة التجار الذين كانت بيدهم تجارة البهار الوارد إلى مصر من الهند عن طريق ثغور اليمن وكان معظمهم فى الأصل من بلاد الكانم الإسلامية التى تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربى. فنسبوا إلى أصلهم الجغرافى بعد تحريفه إلى «الكارم» ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر. المقريزى - السلوك ٣/١ ص ٨٩٩. (المترجم)

(**) ابن حوقل (ت ٩٧٧) : رحالة عربى وجغرافى جاب العالم الإسلامى من المشرق إلى المغرب ودرس مؤلفات المتقدمين. والمقصود هنا كتابه «المسالك والممالك». (المترجم)

الصين لأسباب عديدة من ضمنها بيع البخور (٢٦). ومن المحتمل أن نكون هنا بصدد تجارة قائمة بين ضفتى الخليج من عمان إلى فارس وقادمة، فى قسم منها، من إفريقيا الشرقية عبر موانىء شبه الجزيرة العربية. وقد كان استيراد العبيد السود يحقق أرباحًا طائلة لسلطان كرمان (*) ولتجار شيراز (٢٧)، فبغداد لم تعد قادرة بنفسها على أن تكون قوة جذب بعد أن فقدت مركز الصدارة فى العالم.

* * *

لا يجب أن يغيب عن بالنا أنه فى هذه الحقبة نفسها من الحروب الصليبية ظهر ونما بالغرب الاهتمام بالفلسفة والعلم العربى - الإسلامى على النحو الذى ظهرا به فى إسبانيا. ففى الشرق كان التراث الكلاسيكى قد تدهور فى هذا الشأن وفى أسبانيا تم الحفاظ عليه كما يشهد على ذلك اسم ابن رشد الذى يمثل ذروته. وبما أن أسبانيا كانت على صلة مباشرة بالغرب المسيحى أكثر مما كانت عليه صلتها بمسلمى الشرق فإنه من الطبيعى أن تتعود أوروبا على معرفة الفكر العربى الإسلامى وفقًا للشكل الذى اتخذه فى أسبانيا على الخصوص بشرط أن تكون أوروبا قد وصلت فى تطورها إلى المستوى الذى يمكنها من اكتساب دافع الاطلاع عليه وفهمه وهو ما كان عليه الأمر بالفعل. أضف إلى ذلك أن استيعاب الفكر الكلاسيكى كان آنذاك أسهل من استيعاب الفكر الشرقى، فرجوع هذا الأخير إلى الإسلام أو اقتصاره عليه قد وصل حدًا جعل من المتعذر على الفكر المسيحى أن يكون على صلة به. وفى المقابل فإن الفلسفة الكلاسيكية الحاملة للمكتسبات التى اعتبرت بمثابة مكتسبات يقينية للحكمة القديمة التى لم يحفظ منها الغرب سوى شذرات ضئيلة (باللغة اللاتينية أكثر منها باليونانية) كان يمكنها أن تثير اهتمام المسيحيين ولو أن التجربة أثبتت أنها كانت لابد من أن تطرح عليهم جملة من المشاكل. وبالطبع كانت هناك حركة مشابهة، مع مراعاة الفروق، أخذت تظهر فى إيطاليا النورماندية حيث نشأت فى بداية القرن الثانى عشر مدرسة طبية بمدينة ساليرنو انطلاقًا من تعاليم قسطنطين المسمى الأفريقى نسبة إلى موطنه.

إن هذه الأمور طبعًا لا تخص بداهة سوى نخبة من المثقفين، ولو أنه قيل عنها الكثير خلال هذه الفترة بما أنهم هم الذين كانوا يكتبون عنها وكان لابد أن تؤدى تلك الكتابات فى القرن اللاحق إلى تأثيرات عميقة وعلى نطاق واسع داخل الأوساط التعليمية الجامعية. فليس

(*) كرمان : إقليم قديم فى إيران يقع جنوب غربى صحراء لوط بين مكدان وفارس. شرع فى فتحه الربيع بن زياد قائد أبى موسى الأشعرى وأتمة بن مسعود السلمى.. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

لهذا الأسى إذن مساس مباشر بالحملة الصليبية ولو أنه من الصعب أن نتصور أن بعض من شغله أمر الحملة الصليبية من المثقفين لم يتجهوا إلى التخفيف من حدة الصورة التى كانت سائدة عن العرب المسلمين البرابرة والشياطين. ويؤدى هذا فى بعض الحالات أن نستنتج أنه كان ثمة مصلحة فى معرفة الدين الإسلامى ولو بغرض النقاش فى هذا الشأن. ولا يتناقض هذا بالضرورة مع فكرة الحملة الصليبية لأنه فى اللحظة التى كانت تمنع فيها بعض السلطات المتكبرة انتشار الإيمان الحق، كان لابد من إرغامها حين يستلزم الأمر ذلك، فذلك كان يؤدى إلى تبديل اللهجة إلى حد ما والميل إلى إعادة توزيع المهام بين العلماء والمحاربين. وفى بداية القرن الثانى عشر نجد بيير الفونس وهو يهودى اعتنق المسيحية وأقام فى أرجونة، قام بالتعريف ببعض عناصر الإسلام باللغة اللاتينية. غير أن اللحظة الحاسمة كانت تلك التى أمر فيها بطرس المبجل بترجمة القرآن داخل رهبانية كلونى، وهو المكان نفسه الذى أعدت فيه فكرة الحرب الصليبية، وقد أرفق هذه الترجمة بخطابات موجهة إلى مسلم متخيل يشرح له أنه لم يجئ إليه بالسيف وإنما بالكلمة(*). وفى النصف الثانى من القرن كان من اللازم أن تحقق المعرفة بالإسلام تقدمًا جديدًا عندما ترجم جوفروا الفيتربى بإيطاليا روايات مختصرة من السيرة (حياة النبى ومغازيه).

ولم يشارك الشرق اللاتينى فى حركة الترجمات العلمية هذه ولا فى التطلع لمعرفة الإسلام. لقد نسب بالطبع إلى وليام الصورى كتاب «تاريخ العرب»، لكن هذا الكتاب فيما يبدو لم يكن سوى ترجمة (هل قام بها بنفسه ؟) لكتاب أوطيخيوس (سعيد بن بطريق)(**) المسيحى، وواقع أننا لم نتوصل إلى أى مخطوط منها هو أمر يوحى بأن هذه الترجمة كانت تهم القلة من الناس(٢٩). وفى بداية القرن بالضبط قام المدعو إيتان الأنطاكى (٣٠) بترجمة الكتاب الطبى للمجوسى، إذ لا شك أن للرجل صلة بالمدرسة الطبية بإيطاليا النورماندية، ولا نرى أن هذا الجهد قد استمر بعد ذلك فى سوريا.

لابد لنا أن نتذكر بأن الصليبيين لم يستولوا على أية حاضرة من الحواضر العلمية الكبرى ببلاد الإسلام وأنهم قاموا فى البداية بتدمير المكتبات التى وقعت بين أيديهم بالنسبة لمكتبة طرابلس انظر الملحق.

(*) بطرس المبجل (١٠٩٢ - ١١٥٦) : رئيس ومصلح رهبنة كلونى فى فرنسا، حيث أعاد سياسة الورع والتقشف لنظام سان بنوا، ترجم القرآن إلى اللاتينية بغرض «التنفيذ». (المترجم)

(**) سعيد بن بطريق (٨٧٧ - ٩٤٠) هو أوطنجيوس بطريرك الإسكندرية على الملكيين (٩٣٣ - ٩٤٠)، كان طبيبًا ومجادلاً ومؤرخًا، له مختصر فى التاريخ العام إلى سنة ٩٣٨ سماه «نظم الجوهر» طبع باكسفورد عام ١٦٤٢ وله أيضًا كتاب البرهان. (المنجد فى اللغة والأعلام) (المترجم)

إن الاتصالات التى تحدثنا عنها قبل قليل لا تعنى سوى المثقفين. أما بالنسبة لعامة الناس فيجب أن نتوجه إلى نصوص أخرى وهى الروايات الشعبية، والتراث المتعلق بنهاية العالم، إلخ. لقد أكدنا من قبل على أن أيًا من أناشيد المآثر لم تظهر فى الشرق اللاتينى حتى تلك التى تتعلق بالمعارك ضد المسلمين، باستثناء «أنشودة الأسرى» (٣١) التى تم نظمها فيه، وهى أنشودة مرتبطة بتقاليد مدينة بواتييه ولم تعرف إلا فى الغرب. كما لم يحدث تجديد كبير بالنسبة لروايات الفروسية العربية التى كانت قد مجدت فى القرن العاشر الكفاح ضد البيزنطيين الكفار، وغاية ما فى الأمر أننا نلاحظ أن الروايات التى كانت شائعة بين الناس إبان الحروب الصليبية كانت فى بعض الأحيان تستبدل اسم عدو بيزنطى باسم آخر فرنجى، وقد تبتعث أحد الأبطال من العصر الجاهلى وهو دائمًا ما يكن شابًا (عنتر) ليعايش فترة الحروب الصليبية (٣٢)، وبطبيعة الحال لم يكن لعرب سوريا أن يقاتلوا البيزنطيين. ولم يكن يقاتلون الفرنجة إلا نادرًا حيث أن هذه المهمة قد آلت منذ تلك الفترة إلى الأتراك المحترفين أساسًا. ولم يكن أتراك آسيا الصغرى بالذات قد وصلوا فى القرن الثانى عشر إلى المرحلة الثقافية للمصنفات الكبرى التى تروى مفاخرهم (وهو ما سيحدث ابتداءً من القرن الثالث عشر باللغة الفارسية والرابع عشر باللغة التركية).

فى هذه الأثناء عندما وجدوا فى المنطقة مأثرة عن البطل العربى القديم سيد بطال الغازى الذى ترجمت روايته القديمة إلى اللغة التركية لم يكن الأمر يتعلق إلا بالبيزنطيين من غير أن يفرنجوا أحدًا منهم. ويبدو أن هذا النوع من التراث كان له أثر فى نفوس مختلف الأفراد بالشرق الأوسط. ومن المحتمل أن تكون الملحمة الأرمينية لدافيد الساسونى (٣٣) قد ظهرت فى هذه الفترة نفسها وهى تعيدنا فيما يبدو إلى القرن الحادى عشر، وفى كل الأحوال قبل نهاية القرن الثانى عشر (حيث قام الأكراد آنذاك بإبادة الأرمن الساسونيين فى منابع الفرات، ولا نجد تلميحًا للفرنجة). وفى جورجيا وهى منطقة بعيدة بعض الشىء عن الفرات ألف شوتا روستافيلى ملحمة «الرجل ذو جلد الفهد» التى تقربنا أكثر إلى النماذج الإيرانية القديمة بعض الشىء. كذلك لا يوجد شىء يذكر حكايات ألف ليلة وليلة التى تم تأليفها على مدى ألف عام، ولو أن الروايات المصرية المتأخرة لهذه الحكايات تكشف عن شعور معاد للفرنجة (٣٤). تتحدث «ملحمة بيبرس»، بعدها بفترة، عن كفاح المماليك ضد الفرنجة. لكنها حكايات كتبت فى فترة متأخرة وبشكل متكلف تقريبًا بهدف إعادة الثقة إلى المماليك الذين كانوا آنذاك فى مواجهة السلطة العثمانية. وثمة مجال كذلك للنظر بعين الاعتبار إلى تناقل الأساطير مثل أسطورة «الجبل السائر» المعروفة فى الوسط القبطى المصرى، وقد نقلها إلى

إيطاليا الجنوبية حوالى ١١٣٠ مؤلف «تاريخ الحرب المقدسة» وسمعها ماركوبولو فيما بعد فى آسيا الصغرى(٣٥). وأعيد تقديم الأدب المتعلق بنهاية العالم فى الأوساط اللاتينية واليهودية والعربية(٣٦) طوال فترة الحروب الصليبية. وفى هذا الصدد يمكن التحدث عن أسطورة الكاهن يوحنا.

لقد شددنا على فتور غالبية المسيحيين المحليين أمام واقع الحروب الصليبية، وظروفهم المعيشية الملائمة فى بلاد الإسلام مع تقلص قيمتهم العددية ونفوذهم العام فى هذه الأثناء. غير أن نوعًا من الرجاء المسيحى للوصول للخلاص على حساب الإسلام (٣٧) ظل قائمًا، أو لعله ظهر من جديد، فى بعض الأوساط، خاصة لدى النساطرة الذين كانت لديهم علاقات ضئيلة مع الفرنجة، وهو خلاص قد يأتى من شرق بعيد وشبه أسطورى، يُسْتَشْعَر فيه وجود مبهم لعالم مسيحى. ومع أن الفرنجة لم يكن لهم علاقة بهذه المسألة فقد تمكن بعض النبهاء من التفكير فيما قد يجنونه من فائدة إخبارهم بها. فى الشرق حيث كان الناس على معرفة بحقيقة هذا الأمر فإن الأسطورة مرت دون أن يُشْعَر بها، غير أنها ستطور فى الغرب زهاء ثلاثة قرون. ويتعلق الأمر بالقصة التالية : بينما كان الشرق الأدنى يشهد الأحداث التى تكلمنا عنها، كانت هناك أحداث أخرى تغير ملامح آسيا الوسطى. وكان سنجر، الابن الأكبر فى أسرة السلاجقة، يمارس السلطة فيها منذ بداية القرن. بيد أنه كانت هناك إمبراطورية بدوية جديدة فى طور التكوين فى الهضبة الشمالية وهى إمبراطورية القراخطائين(*) المتحالفين مع المغول. وفى عام ١١٤٣ قضوا على سنجر وضموا إليهم البلاد المسلمة منذ زمن بعيد حتى أموداريا (جيحون) وكانت عقيدة القراخطائين تشتمل، اسميًا على الأقل، على خليط من الأديان المختلفة. وربما كان زعيمهم جور – خان تابعًا تقريبًا للكنيسة المسيحية النسطورية التى كان لايزال لها نفوذ حقيقى، وقد ظلت على علاقة مع الكنيسة الأصلية بالعراق. وقد رأى النساطرة، الذين عوضوا أفولهم الديمغرافى بالعالم الإسلامى عن طريق الشعور بالآمال الأخروية، فى انتصار جور – خان إيذانا بانتقام قادم من الشرق البعيد وهو انتقام المسيحية من الإسلام. ليس من المستبعد أن يكون جور – خان قد بعث برسالة إلى إمبراطور القسطنطينية. على أية حال فقد رويت قصة «الكاهن(**) يوحنا» فى مجمع لاتران الكنسى، وقد

(*) القراخطائين : اسم اطلقته المصادر العربية والإسلامية منذ القرن الحادى عشر على بعض شعوب الصين المغول. أسس زعيمهم أبا أوكى سلالة لياو الصينية، أجبروا على مغادرة الصين عام ١١٢٥ فاصطدموا بالدول الإسلامية المجاورة. صدهم الإيلخانيون. فى عهد أبا أوكى وصل التجار المسلمين إلى البلاد الصينية. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

(**) تعتبر أسطورة «الكاهن يوحنا» والمملكة التى كان يحكمها من أكثر أساطير العصور الوسطى =

وصلت فى الأخير إلى أيدى البابا رسالة حافلة بمزيج فلكلورى متوارث منذ القدم. فكان ذلك مصدر أسطورة «الكاهن يوحنا» وحيث شهدت القرون التالية ظهور المغول بعد القراخطائين ثم نجاشى الحبشة إذا قمنا بقفزة جغرافية غير متوقعة.

= غموضاً وإبهاماً، وبرغم أن بعض المؤرخين الغربيين القدامى قد أشاروا إلى شخصية هذا الكاهن، ومن بينهم وليام الصورى، فإن حقيقة مملكة يوحنا ظلت غير واضحة المعالم، فالبعض يرى أن إمبراطوريته هى بعينها إمبراطورية الحبشة فى إفريقيا والبعض الآخر يراها فى آسيا، غير أن هذه الأسطورة التى ذاعت طوال القرن الثانى عشر واستمرت بعد ذلك فترة طويلة من الزمن، قد كشفت عن رغبة الملوك المسيحيين فى الغرب فى التودد إلى إمبراطورية الكاهن يوحنا واكتسابها كحليف لهم فى صراعهم ضد العرب والأتراك .

انظر فى ذلك د. جوزيف نسكيم يوسف فى كتابه دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٣٨ – الناشر : مؤسسة شباب الجامعة – ١٩٨٨. (المترجم)



الفصل التاسع

تطورات أواسط القرن الثانى عشر

شهدت أواسط القرن الثانى عشر تحولاً فى العلاقات الاقتصادية والسياسية فى منطقة البحر المتوسط والشرق الأدنى، ولقد رأينا كيف استعاد الإسلام، خلال الربع الثانى من القرن، زمام أمره أمام الهيمنة الفرنجية بالمناطق السورية الفراتية واستعاد المبادرة فى العمليات العسكرية. وقد تم ذلك جزئيًا بفضل التركمان الذين كانوا على استعداد دائم لممارسة نشاطهم التقليدى فى الغزوات. وقد ترابط هذا النشاط داخل آسيا الصغرى مع عمل المحاربين على الحدود فى هذه الحرب المقدسة. وبعد أن وصل التركمان إلى آسيا الصغرى استأنفوا غزواتهم لاسيما ضد بيزنطة سيراً فى ذلك أيضًا على نهج التقاليد القديمة للمغازى. وكان نشاطهم ضد فرنجة سوريا أكثر ضعفًا، وربما كانوا خلوًا من البواعث الأيديولوجية، ففى الوسط الإسلامى الأكثر محافظة لعل زنكى نفسه عند استعادته لإمارة الرها كان خاضعًا للرغبة فى استعادة مدينة مسيحية لم ينزعها البيزنطيون من أيدى المسلمين إلا قبل قرن واحد، وحماية خط الإتصالات بين الموصل وحران وحلب المهدد بالاجتياح من قبل الفرنجة، أكثر من خضوعه للاقتناع العميق بواجب الحرب المقدسة. ومع ذلك فإن أعماله وانتصاراته جعلت منه بطلاً لهذه الحرب المقدسة لدى من ظل هذا المثل الأعلى حيًا لديه. وهذا ما وعاه جيداً خلفه نور الدين فى سوريا.

عندما مات زنكى فى عام ١١٤٦، تقاسم خلافته ابنه البكر الذى ورث الموصل التى كانت مهداً لنفوذ السلالة الحاكمة وابنه الأصغر نور الدين (١)، وسرعان ما ظهرت فى الواقع الأهمية النسبية للإمارتين وذلك بشكل معكوس، فالأمراء الذين تعاقبوا على إمارة الموصل كانوا دائمًا ذوى شخصيات ضعيفة (٢) بينما أبان نور الدين عن شخصية من الطراز الأول. وإذا كانت أراضيه أقل حجمًا فهى على الأقل محررة من مكائد أهل بلاد ما بين النهرين وقد جعلتها الحرب المقدسة فى المرتبة الأولى من اهتمام الرأى العام، هذا الرأى الذى كان بالنسبة إليه أساسًا ومحركًا لكل سياسته التى كان من العبث أن يسعى المرء للتمييز فى ثناياها بين جانب القناعة الصادقة وجانب الطموح.

وكان المذهب الرسمى يرى أن نجاح الحرب المقدسة يتطلب اتحاد الجميع داخل البلاد وخارج حدودها خلف قائد يكون قد أظهر أكبر قدر ممكن من الحماسة والمقدرة (٣). ومن جهة أخرى كان تماسك المسلمين يدعو إلى قمع الهرطقة الشيعية بوجه خاص وتنمية تكوين الأطر الدينية والسياسية للنظام وفقًا للنموذج الذى دشنه كبار السلاجقة ولو أن إنتقاله إلى سوريا كان حديث العهد (٤). وكانت نتيجة هذه السياسة توحيد سوريا المسلمة عبر ضم دمشق مما

أتاح تحقيق انتصارات جديدة على الفرنجة فى المرحلة الأولى وتحقيق نوع من الحماية فى المرحلة الثانية على الموصل وعلى دانشمنديى الأناضول الأوسط وتعاقب التفاهم والعداوة مع سلاجقة الروم الذين حاول نور الدين إثارة اهتمامهم بمحاربة الفرنجة ومن دون أن يتوطد نفوذهم فى سوريا. وأخيراً القيام بالحملة على مصر وهو ما سنعود للحديث عنه. وفى الداخل دعم نور الدين جيشه من خلال تجنيد الأكراد الذين تمت إضافتهم إلى القوات التركية. ومن خلال إجراءات عسكرية واقتصادية سنعود إليها مجدداً، وبإضافة عدد من المدارس والخانقات وغيرها من صالح الأعمال (المستشفيات.. إلخ) التى لم يتردد من أجلها فى استقدام عدد من الإيرانيين (٥) حينما لم يكن يُلائمها المستخدمون السوريون. ومن جهة أخرى أتاحت عملية تقوية الجيش لنور الدين قمع النشاطات الاستقلالية لميلشيات الأحداث الحضرية.

لقد لوحظ أنه أثناء كل ما جرى لم يتدخل سلاجقة إيران والعراق ولا حتى الخلافة. فسلاجقة إيران كانوا كثيرى الانشغال بصراعاتهم الداخلية فى إيران والعراق وبجهودهم من أجل احتواء كبار الضباط الذين كانوا بصدد تشكيل إمارات مستقلة على حسابهم. أما بالنسبة للخلفاء الذين زُجَّ بهم فى هذه الصراعات فقد كانوا عاجزين حتى عن الاهتمام الناجح بشؤونهم الخاصة وبالأحرى بشؤون سوريا. وقد رأينا ما أثاره ذلك من الاحتجاج لدى أهل حلب عام ١١١١. ولا يعنى هذا القول بأن كل معانى كلمة الأمة قد اختفت لكن لا يبدو أن الجهاد قد احتل مكانة كبرى فى النفوس خارج المناطق المعنية بالأمر مباشرة. لم تكن أطر النظام فى غفلة من الاستنهاض الإسلامى وكانت الصراعات الحزبية العنيفة تمزق شمل أهل بغداد الذين كانت الحركة الحنبلية وتنظيمات «فتوة العيارين» تنمو بين صفوفهم. فتلك كانت قضايا داخلية وإذا ما تم مد البصر خارج الحدود الضيقة للإمارة فقد كان يقع حصراً على إيران. من المؤكد أن الوزير ابن هبيرة فى مصنفه فى القانون قد أدخل فصلاً عن الجهاد غير أن ذلك تم جريًا على العادة ودون الإحالة إلى الأوضاع الراهنة. وقد أدرج المؤرخ والخطيب البغدادى ابن الجوزى فى تاريخه الضخم (*) بعض المشاهد من الحروب الإسلامية الفرنجية الواقعة فى سوريا لكن ذلك كان بالنسبة له شيئًا ثانويًا. أضف إلى ذلك أنه ربما لم يكن يجد أكثر من ذلك فى الأرشيفات التى راجعها فكان من الأحرى أن يولى اهتمامًا أقل، بالفاطميين الهراطقة. ويبدو فى المقابل أن يقظة الجهاد قد انتشرت قليلاً فى مصر (انظر لاحقًا الصفحة الأخيرة من هذا الفصل).

(*) ابن الجوزى : «المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم». (المترجم)

ظلت آسيا الصغرى التركية متميزة تميزًا تامًا عن البلاد الإسلامية القديمة بالجنوب. وعلى الرغم من بعض الهجمات على الحدود الأرمينية – الفرنجية بجنوب الطوروس لم يكن هَم الأتراك سوى التكيف مع منطقة نفوذهم الجديدة وهى الهضبة الداخلية للأناضول المحاطة بالمناطق الساحلية الواسعة تقريبًا والتى كانت تابعة لبيزنطة أو صارت كذلك. وإذا تركنا جانبًا أقصى شرق البلاد فيمكن أن نميز بين تشكيلتين سياسيتين لم تبارحمها الفظاظة، فكانت الطرق الشرقية – الغربية بالشمال تنتمى لسلالة التركمان من الدانشمنديين، وطرق الجنوب كانت تنتمى لفرع من السلاجقة المقيمين فى هذه المنطقة منذ نهاية القرن الحادى عشر. وكان لهؤلاء رغبة واضحة تقريبًا فى تنظيم دولة مستوحاة بقدر المستطاع من النماذج الإيرانية – الإسلامية التى كان يسودها أبناء عمومتهم. وكان هذا الأمر صعب التحقق نظرًا لنقص المقومات الإسلامية المحلية أو لانعدام المهاجرين الإيرانيين. وقد حاولوا، فى أضعف الأحوال، ترحيل التركمان إلى الحدود، وقد كانوا أقل ميلاً إلى الاندماج فى هذا المخطط. وظل هؤلاء يمارسون على سجيتهم الهجمات التى لم تكن لتهدد إلا البيزنطيين. فلم تكن لها علاقة بأحداث سوريا. وفضلاً عن ذلك فإن السلاجقة لم يكن يشجعونهم فى ذلك وكانوا على الأرجح يتوقون إلى نوع من التعايش السلمى مع بيزنطة يكون من ضمن أهدافه احتوائهم. وبعد ذلك بفترة قليلة كان نور الدين لايزال يجد مشقة فى توعيتهم بفكرة الحرب المقدسة ضد الفرنجة. فعلى الصعيد السياسى كانت جهودهم الرئيسية موجهة ضد الدانشمنديين، وقد لزم أن يحققوا على حساب هؤلاء وحدة البلاد (٦) على الرغم من تدخل نور الدين وقد تم ذلك لصالحهم بعد وفاة هذا الأخير.

لقد بدت السياسة البيزنطية تجاه آسيا الصغرى وسوريا تخضع لحركة توازن. كما لجأ الكسيس كومنين أثناء الحملة الصليبية إلى ما يمثله من قوة كى ينتزع من الأتراك قسمًا من الساحل الغربى لآسيا الصغرى. لكن ابتداءً من حدوث القطيعة مع بوهيموند فقد اعتبر، فيما يبدو، أن التخلى مؤقتًا عن هضبة الأناضول التى أصابها الخراب إلى قوم شبه رحل غير منظمين يمثل ضررًا أقل من ضرر الإبقاء فى سوريا على إمارة نورماندية متحدية لبيزنطة، طالما تمت المحافظة على الساحل. وربما كان لديه اتجاه، فى نهاية حكمه، نحو تعديل هذه السياسة. وقد اتخذ خلفه جان كومنين إزاء الأتراك موقفًا مغامرًا. ولهذا لم يتخل عن فكرة تصحيح الأوضاع فى سوريا، لقد أخذ فى حسبانه وجود الإمارات الفرنجية، غير أن إمارة أنطاكية، وهى مقاطعة بيزنطية قديمة، كانت أكثر قربًا وأهمية بالنسبة إليه والتى كانت مهددة

بدايات الهجوم الإسلامى المضاد، لم يعد بإمكانها أن تواجهه برفض قوى مثلما كان الأمر مع والده. فى هذه الظروف حاول چان كومنيين أن يحقق توازنًا بارعًا مؤداه أن يحصل من فرنجة أنطاكية على اعتراف بالمقطعية مقابل مناصرتهم ضد المسلمين دون أن يصل ذلك إلى الحد الذى يؤدى فيه إلغاء الخطر الإسلامى إلى الأمر الذى يجعل اعترافهم بالمقطعية أمرًا غير مجد بالنسبة للفرنجة (حملة انطاكية عام ١١٣٧) (٧).

وقد تابع مانويل هذه السياسة. فترك الإمبراطور كونراد وملك فرنسا لويس السابع يمران عبر أراضيه إذ لم يكن لديه أية مصلحة فى مخاصمتها غير أنه لم يشارك فى حملتهما الصليبية التى لم يكن ليستفيد منهما فى شىء (٨). ولقد تدخل لاحقًا فى أنطاكية بالنية نفسها التى كانت لوالده فى إقامة التوازن. وقد حصل هذه المرة على حق إرجاع أحد البطاركة اليونانيين، وأثناء مروره سعى لتدعيم سيطرته أو إعادة توطيدها فى الطوروس القيليقى، على البارونات الأرمن الذين تمادوا فى عصيانهم وكانوا يميلون أنذاك إلى البحث عن نوع من السيادة المشتركة مع الفرنجة ضده (٩). وكان يحارب الأتراك عند الضرورة لكنه فكر فى الاكتفاء بإبقائهم داخل حدود معينة دون أن يُحدث ذلك تعديلاً فى سياسته الدولية الكبرى بحيث أنه كان فى عام ١١٦٢ على استعداد لإقامة صلح حقيقى مع القائد السلجوقى قلج أرسلان الثانى الذى قَدِمَ إلى القسطنطينية وذلك مقابل ترضية بعض المطالب المتعلقة بهيبته ونفوذه.

وقد استفاد السادة الإقطاعيون بالطوروس الغربى، خاصة أولئك الذين ينتمون للأسرة الروبينية، وكان يعتقد بعضهم فى إمكانية التمرد على السلطتين البيزنطية (أو ما تبقى منها) واللاتينية، نظرًا للضعف الذى أصاب فرنجة أنطاكية المقيمين بجوار نهر العاصى ومن دون أن يكون هناك إعادة توطين بيزنطى فعلى فى قيليقية. وقد وصل الأمر بأحدهما وهو ملح إلى حد اعتناق الإسلام كى يحصل على مساندة نور الدين. وقد أنكر عليه رعاياه هذا الأمر، ولم يجد الأمير التركى فائدة من الاهتمام به غير أن الروبينيين صاروا فى تلك الفترة مستقلين فعلاً وسنطلع على نزاعاتهم مع أمراء أنطاكية.

ترى كيف كانت العلاقات بين مصر وبيزنطة فى تلك الفترة ؟ بدون شك لم يعد لأى منهما الأهمية التى كانت لهما قبل مجىء الفرنجة والإيطاليين للتوسط بينهما. ومع ذلك ثمة احتمال ضئيل فى أن تكون العلاقات بينهما قد انقطعت تمامًا: فإذا كانت التجارة قد انتقلت بدون شك إلى أيدى الإيطاليين فمن الممكن أن تكون مصلحة البيزنطيين والمصريين تقتضى

تنسيق مواقفهم إزاء هؤلاء، ذلك أنهم فى سفرهم إلى مصر على سبيل المثال كانوا يتوقفون عند جزيرة كريت البيزنطية أو إزاء النورمانديين كذلك الذين كانوا يستأنفون آنذاك مشروعاتهم المعادية لبيزنطة. ولم تتردد الحكومة البيزنطية فى أواسط القرن الحادى عشر فى التضحية بصداقتها مع الفاطميين أملاً فى تطبيع العلاقات مع الأتراك، ويجب أن نضيف أنه كان أملاً غير مجدٍ ونحن نجهل ما كان عليه هذا الأمر أثناء الحملة الصليبية الأولى والتى وصلت أثناءها إلى القاهرة سفارة بيزنطية (١١). أما بعد ذلك فحسبنا أن نذكر وجود تبادل للسفارات لا نعرف عنه شيئًا (١٢).

* * *

فى هذه الفترة نفسها تدهورت العلاقات بين مصر والنورمانديين، وربما يعود ذلك لأسباب متنوعة. لقد لاحظنا الدور المهم الذى لعبه الأرمن فى الخلافة الفاطمية سواء من اعتنق منهم الإسلام أم لا (١٣). وانطلاقاً من عام ١١٤٠ تقريباً ظهر نوع من رد الفعل العربى الإسلامى ربما تحت تأثير زنكى ونور الدين، أعطى السلطة الوزارية لقادة عسكريين عرب أو أكراد مستعربين (الوزير طلائع بن رُزِّيك) (*) كانوا أقل مجاملة للمسيحيين وربما أكثر إحساسًا بالانتهاكات التى تعرضت لها الأراضى الإسلامية من قبل الدول المسيحية. وبشكل موازٍ شرع روجيه الثانى من جانب النورمانديين فى مهاجمة موانىء إفريقية الشمالية بما فيها طرابلس إلى درجة أثارت ضروبًا من الخشية أو الاستياء فى عديد من الأوساط المصرية الحريصة على إبقاء الأشكال التقليدية من الصداقات التجارية مع بلاد المغرب (١٤)، وهى كذلك اللحظة نفسها التى استأنفت فيها المملكة النورماندية سياسة هجوم ضد الإمبراطورية البيزنطية. ولا شك أن هذه السياسة وجهتها نحو مساعدة الحملة الصليبية الثانية، التى لم تكن فوق ذلك تزعج مصر. لكن يمكن التساؤل، هل كانت بيزنطة تحرض الفاطميين ضد النورمانديين ؟ ومع وفاة روجيه آثار التطور الداخلى للمملكة فى ظل وليام الأول حركة مناهضة المسلمين أو على الأقل معارضة للامتيازات التى كانت تمنح لهم. أما بالنسبة لروجيه الثانى فقد قام الإدريسى بتأليف كتابه الشهير فى الجغرافيا (١٥). لكن سرعان ما لوحظت عملية هجرة الأدباء المثقفين الصقليين إلى مصر (١٦)، حيث لم يكن ليحملوا فى نفوسهم شعورًا إيجابيًا عن المستقبل بالنسبة للمسلمين بصقلية ولو أنهم ظلوا بمنأى عن الاضطهاد.

(*) طلائع بن رُزِّيك (١١٠٢ – ١١٦١) وزير الخليفة الفاطمى الفائز بنصر الله. استقل بأمور الدولة ولقب بالملك الصالح، اغتيل فى خلافة العاضد زوج ابنته. له ديوان شعر. (المنجد فى اللغة والأعلام) – المترجم.

من جهة أخرى لوحظ فى هذه الفترة توسع الموحدين فى المغرب الشرقى، ومما ساعد على ذلك بالتحديد ظهور رد فعل إسلامى إزاء التجاوزات التوسعية للنورمانديين. لقد استعيدت طرابلس من سيطرة المسيحيين فكان لابد للإيطاليين أيًا كانوا أن يتعاملوا مع هذه السلطة المغربية الجديدة. ونحن نجهل نتائج ذلك من جانب الفاطميين غير أنه من العسير علينا أن نظن أنها لم تحدث.

لقد اتسمت حول هذه الخلفية وقائع اقتصادية أكثر وضوحًا. ومن المؤكد أن القرن الثانى عشر فى إيطاليا شهد انطلاق هذه التجارة فى موانىء الشمال التى لم تعد تتوازى مع تلك القائمة بالجنوب بل أخذت تحل محلها شيئًا فشيئًا. وثمة ظروف عديدة شجعت هذا التطور وهى ظروف كانت مستقلة عن السياسة النورماندية أو غيرها. فقد حظيت موانىء الجنوب بتشجيع أكبر فى السابق نظرًا للعلاقات مع المسلمين مادام أن الأمر لم يكن متعلقًا إلا بالعلاقات القائمة بين الاقاليم بحيث كان هناك سعى لتقليل مدة العبور خشية التعرض لهجمات القراصنة. آنئذ كان التطور التجارى للغرب، وإلى حد ما حركة الحملة الصليبية قد منحا امتيازًا لصالح الموانىء الإيطالية بالشمال، التى هى أقرب إلى المنافذ القارية والتى ربما كانت أيضًا تمتلك مصادر الخشب والحديد الضرورية لتجارتها فى الشرق أكثر مما كانت تتوفر عليه موانىء الجنوب. وشيئًا فشيئًا قام الأسطول الإيطالى بتقليل مخاطر هجمات القراصنة (باستثناء ما قد يحدث فى حالة الحرب بين الإيطاليين أنفسهم) وبشكل عام كان النقل البحرى أقل تكلفة من النقل البرى. ومن الأمور غير المألوفة أن يشاهد أمالفيين فى المنفى من أسرة بانتاليونى يقيمون فى بيزا، وأن يشاهد تاجرًا غنيًا من أهل الجنوب يستقر استقرارًا نهائيًا فى الحاضرة الليجورية (*) (١٧) وهو سليمان السالرنى الذى يرجح أن يكون يهوديًا تحول عن دينه، وقد تم التعرف إليه من خلال السجلات العدلية لكاتبها سكريبا من الجنوية. لقد كان البيازنة والجنوية يمرون بطبيعة الحال أثناء سفرهم إلى الشرق عبر مضيق مسينا، فهم الذين كانوا يؤمنون منذ ذاك الوقت العلاقات الشرقية لإيطاليا الجنوبية ذاتها. وبعدها بفترة قليلة سيقوم ابن جبير، الرحالة المسلم الشهير بإسبانيا، بالعبور من مسينا إلى الإسكندرية على ظهر باخرة جنوية (١٨).

لقد رأينا أن أول شهادة تاريخية عن تجارة أهل جنوة فى مصر (إذا استثنينا واقعة

(*) ليجورية : نسبة إلى البحر الليجورى وهو من متفرعات البحر المتوسط ويقع بين شمالى شبه الجزيرة الإيطالية وجنوب شرقى فرنسا وتضم الحاضرة الليجورية مدن عديدة من أشهرها جنوة وسافون. (المترجم)

الجنوية الذين أسروا فى بداية القرن) توجد فى مجموعة من الرسائل النموذجية التى ترجع إلى عام ١١٣٥، حيث اعتبرت هذه التجارة أمراً عادياً. وفى حوزتنا أيضاً بعض السطور المكتوبة باللغة العربية على ظهر وثيقة عدلية فى سجل سكريبا غير محددة التاريخ، فتكون سابقة لعام ١١٥٦ وقد طال المحو نصفها وهى تشير إلى اتفاق بين أهل جنوة ومصر (١٩).

ولدينا معرفة أفضل فيما يتعلق بمدينة بيزا حيث يذكر لنا الجغرافى العربى العذرى والرحالة اليهودى بنيامين التوديلى حوالى عام ١١٥٠ أن بواخر هذه المدينة بالإسكندرية كانت أكثر عدداً ضمن بقية البواخر الأخرى (٢٠). وحول هذه الخلفية العامة لابد لنا من دراسة للوقائع التى حُفظ لنا بيان عنها فى ترجمة لاتينية لوثيقة عربية تعود إلى عام ١١٥٤ (٢١).

وتشير مقدمة هذه الوثيقة وعدة فقرات منها إلى وجود اتفاق بين البيازنة ومصر قبل فترة من الزمن ساهم فى تطوير تجارتهم بصورة كافية مكنتهم من الحصول على فندق خاص بهم بالإسكندرية ولا يعنى ذلك أن يكون البيازنة قد وصلوا تماماً إلى المرتبة نفسها التى كانت للصقليين. ربما كان للجنوية والبنادقة مثل تلك المرتبة غير أن الشهادات على ذلك جاءت متأخرة زمنياً بكثير. ويمكن أن نتساءل عما إذا كان الجهد الذى بذله البيازنة قد تزامن مع الاتفاقات التى عقدت مع صغار أمراء المغرب حوالى عام ١١٣٠ و١١٤٠. ومهما يكن من أمر فإن الحكومة الفاطمية كانت قد سجنت تجاراً من بيزا وصادرت ممتلكاتهم عام ١١٥٣، فكان لهذا الأمر من الأهمية فى نظر سلطات بيزا ما دفعها لإيفاد أحد السفراء على متن سفينة شراعية حربية خاصة وتم تفويضه سلطة مطلقة. وقد حالف الحظ المصريين بالإجابة بأنهم قد قاموا بتطبيق هذا العقاب انتقاماً من المذبحة التى اقترفها البيازنة ضد الركاب المسلمين الذين كانوا على ظهر إحدى بواخرهم واحتجازهم للنساء والأطفال والبضائع، وأنه بعد إجراء عمليات الإرجاع والتعويض فإن الحكومة الفاطمية سترد بالمثل وستعيد للبيازنة حقوقهم السابقة بشرط ألاّ يطبق هذا الإجراء إلا على التجار الحقيقيين وليس على أولئك الذين كانوا يشاركون فى العمليات الحربية لفرنجة الشرق المناهضة لمصر، وقد يكون فى هذا تلميح لحصار عسقلان الذى سنعود للحديث عنه. ومن الواضح أن الحكومة المصرية كانت مهمومة بإقامة علاقات جيدة شأنها فى ذلك شأن بيزا وذلك استمراراً للسبب ذاته وهو التزود بالخشب والحديد، وكان الاتفاق الحاصل بمثابة إلزام للبيازنة. وسيكون لهذا الإلزام دلالته، لاسيما عندما منع ملك القدس البيازنة من جلب الخشب والحديد إلى مصر. حينما التمسوا منه امتيازاً، بعد عامين من إجراء الاتفاق.

وفى حوالى عام ١١٥٤ و١١٥٥ أحدثت إحدى الاساطيل النورماندية ضرراً بدلتا النيل(٢٢). فهل كان على النورمانديين أن يشتكوا من الامتيازات الممنوحة لأهل بيزا ؟ نحن نجهل ذلك لكن ما هو مؤكد لدينا منذ تلك الفترة أنه رغم تبادل بعض السفارات (٢٣). فقد حدث فترة من التوتر بعد نصف قرن من السلام.

ومن جهة أخرى فإن مملكة بيت المقدس التى حافظت على السلام مع الفاطميين خلال ثلاثين عاماً قامت فى عام ١١٣٥ بالهجوم على آخر ميناء لهم بفلسطين الجنوبية وهو ميناء عسقلان. ونلاحظ فى الفترة نفسها أن الإيطاليين انشغلوا بإرجاع الفعالية للامتيازات التى حصلوا عليها فى بداية القرن، تلك الفعالية التى كان اهتمامهم بها مُقلاً فيما يبدو حتى هذه الفترة (٢٤). ويرجع إلى هذه الفترة نفسها أيضاً تاريخ انعقاد بعض الملتقيات المتعلقة بالقانون البحرى بمملكة بيت المقدس وهو ما سنعود للحديث عنه (٢٥). ويعنى كل هذا أن الشرق اللاتينى بدأ يأخذ آنذاك مكانة مهمة فى ميدان التجارة وأن الإيطاليين قد مدوا نشاطهم إليه أو سعوا للحصول على مناطق يتراجعون إليها احترازاً من وقوع حوادث مع المسلمين، ولاشك أن المملكة وجدت آنذاك مصلحة فى اجتذابهم إليها على الرغم من بعض المزايا الجمركية المتفق بشأنها.

غير أنه فى حوالى الستينيات حدث تحول جديد فى العلاقات الدولية سواء فى الغرب أو الشرق. ففى إيطاليا حدثت قطيعة جديدة بين مناصرى الإمبراطورية ومناهضيها، وبناء عليه فقد حدثت قطيعة مماثلة بين بيزا والنورمانديين كذلك، فبيزا كانت قد وعدت نفسها بالحصول على نصيب الأسد من الأراضى النورماندية فى حالة وقوعها بين يديها. ومع ذلك فقد تبينت صعوبة هذا الأمر، إذ تصالح البيازنة بشكل ما مع النورمانديين مراعاة لمصلحة إتصالاتهم التجارية. وقد اتخذ الجنوية موقفاً معاكساً فتعاونوا مع النورمانديين. ولا نتبين انعكاسات هذه النزاعات فى الشرق، فليس من قبيل المصادفة بعد ذلك أن احتجز البيازنة فى عام ١١٦٥ سفينة جنوية عائدة من مصر (٢٦). ولا شك فى النهاية أن تثير هذه الشكوك فى نفوس البيازنة الرغبة فى إحكام السيطرة على مصر.

ويفسر كل ذلك تزايد اهتمام الإيطاليين بوضعهم داخل المملكة. وفى الوقت نفسه الذى أنهى فيه البيازنة صراعهم مع الفاطميين حصل سفيرهم على امتياز من رينو الانطاكى مستعيداً ما تخلى عنه فى النصف الأول من القرن، وبعد عامين من ذلك حصل هذا السفير ذاته على امتياز من الملك بودوان الثالث وتوسطه للتصالح مع الملك عمورى. ولا نعرف أسباب

الخلاف بين البيازنة وعمورى، فلعلها ترجع إلى المعاهدة التى عقدت مع مصر عام ١١٥٤ لأن عمورى بوصفه حاكمًا على الواجهة البحرية لفلسطين كان يمثل سياسة التدخل ضد مصر وكان امتياز بودوان آنئذ يمنع البيازنة من تسليم مصر الخشب والحديد تحديداً وهو ما فرضته عليهم اتفاقية عام ١١٥٤. هل كانت هناك علاقة بين هذه الوقائع واعتداء المصريين على سفينة بيزية بالقرب من تنيس(*) فى عام ١١٥٧ ؟ إن معلوماتنا على غموضها تظهر الأهمية التى كانت تمثلها الأعمال التجارية للبيازنه سواء فى الإسكندرية أو عكا والصعوبة التى كانوا يواجهونها ولا شك فى المصالحة بينهما. وسنعثر فى عام ١١٦٧ على البيازنة وهم يدافعون عن الإسكندرية، بجانب عمورى، الذى صار ملكًا، ضد الجيش الذى أرسله نور الدين، وهو موقف متفق هذه المرة مع العلاقات السليمة القائمة مع المصريين حيث أن الوزير شاور وعمورى كانا فى تلك اللحظة متحالفين، وربما نتج عن هذه العلاقات وفقًا لحوليات بيزا امتياز جديد، لكنه لم يُدرج فى مجموعة الوثائق البيزنطية المحفوظة (٢٧). ويمكن الاعتقاد، كما ألمح الى ذلك منذ زمن بعيد ر. س. لوبيز أن البيازنة أرادوا أن يفعلوا فى مصر ما فعله البنادقة فيما بعد بالقسطنطينية.

ثمة احتمال ضئيل أن يكون الجنوية والبنادقة قد ظلوا غير مبالين بهذه الصراعات فهناك ما يثبت وجودهم ومزاولتهم لأنشطتهم بالإسكندرية أثناء هذه الفترة ومع ذلك لا تذكر النصوص شيئًا عن هذا الأمر. فربما كانوا قد تبنوا موقفًا احترازيًا فى هذا الشأن. ولا شك أن النورمانديين حاولوا استئناف أعمالهم التجارية فأرسلوا سفارة عام ١١٦٣، لكن لم نعد نسمع عن التدخل فى مصر إلا فى شكل عسكرى (٢٨).

لقد غرقت الدولة الفاطمية فى مناخ من الفوضى والاضطراب، فاستنجدت الفرق المتنافسة بالفرنجة ونور الدين وجميعهم كانوا يبتغون مقدمًا الحصول على مصر، إذ لعلها

(*) تنيس : يقول المقريزى فى خططه أن تنيس والفرما كانتا أقرب من دمياط إلى بيت المقدس لكن أمرهما فى ذاك الحين قد آل إلى الخراب وزالتا من الوجود قبيل حملة لويس التاسع على مصر.

انظر خطط المقريزى ج ١ ص ١١٢ و ١٨١، وكذلك الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٤٩، ج ١٤ ص ٧٤. ويقول أبو الفداء فى هذا الشأن؛ بحيرة دمياط وتنيس هما بحيرتان متصلة إحداها بالأخرى ومتصلتان بالبحر المالح فبحيرة تنيس هى البحيرة الشرقية منهما وبحيرة دمياط هى الغربية ويصب فيها بحر أشمون وهو النيل الشرقى من النيلين المتفرقين عند جرجر والمنصورة انظر تقويم البلدان لمؤلفه أبو الفداء – طبع مدينة باريس المحروسة بدار الطباعة اللطانة سنة ١٨٣٤ – المترجم.

كانت فى أعينهم غنيمة ثرية وسهلة المنال وتأرجح التجار الإيطاليون بين مغبة التحالف مع الفرنجة فى حالة الفشل واقتناص المنافع فى حالة الانتصار.

أثناء هذا أطاح الموحدون بإمبراطورية المرابطين فى المغرب ولم يبق منها سوى دولة بنى غانية (*) فى جزر البليار وهى دولة شبه قرصانية كما سنرى ذلك. وفى المغرب الشرقى تجاوزوا حدود المرابطين بفضل مساندة السكان المسلمين الذين كانوا منزعجين من التوسع النورماندى كما سبق القول فلم يكن بوسع الإيطاليين سوى التعامل مع الدولة الجديدة.

ثم حدث تحول جديد بين عامى ١١٦٩ و١١٧١ فى مصر وبيزنطة، ففى الإمبراطورية البيزنطية نتذكر أن البنادقة كانوا يحتلون مكانة تجارية رئيسية منذ نهاية القرن الحادى عشر ومع ذلك لم يتمكنوا من منع البيازنة من التغلغل بها فى بداية القرن الثانى عشر، مع امتيازات أقل لكنها كانت كافية لتمكينهم من تحقيق أرباح طائلة. ولابد أن الأمالفيين كانوا منزعجين من علاقاتهم مع النورمانديين أعداء بيزنطة. وحتى الجنوية الذين كانوا يتعاونون مع موانىء الجنوب بشكل عام قد انتظروا بعض الوقت قبل أن يحصلوا فيها هم كذلك على موقع فى الإمبراطورية ولعل تعاونهم مع الجنوب كان أحد أسباب هذا الانتظار ويجب أن نضيف هنا إلى أنهم كانوا بلا شك يؤكدون على منطقة الشرق الأدنى بالذات. وبشكل عام مهما كانت المصلحة التى يمكن للأرباح المتحققة أو المتوقعة أن تجلبها للتجارة البيزنطية فإنه يمكن الاعتقاد أنها كانت بالنسبة للإيطاليين أقل ضرورة من التجارة الإسلامية (ربما كانت تساعد على الحفاظ على توازن الحسابات. راجع أدناه) لاسيما فى جهة الواردات نحو إيطاليا. وقد نتج عن تحويل التجارة القديمة من الخليج العربى الفارسى نحو البحر الأحمر وغزو الأتراك لآسيا الصغرى دون أن ينمو فيها أى تنظيم مستقر لمدة طويلة، أن توقف عمليًا التموين المباشر من القسطنطينية بالمنتوجات الآسيوية عبر القوافل وتقلص حركة المرور البحرية انطلاقًا من الموانىء السورية وبالأحرى عندما اندمجت هذه الأخيرة بالشرق اللاتينى مع الحدود الداخلية الإضافية التى تفصلهما عن العالم الإسلامى. ومهما يكن من أمر فإن الإيطاليين وفى مقدمتهم البنادقة كانوا يتمتعون بامتياز تجارى يكاد يكون مضرًا بحقوق اليونانيين الذين لم يعودوا يمتلكون الملاحة البحرية إلا بالنسبة للنقل المحلى وذلك باستثناء

(*) نسبة إلى على بن غانية (توفى عام ١١٨٨) : حفيد غانية نسيبه يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين فى الأندلس والمغرب. ثار على الموحدين عام ١١٨٢ وزرع الفتن فى مراكش وسبب حروبًا أهلية أدت إلى سقوط إمبراطورية البربر فى أفريقيا العربية. تغلب عليه يعقوب بن يوسف (المنصور) سلطان الموحدين وقتله. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

الملاحة العسكرية. فى هذه الظروف ازداد شعورهم بأن سلوك الإيطاليين نحوهم كان مصدره عجرفة لا تطاق وهو ما كان يصطدم بالاتجاه القوى لمانويل كومنيين نحو الاستعانة باللاتين مساعدين عسكريين أو مستشارين والسعي فى سياسته بالشرق الأدنى للظهور بمظهر القائد الروحى للتحالف المسيحى اليونانى - اللاتينى. ومع ذلك يبدو أن منطقتى النفوذ لم تتداخلا لبعض الوقت. وفى عام ١١٧١ قام سكان القسطنطينية، وهم فى حالة هياج، بمهاجمة حى البنادقة فنهبوه وقتلوا عدداً كبيراً من التجار ولم يسلم البيازنة والجنوية المجاورين من هذا الاعتداء (٢٩). ولا يبدو أن مانويل كان معارضاً حقاً لما حدث، وعلى أية حال لم يحدث أى شيء من شأنه أن يعيد التجارة إلى مجراها الطبيعى خلال السنوات التالية. مما دفع الإيطاليين إلى البحث عن عوض لذلك.

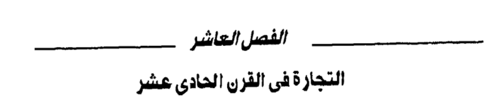
فى أثناء هذا الوقت أرسل نور الدين جيشاً إلى مصر بإشراف القائد الكردى شيركوه الذى طرد الفرنجة واحتل البلد. وحينئذ مات فحل مكانه على الفور ابن أخيه صلاح الدين الذى خلف رسمياً الوزراء المصريين للفاطميين. لقد قمع، فى الواقع، حركات التمرد التى قامت بها الأطر الدينية والسياسية والعسكرية للنظام الفاطمى، فقد كان التفوق التقنى للجيش التركى الكردى على جيش الفاطميين المكون من العرب والسود، تفوقاً بارزاً، وكانت جماهير الشعب بصفة خاصة قد بدأت منذ تلك الفترة تنظر إلى انهيار النظام نظرة لا مبالية، كما لاحظ ذلك جيداً القاضى الفاضل الذى عاصر هذه الأحداث إذ لم تكن هذه الجماهير قد انتمت قط للمذهب الإسماعيلى الرسمى، علاوة على ما أثارته الانشقاقات الحاصلة داخل الأسرة الحاكمة ذاتها من حيرة واضطراب فى نفوسها.

وكان صلاح الدين بالطبع سنياً لكنه كان ينتمى بوجه عام للمدرسة الشافعية شأنه فى ذلك شأن الأكراد بينما كان المصريون آنذاك ينتمون إلى المذهب الحنفى، وذلك على نقيض الأتراك. وفى عام ١١٧١ قضى رسمياً على الأسرة الفاطمية وأعلن عن عودة مصر إلى الأسرة السنية وإلى الطاعة النظرية للخلافة العباسية. ومنذ ذلك الحين صارت مصر مندمجة بمواردها ضمن الجبهة المشتركة للحرب المقدسة ضد الشرق اللاتينى المحاصر، فكانت المنطقة الحرجة تمر من سوريا الشمالية إلى سوريا الجنوبية وفلسطين.

ولم يظهر التأثير الكامل لهذه التغييرات فى الحال نظراً للارتياب المتبادل بين نور الدين وصلاح الدين، ونظراً للصراعات الناتجة بعد وفاة نور الدين عام ١١٧٤ بين خلفائه الشباب وصلاح الدين الذى ظهر فوراً بمظهر القائد الوحيد القادر على مواصلة الحرب المقدسة، وبهذه

الصفقة فوضت إليه المطالبة بكامل الميراث السورى والمصرى على السواء، وفى عام ١١٨٠ أعيدت الوحدة لصالحه وصار الخطر شاملاً ضد الفرنجة.

ولم يمهل هؤلاء محاولة الرد. فقد رأينا أن بودوان الثالث وشقيق عمورى قد فكرا مرات عديدة فى مسألة مهاجمة مصر بمساعدة بيزنطة. وقد تم استئناف المشروع نفسه ضد مصر فى عهد صلاح الدين. وكما نعرف فقد كان لمانويل كومنين ميل شخصى لموالاة اللاتين كما كان لديه منهم أعوان كثيرون. وكان يحلو له أن يتصور نفسه قائداً أعلى لشكل ما من أشكال التحالف البيزنطى – اللاتينى ضد الإسلام. وأن يكون نفسه هذا القائد بدلاً من الإمبراطور الألمانى أو البابا. وقد عقد علاقات جيدة مع مملكة بيت المقدس التى لم يحصل له معها خلاف قط بسبب الخصومات الإقليمية كما حدث مع إمارة أنطاكية وكان ذلك يشكل نوعًا من الحماية بالنسبة إليه فقد كان عمورى زوجًا لابنة ملك بيت المقدس. لقد كان لعقد اتفاقية السلام مع نورمانديى إيطاليا أثر فى تحرير أسطولها البحرى مما سهل أمر المشاريع باتجاه مصر. وقد أخرت الانشقاقات الحاصلة فى القدس أمر تحقيق هذه المشاريع إذ اضمحل كل شىء فى يوم واحد عند ميريو كفالوم (راجع أدناه).



الفصل العاشر

التجارة فى القرن الحادى عشر

تنظيمها، العملة

إن الفترة التى تسمح لنا بالبدء فى إدراك الكيفيات التى كانت تتم بها تجارة الشرق هى فترة أواسط القرن الثانى عشر. وإذا كانت العقود التجارية الخاصة المعروفة ترجع إلى فترة متأخرة فى مدينة بيزا فإننا نملك منها، بالنسبة لمدينة البندقية، عدداً كبيراً كافياً فيما يتعلق بالقرن الثانى عشر (١). وبالنسبة لمدينة جنوة، حيث حفظت فيها منذ نهاية هذا القرن نفسه عدد كبير من السجلات العدلية، نملك سجلات جوهانيس سكريبا (٢) التى ترجع لأعوام ١١٥٦ و١١٦٤. لا يمكننا بالتأكيد أن نقول إلى أى حد تسمح لنا هذه الوثائق المحفوظة باستخلاص استنتاجات صحيحة، وبالنسبة لإعادة رسم المسارات التجارية فإن المعنى الغامض لتعبير «أولترا مارى» الذى يدل عادة على مجموعة موانىء الشرق اللاتينى يمثل عائقاً لنا ولو أن هذا التعبير يبدو أحياناً أكثر مرونة. ومهما يكن من أمر فقد ظهرت ثلاثة اتجاهات وهى القسطنطينية، والإسكندرية ومصر، وعكا وما وراء البحار وذلك بغض النظر عن التجارة المغربية. والمشكلة الأولى : ما هى نسبة الرحلات نحو هذه الاتجاهات الثلاثة بالنسبة لكل مدينة تجارية إيطالية ؟ إذا أجرينا العمليات الحسابية بالنسبة لمدينة بيزا من خلال ما نشره موروزو ولومباردو عن الفترة السابقة لعام ١١٧١ نجد أن اسم القسطنطينية قد تكرر ٢٠٠ مرة والإسكندرية ٦٤ ودمياط ٧ أى ٧١ مرة بالنسبة لمصر، وأخيراً يتكرر اسم مدينة عكا ٤٠ مرة وصور ٤ مرات وأنطاكية ٤ مرات وطرابلس مرة واحدة ويافا مرة وسوريا عامة ٤ مرات أى أن الشرق اللاتينى يتكرر ٥٤ مرة بشكل عام. فلهذه النتائج دلالتها، وذلك أن أولوية القسطنطينية بالنسبة للبندقية ليست أمراً مفاجئاً وليست كذلك أقل وضوحاً، وبذلك فاقت مصر الشرق اللاتينى، وداخل هذا الأخير فاقت عكا بقية الموانىء الأخرى رغم وجود المؤسسة الخاصة البندقية فى صور. وإذا أجرينا الإحصاء نفسه بالنسبة لجنوة التى كانت أقل اهتماماً بالإمبراطورية البيزنطية نجد بالنسبة للأعوام الثمانية فى سجلات سكريبا ما يلى: الإسكندرية ٨٤ مرة وما وراء البحار ٤٧ مرة. ولا نملك أرقاماً بالنسبة لبيزا غير أن كل ما قلناه عنها يُظهر أن النسب ربما تكون متشابهة.

وهذا شاهد على أنه إذا كان الشرق اللاتينى غير قابل للإهمال من قبل الإيطاليين فإن مصلحتهم الرئيسية مع ذلك كانت تتجه نحو مصر (٣) الأمر الذى لا يمكن ألا تنتج عنه عواقب على سياستهم العامة.

إذا سعينا الآن لتحديد طبيعة البضائع المنقولة فى كلا الاتجاهين فإن الوثائق التى فى حوزتنا تجعلنا فى موقف صعب؛ ذلك أن الأدبيات العربية الإسلامية (٤) ووثائق الجنيزة (٥)

تتحدث أساسًا عن الخشب والحديد بالنسبة للاستيراد وأحجار الشب والمواد الاستهلاكية المتنوعة بالنسبة للتصدير، ومع ذلك فإن هذه البضائع فى الواقع لا تذكر قط فى العقود التى تطلعنا على المواد التى كانت تحمل من إيطاليا كى تباع فى الشرق. فبيع الخشب والحديد وبالأحرى بيع الأسلحة للخارج كان محظورًا فى أغلب التشريعات آنذاك وكذلك عبر قرارات صريحة أصدرها البابوات والمجامع المسيحية بالنسبة لحالة المسلمين (٦)، فكان لابد أن يتم تحميل السلع خفية وأن تخفى المنتوجات الممنوعة تحت البضائع المسموح بها وربما حدث تمويه بصدد الاتجاه المعلن للسفر. واستنادًا للعقود كان الموضوع الرئيسى للتصدير يتمثل فى الأقمشة التى كانت معيارًا لقيمة القروض التى ينبغى تسديدها، بيد أن الوثائق المصرية تكاد لا تذكر شيئًا إزاءها. وأكثر ما نستطيع افتراضه هو أنه فى هذه الفترة كان الأمر مازال يتعلق بأقمشة خامة كانت توزع، بعد صناعتها وصبغها بواسطة الحرفيين المحليين، فى الوقت نفسه الذى توزع فيه الأنسجة المحلية (٧). وكانت أغلب المنتجات الأخرى لدى الطرفين مُعدة للاستهلاك الأكثر شيوعًا. وفضلاً عن ذلك فإن الحكومة المصرية، مثلها مثل كل الدول التى توجد فى المرحلة المركنتيلية كانت تشجع استيراد الذهب والفضة غير أنها كانت تعيد سبك العملات الأجنبية. وسنعود لاحقًا لمعرفة ما إذا كان قد تم إقامة توازن تجارى ونقدى وكيف كان ذلك. وحسبنا أن نقول حالاً أنه تم احتكار الخشب والحديد والشب من قبل منظمة حكومية كانت تضمن الشراء والدفع بشروط مرضية لكلا الجانبين. إنه من الصعب إجراء مقارنة مع الشرق اللاتينى، إذ لدينا بشأنه قائمة وردت فى فصلين من قوانين ملتقيات مملكة بيت المقدس وهى خاصة بالمنتجات المستوردة التى فرضت عليها الضريبة وبما أنه فى الفترة التى تم فيها التحرير النهائى لهذين الفصلين كان للغربيين إعفاء تام من رسوم الجمرك على المواد الاستهلاكية التى يجلبونها، لذلك كان هناك امتناع عن إحصائها ولم يكن الحديث يدور إلا حول البضائع التى تحملها القوافل البرية المحلية أو الأساطيل الصغيرة المتنقلة بين السواحل فى بعض الأحيان.

وكانت القوافل البرية تحمل التوابل الشهيرة من بين ما كانت تنقله. ومن المؤكد أنها كانت تصل إلى مصر كذلك. ويبدو أن كتاب «المنهاج» لا يكترث بما كان ينقل من مواد استهلاكية بدون أن نعرف جيدًا السبب، ومن المحتمل أن تكون نسبتها فى مجموع التجارة المصرية أقل أهمية مما ستصبح عليه فيما بعد، كما يحتمل أن يكون اعتماد المصريين والإيطاليين فى تجارتهم على التوابل أقل مما كان يعتقد بشكل عام.

من المحتمل أن الغربيين كانوا يبيعون للفاطميين مواد أخرى غير الخشب والحديد، فابن طُوَير وهو موظف كبير ومؤرخ معاصر للأحداث يذكر فى وصفه لمخازن قصر الخليفة عشية سقوط النظام أنه كان يحوى مخزونًا من الأسلحة يشير على نحو غامض بأنها «صنعت بأيد فرنجية»، وثمة احتمال ضئيل فى أن تكون قد صنعت فى مصر من قبل المساجين كما لا يحتمل كثيرًا أن تكون قد بيعت من قبل فرنجة سوريا الذين كانوا علاوة على ذلك يستلمون أسلحتهم من أوروبا. ربما كان الأمر يتعلق بأسلحة تركها عمورى أثناء حملاته فى مصر، غير أنه لم يتعرض لهزيمة حقيقية ولم يكن قد حارب الفاطميين. وإذا أقصينا هذه الفرضيات تبقى أمامنا فرضية التجارة. فالسيوف الفرنجية كما رأينا (١٠) كانت مشهورة فى الشرق بحدتها وكانت تشترى بثمن غال عندما يتم التحايل على الخطر الذى تفرضه أوربا على البيع، ولم يكن الفولاذ المسمى بالدمشقى المشهور ببريقه مضاهيًا لها؛ فالحرفيون الشرقيون كانوا يصنعون السيوف المعقوفة لا السيوف ذات النصل المستقيم (انظر ص ٥٢ - ٥٣). وفضلاً عن ذلك فإننا نعلم أن جيوش صلاح الدين الذى خلف الفاطميين كان لديها دروع كبيرة مختلفة عن الدروع التقليدية الخفيفة بالشرق والتى توحى أسماؤها، طاريقة (تحريفًا لكلمة تارج التى تعنى الترس؟) وجنوية (نسبة إلى مدينة جنوة ؟) أنها من مصدر غربى (١١). ونحن نعرف أن إحدى الوحدات العسكرية الفرنجية قامت بأدوار ثانوية فى بعض الجيوش الإسلامية إبان العصر الوسيط (كالموحدين وأتراك آسيا الصغرى (١٢)، وربما شارك بعضها حتى فى حطين)(١٣)، غير أننا لا نرى أن ذلك يمكن أن يفسر نص ابن طُوير.

ويقودنا هذا الأمر إلى مشكلة أخرى، ذلك أنه تم التسليم دائمًا تقريبًا بأن تجارة الشرق كانت تجارة خاسرة بالنسبة للأوروبيين وهى فكرة كانت تستند ضمنيًا على الاعتقاد بأن الشرق كان يبيع بضائع غالية بينما لم يكن فى إمكان الغرب أن يمده إلا ببضائع رخيصة الثمن. غير أن بعض الشكوك أثيرت فى الآونة الأخيرة اعتمادًا على وثائق أخرى غير تلك التى تم استخدامها (١٤)، لكن يبدو أن المسألة لم تناقش فى مجموعها بعمق قط. ولنلاحظ على أية حال أنه كان فى إمكان الإيطاليين الحصول من داخل المغرب والغرب على ما يعوض خسائرهم المحتملة فى الشرق. وحتى بدون الخروج من الشرق يمكن التساؤل عما إذا كان ميزان الحسابات مع ما يتضمنه من المواد التجارية التى أحصيناها، سلبيًا إلى هذا الحد كما كان يعتقد. وسنجد هذه المشكلة بصدد التداول النقدى والعودة إلى الذهب إبان القرن الثالث عشر بأوروبا. وقبل ذلك كان لابد من التفكير بأن التجار لم يكن ليواصلوا ممارسة تجارتهم

وتطويرها بالشرق لو لم تكن هذه التجارة مربحة؛ فهى يمكن بالتأكيد أن تكون كذلك بواسطة بيعهم للسلع فى الغرب بسعر أغلى من شعرها بالشرق حيث كانوا يشترونها، لكن هل كأن فى إمكان الغرب أن يقبل بهذا الاقتطاع المالى لو لم يكن قد تمكن من زيادة منتجاته القابلة للتسويق ؟

كان بإمكاننا أن نناقش بصورة أفضل هذه المشاكل لو كنا نعرف بشكل جيد طبيعة التجارة بالقسطنطينية مقارنة بتلك الموجودة فى أماكن أخرى بالشرق. وبالتأكيد لم تظهر فيها البضائع الضرورية مثل الخشب والحديد والشب. ولا يعنى هذا أن عديداً من المنتوجات الكمالية ولاسيما المنتوجات ذات الاستخدام الشائع التى تكوّن الموارد الأساسية لهذه التجارة، لم يصل مجموعها إلى عدد ضخم. ولا شك أن الخسائر والأرباح يمكن أن تتوازن بعد العودة إلى إيطاليا، وغالباً ما كانت تقام كذلك رحلات ثلاثية حيث كانت الخسائر الناتجة فى مكان تعوض بأرباح فى مكان آخر، وفى النهاية فإن الإيطاليين عندما كانوا يقومون بدور الوساطة بين عدة موانئ متتالية فإنهم كانوا يحصلون بطبيعة الحال على «عمولة».

ومهما يكن من أمر فإن حصول الربح بالنسبة لكافة التجار فى تلك الفترة بلا تمييز فى الدين كان يتم أساساً من خلال الفرق الناتج من شراء السلع داخل الأسواق الرخيصة لبيعها بأثمان غالية فى أسواق أخرى. أضف إلى ذلك أن فترة الحرب تلك كغيرها كانت مناسبة لاكتساب المال من تجارة الأسلحة لكلا الطرفين.

إن أعراف المجتمعات التى تتواصل فيما بينها هى أشد تشابهاً أو ميلاً نحو التقارب فى ميدان التجارة. فكتاب المنهاج للمخزومى الذى حُرر فى عهد صلاح الدين استناداً على الوثائق الفاطمية أساساً يتيح لنا الآن أن نفهم بشكل أفضل المعلومات المتناثرة فى العقود الإيطالية التى أخذت تكثر فى الفترة نفسها، ومن المستحيل أن نتناول هنا بالتفصيل الجوانب التقنية للتجارة بالبحر المتوسط لكن يلزم ذكر بعض الملامح منها فيما يتعلق بالتاريخ العام(١٥).

وإذا كانت المبادىء والتوجهات تخضع تقريباً فى كل مكان إلى الهموم ذاتها فقد كان لكل ميناء مع ذلك قوانينه المطابقة لسياسة السلطات المعنية.

وإجمالاً، كانت تعد عند اقتراب السفن الأجنبية من الموانئ المصرية على البحر المتوسط (الإسكندرية فى الغرب من الدلتا ودمياط وتنيس فى الشرق)، قائمة بأسماء الركاب والبضائع التى تفرغ بعد ذلك وتوضع فى فندق (فنداقو). آنذاك كانت العملية الرئيسية تتمثل

فى تنظيم عملية واسعة من البيع بالمزاد من قبل موظفى الميناء ويأتى أثناءها الوسطاء المحليون للحصول على البضائع التى يقومون بتصريفها بعد ذلك لدى تجار المفرق بالداخل. فى هذه الفترة لم يكن الأجانب، فى الواقع، يمارسون البيع بأنفسهم داخل البلد إلا استثناء، وعلى أية حال كان جهلهم باللغة والأعراف السائدة يجعل ذلك متعذراً. وكان لديهم أحيانًا الحق فى الذهاب إلى القاهرة والقيام بعملية الفحص فى الدلتا للمحاصيل التى فى وسعهم أن يأملوا شراءها (مثل الكتان)، وبطبيعة الحال كان لابد أن يحدث التوازن بين معظم عملياتهم التجارية فى الموانىء المختلفة التى يصلون إليها، بيد أن سياسة الحكومات كانت تهدف آنذاك إلى تشجيع الاستيراد أكثر من تشجيعها التصدير إذ كان همها الأول تأمين الإمداد الداخلى الذى يخص فى قسم كبير منه الطبقة الأرستقراطية. فخلال عمليات البيع بالمزاد صدرت الرسوم التى يجب على التجار الأجانب دفعها وقامت بتحصيلها. وكانت هذه الرسوم تتراوح وفقًا لجنسيات التجار وطبيعة البضائع فعلى سبيل المثال كانت الرسوم مخفضة جداً بالنسبة للمعادن الثمينة القابلة لأن تسك نقداً. ويبدو أن المبدأ الأساسى السائد فى كل مكان تقريباً (بما فى ذلك المحيط الهندى) هو اقتطاع العُشور، لكن كان يضاف إليه تكاليف بقية الخدمات، وهو ما كان يضاعف المبلغ فى غالب الأحيان. ولم يكن يوجد فرق بين المسلمين وغير المسلمين إلا بالنسبة للممتلكات الشخصية غير القابلة للتسويق. وكانت الفنادق فى هذه الفترة تدار من قبل إدارة البلد لكن كان هناك اتجاه إلى توزيعها تبعًا للجنسيات الموجودة لأنها كانت تستخدم أيضًا بالنسبة للحياة الخاصة للجاليات أثناء عبورها. أما الشؤون القانونية الخاصة بالتجار فكانت من اختصاص الوكيل الذى لم يكن بالضرورة مسلماً.

ماذا يمكن أن يكون عليه دور الشرق اللاتينى فى هذا البحث عن التوازن ؟ من الصعب الاعتقاد بأن مشترياته لم تكن تتجاوز مبيعاته ولو أن الجماعات الدينية كانت تسعى لتنمية بعض المنتجات المدرة للأرباح مثل الزيت والسكر والخمر. لكن ماذا كان مصدر الموارد التى كانت فى حوزة اللاتين بالنسبة للبقية ؟ الإجابة تبدو بسيطة وتتمثل فى أعمال البر التى كان يقوم بها المؤمنون داخل الغرب (بما فى ذلك الأمراء والبابوات) سواء كان هناك وعى بها أم لا. ومن الصعب إحصاء الثروات التى أرسلت من أجل إنقاذ الأرض المقدسة إلا أنها كانت وفيرة بالتأكيد وهى تتكون من مساهمات بعض الأفراد والحجاج وغيرهم ولاسيما منتوجات الثروات الغربية للجماعات العسكرية وغيرها من المنتوجات المنقولة على ظهر سفنهم الخاصة، وتبرعات أخرى كثيرة عُهِد بها إلى التجار الإيطاليين. وليس هناك ما يدعو للارتياب فى أن هؤلاء كانوا

دائمًا وسطاء غير أوفياء لكن يمكن الظن بأنهم كانوا يستفيدون من الأموال التى حصلوا عليها بهذا الشكل فى انتظار تسليمها النهائى. وهكذا كان الغرب يمول مشروعات التجارة بشكل غير مباشر بواسطة التبرعات.

أما بالنسبة للبلاد الأخرى فإن بعض الوثائق التى فى حوزتنا غزير وبعضها أقل غزارة، الأمر الذى يتعذر معه عقد المقارنات. إن معرفة ما إذا كان الشرق اللاتينى قد تكيف مع الأعراف السابقة أو قام بتجديدها وكيفية ذلك، أمر له أهمية خاصة، لكن تعريفة عكا التى حفظتها لنا «قوانين ملتقيات البورجوازيين» ترجع إلى فترة عرفت تطوراً فى أماكن عديدة، وهو ما سنتحدث عنه لاحقًا بشكل أفضل.

ومع ذلك فإن الاهتمام الذى أولته مملكة بيت المقدس للقانون البحرى كما ألمحنا إلى ذلك يعود إلى هذه الفترة (١٦)، وبما أن تجارتها حتى ذاك الوقت كانت أقل أهمية فقد تركت تنظيم الأعمال التجارية للتجار الإيطاليين أنفسهم أو عن طريق المحاكم الصغرى للمدن (*) ومحاكم الموانىء والسفن ذات الأصول الغامضة (١٧)، والتى كانت بالضرورة محاكم عرفية لا دخل للقانون الجديد فيها إذ كانت تتضمن بلا شك الأهالى المحليين. آنئذ كنا نجد قوانين عديدة، عكس ما كان فى السابق، ومن بينها قانونان حدثا بالتأكيد فى عهد عمورى الأول والبعض الآخر يرجع إلى الفترة نفسها. فقوانين عمورى تناولت موضوعًا عولج كذلك فى كثير من الامتيازات الممنوحة للإيطاليين وهو موضوع الغرق فى «المياه الإقليمية». فقد كان العرف الشائع فى كثير من المناطق أن تعتبر ممتلكات السفينة الغارقة غنيمة قانونية للدولة الساحلية إلا إذا كانت هناك اتفاقية مخالفة لذلك، لكن منذ ذلك الحين ضمنت القوانين للناجين من الغرق أو لورثتهم الحق فى استعادة ممتلكاتهم، وتناولت ملتقيات أخرى مسألة القروض للقيام بالرحلات البحرية. فعلى سبيل التذكير إذا كان طاقم الأسطول يتكون من الإيطاليين فإن الركاب قد يكونوا من السكان المحليين.

وفى مصر، وهى بمثابة النموذج الأعلى بالنسبة للدول التى تتدخل مباشرة فى المجال الاقتصادى، كان هناك ما يسمى المتجر وهو جهاز خاص يتولى شوون البضائع كالخشب والحديد التى كانت الدولة تحتكر شراءه بأسعار يُتفق بشأنها بدون تدخل السوق الحرة. لكن

(*) اعتمدنا فى ترجمة أسماء هذه المحاكم على ترجماتها الشائعة فى كتب د. سعد عبد الفتاح عاشور، ومحمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى – المترجم –

يبدو أن موانىء البلاد الإسلامية الأخرى كانت تنفر تقريباً من هذا النوع من المؤسسات، أما فيما يتعلق بمملكة بيت المقدس ولم يسمع شيئًا عن هذا.

كان التجار يتجنبون التنقل بمفردهم عبر البر والبحر وكانوا يقومون بتنظيم القوافل البحرية والبرية. وكان للغربيين بموانىء الشرق اللاتينى فنادقهم بحسب جنسياتهم، ولا نتبين بوضوح ما إذا كان الأمر من قبل يسير على النحو نفسه فى مصر حيث لم يكن الغربيون يتمتعون على أية حال بالاستقلال الذاتى. ففى مصر كانت إعادة التوزيع الداخلى مقصوراً بالفعل على المحليين وهو أمر كان فيما يبدو أقل وضوحًا فى بيزنطة والشرق اللاتينى.

لقد رأينا أنه فى بداية القرن كانت لاتزال هناك بعض الاتصالات البحرية عبر السفن الإسلامية بين مصر والمغرب بل حتى إيطاليا النورماندية (١٨). ويبدو جليًا أن الإيطاليين خلال القرن الثانى عشر قد سيطروا سيطرة مطلقة على هذه العلاقات حتى بين الشرق والغرب الإسلامى. علينا أن نناقش لاحقًا إلى أى حد كان ذلك فى خدمة توازنهم النقدى وعلينا أن نتجنب الآن الخطأ، فالحدث الحاصل عام ١١٥٣، الذى رأيناه سابقًا، يشير إلى أن السفن الإيطالية كانت تُقِل بعض الشرقيين بما فيهم المسلمين، ونحن نعلم أن الناس كانوا يلتقون بهم فى شوارع بيزا (١٩). وفى عام ١١٨٣ نجد الرجل الورع ابن جبير، على الرغم من إرشاداته هو ذاته، قد قطع الجزء الواقع على البحر المتوسط من رحلته إلى الحج على ظهر سفينة جنوية(٢٠). وبطبيعة الحال كان المجال لا يسمح بعد للأوروبيين بالتمكن من ولوج البحر الأحمر.

وفى فترة مماثلة نجد تجاراً مغاربة مسلمين بالشرق، والشاهد على ذلك التاجران الثريان اللذان التقى بهما ابن جبير فى دمشق واللذان كان يستخدمان أرباح تجارتهما فى افتداء مواطنيهم المغربيين الذين كانوا أسرى حرب الفرنج (٢١) وهما يستحقان أن نتوقف عندهما لحظة. فابن جبير يعطينا أسماءهما ناقصة بحيث يتعذر علينا أن نستعلم بشأنهما. ولابد أن كثيراً من المسلمين واليهود والأمالفيين قد شاركوا فى الفتح الفاطمى لمصر وسوريا، لكن الشهادات التى تسمح لنا باقتفاء أثرهم فى سوريا كانت ضئيلة. ولعل البعض منهم قد رافق القوات العسكرية المغربية فى سوريا ونحن نعلم أنه فى القرن الثانى عشر كانت لاتزال توجد فى هذه المدينة مكتبة مغربية (٢٢). ومع ذلك سيكون من غير الطبيعى التذكير بالنسب الغابر لذرياتهم فيما يحملونه من ألقاب بعد انقضاء قرنين من الزمان، ومن الأيسر فيما يبدو التسليم بأن الأمر يتعلق بتجار قدموا حديثًا للبحث فى الشرق عما يعوض إفلاس تجارتهم بشمال إفريقيا (انظر أعلاه حالة اليهود) (٢٣). ومن المؤكد أن حضور الفرنجة على الساحل لم يكن يسهل التغلغل فى الداخل ولم يكن يمنعه فى الآن نفسه.

ربما أمكن للبعض أن يصل كذلك من مصر بل وحتى من آسيا الصغرى لو لم يثبطهم التوتر بين الفاطميين والزيريين، ثم بين الأيوبيين والموحدين، عن المرور عبر القاهرة (٢٤). أما فيما يتعلق بالأسرى المغاربة بالشرق فمن المحتمل ألا يكونوا على الإطلاق منحدرين من البربر الغزاة المندمجين مع السكان وقد لا يكونون فى حاجة إلى محسنيين خصوصيين. كما أن ثمة احتمال ضئيل فى أن يكون الأمر متعلقًا بمتطوعين فى الحرب المقدسة والذين لا تفوتهم الفرصة لمحاربة الفرنجة فى الغرب، فمن المحتمل أن نكون بإزاء بعض التجار ولاسيما الحجاج إلى مكة الذين أُخذوا على حين غرة أثناء رحلتهم.

لقد رأينا أن مسلمى الغرب، منذ القرن الحادى عشر، كانوا أحيانًا منقادين لاستعارة المراكب الغربية للرحلة إلى الشرق. وفى بداية النصف الأول من القرن الثانى عشر لاتزال هناك بعض عناصر الأساطيل الإسلامية وبصفة خاصة على امتداد السواحل الإفريقية من غير شك. وحتى نهاية القرن تقريبًا سنرى أن «الحشاشين»، على سبيل المثال، كانوا يملكون سفينة فى تنقلاتهم الساحلية (٢٥). وسيؤسس صلاح الدين. وآخرون من بعده، أساطيل عسكرية لفترة ما على نحو ما ستفعله بيزنطة من جانبها (٢٦). لكن إذا كان الركاب المسلمون يبحرون على ظهر السفن التجارية ابتداء من أواسط القرن، فمن المؤكد أن كل هذه السفن صارت منذ تلك الفترة سفنًا إيطالية (٢٧).

لقد تم التساؤل حول أسباب الاختفاء شبه التام للبحرية الإسلامية ووجهت أصابع الاتهام بشكل خاص إلى الصعوبة المتزايدة فى التمون من الخشب المستخدم فى صناعة السفن (٢٨). لا يمكن إنكار هذا الأفول ومع ذلك فقد رأينا أن الإيطاليين أنفسهم كانوا يجلبون للدول الإسلامية كثيرًا مما كان ينقصهم من الخشب، وكان منه بعد ذلك ما يكفى للملاحة الحربية، علاوة على أن هذا الأفول كان أكثر بُطئًا فى الجانب الغربى من البحر المتوسط وإسبانيا وجزر البليار.. إلخ. وفضلاً عن ذلك نلاحظ الأفول نفسه فى الإمبراطورية البيزنطية مع أنه لم يكن ينقصها الخشب. فربما كان تسارع هذا الأفول ناشئًا عما حدث من انشقاقات بين مصر والمغرب وداخل المغرب ذاته. وقد تناقص نمو الأسطول الصقلى – النورماندى ذاته أو على الأقل الأسطول التجارى. وعلى الصعيد المحلى للعلاقات البحرية بين سوريا فى مصر كانت المبادرة دائمًا فى أيدى السوريين الذين أبعدهم الإيطاليون فى تلك الآونة. ويظهر من كل هذا أن السبب الرئيسى لاختفاء الأسطول الإسلامى يكمن فى ازدهار الأساطيل الإيطالية بالشمال، بل إن العلاقات القائمة بين الدول الإسلامية نفسها صارت آنذاك مؤمنة بواسطة

تجارة العمولات التى يقوم بها الإيطاليون، فقد وجدوا فيما يتقاضونه من أجور تعويضاً عن خدماتهم وبفضل ما يحصلون عليه من مال نتيجة اختلاف شروط التجارة فى البلاد المختلفة، وسيلة لتحقيق التوازن بين الخسائر من جهة والأرباح من جهة أخرى للحصول على ميزان تجارى سليم.

وسيكون الأمر كذلك فى الإمبراطورية البيزنطية التى كان يتم انتقاء العاملين بأساطيلها وأطقمها، عادة، ومنذ مدة طويلة من الأناضول الساحلى الذى أحدث التركمان المجاورون له خللاً بنظامه.

غالبًا ما استغرب الناس واستنكروا ما قام به التجار المسيحيون فى عنفوان الحروب الصليبية من عقد ما أسماه الحقوقيون والمشرعون بالتعاقد مع «الكفار». والحق أنه يجب عكس فهمنا لهذه المسألة فلم يكن للطرف المسيحى ولا للطرف الإسلامى (ولا لطرف آخر بالتأكيد) نظرة شمولية عن الحرب السياسية أو حتى الطائفية بنفس الحدة التى هى عليها فى أيامنا هذه. فالتجارة وتنقل التجار كانت أموراً شبه مقدسة، فكان المس بها جناية كبرى بحيث أن العجز عن ضمان أمن الطرق وحماية التنقل داخل البلدان الإسلامية كان يعد إدانة لسوء تدبير الأمير، ولم تكن الحرب لتغير شيئًا من ذلك (٣٠). وقد طرحت الحرب مشكلة تتمثل فى إمكانية أن يكون فى مقدور البعض أن يشتغل يومًا تاجراً ويصبح عسكريًا فى يوم آخر وأن يشتغل بعض التجار جواسيس فى الوقت نفسه، مما استدعى الحيطة دون أن يلحق تغيير بالمبدأ. ومن ثم لا نرى فى عرف الناس آنذاك أن البيازنة مثلاً خالفوا المألوف بالتماسهم الامتيازات من الحكومة المصرية بينما كان أشقاؤهم فى حرب معها. وفى الإسلام كان الغزالى يعلم الناس أن مصلحة الأمة تبيح توسيع القواعد الشرعية الأصلية إباحة كاملة لتشمل مصالح الأجانب إذا ما اقتضت المنفعة ذلك. ربما كانت هناك حدود لا ينبغى تجاوزها وقد رأينا أن الدول والكنيسة كانت تسعى لمنع بيع الأسلحة والمنتجات الاستراتيجية للعدو. وفى تكرار مثل هذه الإجراءات ما يدل على قلة نجاعتها. ومن الجانب الآخر لم يحل قط اعتقال التجار الموجودين بالإسكندرية أثناء الحملة الصليبية دون عودتهم بعد انتهاء الحملة الصليبية.

* * *

ولم يكشف النقاب بعد كاملاً عن قصة التداول النقدى فى الشرق الأوسط وفى البحر المتوسط إبان الحروب الصليبية والمكانة التى احتلها الشرق اللاتينى فى هذه الحروب. ومن الصعب تبين ذلك بدون وصف عام لكل المناطق المرتبطة ببعضها.

كانت البلاد الإسلامية والبيزنطية الواقعة على البحر المتوسط، فى بداية العصر الوسيط، تستخدم إجمالاً العملة الذهبية بصورة أساسية بدون تجاهل الفضة. وفى المقابل كانت أوروبا بما فيها أسبانيا المسلمة قبل القرن العاشر لا تعرف من السك المحلى للنقود إلا من الفضة. ويكاد يكون الأمر مشابهًا لذلك فى المناطق الشرقية للعالم الإسلامى فى إيران وآسيا الوسطى وبغداد عاصمة الخلافة وهى تكون منطقة اتصال بين منطقتين. لم يكن هناك من حيث المبدأ نظام العملتين (*)، مادام أن السعر الخاص للمعدنين كان مقننا بدقة لكن كان يتم التسديد أساساً بمعدن فى بعض الأماكن وبمعدن آخر فى أمكنة غيرها (٣١). وتقدم لنا العروض التقليدية، التى تستند بصفة خاصة على مجموعة نماذج من المسكوكات النقدية، تغيرًا ظرفيًا طارئًا ابتداءً من عام ألف (٣٢). وأخذت العملة الفضية تندر فى كل مكان إلى درجة الاختفاء التام من بعض المناطق حوالى نهاية القرن الحادى عشر، على الأقل فيما يتعلق بالعالم الإسلامى والبيزنطى (٣٣). وكانت العملة الذهبية تشمل إيطاليا الجنوبية التى كانت قد شكلت جزءًا من الإمبراطوريتين وأبقت على نظامها النقدى السابق تحت حكم النورمانديين فكانت الحالة الوحيدة فى أوروبا المسيحية التى استخدمت العملة الذهبية. يوجد فى هذا الوصف جانب من الحقيقة ونحن نعلم مثلاً بصورة مؤكدة أنه فى بغداد فى بداية القرن الثالث عشر ونظرًا لعدم إمكانية العثور على أية عملة فضية كانت المبالغ المالية المتوسطة تسدد بقراضات ذهبية (٣٤). بيد أن هذا الوصف سطحى جداً ويثير هذا التأويل كثيراً من الجدل. وقلما تكرر القول بأن مجموعات النماذج النقدية كما تم تكوينها تقليديًا تعطى صورة غير واقعية عن التداول الفعلى. وللنصوص وحدها قيمة فى هذا الشأن. والحال أنها تطلعنا على أن الفضة استمرت فى التداول فى أغلب المناطق ولو أن ذلك كان يتم بأسعار متباينة وفى شكل عملات مختلطة بوجه عام (٣٥). وينطبق هذا بشكل خاص على مصر وذلك ربما بسبب علاقاتها التجارية مع أوروبا، ومن جهة أخرى فإن القيام بدراسة دقيقة للمسألة سيظهر بأنه لم يكن هناك تخفيض للفضة بأى شكل كان، فإنجاز السبائك كان استجابة لمقتضيات عملية. وعندما ثبتت عدم كفاية الفضة لم يكن ذلك فيما يبدو يفسر بندرة المعدن ولكن بزيادة الطلب بالنسبة للصفقات المالية المتوسطة وهى زيادة مرتبطة بتطور شروط الحياة والعلاقات الخارجية (٣٦). ومهما يكن من أمر، فعند نهاية القرن الحادى عشر وفى الأرباع الثلاثة الأولى للقرن الثانى

(*) نظام العملتين نظام يجعل لكل من النقود الذهبية والفضية قوة إبراء مطلقة بعد تحديد النسبة بينهما (المترجم).

عشر، انتظمت الحياة فى مصر حول عملة ذهبية وعملة فضية مختلطة سميت بالورق وذلك بنسبة ٣٠٪ من الذهب و٧٠٪ من النحاس (٣٧)، فكانت ٤٠ درهمًا تساوى دينارًا فاطميًا واحدًا يزن حوالى ٥ر١٣ جرامًا، فى حين استمر فى سوريا سك الدرهم من الفضة الخالصة (النقرة) خلال القرن الحادى عشر.

بعد هذه الإشارات، التى هى عامة جدًا نجد أنفسنا أمام وضع غريب فيما يتعلق بالشرق الأدنى الأسيوى إبان الحروب الصليبية، فلنترك جانبًا الشرق اللاتينى بصفة مؤقتة، فلم تعد هناك دولة من الدول الإسلامية سواء فى العالم العربى التقليدى أو فى الأناضول التركى تسك عملة ذهبية أو فضة (ربما سكت فى سوريا عملات بها نسبة ضئيلة من الفضة؟).(٣٨) وكان هناك اكتفاء بالعملة النحاسية لهذا لزم أن تزداد ثقتنا فى مجموعات نماذجنا النقدية. وسواء تعلق الأمر بعملات من النمط التقليدى أو بعملات ذات صورة خاضعة للتأثير التركى أو البيزنطى (كما فى الأناضول وحتى فى دول سوريا وبلاد ما بين النهرين الشمالية) فالأمر سيان بالنسبة للمشكلة الاقتصادية. فقد استخدمت العملة النحاسية فى المعاملات التجارية البسيطة دون احتياج دائم لضمان قيمتها الشرعية لكنها أصبحت بعد ذلك تستخدم كذلك فى تسديد المبالغ المالية الكبرى، وبالنسبة لنور الدين، الذى تؤكد النصوص عدم افتقاره للموارد وأنه كان يمكنه أن تكون له عملته الذهبية وحتى الفضية لو ارتأى فضل ذلك فإن تفسير هذه الحالة لابد أن نلتمسه عنه فى عوامل أخرى غير تلك التى تخص الدول الصغيرة والتى قد تكون آيلة للزوال. ولعل سك العملة الذهبية كان من شأنه أن يثير اضطرابًا فى عادات الأسواق المحلية كما يحتمل أن الحاكم الورع كان متصنعًا فى اعتبار سك العملة الذهبية وقفًا على الخلافة إن لم يكن على السلطنة السلجوقية (٣٩). غير أن هذه التفسيرات لا يمكنها أن تنطبق على العملة الفضية والتى وصل غيابها المؤكد حد المفارقة بما أننا فى مجاورة للشرق اللاتينى حيث لم يكن بوسع الصليبيين وخلفائهم أن يجلبوا سوى الأنواع الفضية (٤٠).

ذاك كان الوسط الذى عايشه الشرق اللاتينى، ومن البديهى أن يكون قد تداول فيه الناس بوفرة دنيرات فضية ذات قيمة مالية منخفضة كانت صادرة عن أوروبا وقد سجل المختصون فى سك النقود وجود عملات قام العرب بتقليد صنعها على الأقل فى بعض الفترات(٤١). هل كان ذلك مجرد فضول بسيط ؟ وهل تم سك هذه العملات تيسيرًا على الأهالى؟ مهما يكن من أمر فإن المهم هو السك المتواصل للعملة الذهبية (ذات النقوش

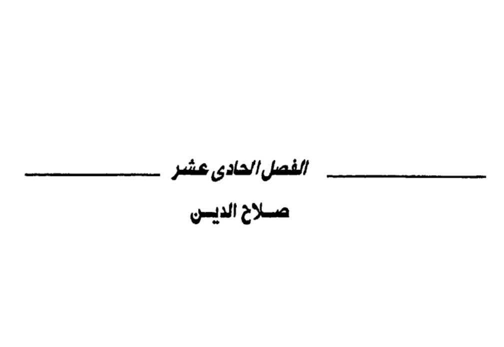
اللاتينية) التى كان الفرنجة يسمونها «بيزنط»، ونظراً لأن معرفتهم بالعملة البيزنطية سبقت معرفتهم بغيرها من العملات فإنهم سيطلقون فيما بعد اسم «بيزنط عربى» على العملة العربية بدلاً من الدينار تفادياً لما قد يحدثه ذلك من التباس مع كلمة دنير(*). وإذا لم يكن ثمة ما يدعو للمبالغة فى تقدير مجموع هذه البيزنطات فلا ينبغى كذلك التقليل من شأنها طالما أننا نجدها متداولة فى أسواق سوريا المسلمة إلى جانب العملات العربية. ولابد أن نتساءل فى هذه الظروف عن مصدر الذهب، فنحن لا نتبين البواعث السياسية أو الاقتصادية التى قد تجعله صادراً من مصر وليس فقط البلاد الآسيوية التى لم تكن تشترى إلا نادراً من الفرنجة.

من الواجب أن نولى وجهنا نحو جهة أخرى والدخول فى حلقة أكثر تعقيداً. فمنذ نهاية القرن الحادى عشر كان الذهب يجلب من السودان بكميات كبيرة إلى المغرب وإسبانيا وبطريقة غير مباشرة إلى الغرب المسيحى بواسطة المرابطين ومن بعدهم الموحدين فى القرن الثانى عشر (٤٢). أما من قبل فقد كان للذهب قيمة دولية محدودة، وثمة شك ضئيل فى حصول التجار الإيطاليين من هذا الجانب بواسطة المبيعات الفائضة على الذهب الذى لم يكن فى مقدور أوروبا أن تمدهم به، فكان عليهم آنذاك أن يعيدوا استعماله فى الشرق، سواء بالنسبة لمشترياتهم أو بالنسبة لنقل الهبات الدينية التى تبرع بها المؤمنون الأوربيون، ونحن لا نرى بالنسبة للشرق اللاتينى على الأقل تفسيراً آخر غير هذا، ويبدو أن فرنجة القدس على الأقل فى البداية قد ساعروا عملتهم الذهبية من عيار مقداره (حوالى ثلثى الذهب) بالنسبة للعملة الإيطالية النورماندية نظراً للعلاقات الاقتصادية المميزة مع هذا البلد (٤٣). ومن وجهة النظر الأوروبية فإن الشرق اللاتينى وإيطاليا النورماندية وكلاهما كان على اتصال بالمسلمين هى البلدان الوحيدة التى كانت تسك العملة الذهبية، ومن وجهة النظر الإسلامية كان للبيزنط أو الدينار الفرنجى قيمة رفيعة. ولا يتعلق الأمر بعملة منخفضة موجهة لمحاربة الدينار الإسلامى، رغم ما قيل فى هذا الشأن (٤٤). فقد كان لها مثل العملات الأخرى المتداولة آنذاك فى الشرق الأدنى قيمة المقايضة الرسمية التى بمقتضاها كانت تحسب الأسعار ولم تكن هناك أية عملة مشابهة لقانون جريشهام (٤٥).

وحتى نتمكن من مناقشة العلاقات القائمة بين العملات ينبغى أن نستحضر بقوة فى أذهاننا الاختلاف الجوهرى بين العصر الوسيط والعصر الحديث. ففى العصر الحديث يمكن أن نستبدل عملات أجنبية لكن لا تتداول إلا عملات النظام القومى الموحد، أما فى العصر

(*) دنير: نقد رومانى ثم فرنسى قديم وهو ضئيل القيمة. – المنهل – (المترجم)

الوسيط فإن التداول المتزامن للعملات «القانونية» المعمول بها فى ذلك الزمان والعملات الأخرى (العملات الإسلامية ظلت متداولة حتى القرن الرابع عشر) التابعة لمختلف الدول والعصور والتى كان لديها سعر رسمى أو حر كان أمرًا واردًا. وكان بوسع المرء أن يفاضل، بلا شك بين العملات الأيسر فى الاستخدام لكن لم يكن هناك مجال لتمرير عملة محل أخرى فقلما كان يعمل بقانون جريشهام ومؤداه أن العملة السيئة تطرد العملة الجيدة.



الفصل الحادى عشر

صلاح الدين

إن شخصية صلاح الدين هي أكثر شعبية من بين كل الشخصيات الإسلامية إبان الحروب الصليبية نظرًا للأهمية التي كانت لسياسته والتي لم تشهدها سياسة نور الدين، ولأنها انتهت إلى استعادة القدس وتفكيك الشرق اللاتيني ومقاومة قادة الحملة الصليبية الثالثة، ولأن الحظ قد حالفه، ولتوفرة، بلا شك، على مهارة في العثور على مؤرخين كبار يشيدون به (٢)، ولأن الصليبيين قد حملوا عنه في أذهانهم حتى في الغرب ذاته صورة ستجعل منه شيئاً فشيئاً بطل رواية أصلية في الغرب المسيحي، وأخيرًا ربما لأنه كان كرديًا وليس تركيًا، ويبدو هذا التعليل لدى بعض المحدثين بشكل غامض. لكل هذه الأسباب أريد وضعه في مواجهة نور الدين بوصفه تجسيداً لنموذج المعركة من أجل العقيدة بخلاف التركي الذي ربما لم تكن الحرب المقدسة بالنسبة إليه إلا ذريعة لخدمة طموحاته (٣). والحق أن هذا الخلاف، بالنسبة للمؤرخ، يبدو عديم الفائدة، فالبواعث العقلية ليس لها خطوط تماس واضحة كما أن القائدين قد مارس كل منهما في الواقع سياسة كان التجمع فيها من أجل العقيدة يساعد على نهج التدعيم السياسي الأمر الذي كان يشجع على تطوير الحرب المقدسة.

لقد واصل صلاح الدين إذن، سياسة قائده السابق، في ظروف مستجدة. ولنذكر من جهة أخرى أن نور الدين كان يستخدم قوات كردية مسلحة إلى جانب قواته التركية، وكان صلاح الدين يستخدم قوات تركية إلى جانب قواته الكردية كما كانت لهما السياسة نفسها على الصعيد الداخلي، ففي سوريا تمت تنمية المؤسسات «الأرثوذكسية» وربما مع إبداء المرونة في التعامل مع الشيعة التي كان نور الدين كسب الرهان ضدها إذ تحول آنذاك المنحدرون من العائلات الشيعية الكبرى بسوريا إلى المذهب السني. ومع ذلك ففي حكم صلاح الدين قام ابنه، الذي كان وصيًا على عرش حلب، بإعدام الصوفي الإيراني السهروردي (٤).

لقد كان الوضع في مصر أكثر تعقيداً ؛ فالسكان كما قلنا كانوا غرباء عن العقيدة الإسماعيلية الفاطمية ولم يجد نظام الغزاة مشقة كبيرة في محو آثار العقيدة الممقوتة أو إسدال ستار النسيان عليها. ورغم كل ذلك كان الشعب المصري قد عاش بمعزل عن آسيا المجاورة، لذا فقد شعر بأن الحكم الجديد كان غريبًا عنه ووجد الحكام الجدد مشقة ما في الاستعانة به لإدخال عاداتهم ونظمهم العائلية. وأمام ذهولهم من النفوذ الذي كان للأرمن قاموا بإبعادهم ويمكن القول بمعنى ما أن ذلك تم لصالح الأقباط، ولم يكن ذلك ليحدث من غير إثارة الحذر والغيرة تجاه هؤلاء المسيحيين الذين لم يكن لهم نظيرًا بالشرق (٥).

منذ تلك الفترة أصبحت الحرب تتصدر كل ما يجري من أحداث، مهما كلف الثمن الذي تعوضه الانتصارات اللاحقة. وكان الهدف، بشكل أكثر تحديداً، هو استعادة القدس وهو ما

كان قد حدده من قبل نور الدين (٦). ومما يسّر هذا الهدف فيما يبدو إصابة الملك الشاب بودوان الرابع بمرض البرص والصراعات التى نشبت حول الوصاية على العرش والخلافة. لقد انتشرت الدعاية حول هذه القضية ولم يكن من قبيل المصادفة أن نرى آنذاك ظهور عديد من المؤلفات عن الجهاد (٧). ومن المؤكد أن أصول هذه المؤلفات كانت قد تأسست منذ مدة طويلة ولم يكن لها لتتجدد فى الفترات التى ضعف الاهتمام بها (٨). ومع ذلك فقد تم الرد على الدعاية الفرنجية حول الأهمية التى توليها هذه الأخيرة للمدينة المسيحية المقدسة وهو الأمر الذى أيقظ انتباه المسلمين إلى ما يميزها عن بقية المدن الأخرى فهى المدينة التى أسرى إليها الرسول ليلاً، وهى التى وضع فيها الخليفة عمر أول لبنة فى مسجده إلخ. وإن لم تكن موازية فى قيمتها لمكة والمدينة. ومن ثم فإن استعادتها كفيل بأن يلهب القلوب، ومن الاهمية بمكان أن نرى ازدهار أدب الفضائل بشأن القدس (وتعنى كلمة القدس بالعربية : المقدس) (٩).

فى الفترة نفسها ألف مرضى الطرسوسى (*) لصلاح الدين رسالة قيمة فى التسليح، وهو رائد فى مسار تأليف الرسائل العسكرية (١٠). وإلى هذه الفترة نفسها ترجع كذلك نشاطات الحاج الجاسوس «على الهروى» (١١) وربما تعود إليها كذلك الصيغ الأخيرة التى وردت بها الروايات الملحمية التى تذكر المسلمين بانتصارتهم ضد البيزنطيين وبأمجاد الفتوحات الأولى(١٢)، وربما كان لانتعاش فكرة الحرب المقدسة فى البلاد الإسلامية التقليدية أثر فى إخفاء الفجوة الأخلاقية بين الشعب والجيش.

وكانت الحرب بين المسلمين والمسيحيين تدور فى البحر كما فى البر. وقد ظل صلاح الدين لأمد طويل آخر أمير مسلم بالشرق حاول إعادة تشكيل أسطول حربى (١٣).

رغم موقع الصدارة الذى احتلته الحرب المقدسة بالنسبة لصلاح الدين فقد كانت مرتبطة باهتمامات أخرى كانت تشغل أفراد عائلته الكبيرة والجشعة فقد تدخل خارج مصر وسوريا فى ثلاثة اتجاهات. والحق أننا لا نتبين دلالة بعثة قراقوش الذى كان مملوكاً لأحد أشقائه إلى المغرب على رأس فريق من الأجوز ولهذا الاسم الذى كان يطلقه الكتاب المصريون والمغاربة على القادمين الجدد من الأتراك والتركمان دلالة غامضة فيما يبدو. فهل كان مبعث

(*) فى التسليح، أو صنع الأسلحة هو مخطوط لمرضى بن على بن مرضى الطرسوسى، نشره وترجمه إلى الفرنسية كلود كاهن ويتناول موضوعات عن رمى القوس وجدولاً بالرماة المعلمين الذين كانوا فى معظمهم مؤسسى مدارس، وقد ظهروا جميعهم فى خراسان أو فى بلاد ما بين النّهرين، وفى المخطوط أيضاً حديث عن كيفية ترتيب الجيوش الإسلامية عند اقتتالها مع الصليبين. (المترجم)

هذه الحملة الرغبة فى إيجاد متنفس لنشاط العناصر المتحفزة ؟ وإلى أى حد كانت تستجيب لنداء بنو غانية لمحاربة الموحدين ؟ لقد فشلت الحملة فى النهاية ولم يحدث ذلك من غير أن تولد مناخًا من العداء بين صلاح الدين والموحدين الذين لا نعرف مبعث مناوأته لهم حيث سيكون عليه لاحقًا التقرب منهم فى مواجهة الفرنجة إبان الحملة الصليبية الثالثة (١٥).

إننا نستشعر جيدًا البواعث التى تقف وراء التدخلين الأخيرين لصلاح الدين فى الجزيرة واليمن، فقد قيل أحيانًا لاسيما عن تدخله فى الحالة الأخيرة (*) إن الأمر بالنسبة له كان يتعلق فيما يبدو بإعداد مكان يلتجىء إليه فيما لو سقطت مصر من سلطته. وببساطة أكثر كان عليه أن يقوم بتوظيف أشقائه وأبنائهم، غير أن ثمة مصالح أخرى لها دخل فى هذا الأمر؛ ذلك أن الأيوبيين (وهو اسم أسرة صلاح الدين بن أيوب) الذين وصلوا حتى بحيرة فان الواقعة بين موقع سلاجقة آسيا الصغرى وآل زنكى ببلاد ما بين النهرين مع حلفائهم الأراتقة وغيرهم، كانوا - أى الأيوبيين - أشبه بالوتد المنغرس فى أعماق الرمال، وعلاوة على أخذهم الحذر بما قد يحدث من تحالفات ضدهم فقد وصلوا إلى البلد الذى كان يتم فيه تجنيد بعض فرقهم العسكرية وهو بلد كردى فى قسم منه.

وكانت المصالح الكامنة وراء التدخل فى اليمن أكثر تعقيدًا، إذ كان هذا البلد ملجأ لبقايا من النحل المختلفة، وكانت السلطة فيه تُمارس من قبل الصليحيين (**) الذين ظلوا إسماعيليين رغم ما حدث من انشقاقات (١٦)، وكانوا على استعداد لاستقبال اللاجئين الفاطميين المهمتين بأخذ الثأر، ولم يكن لهذا التعارض إلا أن يضر بالعلاقات التجارية لمصر فى المحيط الهندى. فتقرر غزو البلد وعهد بذلك إلى ابن شقيق صلاح الدين. من المؤكد أن خصوصية اليمن حالت دون استمرار السيطرة الأيوبية المباشرة لمدة أطول لكن تمت إعادة الوحدة الطائفية بين السلطة اليمنية ومصر والعلاقات التجارية لمدة ثلاثة قرون. وبعد الغزو ببضع سنوات نجد مؤرخًا يشير إلى وصول تجار الكارم (١٩) إلى القاهرة.

فهل كان ذلك عودة إلى الوضع الذى كان سائدًا فى عهد الفاطميين أم كان ذلك هو

(*) تتميز الصياغة الفرنسية لهذه الفترة بتكثيف بالغ الصعوبة بحيث يصعب معرفة إذا كان الحديث يدور حول الجزيرة أم اليمن بعد ذلك خاصة أن المؤلف سيعود فى بداية الفقرة التالية للحديث عن المصالح الكامنة وراء التدخل فى اليمن. (المترجم)

(**) الصليحيون : سلالة حكمت بلاد اليمن ١٠٤٧ بين عامى ١١٣٧، كانت تابعة للخلافة الفاطمية، أسسها على بن محمد، واشتهر بين ملوكها أروى بنت أحمد التى حكمت اليمن ١٠٩٢ - ١١٣٨ وقامت بأعمال عمرانية جليلة - (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

الظهور الأول لهم ؟ كانت تلك على أية حال واقعة مهمة، ومنذ تلك الفترة سنشهد التأثير المتعاظم لهؤلاء التجار فى مصر كما فى اليمن.

فيما يخص تجارة البحر المتوسط كان من المتوقع أن يضر المناخ السائد للحرب المقدسة باستمرار العلاقات التجارية مع الغرب أو استئنافها. غير أن متطلبات الحرب المقدسة ذاتها كان بوسعها أن تسير فى الحقيقة فى الاتجاه المعاكس. فبالنسبة لصلاح الدين كان الخشب الضرورى لبناء أسطوله البحرى كما كانت الحاجة إلى الحديد والأسلحة ذاتها أشد مما كان عليه الأمر مع سابقيه. ولم يكن فى مقدوره أن يحصل على هذه الأمور من الإيطاليين إلا بمنحهم امتيازات كانت من الأهمية بمقدار التشديد المتزايد لمنع هذه التجارة فى الغرب[٢٠]. وغاية ما فى الأمر أنه تم أخذ الاحتياطات بواسطة حصر وجود التجار الأجانب بمصر داخل الإسكندرية وعدم السماح لهم بولوج المناطق الواقعة خلف السواحل أو القاهرة[٢١]. واستؤنفت التموينيات التقليدية بهذه الشروط، ونحن على علم بالخطاب الذى أرسله صلاح الدين إلى الخليفة حيث يتباهى بحصوله من المسيحيين أنفسهم على الأسلحة التى يحارب بها أشقاءهم[٢٢]. على أنه كان يتدخل بنفسه ضد البدو الذين كانوا يخلون بقرار تزويد المسيحيين بالشب الذى كان يجلب من مقاطعة كاور(*) السودانية [٢٣]. ومن الجانب الإيطالى سبق أن رأينا أن التشدد الدينى كان يتبدد طواعية أمام المصالح التجارية. وبلغ هذا الإغراء من القوة بمقدار الإضرار الذى كانت قد ألحقته القسطنطينية قبل فترة قصيرة بالمصالح الإيطالية فى بيزنطة. فكان لابد من البحث عن عوض إلى حد ما فى الشرق اللاتينى ولاسيما فى مصر بطبيعة الحال على نحو ما تشهد به إحصاءات العقود المحفوظة [٢٤].

من الطبيعى أن تتداخل فى بداية القرن مواقف هؤلاء وأولئك فى الصراعات السياسية مع التنظيمات الاقتصادية. وتطلعنا إحدى الأحداث التاريخية المهمة لعام ١١٧٤ على واقع ما جرى. ففى هذه السنة قامت إحدى السفن البيزية بتفتيش سفينة جنوية فى المنطقة الشرقية للبحر المتوسط. وكانت تحمل على ظهرها الشب الذين كان مِلْكًا للعادل [٢٥] شقيق صلاح الدين. من خلال ذلك نلاحظ أن هذه التجارة قد تواصلت وأن الأسرة الأيوبية كانت تعرف كيف توفق بين شؤونها الخاصة والمصالح العامة شأنها فى ذلك شأن الفاطمى الذى ورد ذكره فى

(*) يشار إليها باسم بلاد كوار أو كاور. انظر : تقويم البلدان – تأليف عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبى الفداء – صاحب حماه. ص ١٢٨ – طبع فى مدينة باريس المحروسة بدار الطباعة السلطانية سنة ١٨٣٤ – المترجم.

الرسالة الموجهة إلى روجيه الثانى، كما نلاحظ أن علاقات الأيوبيين بالجنوية المعادين للبيازنة كانت علاقات طيبة وستتاح لنا الفرصة لاحقًا لنلاحظ هذه الروابط الدائمة التى توثقت بين الجنوية والأيوبيين. وهذا لا يعنى القول أن البيازنة لم يسعوا إلى مسالمة السلطات الجديدة بعد أن أدركوا الطابع النهائى لأحداث مصر.

كانت هذه القضية صعبة فى أول الأمر حيث أنهم كانوا قد قاموا بمساعدة الفاطميين والفرنجة وقت تحالفهم آنذاك ضد صلاح الدين. ومع هذا فقد تم لهم ذلك فى عام ١١٧٧ (٢٦)، وتثبت العقود البندقية حصول الشىء نفسه بالنسبة للبنادقة بدون أن نعرف التفاصيل. وبالتأكيد لم يكن من قبيل المصادفة أن يستشهد المخزومى فى الأمثلة التى يقدمها عن التجار الأجانب فى مصر بأسماء التجار الجنويين والبنادقة ولا يستشهد بأسماء البيازنة. إلا أن هذه الوضعية لم يكتب لها الدوام. وكان من شأن تنظيم أعمال التجارة أن تساهم فى انضواء مسيحيى مصر تحت سياسة صلاح الدين. لقد كان التجار الإيطاليون بوجه عام يُدِلّون على بضائعهم حتى فى ميناء الإفراغ ذاته وذلك فى ارتباط مع الإدارة المحلية وقد أعطيت لهم بعض الحريات فى التنقل لاسيما من أجل مشترياتهم. ومن ثم كانت مهمة توزيع البضائع تقع على عاتق السكان المحليين وبالخصوص الأقباط المسيحيين الذين لم يسعهم إلا الاستفادة من الإجراءات التى قام بها صلاح الدين لتقييد تنقل الأجانب. وكان اليهود من جانبهم قد حصلوا من صلاح الدين على حق المشاركة كالأقباط فى عمليات إعادة توزيع المواشى على الأسواق(٢٧) ويبدو أن المسلمين كانوا قد طردوهم إلى المحيط الهندى فى هذه الفترة (٢٨). وسنرى أن علاقاتهم مع صلاح الدين ستكون فى المستوى نفسه من التحسن مثلما كان عليه الحال أيام الفاطميين.

أما فيما يتعلق بالنورمانديين فلم يكن يظهرون إلا على ظهر الأساطيل الحربية داخل السواحل المصرية فى بعض الأحيان وبعد ذلك بفترة قصيرة سيظهرون على سواحل سوريا، ولم تعد المسألة بالنسبة إليهم تتعلق بالتجارة بل كانت تتعلق فى أفضل الأحوال بكسب الهيبة والنفوذ تجاه غيرهم وذلك بوصفهم مدافعين عن الشرق اللاتينى (٢٩). ولو لم يَحُل الموت بين وليام الثانى ثم خليفة هنرى الرابع وبين المشاركة فى الحملة الصليبية لربما كانا قد واصلا انتهاج السياسة النورماندية بجلاء حتى فترة فريدريك الثانى. فى تلك الأونة ظهر مُدافِع آخر عن الشرق اللاتينى فى شخص مانويل كومنين. وقد تبين منذ ذلك الحين أن العمليات الأساسية ضد المسلمين لابد أن تكون موجهة نحو مصر. ولم تؤثر القطيعة مع التجار

الإيطاليين على العلاقات الجيدة مع اللاتين الآخرين التابعين للإمبراطورية ولا مع مملكة القدس، وكان لابد لهذه الأخيرة أن تتوافر على أسطول لمهاجمة مصر، ويمكن أن نتفهم بيسر صعوبة تقديم هذا الطلب إلى الإيطاليين الذين كانوا علاوة على ذلك يملكون قليلاً من السفن الحربية فوهب مانويل أسطوله (٣٠). لكن كما رأينا آنفًا لقد غرق كل شيء في يوم واحد في معركة ميريو كيفالون (عام ١١٧٦) (٣١). وبعد موت مانويل حالت السياسة العامة لخلفائه والتي كانت مناهضة للاتين دون استئناف مثل هذه المشروعات.

لكن ماذا جرى ؟ لقد كان قلج أرسلان قد ارتضى سياسة الانفراج مع بيزنطة نظرًا لما كانت تتطلبه مراقبة الحدود الجنوبية من احتراس إزاء القوة المتعاظمة لنور الدين الذي ساند آخر القادة الدانشمنديين ضده، إلا أن نور الدين توفي عام ١١٧٤ فتفككت ولاياته (قبل أن يعاد فتحها وتوحيدها من قبل صلاح الدين). ومنذ تلك الفترة لم يعد قلج أرسلان يتخذ أية تدابير احتياطية. وقد فضل مانويل كومنين أخذ المبادرة، فجهز جيشًا ضخمًا لاجتياح الأراضي السلجوقية، غير أنه أثناء الاستعرض العسكري بميريو كيفالون أُخذ على حين غرة فأبيد جيشه (عام ١١٧٦) ومع أن السلطان التركي لم يشتط في انتصاره فإن النتائج بالنسبة لبيزنطة كانت وخيمة. فمن جانب كانت الكارثة تعني انقطاعًا تامًا للرجاء في إعادة غزو الأناضول الذي أتم قلج أرسلان توحيده لصالحه، وسيصل التركمان عما قريب البحر المواجه لجزيرة رودس قاطعين استمرارية الساحل الذي ظل حتى تلك الفترة ساحلاً بيزنطيًا (٣٢). وكان من شأن هذا الوضع وسقوط هيبة الامبراطور أن ساعدا على ظهور الاتجاهات الاستقلالية للأرمن في قيليقية (٣٣) وأن تسترجع إمارة أنطاكية استقلالها كاملاً (٣٤)، ومن الجانب الآخر كانوا يدقون ناقوس الخطر تجاه كل ما ينهجه مانويل من سياسة مع مملكة بيت المقدس لفائدة صلاح الدين. وقد أتاح ذلك أيضًا للقسطنطينية وللاتجاه المناهض للاتين أن يستجمعا قوتهما، فبعد وفاة مانويل أمر شقيقه وخليفته أندرونيك أو لعله سمح بتقتيل اللاتين المقيمين بالعاصمة في عام ١١٨٢.

وقد استمرت هذه السياسة بعد عام ١١٨٥ في ظل الأسرة الحاكمة الجديدة وهي أسرة الأنجيين. ولم يمنع هذا من استئناف النشاط التجاري مع إيطاليا نوعًا ما لكن في ظروف أقل استقراراً مما كان عليه الوضع قبل عام ١١٧١، ولم تكن أسر المقتولين تميل للعفو، كما ظهر التغيير واضحًا كذلك في السياسة الخارجية. ولم يعد هناك مجال لاستئناف مشاريع مانويل الضخمة لكن كان هناك ما هو أكبر منها. فقد أدرك صلاح الدين أنه بمقدوره أن يجعل من

الأباطرة المعادين للاتين حلفاء له توقيًا لما قد يرسله الغربيون من مساعدات لأشقائهم بالشرق. ومع ذلك فإن المشكلة كانت تتمثل في كون أن جزيرة قبرص كانت محتلة من قبل أحد المتمردين البيزنطيين، ومع أننا لا نكاد نعرف شيئًا عن تاريخ هذه الجزيرة العظمى في القرن الثاني عشر فإن من البديهي أن ما جرى بها كان لابد أن يثير اهتمام كل من الفرنجة وصلاح الدين. لقد اتخذ هذا الأمير الأخير وسيلة للمحافظة على العلاقات الجيدة التي كانت تربطه في ذلك الوقت مع الأنجيين ومع متمرد قبرص (٣٥). غير أن لدينا الانطباع كذلك بأن قبرص قد عرفت آنذاك بداية التغلغل الفرنجي أو على الأقل جماعات الداوية (٣٦).

ففي زمن صلاح الدين حدثت من الجانب الفرنجي حملة البحر الأحمر التي أذهلت خيال الناس وهي من تنظيم رينو الشاتيوني الذي كان آنذاك سيدًا إقطاعيًا على الكرك في شرق الأردن باتجاه الأماكن الإسلامية المقدسة. وكان يحلو للبعض أن يرى في هذه الحملة تجسيدًا للرغبة في منازعة المصريين واليمنيين احتكار التجارة بالبحر الأحمر، وهذا منحى بعيد في التأويل، إذ لا يمكن أن نتوقع من رينو الذي بدأ مسيرته في الشرق بالقيام بعملية سطو ضد القبرصيين الذين لم يفعلوا له شيئًا يبرر ذلك، إلا أن يقوم بعملية نهب جديدة تكون أكثر تهورًا (٣٧). وقد انتهت بإعدام كل المشاركين في هذه العملية وقام صلاح الدين نفسه بقتل رينو حينما وقع في يده. وفي هذه الفترة أيضًا – وهي فترة معلمهم الأكبر سنان – تدخل الحشاشون بشكل أكثر حدة في صراعات الأحزاب، سواء من جانب الفرنجة أو من جانب المسلمين (محاولة اغتيال صلاح الدين. اغتيال كونراد المونفيراتي.. إلخ) (٣٨). في هذا السياق حدثت معركة حطين (٣٩) في خريف ١١٨٧ وفيها تم انتصار صلاح الدين وهزيمة الفرنجة. لقد سمحت هذه المعركة لصلاح الدين باحتلال القدس، وبانتهازه لاضطراب الفرنجة وتشتت شملهم ونقص عددهم تم له في بضعة أسابيع احتلال أغلب قلاعهم الكبيرة من الداخل وحتى الموانئ مما جعله يقطع استمرارية خطوطهم الساحلية. وثمة بعض الشك في أن تكون الانقسامات داخل المعسكر الفرنجي قد ساعدت على حدوث الكارثة وتعاظم نتائجها (٤٠). ويظهر تاريخ القرن اللاحق أن الفرنجة ظلوا قادرين على المقاومة على الساحل وأنهم مارسوا به نشاطًا كبيرًا. ومع ذلك فإن ميزان القوى ولا ريب جعل من المستحيل بالنسبة إليهم منذ تلك الفترة أن يحافظوا على المملكة والإمارات الأخرى في الظروف السابقة نفسها. آنذاك أعاد صلاح الدين تعمير القدس وسمح للمسيحيين ذوي الطقوس اليونانية واليهود بالإقامة بها.

كان من المتعذر على الحكام المسلمين ألا يجيبوا بتهانٍ حارة على رسائل الانتصارات التي بعث بها صلاح الدين إليهم، ولم يشذ الخليفة عن هذه القاعدة. ومع ذلك فمن السهل أن

نقرأ بين السطور أن تعاظم قوة صلاح الدين والهيبة التى أكسبته إياها انتصاراته لم تحصل على كامل رضاهم (٤٢).

* * *

كانت الأخبار المتصلة بما يحدث فى الغرب تصل إلى فرنجة الشرق عن طريق الحجاج والتجار وهكذا أدركوا تدريجيًا أن طلب المساعدات لا يجب أن يوجه إلى كبار الإقطاعيين وإنما إلى الملوك، كالإمبراطور فريدريك باربارس آنذاك، وملك فرنسا (٤٣) وملك إنجلترا وإن لم يكن قد شوهد بعد فى عام ١١٤٨ وكذلك البابوات. لكن باستثناء ألكسندر الثالث، فقد شاء القدر أن يجدوا أنفسهم فى تعامل مع بابوات كان لهم قدر ضئيل من التميز، ونظرًا لانتخابهم فى سن متقدمة فقد كانت رئاستهم قصيرة الأمد. وفضلاً عن ذلك كانوا على استعداد لترك المبادرة للحكام وتسليمهم قيادة المعارك، وقد حال انشغالهم الشديد بالسياسة الإيطالية، على الرغم من الذكرى البعيدة لأوربان الثانى، دون أن يولوا اهتمامًا حقيقيًا بالشرق اللاتينى. وكان إينو سنت الثالث الحاكم الوحيد الذى كان له موقف مغاير فى السنوات الأخيرة من القرن.

ويرغم أن ملوك فرنسا وإنجلترا قد أرسلوا بعض المساعدات المالية إلى الشرق فإننا لا نراهم آنذاك قد انتهجوا سياسة ما تجاه بيزنطة كما لم يتوصل الأمراء المسلمون لمثل هذه السياسة كذلك. أما بالنسبة لباربارس الذى تعرف على بيزنطة أثناء مسيرته فالأمر يختلف ولا شك بعض الشىء. فقد أرسل سفارات إلى قلج أرسلان الثانى السلجوقى بآسيا الصغرى وإلى صلاح الدين وللأسف لا نعرف موضوعها (٤٤). ونعلم أنه فى نهاية حكمه كان يستعد للحصول على إرث النورمانديين فى صقلية لابنه هنرى وبذلك وضع حدًا لخلاف طويل. بيد أن هذا الموقف لم يقربه من بيزنطة حسبما سيظهر فى الحملة الصليبية الثالثة.

لابد أنه لم يستقبل بحفاوة وترحيب فى القسطنطينية، وإذا لم يكن قد حظى فى آسيا الصغرى باستقبال أفضل فإن ذلك لم يكن بسبب قلج أرسلان بل لنزاعات كانت قد ظهرت بين السلطان العجوز وأحد أبنائه المدعوم من طرف التركمان (٤٥). وكان قلج أرسلان دائمًا على علاقة سيئة مع صلاح الدين الذى كان منافسًا له على حدود جبال الطوروس ولم تكن حملة فريدريك الصليبية لتزعجه فى شىء.

لن نروى قصة الحملة الصليبية الثالثة وحسبنا أن نذكر بعض الوقائع منها. كانت الإسعافات الأولى للفرنجة قد أرسلت عن طريق أسطول نورماندى وبواسطة كونراد المونفيراتى وفى كلتا الحالتين لا نعرف شيئًا عن أسبابها. لقد مات باربارس فى قيليقية (٤٦)،

ولم يعد الألمان فى اضطرابهم وحيرتهم يلعبون دوراً كبيراً. وكان ريشار قلب الأسد وفيليب أوجست قد وضعا حدًا لخلافاتهما فى الظاهر. وجاء ريشار على أسطول تابع لمدينة بيزا بينما لجأ فيليب إلى الجنويين (٤٧). وفى الطريق انتزع ريشار قبرص بدون اكتراث من بيزنطة(٤٨) وأعطاها أولاً إلى جماعات الداوية الذين كانت لهم بالتأكيد من قبل مصالح فى الجزيرة لكن نظرًا لعدم كفاية قواتهم العسكرية فقد نقلها ريشار إلى مقطعيه اللوزينين بأوروبا الذين كانوا يقيمون فى مملكة بيت المقدس غير أنهم كانوا يتعرضون للانتقاد.

وظلت الجزيرة طوال قرن من الزمان بمثابة ملجأ ومورد لبعض المصادر الإضافية بالنسبة للشرق اللاتينى كما كانت تستهوى كذلك اهتمام البارونات.

وقد سجلت الحملة الصليبية الثالثة تحولاً حاسمًا فى تاريخ التجار الإيطاليين بالشرق الأدنى، فبقطعها لكل العلاقات التجارية مع مصر، جذبت انتباههم إلى ضرورة القيام بأنشطة بديلة وإلى أهمية الأماكن الآمنة بالشرق اللاتينى. ومن جانب آخر كان الصليبيون فى حاجة إليهم لنقل الجنود والحصول على إمداداتهم. ومن غير أن يتقدموا بطلب فى هذا الشأن تقريبًا، منحهم أمراء الشرق امتيازات مهمة لم يكن يحصلوا على ما يماثلها فى مصر أبدًا، وذلك سعيًا لربط التجار الإيطاليين بهم. فإلى جانب إعفائهم من تسديد الرسوم الجمركية تم توسيع الأراضى التى حصلوا عليها بواسطة الامتيازات كما حصلوا على استقلال إدارى تام جعل من هذه البلدات التجارية ما يعادل الإقطاعات المدنية والدينية. منذ ذلك الحين نزعت تجارة الشرق إلى التوجه أكثر نحو الموانئ السورية مع محافظتها على طبيعتها وبدون أن تهجر مع ذلك مصر (٤٩).

ومع ذلك فقد تعقد هذا التطور نظرًا للمنافسات الداخلية. وسنلاحظ الغياب النسبى للبنادقة. والحق أنهم كانوا راسخى الجذور فى صور منذ عام ١١٢٣. وفى تلك الفترة أمكن للجنوية والبيازنة منافستهم غير أنهم كانوا فى خصام مع بعض. وكان الصراع على العرش الملكى يدور فى المملكة بين كونراد المونفيراتى وأسرة اللوزينين ثم مع هنرى الشامبانيى وقد انحاز الجنوية إلى كونراد وملك فرنسا بينما انحاز البيازنة إلى اللوزينين وملك إنجلترا (٥٠).

من جهة أظهرت العمليات الحربية الشاقة التى جرت حول عكا (٥١) أن الغرب لا يمكنه أن يتغلب على صلاح الدين، حتى لو تمكن من جمع كل الوسائل على بعد مسافة مماثلة وأن صلاح الدين لا يمكنه أن يتغلب على الغرب. لقد حاول التصالح مع الموحدين (٥٢) من أجل

الحصول على مساعدة أسطولهم ليعترضوا سبيل قوافل الصليبين غير أن الموحدين كانوا ذوى اهتمام ضئيل بما يحدث فى الجهة الأخرى من البحر المتوسط، إذ كان عليهم مراقبة مسيحيى أسبانيًا الذين كانوا أكثر تهديدًا بالنسبة إليهم فضلاً عن أنهم لم يشعروا بأى نوع من الولاء نحو خلافة بغداد التى كان صلاح الدين ينتسب إليها. لقد حصل صلاح الدين على مؤازرة من هم أقرب إليه من صغار أمراء بلاد ما بين النهرين الذين لم يكن يملكون أن يفعلوا شيئًا آخر غير ذلك من الناحية الأخلاقية أو المادية إلا أن رغبتهم فى عدم العمل من أجل مجده وقوته ظلت قائمة، وأمام هذه العمليات الحربية الطويلة كانوا ينتهزون كل ما يتاح لهم من فرص كى يطلبوا منه إعانات مالية إضافية أو الحق فى الانسحاب.

ومن جهة الصليبيين استؤنفت النزاعات بين الملوك ومات فيليب ولم يجد ريشار بُدًا من توقيع معاهدة سلام ترك بموجبها للفرنجة مدينة عكا وليس القدس. أضف إلى ذلك أن صلاح الدين قد مات بعد ذلك بقليل. وتمكن الفرنجة من انتهاز فرصة النزاعات القائمة بين أولاده وعمهم العادل لاستعادة السيطرة والتمكن فى معظم الساحل الفلسطينى واللبنانى. غير أنه بقيت حول اللاذقية أرض إسلامية مطوقة تعذر إخضاعها، فجعلت إمارة أنطاكية وجيرانها الأرمن القيليقيين فى موقع الحياد. وتراجع فرنجة المناطق الخلفية إلى عكا والساحل فحلت مملكة عكا محل مملكة بيت المقدس وقد كلف الصراع كلا الجانبين ثمنًا باهظًا وتلقوا درسًا لا يُنسى ينسى.

لقد لاحظنا سابقًا أن الخلافة كانت غير مهتمة عمليًا بالصراع الدائر ضد الفرنجة وهو أمر يدعو إلى الدهشة. وكون أنه لم يكن بوسعها طوال النصف الأول من القرن الثانى عشر إلا إرسال إرشادات ورعة على فترات طويلة عندما كان يشتد طلب الاستنجاد بها فهو أمر ليس فيه بعد ما يدهش؛ فقد كانت مشغولة بما يكفى من الصراعات الداخلية بين حُماتها السلاجقة ولم يكن لديها الجنود ولا الموارد المالية للتخلص منهم، ونظرًا لضعف همة السلاطين لفترة من الوقت فقد عمت الفوضى دولهم. وكل ما كان فى وسعهم هو المساعدة على تأسيس سلطات سورية – جزيرية مستقلة قادرة بنفسها على أن تحارب فعليًا. ولقد رأينا كذلك أن اهتمام زنكى الملح بشؤون بلاد ما بين النهرين – العراقية كان مبعثًا للحرج والضيق بالنسبة له. لكن منذ النصف الثانى من القرن كانت الخلافة قد تحررت فصارت تحكم بصورة فعلية العراق ثم مقاطعات أخرى متاخمة واعترف لها أهل السنة جميعهم بهيبتها من جديد إن لم نقل سلطتها واتخذت لها جيشًا حقيقيًا وتنظيمًا ماليًا. وكون أن خليفة مثل الناصر (٥٣) وهو شخصية

مرموقة وكان جاداً فى البحث عن كل ما يمكن أن يعلى من مكانته، نجده لا يكاد يفعل شيئًا فى مثل هذه الأوضاع ومبثطًا عزيمة صلاح الدين بإجاباته الفاترة على النداءات التى كان يرسلها إليه فهو أمر يستحق أن نجد تفسيراً له. من المؤكد أن الصراع ضد الفرنجة لم يكن يدر شيئًا على الخلافة من الناحية المادية، وكان خوض هذا الصراع من قبل الأمراء المستقلين كفيل بالإسهام فى مجدهم وقوتهم دون أن يكون فى ذلك نفع للخلافة. فالأحداث الخطيرة التى كانت إيران مسرحًا لها والانعكاسات التى كانت تخلقها غالبًا فى العراق كانت لابد أن تسترعى اهتمام الخليفة فى المقام الأول. أضف إلى ذلك أنه نظراً للوصاية السلجوقية التى كانت ماتزال حية فى الأذهان فقد كانت لديه حساسية خاصة إزاء تعاظم أمر الأمراء المجاورين التى لم تكن حدود بلادهم أو مناطق نفوذهم المجاورة لبلاده واضحة التحديد كما كان يشتبه فى مدى إخلاصهم سواء كان ذلك عن صواب أو خطأ. يبقى أن أيديولوجية الجهاد كانت بالتأكيد تشغل فى فكره وسياسته حيزاً أقل بكثير من الجهد الذى بذله لإعادة تأسيس وحدة الاتجاهات الروحية والاجتماعية للإسلام حول الخلافة. كما تفرغ الأمراء أيضًا لهذا الأمر فهو شرط للانتصار على الفرنجة. أما بالنسبة للناصر فلم يكن هناك مجال لربط هذين الاتجاهين، فكان يعتد فقط بالتصحيح المُوَحَّد.



الفصل الثانى عشر

مؤسسات الشرق اللاتينى

قصدنا أن نقوم بدراسة مفصلة عن مؤسسات الشرق اللاتينى التى صدرت بشأنها أعمال مهمة منذ نصف قرن وأخرى لاتزال فى طور النشر. غير أنه من الضرورى أن نحاول وضعها فى مكانها والتدقيق فى البعض منها، وأعنى بوضعها فى مكانها أن نرى كيف اندمجت فى التاريخ المؤسساتى الغربى والشرقى وفى أى شىء تأثرت بظروف الوجود الخاصة بالشرق اللاتينى، وأما تقديم بعض هذه المؤسسات فالمقصود به تلك التى توضح بشكل أفضل اندماج الشرق اللاتينى مع تقاليد السكان المُوَازين له.

إن الأهمية التى نوليها لدراسة هذه المؤسسات تتجاوز الشرق الأدنى بالمعنى المحدود للكلمة حيث أننا لا نجدها فقط فى قبرص، وإن كان ذلك فى سياق مختلف، بل أيضاً فى «رومانيا» أى فى المناطق اليونانية التى ظلت فى القرن الرابع عشر تحت السيطرة اللاتينية. ومع ذلك كانت أهميتها محدودة بالنسبة للغرب لأن فرنجة الشرق الذين عادوا إليه كان عددهم قليلاً ولا يلاحظ أنهم قد حملوا معهم الخصائص الجوهرية للقانون الفرنجى الذى كان سائداً بالشرق.

ومن البديهى أن مؤسسات الشرق اللاتينى كانت تجمع بين مساهمات غربية ذات ملامح سورية شرقية فى جوهرها وبين تجديدات من وحى الضرورات الآنية.

لابد أن نميز بشأن المساهمات الغربية بين المناطق والفترات والشرائح الاجتماعية. فنحن لا نعرف ما إذ كانت الإمارة النورماندية أكثر اجتذاباً للنورمانديين بشكل خاص وإمارة طرابلس أكثر اجتذاباً للانجودوكيين.. إلخ. ويبدو أن ثمة احتمالا ضئيلاً ألا يكون قد حدث الامتزاج بين الأجناس ولاسيما فى المملكة التى كانت تجتذب بالتأكيد أغلب المهاجرين. أما الشرائح الاجتماعية فكانت مكونة من السادة الإقطاعيين الصغار والكبار والتجار وعامة الناس بالمدن وأحياناً بالريف. وفيما يخص المناطق كان الأمر يتعلق بنورماندى إيطاليا وفرنسيى الجنوب والإيطاليين. وقد جاء كل هؤلاء الناس من بلاد إقطاعية تقريباً فحملوا معهم إلى الشرق أعرافاً وتصورات ذات نمط إقطاعى. ومع ذلك فإن الأمر يستدعى التذكير ببعض الاختلافات، فالتصور النورماندى لمناطق نفوذ صغيرة بقدر كاف وتابعة للأمير مباشرة كان هو السائد فى أنطاكية فى حين كان التصور الفرنسى لوحدات كبرى وسيطة هو السائد بالقدس. وقد قبلت إمارة أنطاكية ذلك على مضض نظراً لضيق مساحتها. وكان للإقطاعات الأرمنية بإمارة الرها وقيليقية وضعية قانونية أقل تحديداً بينما كانت مملكة بيت المقدس وهى أكبر دول الشرق اللاتينى بحجم كونتية كبيرة أو دوقية فى فرنسا ومن ثم لا يمكن أن تقارن إلا

بكونتيات أو دوقيات فى الغرب وليس بمملكة فرنسا أو الإمبراطورية. وكان أغلب السادة الإقطاعيين بالشرق اللاتينى الذين سيحصلون على إقطاعات كبيرة بقدر كاف، من أسر متواضعة ونتيجة لذلك لم يكونوا ينتمون إلى وسط كبار الإقطاعيين الذين استقلوا بذواتهم طواعية واختياراً، بل على العكس كانوا من أولئك الذين ظل الإحساس بالوفاء والاخلاص قوياً فى نفوسهم. وعلى أية حال فإن الإقطاع الذى تم جلبه بهذا الشكل لم يوجد إلا على مستوى أعلى وهو مستوى الغزاة الذين حافظوا على تقاليدهم الخاصة بهم.

ويتم التمييز داخل المجتمع الناجم عن الغزو – سواء أكان فرنجياً أو عربياً أو تركياً كما كان الأمر سابقًا – بين الأرستقراطية الحاكمة والسكان المحكومين. وقد حافظت الأسر الأرستقراطية على بقائها ولو أنها فى بعض النواحى كانت تندمج فى المجتمع المحلى. لقد كان الفرنجة القادمون من الغرب ينقسمون اجتماعياً إلى مجموعتين : مجموعة أرستقراطية إقطاعية منحدرة من أسر متواضعة فى الغالب غير أن وضعها الجديد كان يزيد من سلطتها؛ ومجموعة متكونة من عناصر حضرية أو ريفية قادتها الظروف للتجمع داخل المدن. وقد ظلت الأرستقراطية الإقطاعية متميزة عن السكان المحليين حتى النهاية ولو أنه بإمكاننا أن نستشهد ببعض حالات الزواج المختلط أو الترقية الفردية. ومن المرجح أن التداخل الاجتماعى داخل المدن كان أقوى. أما سكان الريف فقد ظلوا محليين ولم يختلطوا مع غيرهم رغم وجود بعض الحالات المحدودة جداً للاستيطان اللاتينى.

وكان على رأس دول الشرق اللاتينى الأربع، التى ستقلص بعد فترة إلى ثلاث، ملكًا أو أميراً أو كونتًا وكان ما ينتظر منهم، على نحو خاص، أن يكونوا قواداً عسكريين، وهو ما سيكون حائلاً دون تولى النساء. ومن ثم كان الموت المبكر لعديد منهم يستلزم التعجيل بتزويجهم بالوراثات الشابات إن وجدن. وبما أن البارونات كانوا يستثنون من الاختيار آباء المتوفين الذين لا يوجدون بالشرق فقد وجدوا أنفسهم فى حالات عديدة، يختارون شخصيات أجنبية عن الأسرة الحاكمة، لكن لم يكن ذلك فيما يبدو يمثل مشكلة ولا يقود إلى أية قطيعة مع «تقاليد» البلد.

بل وسنشهد فى نهاية القرن الثانى عشر، تسليم إمارة طرابلس إلى أمير أنطاكى من سلالة نورماندية أى إلى اتحاد شخصى لدولتين. ولا نلاحظ بالنسبة لهؤلاء أن هذه الظروف قد أثارت نوعًا من التساهل فى سلطة الأمير. وسيكون الأمر على خلاف ذلك فى مملكة بيت المقدس حيث اتحدت مشاكل الخلافة مع الصراعات العشائرية والتأثيرات الخارجية وسلطة

بعض كبار الإقطاعيين (ومع ذلك فقد صمدت فى نهاية القرن الثالث عشر ملكية قوية بقبرص).

ووفقًا للصورة التقليدية فإن مملكة بيت المقدس الصليبية ربما عرفت فى القرن الثانى عشر ملكية قوية أدت فى القرن الثالث عشر إلى ترسيخ الإقطاعية خارج الأوساط الحضرية، ولعل المملكة المقدسية ذاتها قد عززت سلطتها فى ظل بدوان الثالث وعمورى الأول ولاسيما بفضل «قوانين التبعية الإقطاعية»، التى جعلت من كل السادة الإقطاعيين للمملكه تابعين مباشرة للملك. وقد تمت الإشارة حديثًا إلى أن هذا الأمر كان يمثل سلاحًا ذا حدين. فمن المؤكد أن الإقطاع الذى كان هشًا فى بداية القرن، حيث أدت خسائر الحرب إلى نقل مستمر لمناطق النفوذ، قد تدعم تدريجيًا من خلال تأسيس بعض كبريات الإقطاعات المستقرة التى انبثقت منها السلطة الجديدة للأبليين. من الصعب أن نؤكد إذا كان فقدان الأراضى قد أضر بالملكية أكثر من إضراره بالإقطاع، كما يصعب كذلك أن نتبين إلى أى حد كان التدهور السياسى فى المملكة تدهورًا ظرفيًا أم أصليًا إذ لم يكن له نظير فى أى من الدويلات الثلاث.

وكان الأمير والسادة الإقطاعيون يحكمون ويعدلون عن طريق محكمتهم الصغرى ذات النمط الغربى. وكان الاحتفال الرسمى المتواضع الذى يقام للملك أثناء تنصيبه يتضمن بعض الملامح المأخوذة من التقاليد البيزنطية (ربما كان من المتعذر أن تكون مأخوذة من الإسلام). وفى مجال الإدارة المحلية حافظ الفرنجة تقريبًا على التنظيمات وبالأخص التنظيمات المالية التى كانوا يطلقون عليها الاسم اليونانى «سيكريتون» والعربى «الديوان» وذلك حسب الحالات والمناطق. وكان المحليون يشغلون بالضرورة الوظائف الثانوية، والمرجح أنهم كانوا كلهم تقريبًا من المسيحيين بيد أننا لا نرى أحدًا منهم قد تقلد إحدى المناصب الرفيعة (على النقيض مما حدث فى صقلية). وكان للمحكمة الكبرى للبارونات ومحكمة البورجوازيين أدوار قضائية بشكل أساسى لكن كان فى وسعها كذلك أن تعقد جلساتها لأسباب سياسية فى المناسبات الاستثنائية .

ثمة اختلاف أساسى يميز مبدئيًا بين السيد الإقطاعى اللاتينى الغربى والسيد الإقطاعى الشرقى. فيما يتعلق بالأول، وباستثناء ما يتصل بالقانون الكنسى، فإن كل الإدارة الخاصة بميدانه كانت تأتمر بأوامره بما فيها العدالة على نحو خاص ولو كان «العرف» موجودًا قبلها. بينما كان الثانى يهتم بالتأكيد بشؤون إدارة أراضيه ولاسيما من الناحية المالية، لكن العدالة بما أنها تطبيق للقوانين كانت من اختصاص القاضى الذى يعين بالتأكيد

من قبل الإقطاعى الشرقى غير أن هذا القاضى كان يتصرف بصورة مستقلة. والحق أنه ليس مؤكدًا أن الفرصة قد سنحت حقًا لجماهير الشعب فى الشرق اللاتينى لملاحظة هذا الفرق. ولا يعرف السيد الإقطاعى الفرنجي. الفرق بين العرف والقانون إلا فيما يخص حفنة من مواطنيه. وقد ميزت القوانين المنظمة للعلاقات بين الطوائف بين أمور خاضعة للقانون العام وأمور خاضعة للقانون الخاص بكل طائفة وتخضع هذه الأخيرة، فى الواقع، لسيطرة رجال الدين بكل كنيسة. وليس هناك ما يدعو إلى التفكير بأن الفرنجة لم يحافظوا على هذا التقليد علاوة على أنهم كانوا يعرفونه فى الغرب بشأن اليهود. وصحيح أنهم قد ألغوا بشكل عام وظيفة القاضى الإسلامى لكن أغلب الظن أن المسلمين قد استمروا فى تطبيق قوانينهم الخاصة مع الوجهاء المحليين فيما يخص شؤونهم الداخلية. ومن ثم فقد بدا أن رعايا الشرق اللاتينى لم يلاحظوا بالضرورة فى حياتهم اليومية تغيرًا كبيرًا فى هذا الصدد. وسنرى أن الأمر سيكون كذلك فيما يخص التنظيم الاقتصادى والاجتماعى بالنسبة لجموع القرويين.

لقد جاءت الأرستقراطية الإقطاعية الفرنجية حاملة معها التقاليد الإقطاعية كما بالغرب. ولا يعنى هذا أن الانتقال إلى الشرق قد طرح مشاكل خطيرة بما أن كل شىء كان يحدث دائمًا داخل المجموعة الاجتماعية نفسها . وكل ما فى الأمر أن حالة الحرب النشطة أو المضمرة كانت تؤدى إلى التشديد على الإلزامات ذات الطابع العسكرى ولن نلح هنا على ذلك(٢). وكان المجتمع المحلى يمنح بالنسبة لاستيطان الحكام الجدد إطارًا لا يحتمل التعديل. وسواء كان الأمر يتعلق بمالكين ذوى شرعية تامة أو بمستفيديين من نظام الإقطاعات فقد كانوا يملكون مناطق نفوذ مطابقة بشكل عام لجماعة قروية حيث لم يكن يملك السادة الإقطاعيون الفرنجة إلا أن يخلفوهم دون تعديل للحدود ولا الهياكل التقليدية؛ فلعل طابع التضامن الجماعى المميز لهذه الطوائف كان حائلاً دون أى تقسيم لهذه المناطق أو إعادة توزيعها اللهم إلا بتمكين السكان المهاجرين الجدد من الإقامة وهو ما لم يتمكن منه الفرنجة تحديداً . وكان المستفيدون من الدخل يتغيرون لكن الدخل لم يكن يتغير إلى الحد الذى صار فى الإمكان أن يقتسم داخل بعض المقاطعات الحدودية بين أمير فرنجى وأمير مسلم بدون أن يطرح ذلك أية مشكلة(٣). وإذا نظرنا للأمور من وجهة نظر محلية فإن الغزو إذن لم يغير شيئًا يذكر بعد أن انتهت مرحلة العمليات العسكرية، بل لم يكن ثمة مجال فيما يبدو لإقامة تمييز عميق بين المقاطعات المسيحية والإسلامية. ربما كان هناك شعور بالتعصب إزاء الإسلام داخل المدن، غير أنه فى القرى التى لم يكن بها مسجد ولا كنيسة يمارس فيهما النشاط بشكل تام والتى لم يكن يعيش فيها أى

فرنجى فإن ممارسة العبادات المحلية استمرت بالضرورة بدون صدام. ونظراً لتواتر أسماء الأماكن الخربة أو الأراضى الرطبة. ونظراً لبعض عمليات التوطين (لقد تعلق الأمر بجلب الفلاحين الأرمن غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل لأن الأمير الأرمنى لقيليقية قد طلب لمواطنيه امتيازات تفوق امتيازات غيرهم من الفلاحين بالشرق اللاتينى وهو ما رفضه ملك القدس) فقد ساد الاعتقاد بأن الأرياف خالية من السكان بسبب حالة الحرب، وقد يكون هذا أمراً ممكناً غير أن هذه الحركة كانت قد بدأت أثناء الفوضى السابقة على مجىء الفرنجة، ومن جهة أخرى كان هناك فى الغالب، فى حالة التقنيات الزراعية التى تتم بلا سماد بل دون دورات زراعية متحققة الانتظام، مجال للتنازل عن أحد المواقع لجار آخر بدون أن يكون لذلك دلالة على الخسارة أو النقص. وقد تعود الفرنجة، فى هذا الشأن، على ممارسة لم يكن بوسعهم نقلها إلى الشرق إلا أنهم لم يسعوا لذلك. فقد وجدت فى الغرب مفردات(*) إقطاعية يقوم بزراعاتها فلاحون مسخرون، ولم تكن السخرة معمول بها إلا بالنسبة للأعمال الصغيرة الخاصة بالطرق القروية وذات المنفعة العامة(٥). ومن جهة أخرى فإنه مهما بلغت أهمية القصور بالنسبة للسادة الإقطاعيين الفرنجة فقد كانوا غالباً ما يقطنون فى المدن مثل أقرانهم الإيطاليين الأمر الذى كان يقلل فى أعينهم من قيمة المفردة القروية. ولاشك أن الفلاحين كانوا أقل هجرة وهروباً من سكان المدن الذين كانوا أقدر على الحصول بيسر على وظيفة.

ومن المعروف لدى الجميع فى القرن الثالث عشر أنه قد تمت كتابة المؤلفات القانونية التى تم تناقلها تحت العنوان العام «قوانين ملتقيات مملكة بيت المقدس». ومن المعروف أيضاً أنه كان يتم التمييز آنذاك بين نوعين من المنظمات الكبرى وهما محكمة البارونات ومحكمة البورجوازيين (وكان يديرها الفيكونت). ومن الممكن الاعتقاد أن محكمة البارونات قد أصبحت أكثر حجماً وأهمية بعد «قوانين التبعية الإقطاعية» التى جعلت من كل السادة الإقطاعيين رجالاً تابعين مباشرة للملك. وعلى أية حال أصبحت المنظمة الرئيسية فى فترات اختفاء الملكية، فى حين أن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لنا فى فهم تاريخ محكمة البورجوازيين. من البديهى جداً أن الفرنجة من غير النبلاء والمتجمعين فى المدن القريبة كانوا بحاجة إلى وضعية قانونية خاصة باستثناء السكان المحليين لكننا لا نستطيع أن ندرك ما إذا كانت هذه الوضعية ملازمة منذ البداية لوجود منظمة مستقلة(٦).

ولم يكن الغرب يقدم آنذاك أى نموذج لما سيسمى فيما بعد بمحافل الدولة فهى ابتكار

(*) المفردة : هى الأرض المحجوزة فى بعض البلدان للسكان المحليين. (المنهل) – المترجم.

للشرق اللاتينى أملته الظروف. وقد نجم عن هذه الخصوصية البورجوازية التى ترجع لفترة موغلة فى القدم أن المؤلفين العرب فى النصف الأول من القرن الثانى عشر لم يجدوا وسيلة أخرى لوصف البورجوازيين الفرنج إلا بالنقل الحرفى لكلمة «بورجوازى» ذاتها مع أنهم كانوا على علم داخل بلادهم بالسكان الحضريين المتنقلين والذين كانت لديهم كتائب يترأسها قائد يقوم بدور العمدة أمام الأمير الأجنبى.

ومن المرجح أن مناطق البنية الجديدة ودوائرها كانت غالبًا ما تتطابق فى الواقع مع مناطق الأنظمة السابقة ودوائرها مع مراعاة فارق نسبة الأراضى التى تحتفظ بها السلطة المركزية، لكن الوثائق السابقة على الحروب الصليبية تعتبر هزيلة جدًا بحيث لا تسمح لنا بإثبات أى شىء فى هذا الصدد. وبقدر تضاؤل الأرض وتعاظم الحاجات العسكرية أصبح من اللازم أن تضاف إلى الإقطاعات العقارية بالمناطق السهلة من البلاد المداخيل المالية الحضريه أو تستبدل بها، ففى الغرب ظهر كذلك هذا التصور المتعلق بالإقطاعات الإيجارية غير أن السمة الأكثر عمرانية لأراضى الشرق قد سمحت بتطوير هذا التصور ونحن نعلم أنه كان مستخدمًا فى دول الشرق تقليد تنازل العوائد حول المهن أو الضرائب الحضرية.

وتطورت فى الشرق اللاتينى «الإقطاعة التضامنية» بشكل أسرع وأشمل مما كان عليه الأمر فى الغرب. لقد قاد إليها التطور فى بلد عمرانى كانت فيه الأراضى القروية غير كافية كما كان الشأن دائمًا، وكانت تتضاءل كذلك بمقدار الاسترداد الإسلامى لأراضى الشرق اللاتينى فكان المستفيد آنذاك يتسلم مداخيل ورشة ما أو حرفة أو موقع تجارى.. إلخ. ولا حاجة البتة إلى تخيل تأثير الدول الإسلامية بالأطراف لإدراك هذا الأمر غير أن التقارب بشأنها لم يكن أقل وضوحًا مع هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى الظروف نفسها فمارسوا بالضرورة عادات مماثلة. وبغض النظر عن الطبقة العسكرية فإن الأعيان المدنيين كان بإمكانهم إيثار الحصول على الملكية أو حق الانتفاع من القرى أو مناطق النفوذ القروية، لكن تبين فى الغالب أنه كان من الأسهل منحهم عائد طاحونة أو فرن.. إلخ لفترة أقصر. وعلى أية حال فإن جباية الضرائب على المهن والتجارة كانت غالبًا ما تسلم من قبل الدولة فى شكل قبالة (ومن هنا جاءت الكلمة الفرنسية جابل) (*) وكان المستفيدون منها بالمزايدة يحصلون على أرباح قيمة(٧). لقد تم التساؤل أحيانًا عما إذا كان ثمة تأثير مارسته إقطاعات الشرق اللاتينى

(*) جابل : وتعنى ضريبة الملح. والامتياز التجارى الذى كانت الدولة بموجبه، فى النظام القديم، تفرض على كل شخص أن يشترى كمية محددة من الملح سنويًا (المترجم)

على تطور الإقطاع في سوريا المسلمة المجاورة. في الواقع كان ضباط الجيش الإسلامي يحصلون على رواتبهم كليًا أو جزئيًا من خلال امتيازات ضريبية أو أراضي تسمى إقطاعًا. وكانت هذه الامتيازات في الأصل مؤقتة وفقًا لرغبة المستفيدين الذين كانوا يطلبون تغييرها عند حدوث أقل انخفاض في المداخيل ووفقًا كذلك لرغبة الدولة وبذلك كانت تحتفظ بحقها في الرقابة كما كان الأمر كذلك في عهد السلاجقة الكبار مهما قيل في هذا الشأن. ومع ذلك فإن حكام المقاطعات أو الأقاليم أو صغار السادة الإقطاعيين (محليين كانوا أم لا) بالأماكن المحصنة كانوا أنفسهم يأملون البقاء في مناصبهم وتوريثها لمن بعدهم؛ فالأمر يتعلق بملكية عائلية حقة بالنسبة لهؤلاء الأخيرين وبرغبة الاستملاك بالنسبة للأولين. وكانت السلطة المركزية في لحظات قوتها تعارض هذا الأمر إلا أنها كانت تتنازل عندما تكون في حاجة لمساعدتها ضد منافسيها. وتشير أحد النصوص إلى أن نور الدين حينما أراد إثارة حمية جنوده في حملة ضد الفرنجة وعدهم بأن يرثوا إقطاعاتهم ونظرًا للتجاور مع الشرق اللاتيني وللتشابه الحاصل بين مساحات منطقة النفوذ والإقطاعة الصغيرتين وهياكلهما - وكان يتعيش من كل منهما فارسٌ - فقد تحدث البعض عن تأثير للأولى على الثانية. وتبدو هذه الفرضية عديمة الجدوى فالتطور كان متوازيًا علاوة على أنه كان محدودًا من الجانب الإسلامي؛ فعلى خلاف النظام الإقطاعي الغربي حيث كانت الوظيفة العسكرية وراثية فإن الشرق الإسلامي - حفاظًا منه على التمايز العرقي الذي يسم الجيش - كان يتحاشى نقل الخدمة العسكرية الإلزامية للأبناء وهم أكثر اندماجًا من آبائهم، وكانوا يفضلون أن يشغلوا وظائف مدنية كعامة الناس، وكانت صيانة الجيش مؤمنة بواسطة تجنيد إضافي للمرتزقة ولاسيما شراء أعداد أخرى من العبيد(٨).

ومهما بلغت علمانية النظام السياسي الذي أتينا على تحديده فإن أحدًا لم يشك في أن قداسة الأرض المستعادة قد تأثرت بإنشاء المؤسسات الدينية المكلفة بعدة أمور من ضمنها تأمين إدارة الأماكن المقدسة داخل فلسطين بطبيعة الحال وكذلك الشأن في بعض المناطق الأخرى مثل الجبل العجيب في شمال سوريا. وبالتأكيد كانت توجد هناك مؤسسات من هذا النوع تابعة للكنائس اليونانية والشرقية ولاسيما للأديرة الموجودة في سوريا المسلمة والبيزنطية على السواء وذلك منذ أمد بعيد قبل الحملة الصليبية. غير أن اللاتين لم يرغبوا في الاشتراك معهم فحسب بل أرادوا إبداء تفوقهم عليهم دون تنحيتهم. ففي البداية أقاموا بدون شك إلى جانب اليونانيين حيث كانوا يعتبرون أنفسهم منتمين إلى الكنيسة نفسها، وسرعان ما

تولد لديهم الحرص على إنشاء مؤسسات خاصة بهم، ولاشك أن النصف الأول من القرن الذى شهد ظهورهم كان يواكبه نشاط بنائى يؤكد التشابه الحاصل فى الأسلوب المعمارى مع بنايات الغرب، عبر تسلسلهما التاريخى على وجه التقريب. أما الأموال اللازمة لبناء هذه المنشآت فقد تيسر الحصول عليها فيما يبدو من خلال تبرعات المحسنين بالغرب وبدون صعوبات تذكر.

لقد تم تنظم هذه المؤسسات بأشكال مختلفة، فكنيسة قبر السيد المسيح، وهى الكنيسة المقدسة بامتياز، والتابعة لبطرياركية القدس، كانت تدار من خلال مجلس كهنة شرعيين سرعان ما وجد نفسه على رأس ثروات مالية مبعثرة فى كل أنحاء العالم المسيحى فكان لابد من ترحيل عوائدها إلى الشرق. ومع ذلك كانت أغلب الأديرة بندكتية وينبغى التشديد على هذا الأمر لأنه لا يستتبع وجود أى تنظيم مشترك آخر غير نوع من التبعية للكنيسة الدنيوية وممارسة نشاط لا علاقة له بالوعظ أو التبشير كما لا علاقة له بالتطور العسكرى الذى سيكون عليه فيما بعد أمر الأسبتارية فضلاً عن الداوية ولم تصل الأنظمة الجديدة التى ظهرت فى الغرب إبان هذه الفترة إلى الشرق اللاتينى إلا بعد فترة طويلة؛ فجماعة السيتيين(*) رغم ما قامت به من مهام لبعث الحملة الصليبية الثانية وربط العلاقات مع غير المؤمنين فى أوروبا الشرقية فإنها لم تدخل إلى الشرق إلا مع بداية القرن الثالث عشر بمبادرة من الأساقفة القادمين من أوروبا – وستكون مهمتهم قصيرة الأجل على إثر ظهور «جماعات الصدقة» ذات المنشأ الأوروبى المباشر(٩).

سنتحدث لاحقًا عن الدور العسكرى لجماعتين ظهرتا فى الربع الثانى من القرن الثانى عشر. على أن إحداها وهى جماعة الاسبتارية ظهرت فى شكلها الأولى غداة الغزو. ومن المعقول أن يستلزم تدفق الحجاج تجديداً كاملاً للمؤسسات الأسبتارية السابقة على الحملة الصليبية. وهنا أيضًا نجد أن تبرعات المؤمنين ومساعدات الأمراء سرعان ما أمدت الجماعات الدينية المتخصصة بالملكات والموارد التى جعلتها تمتلك نظامًا رهبانيًا خاصًا. ومن وجهة النظر الكنسية كان الحصول على الاستقلال شبه الكلى مع الارتباط الوحيد وغير المباشر للبابا أمرًا أساسيًا مثلما سيحدث كذلك فى حالة جماعة الداوية. ولا نعرف بوضوح كيف أُستُدرِجَ الإسبتارية إلى القيام بنشاط عسكرى أدى إلى حجب الدور الإحسانى عن الحياة السياسية والرأى العام وهو الدور الذى لم يتخلوا عنه قط داخل الشرق اللاتينى ولاشك أنه لم يكن حكرًا عليهم وبدون شك فإن هذا التطور يرجع فى منشئه إلى ضرورة ضمان أمن قوافل الحجاج، غير أن هذه فرضية لم يتم التأكد منها.

(*) السيتيون : نسبة إلى سيتو وهو دير بندكتى تأسس عام ١٠٩٨. (لاروس الصغير) – المترجم.

إننا لم نقل شيئًا تقريبًا عن رجال الدين العلمانيين وهم يماثلون من كانوا في الغرب المسيحى بكامله. وحسبنا أن نوضح أن خريطة المناطق الخاصة بالأسقفيات كانت مماثلة لخريطة الكنيسة اليونانية التقليدية. بما فيها بطرياركيتى أنطاكية والقدس التى لم يكن للغرب ما يناظرهما غير أنه لم يكن لهما إزاء روما الاستقلال شبه الكامل الذى كان لمن سبقهم من البطاركة اليونانيين الملكيين. فالملك كان حريصًا على أن تجرى له مراسيم التقديس من قبل بطريارك القدس الذى لم يكن يحصل منه على سلطة فعلية أقوى مما كان عليه الأمر مع بقية العالم الغربى المسيحى.

* * *

إن المعلومات المتعلقة بالسهل السورى اللبنانى قبل الحروب الصليبية هى معلومات ضئيلة. والوثائق اللاتينية هى أفضل مصدر لنا بشرط أن نعرف كيف نؤولها، وفى هذا شيء من المفارقة. كان يتم استغلال الضواحى الحضرية وواحات البساتين وربما أغلب البقاع اللبنانية الساحلية بواسطة تقسيمها إلى قطع صغيرة مُفَرَّدَة. وبما أن هذه المنطقة هى أفضل منطقة معروفة لدينا فإن هناك اتجاه إلى تصور هذا النمط من الاستغلال كما لو كان النمط السائد فى كل مكان تقريبًا(١٠). والحقيقة أن ما نعرفه عن سوريا فى مجموعها قلما يدع مجالاً للشك فى أن القسم الأكبر من هذه المناطق التى هى على شكل حقول مفتوحة لزراعة الحبوب والخضروات.. إلخ قد تمت زراعتها جماعيًا وأنها كانت تتكلف بدفع الضرائب والأقساط بشكل تضامنى ومتكافل . لاشك أن التفاصيل تكشف عن كثير من التنوع إذ كان لكل طائفة صغيرة نظامها التقليدى وهو ما سيكون عليه الأمر كذلك فى عهد المماليك. وكانت الزراعات متنوعة وإذا أمكننا افتراض أن الفرنجة ولاسيما الجماعات الدينية قد سعوا إلى تطوير بعض المنتجات التجارية (القصب والمزيوتات والكتان والخمر والقطن) فالحق أننا لا نعرف شيئًا عنها ولا بالأحرى كيف أمكنهم أن يسلكوا عرضيًا نحو هذه الغاية.

وكان على رأس الجماعة القروية رئيس لم يكن هناك ما يدعو الفرنجة للنيل منه. فهو من صغار النبلاء مكلف بالشؤون المحلية ومسؤول تجاه المالك أو السيد الإقطاعى لاسيما فى مجال الأداءات المالية وبهذه الصفة كان بوسع السيد الإقطاعى الفرنجى أن يشركه فى محكمته الصغرى(١١).

وكان تداخل المجموعات العرقية ومؤسساتها فى المدن أكثر تعقيدًا. وكان للسادة الإقطاعيين الفرنجة فى الغرب فيكونتات يمثلون سلطتهم لدى البورجوازيين وقد جلبوهم إلى

الشرق مع بعض الاختلافات الإقليمية فى الأسماء غير أننا نجد لديهم مؤسسات تحمل أسماء محلية ولاسيما تلك الخاصة «بالرئيس» و«المحتسب»(*). ويحلو للبعض النظر إليها بوصفها أجهزة فى مرتبة «أدنى» داخل الإدارة الفرنجية(١٢). فهذا تصور غامض إلى حد ما إذ كانت هذه الأجهزة تابعة بالطبع للمنظمات الفرنجية وقد أعطيت لها فى الهياكل الجديدة وظائف أقل رسمية لكن ينبغى أن نفهم جيداً أن الأمر يتعلق بمؤسسات كانت قائمة بموجب الواقع أو القانون قبل نشوء الحملة الصليبية وأن الفرنجة حافظوا على وجودها بأشكال مصغرة بعض الشىء.

قبل فترة الحملات الصليبية وأثناءها كان «الرئيس» فى سوريا وأعلى بلاد ما بين النهرين المسلمة عبارة عن قائد للسكان المدنيين وأحياناً لجيش شعبى بحيث يمثل الرأى الحضرى بل ويمثل شكلاً أولياً من التنظيم البلدى أمام الأمير (الذى كان فى الغالب أجنبياً)(١٣) وجيشه. وكانت هذه الوظيفة موجودة فى الواقع لكنها بخلاف وظيفة القاضى (وهو كذلك غالباً ما يكون من الأعيان المحليين) لم تكن تذكر إطلاقاً فى مصنفات القانون الإسلامى لعدم النص عليها فى الأصول الشرعية. لقد وجدت هذه الوظيفة كذلك لدى الطوائف المسيحية، ومن ثم لم تكن مقتصرة مطلقاً على المسلمين، وهذه السمة جعلت الفرنجة أكثر تقبلاً لها من وظيفة القاضى أو أى شخص آخر على صلة وثيقة بالسلطة السياسية والدينية للإسلام. ومن المستبعد أن يكون الفرنجة قد جعلوا من «الرئيس» قائداً ما لفرقة عسكرية، فقد كان الفرنجة وحدهم يحملون السلاح ويضمنون الأمن. بيد أن فى وسع «الرئيس» أن يحتفظ بمسؤولية تمثيل جماعته أمامهم كما كان فى وسعه أن يحتفظ تجاه أقرانه بممارسة القضاء على الصعيد الداخلى والمدنى.

ووفقاً للعقيدة السائدة التى تستند بصورة رئيسية على نص يوحنا الإبلينى والتى يوضحها نص آخر «لقوانين ملتقيات البورجوازيين» (١٤)، فإن «محكمة الرئيس» ربما كانت نظاماً بدائياً لعدالة ذات مستوى أدنى بين المحليين، وقد تم تنظيمها بناء على طلبهم غداة الغزو وانطلاقاً من أنظمتهم التقليدية. وبما أن محاكم «المدن» الجديدة، والخاصة بالطوائف المتعددة. قد أعطيت صلاحيات النظر فى الشؤون التجارية بالمعنى الأوسع للكلمة (بيع العقارات

(*) فى النص الفرنسى «المتحسب» و«المحتسب» وقد حذفنا الأولى لأنها لا تعنى وظيفة غير المحتسب، وربما سجلها المؤلف هكذا وفقاً لبعض اللهجات المحلية. ولا نملك تفسيراً دقيقاً لذكر المتحسب إلى جوار المحتسب. (المترجم)

والأملاك والديون، إلخ) فإن قاضى محكمة المدن ربما شغل عمليًا مكان «الرئيس» فى كل ما يتعلق بالشؤون المحلية السائده. فربما أندثرت محكمة «الرئيس». غير أن محكمة المدن لم تنظم إلا فى المراكز الكبرى للتجارة النشطة ويجب التدقيق حسبما يبدو فى هذه النظرية نظرًا إلى أن الرؤساء المحاطين ببعض المحلفين المساعدين قد حافظوا على بقائهم فى كافة الضيع التى لا تتوافر على محاكم المدن. صحيح أن عدد «الرؤساء» فى المدن الكبرى كان ضئيلاً جداً وفقًا لما يمكن أن نعثر عليه من إشارات فى الوثائق التاريخية. ويتعلق هذا العدد أساسًا بالفترات الأولى للشرق اللاتينى. ومع ذلك إذا تذكرنا أن الأمر يتعلق بشخص لا دخل له فى الوثائق اللاتينية، وهى الوثائق الوحيدة التى حفظت بشكل واسع، إلا لدوافع استثنائية، وإذا كنا من جانب آخر نرى أن أسماء «الرؤساء» ربما قد استبدلت داخل الأراضى اليونانية باسم القاضى وقد تثبت هذا الاسم كذلك (بالمعنى الشائع فى حوض البحر المتوسط وهو المعنى الذى يشير لرجل من الأعيان أو للقائد المحلى) أو اسم «نوميكوس» (أى قائد الحى، وربما كان هناك فى الواقع ثلاثة «رؤساء» فى طرابلس) فإن هذه الندرة غير مقنعة كثيرًا فيما يبدو. وعلى العكس من ذلك فإن من المؤكد أنه قد تم تبنى هذه المؤسسة فى قبرص باسمها العربى وحافظت على حيويتها حتى سقوط الهيمنة اللاتينية فى القرن السادس عشر. وحتى لو سلمنا بأنها قد شهدت هناك نموًا ذا خصوصية قبرصية فإننا نميل إلى الإقرار بأن النظام اللوزينيانى قد اقتبسها حوالى عام ١٢٠٠ من مملكة بيت المقدس حيث كانت موجودة بالضرورة.

وفى المقابل لم يتم الابقاء على وظيفة القاضى، وهى وظيفة إسلامية محضة، فى التنظيم الفرنجى إلا استثناءً فى حالة الجماعة الإسلامية التى تتمتع بوضعية مميزة. وبهذا المعنى ينبغى أن نفسر الإشارة إلى قاضى جبله فى إمارة أنطاكية وهو من أسرة مشهورة بالمنطقة[١٥] مع تفادى كل تعميم فى هذا الشأن. كل ما فى الأمر أن ثمة محاولة تمت عشية الغزو الذى قام به صلاح الدين من أجل تأمين ولاء المنطقة المسلمة المعروف أن إخلاصها غير ثابت.

ولم تكن قصة المحتسب أكثر وضوحًا من قصة «الرئيس» الحضرى. فالمحتسب فى أرض الإسلام كان موظفًا قرآنيًا يقع عليه مبدئيًا واجب صيانة الأخلاق العامة والحفاظ على الدين، وكان أساساً يمارس فى الواقع الرقابة على المهن والتجارة المحلية، فكان بوسعه التماس مساعدة القوة المسلمة إلا أن الشرطة لم تكن تابعة له. فكان من البديهى أن يختفى

الجانب الإسلامى لوظيفة المحتسب لدى الفرنجة، ويظهر فى النصوص بشكل عام أن قضية الأمن العام بما فيه الرقابة على التجارة كانت من اختصاص الفيكونت، والنص الوحيد الذى يشير إلى وظيفة المحتسب فى مملكة بيت المقدس هو جرد لمتلكات البنادقة بصور عام ١٢٤٣ ولا نعثر فى هذا النص إلا على حديث عن شخصية من مخلفات الماضى لم تعد موجودة. ولعلنا نميل أيضاً إلى أن ظهور المحتسب فى المملكة كان ظهوراً استثنائياً وليس له أى دور حقيقى، هذا إذا لم تدفعنا الوثائق القبرصية إلى الحذر مرة أخرى. أما فى قبرص خلال القرن الرابع عشر فقد كان للمحتسب فى واقع الأمر شخصية ذات شأن فِعلى بوصفها تقوم بمهمة المراقب العام على المهن كما ينسبها إليه كتاب «مختصر القوانين»، بل إنه كان يتوفر هناك على مجموعة صغيرة من الرقباء تحت المسئولية العليا للفيكونت.

وبما أن ثمة احتمال ضئيل فى أن يكون القبرصيين قد نقلوا هذه المؤسسة مباشرة من معاصريهم المسلمين، فلابد أن نستنتج وجود محتسبين فى مملكة بيت المقدس مع أننا لا نعرف شيئًا عنهم وإن كانت قبرص قد طورت هذه المؤسسة بشكل مستقل (١٦). ولسوء الحظ لم يكن هناك محتسبون فى أنطاكية حيث تعزو التقاليد البيزنطية بلا شك هذه المهام إلى حاكم شرعى كان تابعًا فى ذلك الحين إلى الفيكونت أو الدوق الفرنجى.

* * *

إننا لا نتبين المكانة التى كان يشغلها الرق فى الشرق اللاتينى. ونعلم أنه لم يكن مجهولاً فى الغرب ولاسيما فى إيطاليا على الأرجح، وإن كان قليل الانتشار فيها، ثم تضاءل بالضرورة منذ أن تحول الصقالبة والمجريون إلى المسيحية وهو التحول الذى منع تجنيدهم من داخل هذه الشعوب(١٧). وكان الرق أكثر أهمية فى المجتمع الإسلامى الذى كان ينتقى عبيده من بين الأتراك والصقالبة والسود.. إلخ. يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أنه فى الغرب كذلك لم يكن يتم استخدام العبيد فى أشغال الأراضى التى كان يقوم بها القيان فى أوروبا أما فى الشرق فقد كان من مهمة الفلاحين الأحرار شكلياً وإن كانوا فى الواقع مرتبطين على حد سواء بالأرض من خلال الإلزام الجماعى بتسديد الأقساط والوفاء بالأشغال. فالعبيد إذن كانوا يستخدمون فى الأعمال المنزلية، وفى مستوى أعلى من ذلك كانوا يعملون فى خدمة سلطة السادة فى القطاع الخاص أو العام. ولايبدو أن هذه الحالة الأخيرة قد عرفت انتشاراً كبيراً فى الشرق اللاتينى، ومع ذلك ثمة احتمال ضئيل فى أن يكون الرق أكثر انتشاراً فى الغرب بواسطة استخدامهم فى التجارة وأغلب الظن أن يكون عددهم أكبر بين سجناء الحرب

الذين كانوا يعجزون عن دفع الفدية. فهروب العبيد كان أمراً متواتراً نسبياً لقرب الحدود مع البلاد الإسلامية التى كانوا يسترجعون فيها حريتهم.

ومن الصعوبة بمكان أن نتحدث عن البدو الرحل ضمن السكان المحليين، علاوة على أن أغلبيتهم لم تكن تعيش إلا فى المناطق الداخلية التى كانت مساحتها تتقلص شيئاً فشيئاً من جراء الفتح الإسلامى. ويمكن التسليم بأنهم كانوا، أثناء مرورهم بالأراضى الفرنجية، يسددون نفس الرسوم المعمول بها فى البلاد الإسلامية إما نقداً أو عيناً لكننا فى الحقيقة لا نعرف عنها شيئاً.



الفصل الثالث عشر

السكان المحليون

لقد رأينا أن الصليبيين قد اعتبروا أغلب المحليين، وحتى المسيحين منهم، هراطقة غير جديرين بالاحترام، ولم يجدوا حرجًا فى نهب كنائسهم وأعيانهم، غير أن أحكام الضرورة والتعايش جعلتهم يتخذون تدريجيًا مسلكًا أكثر مرونة(١). وتناقلت الطوائف فيما بينها بعض الاعتقادات المحلية وبعض أشكال العبادات(٢). وقد رأينا فى الأوساط الرهبانية، منذ القرن الثانى عشر بعض كبار رجال الكنيسة يتنبهون إلى ما يمكن أن يجلبه تبادل القروض من أرباح على كنائسهم(٣). بل لوحظ أن البطريارك ميخائيل السورى المونوفيزى قد وجه رسالة إلى إحدى المجامع الدينية الرومانية، ففى البدء لم يكن رجال الدين اللاتين يتحرجون من التدخل فى الشؤون الداخلية لرجال الدين المحليين، ويبدو أن ذلك قد تضاءل كثيرًا بعد ذلك فهؤلاء كان لهم إعجاب بموقف اللامبالاة الذى كان يتخذه رجال الدين اللاتين إزاء الخصومات الدينية(٤) خلافًا لما كان عليه الأمر بالنسبة لرجال الدين البيزنطيين. ولقد ظهرَ أن المسيحيين اللاتين بالشرق، إبان القرن الثانى عشر، كانوا يجهلون كل شىء عن اتحاد الكنائس وكانت الحالة المارونية المستثناة التى تم التفاوض بشأنها من قبل أيمرى بطريارك أنطاكية، وهو رجل فريد من نوعه بعض الشىء، تمثل خصائص لا تبطل هذه القاعدة(٥)، فبالأحرى كانوا يجهلون أى فكرة عن تحول المسلمين عن دينهم، وهو ما سيحدث فيما بعد بالغرب إبان القرن الثانى عشر مع بطرس المبجل(٦) فى علاقة مع الأوساط الأسبانية. لقد حدثت سابقًا فى الشرق سجالات بين المسلمين والمسيحيين كما عُرِفَت أيضًا إبان الحروب الصليبية لدى حاشية الظاهر غازى الأيوبى الصغير بحلب على سبيل المثال، لكننا لا نرى أنها كانت تعنى اللاتين فى شىء إذ من النادر جدًا أن نجد من أهل الجدل المسلمين من يخصهم بالذكر فى معرض حديثهم عن الكنائس المسيحية(٨). وكان الصليبيون يغلقون المساجد(٩) وكانوا يسمونها ماهومرى(*) «بالجمع» باستثناء ما يوجد منها فى بعض الأماكن المميزة غير أن هذا لم يكن كافياً لتحويل المسلمين عن دينهم(١٠).

كان المسلمون إذًا محرومين فى أغلب الوقت من أطرهم الاجتماعية والدينية الرسمية والتقليدية. ولو أنه ليس بوسعنا أن ندرك ما إذا كانت محاكمتهم تتم وفقًا للشريعة الإسلامية فيما يتعلق بشؤونهم الداخلية (وليس بالطبع فيما يتعلق بالقانون العام). من المرجح أنهم كانوا يتفاهمون فيما بينهم بشأن الشؤون العائلية وأن هياكلهم الاجتماعية قد سلمت من الاضطراب والتغيير وكانت الوضعية القانونية لغير المسلمين فى البلاد الإسلامية وكل الجماعات الأجنبية

(*) ماهومرى تحريف فى النطق لاسم النبى محمد. (المترجم)

المعترف بها فى دول العصور الوسطى بشكل عام، تجعل لهم نوعًا من الاستقلال الداخلى. وكانت تلك هى وضعية أعضاء الكنائس الشرقية فى الشرق اللاتينى على نحو خاص. بيد أنه لم يكن يعترف حقًا بالطائفة الإسلامية. بالإضافة إلى ذلك فقد حدث مرارًا أن لجأ المتخاصمون بشأن الصراعات الداخلية إلى السلطات الفرنجية المدنية منها أو الدينية. وقد تتولى تلك السلطات من تلقاء نفسها أمر هذه الخصومات. وفى الجانب الآخر كان الشىء نفسه على العكس فى الدول الإسلامية إزاء رعاياها من غير المسلمين. ونظرًا للدور الذى كانت تؤديه الكنيسة إبان العصر الوسيط فى ميدان الشؤون العائلية فإن الاختلاف بين الشرق والغرب لم يكن محسوسًا فى هذا الشأن.

لقد نشرت سابقًا فى مجلة «سيريا» مقالاً أثرت الانتباه فيه إلى ضرورة مراجعة التفسير الشائع للفقرة الشهيرة التى يصف فيها الرحالة المسلم ابن جبير وضع الفلاحين الذين ينتمون إلى دينه فى الشرق اللاتينى. ما قلته آنذاك يظل صحيحًا فى مجمله ويمكن أن يدعم بملاحظات جديدة. غير أن إحدى النصوص التى كنت أستند إليها وهى لعماد الدين الذى استشهد به أبو شامة تستدعى ترجمة جديدة تعكس المعنى الوارد فى كتاب «مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية» حسبما أشار إلى ذلك د. س. ريتشاردز، وكنت قد وضعت ثقة مفرطة فى ترجمة هذا النص فقد انتزعت فقرة ابن جبير من سياقها فى طبعة «المجموعة» وتم تأويلها فى غمرة الغبطة التى صاحبت العصر الاستعمارى على نحو يظهر محاسن الإدارة الفرنجية حتى بالنسبة للسكان المسلمين دون تدقيق فى الأمر. وشددت فى مقالتى على مقارنة النص المذكور مع نصوص أخرى ومن بينها نصوص لابن جبير ذاته. ومن جهة أخرى ينبغى أن نفهم نص هذا الكاتب انطلاقًا من موقفه السياسى والدينى المؤيد للحرب المقدسة وهو ما دفعه لتعيير غيره من المسلمين بالضعف والتقاعس. كما ينبغى التذكير بأن وضع المسلمين فى مقاطعة صور التى كان يذهب إليها ابن جبير ربما كان أفضل من وضعهم فى مقاطعات أخرى نظرًا للشروط الخاصة التى لزم قبولها عام ١١٢٤ حتى تستسلم المدينة [١٢] وكان لهذه الشروط إيجابيات خاصة وهذا ما لم أكن قد ذكرته.

وبشكل عام ثمة انطباع بأن سكان الريف تعودوا على الخضوع للكثير من الأسياد المتعاقبين، ما عدا فى بعض المناطق، وأنهم فعلوا ذلك أيضًا أمام الفرنجة طالما ظهروا بمظهر الأقوى ثم انقطعوا عن الخضوع لهم تدريجيًا حينما استعاد الأمراء المسلمون غلبتهم وهيبتهم واجتهدوا فى توسيع شبكة دعائية خفية عن طريق الجواسيس.

ربما لم يول أهل الاختصاص فى ميدان تصميم المبانى العسكرية اهتمامًا كافيًا للدلالة

التى تكتسيها القصور التى كانت موضع بحوثهم. كانوا يعتبرون، ضمنياً، أنها كانت مخصصة فى البداية للدفاع عن البلاد ضد العدو الخارجى. وبالطبع كان هذا شأن الذين وجدوا أنفسهم فى النقاط الاستراتيجية الواقعة على الحدود المتابعة، لكن لم يكن فى وسع الكثيرين منهم (كما فى الغرب كذلك) إلا القيام بمراقبة المقاطعات من داخل البلاد. وتشير بعض النصوص إلى أن هذه المراقبة لم تكن عبثاً(١٣).

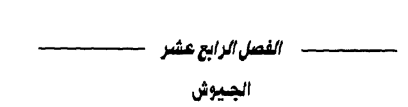
وسعياً للقيام بتقييم سليم للأمور لابد من مقارنة للأوضاع السائدة فى الشرق اللاتينى مع تلك التى فى الدول الإسلامية المجاورة. وفى حالة ما إذا ظهر أن ظروف المسيحيين فى هذه الأخيرة كانت تبدو لهم أشد قوة مما هى عليه فى بلاد الفرنجة فلابد أن نشهد من جراء ذلك قيام عامة الشعب أو على الأقل رجال الدين بالهجرة منها، والحال أنه كان هناك بعض الرحلات من حين لآخر غير أنه لم تحدث الهجرة قط، إذ كانت هناك علاقات حسنة بين بعض أعيان الكنائس المونوفيزية أو الأرمن والفرنجة ومع ذلك فلم تكن الرسالة التى بعثها البطريارك الأرمينى إلى صلاح الدين لنعى بارباروس بالشىء الهين، كما أن ميخائيل السورى كان يتباهى بروابطه الطيبة مع قلج أرسلان، وكان يهنئه بانتصاراته على اليونان. ونعلم أشياء ضئيلة عن كنائس المسيحيين فى أعالى بلاد ما بين النهرين وأنها ظلت قائمة وعلى رأسها أساقفة وكان بطريركها يقوم بزياراتها مراراً. ونجد هذا الوضع نفسه بالنسبة لنساطرة العراق ولو أن عددهم ربما كان قد تضاءل.

وكانت المستوطنات اليهودية(١٤) فى آسيا قليلة الكثافة أيضاً لكنها ظلت حية كما يبرهن على ذلك دور الوزيرين سعد الدين ورشيد الدين فى عهد المغول. ربما كان لليهود نزعة لاعتناق المسيحية، مثل والد الموسوعى والمؤرخ ابن العبرى. وهى نزعة تحتاج إلى تفسير. غير أنه فى القرن السابق كانت مصر تعتبر دائماً بمثابة جنة لليهود. وفى هذا الشأن لم يكن صلاح الدين مختلفاً عن الفاطميين. وبما أن اليهود لم يكن لهم دور مماثل لدور الأقباط فلم يكن ذلك يستثير الغيرة نفسها ولا الارتياب نفسه فى التفاهم مع الفرنجة. وفى مصر أيضاً أمضى الطبيب الكبير ابن ميمون، الذى قدم من الغرب، نصف حياته وألف أعماله الأكثر شهرة باللغة العربية والعبرية على السواء.

وأضف إلى ذلك أنه مهما كانت الحدود الطائفية قاطعة فإنها لم تكن تستتبع مسلكاً «قومى» الطابع كما فى العصور الحديثة. فالطبيب المسيحى أبو غالب، الذى أثرت الانتباه حوله فيما مضى، عمل أولاً فى خدمة عمورى الأول ثم مع صلاح الدين دون أن يعتبر نفسه خائناً أو ينظر إليه على أنه كذلك.

وحتى فى المنطقة التى عاد البيزنطيون لاحتلالها فى شمال سوريا زهاء قرن ونصف ظلت اللغة العربية هى المستخدمة، وهو ما كان يتذمر منه نيكون الجبل الأسود[١٥] عشية الحملة الصليبية حسبما تشهد به الوثائق المكتوبة باللغة العربية فى أواسط القرن الثالث عشر والموجهة إلى المسيحيين الملكيين المحليين[١٦]. وقد حدث الشيء نفسه فى طرابلس كما يتبين ذلك من خطاب لجاك الفيترى الذى كان يقوم فيه بالتبشير بل ومباشرة الاعتراف بواسطة ترجمان[١٧]. ولا نرى للغة اللاتينية أو الفرنسية تأثيراً كبيراً فى السكان المحليين. وربما احتلت اللاتينية مكانة أفضل فى القدس ثم عكا حيث تكدس اللاتين بعد سقوط المدينة المقدسة دون أن تبطل قط الحاجة للترجمان وعندما كانت كلمة فرنجية تفرض نفسها على اللسان العربى للدلالة على شيء جديد ذى أصل فرنجى كان يتم تعريبها كما تشهد بذلك القصة الطريفة للجذر ف.ص.ل الذى اشتق من الكلمة الفرنجية «فصال» (أى مُقَطَّع) ومنه أخذ اسم المفعول مفصول = فصالزى (أى مُقَطَّع)[١٨]. وكان الموارنة وهم أقرب إلى اللاتين وكنيسة روما يتحدثون ويكتبون (بما فى ذلك كتبهم الدينية) باللغة العربية. وقد يجعل أحدهم شاهدة قبره باللغة العربية بعد انتمائه للكنيسة اللاتينية[١٩]. وبالإجمال فإن الفرنجة كانوا دوماً أقلية من الناحية العددية مع بعض التحفظ بشأن مدينة عكا. ومن الصعب أن نصدق الانعدام التام للزواج المختلط، شرعياً كان أم لا، لكن بما أن الأطفال كانوا يُدمجون فى الأسرة الفرنجية فلم يستتبع ذلك تفرنج الأسر المحلية.

لقد رأينا المصاعب الشديدة لليهود فى بداية عهدهم بالشرق اللاتينى، ونلاحظ على إثر ذلك أنهم جاءوا أيضاً من الغرب، دون أن نتمكن من معرفة ما كانت عليه علاقاتهم مع إخوانهم فى الدين من المحليين ولا علاقات هؤلاء وأولئك مع الذين كانوا فى البلاد الإسلامية[٢٠].



الفصل الرابع عشر

الجيوش

صار تكوين الجيوش بالشرق يعتمد على الأجانب ولاسيما على الأتراك بالنسبة لآسيا. ونتيجة للتطور الذى حدث فى فترة متأخرة أصبح الجيش البيزنطى يتكون كذلك من عناصر غير متجانسة فيما بينها كالمرتزقة وأتراك أوروبا والنورمانديين (فى القرن الحادى عشر) والأرمن (وكانوا رعايا للإمبراطورية).. إلخ. وكانت القوات العسكرية بالغرب المسيحى تعتمد، كما فى الحالتين السابقتين على خيالة أرستقراطية، ولكنها «قومية». ولما تم نقل الفرنجة إلى الشرق شعر السكان المحليون ولاسيما المسلمون منهم بنوع خاص من الغربة تجاههم بل وبنوع من العداء، ولم تحدث أية مساندة لهم من قبل الأهالى. أما الجيش الإسلامى فقد كان أهم جزء فيه يتكون من العبيد الذين ينحدرون من السلالات الأجنبية من المرتزقة الأحرار، حينما يتعلق الأمر بالمجندين المسلمين على أننا لا نلمس جيداً الفرق بين الوضعية القانونية للعبيد والمرتزقة. أما فى الجيش السلجوقى فقد حدث امتزاج بين العبيد من النمط التقليدى وبين التركمان الأحرار.

وفى ظل الزنكيين تم استدعاء أعداد مهمة من الأكراد المجاورين وذلك إلى جانب ما تم من تجنيد أساسى للأتراك وهو ما كان عليه الأمر بالنسبة للسلطات التى سادت بلاد ما بين النهرين قبلهم. وحتى ذلك العهد كان الأكراد يحاربون بالجبال مشاة على الخصوص بينما كان الأتراك فرساناً ذوى مؤهلات خاصة لخوض المعارك فى السهول. لكن تبين أن الأكراد فى الجيش الزنكى كانوا مدربين على المحاربة على طريقة الأتراك بحيث أن المصريين قلما كانوا يميزونهم حين مواجهتهم لهم. لقد تحاسدت هاتان الفرقتان من الجنود إلا أن الزنكيين قد عرفوا إجمالاً كيف يحافظون على التوازن مثلما فعل الأيوبيون كذلك لفترة طويلة وقد استخدموا، وهم أكراد، وحدات تركية قوية. ربما كان الشعور بالغربة تجاه الأكراد الذين تعربوا تقريباً أقل حدة من شعور السكان المحليين تجاه الأتراك. وفى المقابل كان الأتراك أقل حذراً واحتقاراً للكفاءات العسكرية للأكراد مما يكنونه للعرب، ولقد قيل أنهم عملوا على امتصاص ما تبقى من الإقطاعات العربية بسوريا وبلاد ما بين النهرين.

من المؤكد أن الوعى المستمر بالحرب المقدسة كان يولد تقارباً بين المحليين والقوات الأجنبية المكلفة بالدفاع عنهم وذلك فى لحظات الإحساس بالخطر أو عند تحقيق الانتصارات الباسلة. ومن جهة أخرى كان يتم تعليم هؤلاء الأجانب اللغة العربية أو الفارسية أو أسلمتهم عندما يقتضى الأمر ذلك. أما أطفالهم الذين كانت أمهاتهم فى الغالب من السكان المحليين، أو يعشن فى كل الأحوال داخل وسط محلى فقد كانوا شبه مندمجين. ولهذا السبب بالضبط لم يكونوا يواصلون المهنة العسكرية إلا استثناءً وكان يتم المحافظة على الطابع النوعى للجيش بواسطة تجنيد عدد آخر من الأجانب. لم يكن تجنيد المحليين لخوض الحرب المقدسة أمراً ممنوعاً بيد أن استخدامهم كان محصوراً ضمن فرق المتطوعين للقيام بمهام ثانوية ولم يكونوا يحصلون على راتب منتظم.

أما الجيش الفاطمى فقد ظل مؤلفًا لفترة طويلة من المغاربة بصفة خاصة ثم بدأ تدريجيًا ينفتح على الأتراك والسود بل وحتى الأرمن، وفى القرن الثانى عشر حيث أخذت الريبة تحوم حول الأتراك، قام الجيش الفاطمى على نحو خاص باستدعاء العرب البدو المقيمين بالبلد ولو لم تكن لهم المؤهلات الحربية التى يتميز بها الأتراك.

كان الوضع العسكرى للفرنجة صعبًا. وإذا كان المحليون يتحملونهم فإنهم لم يقدموا يد العون إليهم. وغالبًا ما كان المسلمون يسلكون إزاءهم مسلك الجواسيس أو الأعداء، لذا كان على الفرنجة أن يوطدوا سلطتهم فى الداخل وأن يكافحوا وحدهم تقريبًا من أجل الدفاع عن حدودهم. وكما رأينا كان فى إمارة الرها فى البداية نوع من التفاهم بين القوات الأرمينية والفرنجية (كان الأرمن كذلك حديثى العهد بالهجرة نسبيًا). ولم تكن الثقة سائدة هناك أيضاً إذ قام الفرنجة تدريجيًا بطرد السادة الإقطاعيين الأرمن وبقوا وحدهم للدفاع عن ممتلكاتهم (باستثناء مشاركة سكان الرها فى الدفاع أثناء الحصار الأخير).

ربما يجب أن ندقق قليلاً فى الأحكام السابقة إزاء بعض الفترات. حيث لوحظ أحيانًا وجود «التركوبول» الذين كانوا يقاتلون إلى جانب الفرنجة فى القرن الثانى عشر. لقد تم النظر فى الغالب إلى التركوبول بوصفهم مساعدين محليين يحاربون على الطريقة التركية فى شكل وحدات عسكرية خفيفة. ولا يبدو أن هذه النظرة كانت صحيحة. ففى الإمبراطورية البيزنطية أثناء القرن الحادى عشر والثانى عشر كان الجيش يستخدم «التركوبولوا» و«الفرانكو بولوا» على نطاق واسع. ويتعلق الأمر، فيما يبدو، بأتراك قد تحولوا إلى المسيحية وبفرنجة تزوجوا بنساء يونانيات أو بأبنائهن، وسيوجد تشابه فيما بعد مع المولدين الذين سموا «بالجاسمول» فى ظل السلطة اللاتينية.

كما نجد كذلك فى الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى من سموا بالإيجديش (وتعنى حرفيًا بغل) وهم مولَّدون اعتنقوا الإسلام ونساء تركيات مولَّدات وقد تم استخدامهن فى مهن كثيرة منها الشرطة (١). فهناك ما يدعو للتسليم بأن تركوبول الشرق اللاتينى الذين تشبهوا «بالتركوبولوا» البيزنطيين كان لهم ارتباط بهذا النمط من المؤسسات المنتشرة فى كامل المناطق الشرقية بالبحر المتوسط. ولا شك أن الأمر يتعلق بالمحليين بل حتى بالسجناء الأتراك وبالجنود المنشقين الذين تزوجوا بنساء فرنجيات واعتنقوا المسيحية اللاتينية. ولا تحدد النصوص ما إذا كانوا يمتلكون خصوصية حربية محددة المعالم إذ يبدو أنهم كانوا أقل عددًا وأنهم لم يشغلوا سوى وظائف ثانوية.

لقد أدى عدم كفاية القوات الدائمة بالشرق اللاتينى، من بين نتائج أخرى، وبالموازاة مع ما كان يحدث فى أسبانيا(٢) إلى إنشاء جماعات عسكرية إحداها «جماعة الداوية» بمبادرة

غربية والثانية هى «جماعة الاسبتارية» نتيجة تطور محلى لعله كان متأثراً بالجماعة السابقة(*). وتبعًا لذلك نجد ابتداءً من الربع الثانى من القرن الثانى عشر مليشيتين كهنوتيتين كانتا تمولان من الهبات التى يتبرع بها المؤمنون الأوروبيون والامتيازات التى كان يقدمها القادة الفرنجة بالشرق بحساب مدقق. فالموارد المحصلة بهذا الشكل، وهى أعلى من موارد السادة الإقطاعيين العلمانيين قادت هؤلاء إلى تحويل ملكية القلاع الرئيسية إلى الجماعات العسكرية[٣] حتى تقوم بتطويرها وصيانتها. وليس هناك ما يدعو للتذكير بالكيفية التى أدت بهذا النفوذ المكتسب على هذا الشكل، وهو نفوذ أكثر استقرارًا من نفوذ الأمراء الذين كانوا يتغيرون، إلى أن تصبح الجماعات العسكرية بمثابة دول داخل الدولة ومن ثم صار ضررهم بقدر نفعهم فى غالب الأحيان بالنسبة لأولئك الذين كانت لهذه الجماعات مهمة الدفاع عنهم ويرجع ذلك إلى ما كان لديها من أطماع وما كان ينشب بينها من خصام. ولا نتبين أسباباً أخرى غير ما كان ينشأ من تنافس حول الامتيازات الأميرية أو التحالفات المحلية. هل كانت الاختلافات بين الجماعات العسكرية من حيث المنشأ تفضى إلى تعارض فى التصورات ؟ فى الواقع إن محاكمة الداوية التى تمت فى الغرب بعد سقوط الشرق اللاتينى وهى محاكمة تحوم حولها الألغاز ليس لها حظوظ كثيرة فى مدنا بالمعلومات عن هذا الشأن[٤]. وبجانب هذه الجماعات كان بوسع الحجاج الغربيين أن يشاركوا من وقت لآخر فى هذه الحملات ولاسيما فى عهد مملكة عكا. وكلما تحررت بعض المدن الكبرى على نمط شبه بلدى وجدنا كذلك مليشيات حضرية غير أن وظائفها كانت دفاعية فقط[٥].

وفى العالم الإسلامى لم يكن الفرق بين الدولة العلمانية والدولة الكهنوتية واضحًا مثلما هو الشأن فى العالم المسيحى وكان التنظيم الجماعى للحياة الدينية مازال فى بدايته ولاسيما فى سوريا فى القرن الثانى عشر، وهو تنظيم يمكن مقارنته، بالرهبنة المسيحية وحتى عند تطوره فيما بعد فإنه لم يأخذ طابعًا عسكريًا إلا بصورة استثنائية.

وفى المقابل كان المتطوعون من المؤمنين من بين عامة الناس يجندون أنفسهم لمحاربة أو مراقبة أهل الكفر من الوثنيين أو المسيحيين فى المناطق الواقعة على الحدود. وكانوا يسمون عادة بالغزاة وأحيانًا المجاهدين أو المرابطين وذلك نسبة إلى المواقع المحصنة حيث كانوا

(*) من المعروف أن جماعة الأسبتارية فى شكلها الأولى قد سبقت جماعة الداوية حيث تعود قصتها إلى عام ١٠٤٨ حينما سمح حاكم القدس المسلم لتجار أمالفى ببناء مستشفى للحجاج المسيحين، ثم تأسست كتنظام فى عام ١١١٣ للعناية بالمرضى من الحجاج وتضميد جروح المحاربين وأخذت شكلها العسكرى إنطلاقًا من عام ١١٤٠، وربما هذا ما أراد أن يشير إليه المؤلف بقوله إن جماعة الأسبتارية – فى تحولها إلى جماعة عسكرية وليس نشأتها – إنما جاء فى أعقاب تأسيس جماعة الداوية أو فرسان الهيكل فى عام ١١١٩. (المترجم)

يقيمون وهى الرباطات ولاسيما فى الغرب (ومنها أخذنا اسم سلالة المرابطين نقلاً عن اللغة الإسبانية، وقد تولدت هذه السلالة من أكثر الجماعات نشاطًا وتنظيمًا على الحدود العربية السودانية) وقد ظل اسم «الغازى» شائعًا فى فترة الحروب الصليبية بينما انحسر كثيرًا مضمون الكلمة حتى فى حالة «الحرب المقدسة». وأدى تراجع حدود الإسلام فى سوريا وتقدمها داخل الأناضول إلى اختفاء المؤسسات المستقرة التى نشأت تدريجيًا عبر القرون. ومن المؤكد أن الأتراك بالأناضول كانوا يسمون أنفسهم «غزاة» غير أن الأمر لا يتعلق هنا بالجماعات المتخصصة وإنما بكل من يستطيع حمل السلاح من بين السكان.

لعل الكنيسة قد أدانت استخدام العساكر الفرنجة لمحاربة غيرهم من الفرنجة، وربما تجنب الأمراء المسلمون هذا الأمر. ولا ينجم عن ذلك استحالة استخدام الفرنجة من قبل القادة المسلمين. فقد آثر كثير من الأمراء المسلمين الاعتماد على الميليشيات الأجنبية ضد الأحزاب المحلية وحتى فى زمن الحروب الصليبية والاسترداد، فلم يكن هناك داع للخروج عن هذه القاعدة بشأن الفرنجة الذين كانوا موضع تقدير خاص. وكان عدد هؤلاء كبيرًا فى جيوش الموحدين داخل المغرب وليس فى إسبانيا بطبيعة الحال. وقد تم ذلك حتى بموافقة رسمية من قبل كبار البابوات فى القرن الثالث عشر. وحدث الشىء نفسه فى الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى فى القرن الثالث عشر وربما تم ذلك على طريقة الجيوش «البيزنطية»(*). وكان ذلك أمرًا استثنائيًا فى سوريا وفى المناطق الواقعة خلف السواحل العربية – الإسلامية ومع ذلك يمكن أن نسجل حالة أو حالتين ربما فى معركة حطين على وجه الخصوص (٦).

لقد تم تخصيص دراسات جيدة لفن المعمار الحربى لدى الصليبيين ولبعض القلاع الإسلامية. ومع ذلك لا يمكن القول إن المؤلفين وقد اتخذ البعض منهم وجهة نظر غربية فى الكتابة واتخذ البعض الآخر وجهة نظر شرقية قد وضع أحدهما الآخر فى الاعتبار. ولا توجد دراسة تأليفية حول الأعمال المتعلقة بموقع الفن المعمارى الحربى بالشرق اللاتينى فى مقابل الفن المعمارى الحربى بالغرب ولا حول التأثير المتبادل فى هذا الشأن بين بيزنطة والشرق الأدنى والشرق اللاتينى.

لقد رأينا أن قصور الفرنجة كانت تصلح لتأمين سيطرتهم على الأراضى الداخلية بمقدار تأمينها للدفاع عن الحدود. ولنذكر قصر شاهيون (ساوون) وصفد ومارقب (مارجان) وهى من بين القصور الشهيرة. لقد اكتفوا غالبًا بتعلية القصور التى تعددت فى الفترة السابقة كما رأينا. وقد استردها المسلمون بعد ذلك. وبرغم النقوش العربية التى تعود لهذه الفترة

(*) الكلمة المذكورة فى النص الفرنسى تشير إلى «الأسلحة البيزنطية»، لكن المعنى يشير إلى الجيوش البيزنطية. فربما وقع خطأ مطبعى (المترجم).

الثالثة فإنه ليس من السهل دائمًا التمييز بين المراحل الثلاث(*) وبالأحرى وصف ملامحها المميزة، ولا نملك سوى أن نؤكد على الجهود الضخمة التى بذلها الصليبيون لتدعيم ما وجدوه عند وصولهم. هذه الجهود التى بذلها السادة الإقطاعيون العلمانيون كانت لاتزال متواضعة فى بداية القرن الثانى عشر غير أنهم سرعان ما اضطروا للإقرار فى أنفسهم بعدم توافرهم على الوسائل اللازمة. وبناء عليه تم منح أهم هذه القصور للجماعات العسكرية بل لقد تم إنشاء قصور لهم بواسطتهم وبعضها تم تجديده تجديدًا شبه تام مثل قصر «كراك الفرسان»(**) الشهير. وربما كانت جماعة الداوية أقل تجديدًا، إذ لايبدو أن ساحة بغراس وهى من الساحات الرئيسية لديهم كانت مختلفة جداً عن سابقتها. وقد شيدت القصور فى مملكة أرمينيا الصغرى إبان القرن الثالث عشر، على غرار ما فعلته الجماعات العسكرية الفرنجية وبمساعدتها وذلك بهدف تدعيم الشبكات القديمة الواقعة على الحدود البيزنطية. وهكذا قام التوتونيون (***) بتشييد قصر «أنازربه» (****)

وتتمثل الإنجازات التى تحققت غالبًا على جانبى الحدود، فى اتساع الأبعاد وسمك الجدران وتكسيتها بأحجار كبيرة وبديعة ذات نقوش بارزة فى الغالب، وكثرة الأبراج الدائرية ذات القواعد المنحدرة (كما هو شأن قاعدة الأسوار) والمداخل المتراصة ومقدمات الجدران إلخ. وغالبًا ما كان المهاجمون يقومون بصناعة الآت الحصار فى المكان عينه. ومما ساعد على عملية التأثير المتبادل، على الأقل من حيث التفاصيل أن الأيدى العاملة من كلا الجانبين كانت تتألف من أسرى الحرب. لكن ما قيل الآن لا يمكن أن يقال إلا مع الاحتفاظ بحق المراجعة.

لا شىء يسمح لنا بمعرفة ما إذا كانت هناك محاولات فى الشرق اللاتينى لتحسين شبكة الطرق، على الأقل تلك التى لها أهمية استراتيجية أو الممرات التقليدية التى تعبر فوقها الأنهار.

وعلى وجه الإجمال لم تتغير التقنيات العسكرية لدى الجانبين الفرنجى والمسلم وذلك طوال الفترة التى قمنا بدراستها هنا. والاختراع الوحيد المؤكد كان من جانب الفرنجة وهو

(*) لا نعرف عن أى فترة ثالثة يتحدث المؤلف فربما سقطت فقرة من النص الفرنسى أثناء الطباعة ! (المترجم).

(**) كراك الفرسان : حصن شيده الفرنجة مكان حصن الأكراد، وتم تحريف الاسم إلى «كرات» ثم إلى كراك الفرسان ويقع فى سهل البقيعة. (المترجم)

(***) التوتونيون : هم الفرسان الألمان الذين يمثلون رهبانية تأسست فى القدس ١٢٢٨ للدفاع عن مصالح الصليبيين ثم انتقلت إلى ألمانيا . (المنجد) - المترجم

(****) قصر أنازربه هو قصر عين زربة وهى بلدة تقع فى جنوب تركيا الآسيوية (قيليقية) وكانت قد ازدهرت فى عهد سيف الدولة الحمدانى ثم خربتها الحروب. (المترجم)

نوع من المنجنيق كان ثقله المعاكس يمنحه قوة خاصة، وقد أوصى الإمبراطور فريدريك الثانى على بعض النماذج منه لنقلها إلى إيطاليا. ومن الجانب الإسلامى كانت ضرورة محاربة الفرنجة سبباً ولا شك فى استخدام الدروع الكبيرة والثقيلة التى تكشف أسماؤها طاريقا(*) (تارج) وجنويه (نسبة إلى جنوه) عن أصلها. ومن المحتمل كذلك أن يكون الأتراك قد طوروا المنبل(**) الثقيل والقذافة(***) مثلما فعل الفرنجة، وفضلاً عن ذلك فقد كان التطور فيما يبدو ذا طابع كمى على وجه الخصوص إذ كان عدد القوات المسلحة على خط القتال يرتفع لدى كلا الجانبين فى المناسبات الكبرى كما كان عليه الحال فى مدفعية الحصار حيث كان يرتفع عدد الآلات وهو الاتجاه الذى طوره كذلك المغول باستخدامهم مساجينهم كأيد عاملة. وربما لم يتم تعلم استخدام النار الإغريقية(****) فى الحصار أو المعارك البحرية فحسب وإنما تم استخدامها فى المواجهات المخططة كذلك، وهذا ما يرويه أحد الكتاب بشأن معركة عين جالوت عام ١٢٦٠، وإن كان من المتأخرين حقاً. غير أنه لم يحدث أى تغيير جوهرى حينما تم إدخال الأسلحة النارية الآتية من أوروبا بعد هذا التاريخ بفترة طويلة.

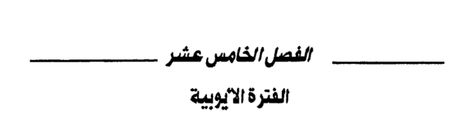
من المحتمل أن تكون هناك مشكلة قد حدثت من كلا الجانبين، وتتمثل فى التزود من أحصنة المعارك نظراً لأن الحصان العربى التقليدى لا يتكيف مع التسليح الثقيل وهذه مشكلة لا نعلم عنها شيئاً للأسف. وكان يتم استيراد الأحصنة من أوروبا إلى الشرق اللاتينى وربما كان يتم استقدامها من روسيا إلى بيزنطة والبلاد الإسلامية، وبفضل التركمان ستطور فى آسيا الصغرى عملية تربية الأحصنة بسرعة وإن كنا لا نعرف سلالتها ولا نملك أدلة على أنه تم فى فترة الحروب الصليبية تصدير الخيول من الشرق الأدنى إلى الهند كما كان عليه الأمر فى غيرها من الفترات(٧).

(*) الطرَّاق: وهو قريب من المعنى الوارد ويشير إليه المنجد فى اللغة والأعلام على أنه الحديد ونحوه يُرقق ثم يجعل على ترس أو شبهه. (المترجم)

(**) المنبل : «مرمى النبال أو القذافات فى الحصون والقلاع». (المنهل) – المترجم.

(***) القذافة : قوس قديمة لقذف السهام والكرات والحجارة .. إلخ . (المنهل) – المترجم.

(****) النار الإغريقية : سميت هكذا لأن مخترعها مهندس إغريقى يدعى كالينكس من مواطنى مدينة هليوبوليس بسورية، اخترعها فى عهد قسطنطين الرابع بوجوناسوس (٦٦٨ – ٦٨٥م)... وقد وصفت الأميرة آن كومنين – ابنة الإمبراطور ألكسيس كومنين – هذه النار فى كتابها عن تاريخ حياة أبيها، وقالت إنها مزيج من النفط والزيت والكبريت مجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال. وكان هذا المزج يوضع فى أنابيب من النحاس لها فم تولد منه، وفى مؤخرتها قوس يدفعها حين توتره إلى الأمام وكانت تلك الأنابيب النحاسية توضع بكميات كبيرة فى اسطوانة هائلة مستديرة وتلقى فى مدافع المنجنيق ثم تقذف على العدو. انظر : العدوان الصليبى على مصر – د. جوزيف نسيم يوسف. دار مؤسسة شباب الجامعة، مصر : ١٩٨٤، ص ١٥٦ (المترجم).



الفصل الخامس عشر

الفترة الأيوبية

ابتدأ القرن الثالث عشر فى ظروف جديدة بالنسبة لكل بلاد الشرق الأدنى (الإمبراطورية البيزنطية وسلطنة آسيا الصغرى وسوريا وبلاد ما بين النهرين المسلمتين والشرق اللاتينى فارمينيا – قيليقية). وقد أسس الأيوبيون خلفاء صلاح الدين (ابن أيوب) على غرار الإمارات السابقة وخلافًا للخلافة نوعًا من الفيدرالية العائلية التى أعادت تشكيل نوع من الوحدة وذلك حتى أواسط القرن فى ظل السيادة الأولية لحاكم مصر رغم الصراعات الداخلية ولاسيما بين ذرية صلاح الدين ذاته وشقيقة وخلفه العادل. ليس من المجدى هنا رواية تاريخ هذه الوحدة التى نملك عنها وثائق ذات ثراء خاص وكانت موضوعًا لدراسة تاليفية جيدة ولعدة أعمال مهمة فى المدة الأخيرة(١). وتكفى الإشارة إلى بعض السمات. فقد واصل الأيوبيون على الصعيد الاجتماعى والثقافى سياسة سابقيهم إلا أنهم بدوا أكثر مرونة منهم بل لقد أستأنفوا علاقاتهم بالتقاليد الإدارية التى كان صلاح الدين قد حاربها أحيانًا أو أهملها. وقد تم لهم ذلك بعد أن تحقق لهم النصر على غير السنيين وفى الوقت نفسه كانوا يطورون تاسيس المدارس فى مصر بمساعدة المهاجرين السوريين أو الإيرانيين. وقد أدت الصراعات العشائرية بين موظفى الحكومة إلى هجرة بعض الشخصيات البارزة إلى حلب التى كانت إلى حد ما بمثابة ملجأ سلام أمين(٢). وكان الأيوبيون مثل أغلب المصريين والأكراد ينتمون إلى المذهب الشافعى، الأمر الذى كان من شأنه أن يسهل عملية التقارب، بيد أن الأتراك كانوا ينتمون إلى المذهب الحنفى وهو ما يمكن أن يثير بعض أوجه التوتر داخل الجيش الكردى – التركى. وحتى داخل الأسرة ذاتها من جراء الزواج المختلط الذى اقتضته الضرورة السياسية. وسنرى أنه فى نهاية هذه الأسرة الحاكمة سيؤول التوازن إلى الإختلال لصالح المماليك الأتراك بدون أن نتبين ما إذا كان ذلك قد نتج، فى قسم منه على الأقل، من المصاعب الناشئة عن تجنيد الأكراد.

ليست لدينا النية فى أن نخوض فى الكلام عن أصول الحملة الصليبية الرابعة(٣) وانحرافها بعد ما خاضه الكثيرون من مناقشات فى هذا الشأن، والدور الذى لعبته البابوية والبنادقة فى هذه الحملة. فاستيلاء اللاتين على القسطنطينية كان نتيجة ما حصل تدريجيًا من سوء تفاهم واعتراضات وشكاوى بين اليونانيين واللاتين. وتفاقمت فى بيزنطة ذاتها من جراء الصراعات التى نشبت بين الأحزاب. وتفسر الحيطة التى استقبلت بها حكومة الانجيين نبأ إعداد الحملة الصليبية بأسباب كثيرة منها أن الكنيسة الرومانية كانت دائمًا تعتبر أن الكنائس اليونانية التى تقع بين أيديها تصبح تلقائيًا جزءًا من ممتلكاتها وذلك منذ وقوع الغزوات النورماندية فى إيطاليا الجنوبية والحملة الصليبية بالشرق. وحتى وقت حديث آنذاك حرصت

على ألا تبدى أى اعتراض على غزو قبرص وفرض اللغة اللاتينية على كنيستها [٤]. ومن جهة أخرى من غير المجدى أن نركز على مصالح البندقية بالقسطنطينية وإرادتها فى ضمانها دون أن تجر على نفسها خطر تكرار المآسى كتلك التى حدثت فى العقود الأخيرة[٥]. ولا يعنى هذا القول أن قادة الحملة الصليبية[٦] لم يكن لديهم فى البداية العزيمة الصادقة فى الذهاب إلى فلسطين بيد أن هذا يوضح أنهم توقفوا فى القسطنطينية. ربما اعتقد البعض أن الأرض المقدسة ذاتها ستستفيد من تحييد الطباع السيئة للبيزنطيين إزاء الحملات الصليبية. ونحن نعلم أنه لم يحدث أى شىء من ذلك إذ لم يكن بوسع الإمبراطورية اللاتينية أن تحتوى كل أراضى الإمبراطورية اليونانية وكانت مهددة تقريبًا منذ بدايتها بالزوال من قبل جيرانها، فاستأثرت[٧] من أجل الدفاع عن نفسها بجزء من الطاقات الغربية التى ربما كانت ستصلح للاستخدام فى سوريا، وبالطبع لم تفعل سوى أن فاقمت من حقد اليونانيين على اللاتين فلم تخدم فى شىء عملية اتحاد الكنائس الذى كان تبتغيه البابوية. أما فيما يتعلق بالمصالح التجارية للبندقية فسنرى فيما بعد ما آلت إليه[٨].

إذ اقتصرنا سياسيًا على القسم الآسيوى للامبراطورية البيزنطية السابقة فإن كل ما حُفظ منه تقريبًا قد شكل الدولة اليونانية فى نيقية[٩] فى الجانب الغربى من آسيا الصغرى فى مواجهة الأتراك والسلاجقة. وصار إقليم طرابزون الساحلى الممتد فى أقصى البحر الأسود، مستقلاً كذلك. وعقدت الإمبراطورية اللاتينية فى مناطقها الخلفية بعض العلاقات مع الأتراك[١٠] غير أن السلطات القريبة من الحدود اليونانية كانت تضمن الدفاع عنها إجمالاً بشكل أفضل مما كانت تقوم به القسطنطينية، وسيوجه السلاجقة أنظارهم آنذاك نحو الشرق كما سنرى ذلك. فلم يعد للهيمنة التى مارستها بيزنطة على أنطاكية أى معنى. وعلى الصعيد الدولى تحالف فريدريك الثانى مع الحكام اليونانيين لنيقية فى صراعه ضد البابوية الممثلة للإمبراطورية اللاتينية.

ولا غرابة أن يُقابل سقوط القسطنطينية بفرح داخل الكنائس الشرقية وأن يعتبر اللاتين خلفاء للرومان الذين كانوا حكامًا شرعيين للمدينة[١١]. ربما بدأ الشرق اللاتينى يستفيد من كثافة سكانه الفرنجة بعد أن تقلصت مساحته إلى شريط ساحلى تقطعه البقعة الإسلامية للاذقية (وسنعاود الحديث عن دوره التجارى). وصارت إمارتا أنطاكية وطرابلس موحدتين فى ظل الأمراء أنفسهم بيد أنهما لم يكونا فى الحقيقة موحدتين نظرًا للبقعة الإسلامية التى كانت تفصلهما. لم تعد أنطاكية تهتم إطلاقًا بشؤون الجنوب ونتيجة لذلك لم تعد تهتم بالحروب

الصليبية وقد كانت عدوة للأرمن – القيليقين قبل أن تصير فيما بعد مُقطعهم، كما لم يعد مُلْكُ القدس، الذى كان يطالب به فريدريك الثانى، يعنيها مباشرة. وكانت المملكة وقبرص تنتميان لفرعين مختلفين من عائلة اللوزينيان. وبينما ظلت الملكية محافظة على قوتها النسبية بالجزيرة وفى مرتبة أعلى من قوة الإقطاعيين المهاجرين فإن اضطرابات وراثة الحكم بالمملكة قادت إلى تدهور المؤسسة الملكية، ولم يكن بوسع فريدريك الثانى الذى استولى على السلطة، وهو ما عارضه أغلب النبلاء المحليين، أن يضع حداً لهذا التدهور. على أية حال فإن الامتيازات المهمة التى مُنحت لبعض العائلات الكبرى والجماعات العسكرية والإيطاليين، لم تترك إلا القليل من الموارد للحكومة الملكية التى أصبحت آنذاك محرومة من المناطق الخلفية للسواحل. وحالت الصراعات الناشبة بين هذه السلطات على اختلافها دون القيام بأى عمل مشترك: وقد أدى التفكير فى مقاومة الأخطار الخارجية إلى تكوين جمعية بلدية بأنطاكية لم يعرف الشرق اللاتينى مثيلاً لها فى الاستقرار والدوام، فالمحاولات اللاحقة التى تمت فى عكا وغيرها من الأماكن كانت تقريبًا سريعة الزوال نظرًا للصراعات القائمة بين الأحزاب وهى محاولات أقرب إلى النموذج الإيطالى شبه الإشرافى وشبه البورجوازى.

وقد أدى الضعف الذى أصاب الشرق اللاتينى إلى أن صار فى موضع تبعية متزايدة للدول الأوروبية. ومع ذلك دفع غالبية فرنجة الشرق للبحث عن صيغة تعايش سلمى مع جيرانهم المسلمين لصالح الأمن العسكرى والنمو التجارى. وقد تعقد هذا الوضع بتدخل عوامل أخرى متنوعة. فقد لحق الغرب تشرذم من جراء صراعاته الذاتية، ولاسيما الصراع الجديد بين البابوية والإمبراطورية (أو حلفائها وورثتها) فى الربع الثانى والثالث من القرن الثالث عشر وهو صراع كانت له انعكاساته على الشرق اللاتينى فيما بعد. ومن جهة أخرى لم تقر البابوية بفشل الحملات الصليبية فاستعادت آنذاك المبادرة، بيد أن إرادة القيام بالحرب الصليبية ظلت واقعة غربية بحيث أن درجة اللامبالاة التى أبداها الشرق اللاتينى إزاءها جعلت فكرة هذه الحروب وأمر قياداتها بمنأة(*) عنه. وسواء كان الأمر يتعلق بالبابا أو فريدريك الثانى فإن الحملات الصليبية فى واقع الأمر هى جنوبية بصفة خاصة. ونحن الآن قد وصلنا إلى الفترة التى أخذت فيها المملكتان الفرنسية والإنجليزية فى النمو والتوسع.

لكن نظراً لانشغالهما بسياستهما الأوروبية فقد أهملتا الشرق. ومع ذلك يلاحظ فى

(*) يطرح المؤلف هنا مرة أخرى العلاقة بين الشرق اللاتينى والحروب الصليبية بصورة تثير الحيرة والتساؤل. انظر الفقرة الأولى من الفصل السادس وكذلك تقديمنا للكتاب (المترجم).

الوقت نفسه تعاظم تبعية الشرق اللاتينى إزاء الغرب. ففى القرن الثانى عشر تم اختيار رجال الكنيسة فى عين المكان على نطاق واسع. وفى القرن الثالث عشر تم إرسال كل الأساقفة من قبل روما (١٢) مع كل ما ينطوى عليه هذا الأمر من اختلاف العقليات. فنحن نعرف الاحتقار الذى كان يكنه جاك الفيترى لـ «البوليين(*)»(١٣). فتلك بالتأكيد كانت سياسة البابوية وقد حدث أن أثارت جملة من ردود الأفعال فى بلاد عديدة. غير أن النتائج المترتبة على ذلك كانت لها خطورتها فى الشرق اللاتينى الذى أكدنا على تبعيته وعدم استقلاليته، كما أن نقل الصراع إليه بين البابا والإمبراطور على الصعيد المحلى قد زاد من حالة الفوضى والضعف الذى سببته من قبل عدة عوامل. وسنتحدث لاحقاً عن مسألة المبشرين.

* * *

لم تكن هذه الظروف السائدة مفيدة لأحد من مسيحيى الشرق سوى الأرمن حيث عملوا بصورة تدريجية على تأسيس دولة إقليمية مستقلة. ففى عام ١١٩٧ وجد ليون الأول وسيلة لتسلم السلطة الملكية فى قيليقية حيث باركه فى آن واحد كل من الامبراطورين الألمانى والبيزنطى والبابوية. حيث أثار لدى هذه الأخيرة الأمل فى انضمام كنيسته إلى روما. لكن الموقف كان حرجًا ذلك أن ليون ومن خلفوه كانوا يعرفون أن مصيرهم مرتبط بمصير الشرق اللاتينى رغم أنهم لم يشاركوا فى أية حملة صليبية. فقد ساهم بعض بارونات الفرنجة الذين أقاموا فى السهل القيليقى، وبعض الجماعات العسكرية ولاسيما الجماعة التوتونية الجديدة، فى الدفاع عن البلد. وكانت الأرستقراطية الأرمنية، برغم طابعها القومى تطمح أن يعترف بها عضواً من أعضاء المجتمع الإقطاعى بالشرق الأدنى اللاتينى. وقد قدمت للتجار الإيطاليين مثلما فعلت قبرص، قاعدة أكثر أمنًا من الموانىء السورية فى حالة تعرضها للهجوم من قبل المسلمين. على أن عامة الناس من الأرمن كانوا مرتبطين ارتباطًا شديداً بكنيسة قومية بدون أن يقدموا أية مساومات فى هذا الشأن. من الصعب ألا يوضع فى الاعتبار الأرمن بأرمينيا الكبرى رغم أن مملكة قيليقية كانت منفصلة عنهم من وجهة النظر الكنسية، وكان يصعب بالخصوص ألا يوضع فى الاعتبار كل أولئك الذين بقوا بأعداد كبيرة فى منطقة الفرات الأوسط وكانوا يخشون عدوان حكامهم المسلمين لو ظهر انحيازهم للجانب الفرنجى.

وكان من شأن الخلاف الذى وقع بين أرمن قيليقية وفرنجة أنطاكية خلال نصف قرن أن

(*) البوليين أو البولان : تسمية أطلقت على سبيل التحقير، إذ كانت تطلق عادة على الطفل المولود من أم فرنجية وأب سورى أو العكس. (المترجم)

يزيد من تعقيد الأمور دون أن يحدث تغييراً بالمعطيات الأساسية. وقد منحت المصالحة التى حققها سان لويس بين الدولتين، فى آخر لحظة، تفوقًا رسميًا للسلالة الأرمينية الحاكمة على سوريا الشمالية، وفى الوقت نفسه كان إدخال القانون الفرنجى إلى قيليقية دافعًا لترجمة «قوانين ملتقيات أنطاكية» إلى اللغة الأرمينية بأمر من سامبا الذى كان قائداً عاماً وشقيقاً للملك. ومن المفارقات التاريخية أن تكون هذه الترجمة هى الصيغة الوحيدة لما وصلنا عن هذا النص.

ليس هناك ما يدعو للتركيز، فى هذا المقام، على المملكة الجيورجية لكن يمكننا أن نذكر أنها وصلت إلى أوج قوتها فى هذه الفترة، إذ وصل امتدادها حتى جزء من أرمينيا التقليدية وكانت فى الآن نفسه تبحث عن ضمانات من الجانب الروسى وطرابزون ولدى سلاجقة آسيا الصغرى وفى أماكن أخرى. ولم يكن لديها علاقات مباشرة مع الشرق اللاتينى حيث لم يكن الكلام يدور حول الجيورجيين إلا فيما يتعلق بالأديرة التى كانت كنيستهم تقوم برعايتها فى القدس.

كان سلاجقة الروم آنذاك فى ذروة مجدهم، وكانت سياستهم التوسعية على الحدود الإسلامية السورية – الجزيرية قد توجت بالاستيلاء على مدينة آمد فى عام ١٢٣٦، غير أن وضعهم على الحدود الأخرى المسيحية بشكل عام كان يقوم على مبدأ الحياد أو السلام. أما الأسباب التى دفعتهم للتركيز على سياسة الشرق فكانت غامضة جداً. هل كان الأمر يتعلق بإرادة توسعية طبيعية دفعتها للاستفادة من تشرذم الدول المنافسة لها كما هو شأن كل دولة قوية ؟ لقد قاموا من قبل بتوحيد شرق آسيا الصغرى لصالحهم، فهل كانوا يريدون أن يضيفوا إليه كل الدول التى يقطن بها جزء من السكان الأتراك أم كانوا يريدون إبطال الدسائس التى يمكن أن تحاك بداخلها ؟ هل كانوا يعتقدون بأنه كلما اتسع أحدورهم العازل أمكنهم القضاء على الهجمات المتوقعة بشكل أفضل ؟ ومهما يكن من أمر فإننا نلاحظ أنه منذ بداية القرن ظهرت سياسة عدوانية على الطوروس الغربى الذى كان بيزنطيًا فى السابق وأصبح أرمينياً بعد ذلك، وهى سياسة سيقلعون عنها فى الربع الثانى من القرن، لكنها كانت قد دفعتهم، بالاتفاق مع الحاكم الأيوبى الصغير بحلب، إلى مساندة فرنجة أنطاكية ضد

(*) آمد : يشير أبو الفداء إلى موقعها الجغرافى على النحو التالى وتجرى دجلة من الشمال والغرب إلى جهة الجنوب والشرق ثم تغرب بميله إلى الجنوب إلى مدينة آمد.. ثم تأخذ جنوبيًا إلى جزيرة ابن عمر. انظر : تقويم البلدان لعماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبى الفداء. ص ٥٣. وطبع فى مدينة باريس المحروسة بدار الطباعة السلطانية سنة ١٨٣٤ – المترجم –

الأرمن الذين كانوا تقريبًا حلفاء لكبار الأيوبيين. لقد غزوا منافذ البحر وهى ميناء سينوب وسمسون بالشمال وميناء أنطاكية(١٤) فى الجنوب على حساب المقاطعات التى كانت تابعة لبيزنطة سابقًا لكنها لم تعد تابعة إلى دولة نيقية التى ورثت التقاليد البيزنطية. ومع هذه الدولة كانت العلاقات الرسمية علاقات سليمة وأحيانًا ودية ولو أن التركمان أبقوا على نوع من التوتر على الحدود الواقعة بالشمال الغربى.

من المؤكد أنه تم فى السابق عقد علاقات جيدة مع فرنجة القسطنطينية. على سبيل الاحتياط، لكن لم يصل الأمر إلى أن يمدوا لهم يد المساعدات، ربما لأنهم لم يحرصوا على استبدال جيرانهم بالتخلى عن اليونانيين المتركزين فى دولة نيقية والذين قاموا بتنظيم الدفاع عنها بشكل أكثر فعالية مما كان عليه الأمر فى عهد الإمبراطورية البلقانية – الأناضولية. وكان من شأن حملة القرم المشهودة أن تضر باليونانيين بطرابزون الذين خلفوا يونانيى القسطنطينية كقوة حماية بعد عام ١٢٠٤، وربما كان من شأنها أن تضر كذلك ببعض الإيطاليين لكن من المؤكد أنها لم تكن تضر بيونانيى نيقية. وتم السعى لإقامة علاقات تجارية مثمرة مع الإيطاليين أنفسهم ولاسيما البنادقة وكذلك مع بعض القبارصة. وما كان للأثر النفسى الشديد الذى خلفه الغزو الخوارزمى فى عام ١٢٣١ إلا أن يدعم هذه السياسة وإذا كان قد أحدث تحالفًا بين السلاجقة والأيوبيين لفترة مؤقتة فإن هذا التحالف قد أفسح المجال بعد زوال الخطر إلى قطيعة كانت من الخطورة بمكان بحيث قامت بتعزيز إرادة السلام داخل الحدود الأخرى. وقد أكدت الصعوبات الداخلية فى عهد كاى خسرو الثانى هذه السياسة كما أدت المصاهرة إلى بدء التعاون مع الجيورجيين، ووثقت بعض أوجه الاتحاد الأخرى الروابط القائمة بين أتراك قونيا ويونانيى نيقية.

لقد جذب تطور الدولة ومصائب إيران عددًا متزايدًا من الإيرانيين نحو سلاجقة الروم، وقد أسهم هؤلاء الإيرانيون فى تنظيم الجهاز الإدارى والازدهار الثقافى للبلد مع التحفظ بشأن التركمان الحدوديين الذين ظلوا بعيدين عنه(١٥). وهكذا صارت الأراضى السلجوقية، بما تنفرد به من ميزات، فرعًا من فروع الحضارة الإيرانية – التركية الإسلامية أكثر من كونها فرعًا من فروع العالم العربى على أننا سنتكلم بعد قليل عن علاقاتها المتميزة مع الخلافة، وربما سنتكلم كذلك بعض الشىء عن علاقاتها مع الغرب المسلم.

لا يفسر لنا أى نص مسلك الأيوبيين العادل والكامل إزاء الفرنجة. ووفقًا للوقائع فإن من البديهى أن يرغبا فى إقامة التعايش السلمى، ذلك أن سياسة صلاح الدين كانت قد

كلفتهم ثمنًا باهظًا، كما تبين أنه ليس بالإمكان الحصول مجددًا على ما حصل عليه صلاح الدين من مساعدات من قبل الأمراء المجاورين بمشقة كبيرة. وكانت المنازعات بينهما تتفاقم بمقدار اقتراب الخوارزميين منهما ثم المغول (انظر أدناه) وهو ما قادهم إلى التخلى عن القيام بحملات عشوائية بل والرغبة فى الحصول على دعم من الفرنجة أو من أحد أحزابهم. على أية حال فقد زال خطر هؤلاء وبدا أن ازدهار أوروبا كان يسمح بإقامة علاقات تجارية مربحة معهم. وكان من الضرورى أن تظهر مساوىء هذه العلاقات فيما بعد بالنسبة لاقتصاد الشرق الأدنى، لكن لم يكن بوسعهم آنذاك التنبه إليها فى النصف الأول من القرن الثالث عشر.

وكانت هذه السياسة تصادف - بالتأكيد - هوى فى نفوس عدد كبير من فرنجة الشرق، وكذلك التجار الإيطاليين [١٦]. وفى هذه الأثناء بالضبط كانت الدول المسيحية بالغرب بصدد تنظيم حملات صليبية[١٧] مما يخالف سياسة العادل والكامل تلك. ونحن نعرف أن هذه الحروب كانت تختلف فى بواعثها وتنظيمها ونتائجها.

فحملة عام ١٢٠٠ تمت بإرادة البابوية، رغم أنه عُهد بها إلى السادة الاقطاعين العلمانين نظرًا للوفاة المبكرة للامبراطور هنرى الرابع. وقد انتهت هذه الحملة بالاستيلاء على القسطنطينية فى بداية عام ١٢٠٤. وكان عدد أولئك الصليبيين الذين وصلوا منها إلى سوريا- رغم كل شىء - من القلة بحيث لم يمارسوا أى تأثير فيها. ومن جهة أخرى فقد ترتب عن حصول البنادقة على القسم الأكبر من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، على حساب بقية المدن التجارية الأخرى، أن زادت حدة التوتر أكثر مما كانت عليه سابقًا ولاسيما مع الجنوية. ونعرف أنهم قد حاولوا بمساعدة مواطنيهم من كونتات مالطة منازعة البنادقة بشأن جزيرة كريت، وهى المرسى الرئيسى فى شرق البحر المتوسط على الطريق إلى مصر. ولم يتم التركيز كثيرًا على أنهم قد أرسلوا سفارة استثنائية لدى الملك العادل الذى استضافها لفترة أسابيع بل وطاف بالسفير فى أرجاء مصر مما أثار استنكارًا كبيرًا لدى رعاياه. ويمكن للمرء أن يتذكر الروابط المميزة التى حافظ عليها الأيوبيون، ولاسيما الملك العادل، مع الجنوية. ومن الصعب ألا يخطر على بال المرء الانطباع بأن ثمة مفاوضةً قد تمت بين السلطان وجمهورية جنوة ضد البنادقة. بيد أنه لم يترتب عنها شىء على الصعيد العسكرى لأسباب نجهلها. وعلى الصعيد السياسى كان من اللازم أن يستمر هذا الوضع، لولا أن نبأ الحملة الصليبية الخامسة قد قاد الملك العادل إلى إعادة العلاقات مع البندقية فى الوقت نفسه الذى اضطر فيه الجنوية للقيام بنفس الخطوة داخل الامبراطورية اللاتينية. وربما كانت لبيزا كذلك سياستها

الخاصة فى البحر المتوسط، فهذه هى الفترة التى قام فيها المغامرون البيازنة بالاستيلاء مؤقتًا على ميناء سيراكوز فى صقلية وميناء انطاليا فى آسيا الصغرى التى كانت خاضعة لبيزنطة سابقًا[١٨].

لقد تميزت الحملة الصليبية الخامسة التى قادها المندوب الرسولى للبابا بكونها أول هجوم ضد مصر، أو على الأقل، أول حملة صليبية جردت مباشرة صوبها، حيث كانت تعتبر آنذاك مركزًا للسلطة الإسلامية فى الشرق الأدنى. لاشك أن الصليبيين لم يعقدوا عزمهم على غزو مصر، ولا كانت تلك نية التجار. غير أن احتلال الموانىء المصرية من شأنه أن يجعل منها عملة مقايضة لاسترجاع بلاد سوريا وفلسطين استرجاعًا كاملاً أو جزئيًا. وقد انتهت الحملة الصليبية إلى حدوث الكارثة، لأسباب كثيرة، منها تأخر الملك فريدريك الثانى الذى دفعه البابا للمشاركة بها[١٩] وكان مايزال شابًا.

بعد ذلك، بعدّة سنوات، قام فريدريك الثانى بحملة يعدها التاريخ الوصفى الكلاسيكى سادس حملة، وبما أن الأسرة الملكية بالقدس لم يبق منها سوى وريثة شابة، كان هدفه الاستفادة من ذلك ليضم إلى سلطته داخل الإمبراطورية، ومملكة صقلية تلك السلطة الرفيعة التى تمثلها مملكة القدس. وهكذا استأنف سياسة أسلافه النورمانديين[٢٠] فى ظروف مستجدة. غير أن فريدريك الثانى الذى كان قد تشاجر أثناء ذلك مع روما، ذهب إلى الحملة بعد أن تم نبذه مما أضفى على الحملة طابعًا مناهضًا للرومان، فانقطع كل أمل فى حصوله على المساعدات من المسيحيين[٢١]. لم يعد هناك حلول أخرى بالنسبة لفريدريك الذى كان لابد له من تحقيق انتصار، سوى الطريق الدبلوماسى. وقد صادف ذلك هوى فى نفس السلطان الكامل (انظر أدناه) فتم توقيع معاهدة السلام، مع بعض التحفظات، مقابل إرجاع القدس للملكة. ومع أن الباعث كان سياسيًا لدى هذين القائدين فقد تتضمن نوعًا من التقدير المتبادل والتسامح مما أثار استنكار الفرنجة ومسلمى سوريا على السواء[٢٢] . وفيما يتعلق بفريدريك الثانى فقد أراد الناس تفسير موقفه ذاك فى غالب الأحيان باتصاله الطويل خلال فترة شبابه بمجتمع الحضارة المختلطة فى صقلية. من المؤكد أن هذه الخبرة يسرت له بعض التفاهم ويمكن التسليم بأن العلاقات العلمية التى عرف كيف يعقدها مع بعض العلماء المسلمين، لم يكن لها مقصداً دعائيًا فقط. ومع ذلك لا ينبغى أن ننسى أن فريدريك الثانى ذاته أخرج المسلمين من صقلية إلى لوسيرا بإيطاليا الجنوبية رغبة فى تحقيق السلام مع صقلية، وهناك حوصروا من قِبَل المسيحيين من كل الجهات فكان مصيرهم الهلاك. وكانت الواقعية السياسية

قد جعلته يطبق فى الشرق سياسته إزاء العالم الإسلامى وهى السياسة التى ظل ينتهجها حتى فترة الحملة الصليبية التى قامَ بهاُ سان لويس(٢٣)، والتى كان لابد أن يسير عليها خلفه مانفريد(٢٤). ومن الممكن كذلك أنه كان يأمل فى النهوض بتجارة الموانىء الإيطالية الجنوبية مع الشرق(٢٥). غير أن المواقع هنا كانت قد احتلت من قبل وظل إيطاليو الشمال يملكون زمام التجارة ولو أنهم كانوا يرسون فى الموانىء التابعة له. وعلى الصعيد السياسى العام تحالف فريدريك مثله فى ذلك مثل المسلمين مع الإمبراطـورية اليونـانية لنيقـية ضـد الإمبراطـورية اللاتينـية للقسـطنطينية(٢٦).

آنئذ وقعت بالشرق أحداث كان لابد لها أن تترك انعكاساتها على الشرق الأدنى، بالرغم من أنه لم تكن لهذه الأحداث صلة به فى البداية. فقد تأسست على أنقاض الإمبراطورية السلجوقية انطلاقًا من اقليم خوارزم (أمو داريا) دولة شاسعة شملت آسيا الوسطى المسلمة وقسمًا من إيران.

وكان لديها جيش قوى من الأتراك الذين أُطلِقَ عليهم اسم الخوارزميين، وهم فى الحقيقة قبائل قبجاك من السهول الأوروبية الآسيوية، وفى منطقة أبعد أخذ جنكيز خان فى توحيد القبائل المغولية والتركية الشرقية. وقد أدت المذبحة التى تعرضت لها قافلة تجارية - كان هناك اشتباه فى أنها تتضمن جواسيس - إلى قطيعة بين الدولتين. وفى عام ١٢١٧ تم سحق الخوارزمى شاه محمد، ومات بعد ذلك فى جزيرةٍ ببحر قزوين، بينما ألحق الغزاة خرابًا فظيعًا بالبلد، وتمكن ابنه جلال الدين منجبرتى من جمع الجنود الخوارزميين، وخلال إثنى عشر عامًا، وكان مايزال مطاردًا من قبل المغول، استولى بحد السيف على الممتلكات بوسط إيران ثم بغربها قبل أن يتم سحقه بسبب عزمه على اجتياح آسيا الصغرى السلجوقية وأثناء فراره قام فلاح كردى بقتله. لقد دفع ما أثاره من رعب وما مثله من قوة إقليمية صغار الأمراء الأيوبيين وغيرهم إلى السعى للتحالف معه ضد بعضهم بعضًا. وكان هذا الإحساس بالخطر أحد الأسباب التى حثت الملك الكامل على التفاهم مع فريدريك الثانى. ولم يكن أى من هؤلاء الأمراء آنئذ قد اعتبر الغزو المغولى الذى لم يكن قد تجاوز بعد إيران أمرًا يستحق الاهتمام.

ومع ذلك فإن نتائج هذه الأحداث هى التى أفسدت العلاقات بين الفرنجة والمسلمين. فقد مات الملك الكامل فى عام ١٢٣٨ فتنازع ورثته. واستند الملك الصالح على الخوارزميين المروِّعين الذين كانوا يبحثون عمن يقودهم بعد أن تجمعوا أكثر فأكثر جهة الغرب. وقامَ غيرهم من الأيوبيين بالاستعانة بالفرنجة عليهم مقابل أن يتخلوا لهم عن أراضٍ صغيرة. وتقاتل المتحالفون فيما بينهم وتم الاستيلاء من جديد على القدس فى عام ١٢٤٤ مما تسبب فى قيام

حملة سان لويس الصليبية، وفى هذه الأثناء أخذت قوة الخوارزميين تتضاءل فآثر الملك الصالح فى مصر أن يزيد عدد جيشه من المماليك الأتراك بصرف أموال كثيرة، وبما أن الأمر كان يتطلب استخدام هذا الجيش فقد استؤنفت عمليات الحرب المقدسة عشية وصول الصليبيين الجدد. وهنا حدثت وفاة الملك الصالح وقدوم الفرنسيين فى الوقت نفسه، فاستولى جيش المماليك على السلطة لحسابه مستهلاً بذلك نظامًا جديدًا تأكد دوامه لاحقًا(٢٧).

وتظهر حملة لويس التاسع فى شكل حالة اعتراضية تنطوى على مغالطة تاريخية فى مسار تاريخى تكاد لا تُغير فيه شيئًا، وسنختصر الكلام بشأنها فى بضع كلمات، ونحن نعلم أنه إذا كان المبادر وقائد الحملة فى هذا الظرف حاكمًا، فإن باعثه هو ورع مشابه لورع الصليبيين الأوائل، ولو اصطبغ بالروح التبشيرية التى أخذت آنذاك فى الظهور. ولم تكن هذه الحملة الصليبية إلا حملة القرن الثالث عشر، بما نشأ عنها من مساومات مالية مع الناقلين الإيطاليين الذين كانوا من الجنوية هذه المرة، كما كان الأمر بالنسبة لفيليب أوجيست وبما اتخذته من توجه نحو مصر وهو توجه كاد يتم بدون مشاركة عسكرية للشرق اللاتينى. ومن المعلوم أنها انتهت إلى الكارثة، وإلى أسر الملك وفرسانه. وبعد إطلاق سراحه مقابل الفدية وقضائه أربع سنوات فى الشرق حصل له الاقتناع بأنه لا يوجد هناك ما هو أفضل، آنذاك من محاولة الإستفادة من انشقاقات المسلمين (بين مماليك مصر وأيوبى حلب وغيرها من الانشقاقات) والسعى فى المقابل لمصالحة الأحزاب الفرنجية المتعادية(٢٨). وقد تمكن من إعادة السلام بين الملكية الأرمينية القيليقية وانطاكية (انظر أعلاه) بينما لم يتمكن من ذلك بالنسبة للجنوية والبنادقة. والشيء المؤكد أن لويس التاسع لم يتصرف كحاكم ولا كإقطاعى خلافًا لفريدريك الثانى وشقيقه شارل الأنجى(٢٩).

يلاحظ المرء بعده بفترة قصيرة أن أغلب الطوائف المسيحية بالشرق قد عرفت آنذاك نوعًا من النهضة الثقافية من غير أن نتمكن من معرفة كيفية حدوث هذه النهضة، والسبب فى نشأتها، علاوة على أنه من غير المجدى أن نعزو للشرق اللاتينى والمبشرين دورا فى هذا الشأن. ففى حالة الكنيسة المونوفيزية كانت أداة هذه النهضة هى اللغة السيريانية رغم أن المؤمنين كانوا يستخدمون اللغة العربية التى كانت لغة شائعة. وتُعدُّ حوليات ميخائيل السورى وحوليات الكاتب المجهول بالرُها خير نماذج على ذلك، وقد تحقق أوج هذه النهضة فى مناخ الإمبراطورية المغولية على يد جريجوار أبو الفرج المسمى ابن العبرى، الذى كان قمة الإبداع فإنتاجه أكثر تنوعًا ومعلوماته مستقاة من لغات متعددة، أضف إلى ذلك أنه قام بترجمة

حولياته الضخمة إلى اللغة العربية فى شكل مختصر بعض الشىء حتى يكون فى متناول الجمهور العام وكانت الطوائف المسيحية الأخرى بالشرق تتحدث جميعها باللغة العربية كما هو شأن مارى بن سليمان بالعراق وكان نسطوريًا وكذلك بعض المؤلفين الملكيين بسوريا بغض النظر عن الموارنة. وكانت الطائفة الأكثر حيوية هى طائفة الأقباط فى مصر، إذ ظل دورهم مهمًا فى الإدارة والتجارة الداخلية للبلد وفى ذلك إجابة حاسمة عما يقال بشأن أفول نجم المسيحيين فى دول آسيا. وقد نتج عن ذلك عداوة متزايدة ضدهم كما تشهد بذلك الكتابات النقدية العنيفة للنابلسى الذى كان يثير الشكوك حول تواطئهم مع الفرنجة(٣٠) فى فترة الحملات الصليبية وذلك قبل مجىء المماليك. وقد أنتجوا آنذاك مؤلفات تاريخية (المكين(*)) وتشريعية (مؤلفات بنى العسال(**))(٣١) ومن المفارقات أن يتصادف ذلك مع توقف تاريخ بطاركة الاسكندرية.

غير أن النشاط الثقافى لليهود، بعد موسى بن ميمون، كان آيلاً للزوال، فربما لم يعد يجدون فى الأوضاع المستجدة للعالم الإسلامى المناخ الذى كان سائدًا فى العصور الكلاسيكية، وكان مناخا مشجعًا لهم. وسار اتجاههم فى منحى مشابه بعض الشىء للمسلمين غير أننا سنشهد تطورًا لتيارات موازية فى اتجاه الجانب الأوروبى أكثر وبشكل مستقل عن الإسلام.

وعلى صعيد آخر كذلك جاءت المبادرة من الغرب، فحركة التبشير التى تطورت فى القرن الثالث عشر قدمت فى الغالب على أنها حركة تابعة للحروب الصليبية. لقد ارتبطت هذه

(*) المكين: هو ابن العميد (المكين جرجس) ولد فى القاهرة ١٢٠٥. وتوفى فى دمشق ١٢٧٣. مؤرخ مسيحى خدم فى ديوان الجيش فى دمشق وله «المجموع المبارك» و«تاريخ المسلمين» المنجد فى اللغة والأعلام - (المترجم).

(**) بنو العسال: عائلة قبطية كبيرة، خدمت الدولة طوال القرن الثالث عشر، كبير العائلة هو أبو بشر يوحنا، الكاتب المصرى، وابنه أبو سهل جرجس الذى خلف الصفى أبو الفضائل. له مؤلفات عديدة أشهرها «المجموع الصفوى» فيه قوانين الكنيسة القبطية وهو لايزال مستعملاً حتى اليوم. «والصحائح فى جواب النصائح» و«نهج السبيل فى تخجيل محرفى الانجيل». ومنهم كذلك الأسعد أبو الفرج الذى وضع كتاباً فى قواعد اللغة القبطية وله ترجمة علمية للأناجيل اعتمد فيها على اليونانية والسيريانية والقبطية، ومن أولاده أيضا المؤتمن أبو اسحاق وهو أصغر أولاد العسال، سافر إلى دمشق مرتين لأغراض علمية وجمع فى المرة الثانية مخطوطات قيمة له «السلم المقضى والذهب المصفى» وهو معجم قبطى عربى كبير «ومجموع أصول الدين» موسوعة دينية - المنجد فى اللغة والأعلام (المترجم).

الحركة بالطبع بالاهتمام بالإسلام وكنائس الشرق، شأنها فى ذلك شأن الحروب الصليبية، وكان فى وسع بعضهم أن يتصور أن الحملة الصليبية كان هدفها السماح للكفار بسماع كلام المسيح. غير أن كل فكرة عن التنصير بدت غريبة عن الشرق اللاتينى فى القرن الثانى عشر كما رأينا ذلك. فجماعة البندكتيين التى ترتبط بها المؤسسات اللاتينية المنقولة من الغرب وكذلك الجماعات المحلية لم يحددا لأنفسهما قط مهمة تبشيرية، وهى ربما كانت ممنوعة فى بلد إسلامى. لقد كان السيتيون قد طوروا نشاطًا من هذا النوع. غير أن هذه الجماعة لم تتوطد فى الشرق اللاتينى إلا مع بداية القرن الثالث عشر مع ممثلين غربيين تمامًا، وقد ظهرت فكرة حقيقية فعلية عن التبشير مع جماعات الشحاذين الفرنسيسكان(*) والدومنيكان(**) ، ففى البداية تولد لديهم الاهتمام بنشر العقيدة من خلال اتصالهم بالمسلمين بإسبانيا والمغرب، وقد لزم أن يظل الغرب مصدرًا ملهمًا لهذا الاهتمام حتى رامون لول ومن جاء بعده. وتُظهر إحدى الروايات شبه الأسطورية القديس فرانسوا ذاهباً للقاء السلطان الكامل، غير أن العمل الحقيقى لجماعته فى الشرق لم يبدأ إلا بعد وفاته عندما واتت البابا انوسنت الرابع الإرادة نحو القيام بذلك، ولابد من التمييز بين فئتين من جماعات المبشريين التى أرسلت آنذاك. فالبعض منها قد أرسل نتيجة لاقتراب المغول الذى ظهر واضحًا بعد انتصاراتهم على السلاجقة بآسيا الصغرى فى عام ١٢٤٣، وكما حدث مع الكراخطائين فى القرن الماضى، آنذاك فقد وفق المغول بين كافة أديان آسيا الوسطى، بما فيها المسيحية، ويحملهم على أنفسهم قصة الكاهن يوحنا، فقد تم الاعتقاد فى إمكانية إجراء المفاوضات السياسية والدينية. غير أنه من جانب آخر لم يكن الأمر آنذاك بالنسبة للبابوية يتعلق بتنصير المسلمين، بقدر ما كان يتعلق بمحاولة توحيد كنائس الشرق من أجل تشكيل جبهة مشتركة فى مواجهة الإسلام، وهو نوع من التبشير كان بوسع الدولة الإسلامية أن تسمح به.

(*) الفرنسيسكان: رهبانية أسسها القديس فرنسيس الأسيزى عام ١٢١٠ وجعل الفقر أساسًا لحياتها، فهى تعيش من التسول، انصرف رهبانها إلى التعليم والتبشير فى المدن حيث نشطوا حياة العلمانيين الروحية. رهبانها فى الشرق هم «حراس الأراضى المقدسة». حطوا فى القدس بين عامى ١٢٢٩ - ١٢٤٤ ودمياط عام ١٢٤٩ والقاهرة عام ١٣٢٠ وبيروت عام ١٤٤٠ وحلب عام ١٥٧١ وطرابلس لبنان عام ١٥٨٢ - المنجد فى اللغة والاعلام - المترجم.

(**) الدومنيكان: أو الأخوة الواعظون: هم أعضاء الرهبانية التى أسسها القديس عبد الأحد لدحض البدع عام ١٢٠٦، كانوا أرباب التعليم الفلسفى واللاهوتى فى القرون الوسطى. دخلوا البلاد الشرقية فى القرن السابع عشر، أسسوا إكليريكية الموصل عام ١٨٨٢، وكانت لهم فيها مطبعة عربية شهيرة، لهم فى القدس مدرسة الكتاب المقدس. المنجد فى اللغة والأعلام - المترجم.

ونظرًا لاقتناع المبشرين بأنه يكفى التبشير بالعقيدة الحقة، حتى يظهر الحق ويبلغ من كانوا يجهلونه اصطدمت سذاجتهم تلك بمرارة التجربة، حتى فى البلاد التى سادها المغول وأذنوا فيها للمبشرين بالاتصال بالمسلمين، وقد أخذ هؤلاء الميشرون، على الأقل، يتقبلون شيئًا فشيئًا إمكانية أن يكون للإسلام مزايا حقيقية، أما فيما يتعلق بالكنائس الشرقية فربما كان بوسعنا الاعتقاد بأن المبشرين قد يجدون دعماً لدى لاتينيي الشرق وقد تضاءلت قوتهم إلى درجـة يتعذر معها أن يتغلبوا وحدهم على المسلمين. فى الواقـع كان دورهـم لا يقتضـى سوى الحصـول على قـاعـدة أرضية للقيام ببعض المهام، بل لقد وصـل الأمر إلى تعيين بعض الفرنسيسكان والدومنيكان – نظرًا لصعوبة إيجاد ما يكفى من رجال الدين فى المكان عينه، مما جعلهم يَعدُّون الشرق اللاتينى ذاته بلدًا تبشيريًا، وكانت فكرة توحيد الكنائس فكرة طوباوية فلم تتحقق، ذلك أن أغلب المسيحيين كانوا خارج الشرق اللاتينى. وعلاوة على تعلقهم بخصوصياتهم الإقليمية، فقد كانوا يخشون غضب حكامهم فيما لو تقربوا من اللاتين، وأكثر من ذلك فإنه حتى عندما كان الأمر متعلقًا بالمسيحيين الذين يعيشون فى أطراف الشرق اللاتينى – كما هو شأن الملكيين الشرقيين – فقد كان الكهنة اللاتين أنفسهم يقومون بإفشال مشروعات البابا، وكان هذا الأخير قد تمنى أن تكون الكنيسة اليونانية بالشرق قابلة للدمج مع الكنائس الأخرى التى كان يمكن أن تمنح وضعية قانونية مستقلة، بحيث يوضع حد للشجار الدائم بين اللاتين واليونانيين، ولاسيما فى أنطاكية، غير أن اتحاد الكنائس الذى ينشده البابا – أياً كان نوعه – ربما كان سيؤدى فعلاً إلى الطعن فى سيطرة الكهنوت اللاتينى وتفوقه وضرورة التوزيع العادل للمداخيل المحصلة، وبناء على ذلك فشلت هذه المشاريع، ولم يكن من شأن الكوارث التى أصابت الشرق اللاتينى أن تشجع على استئنافها، أضف إلى ذلك أنه خلال هذه الفترة ذاتها تلاشت الآمال المعقودة على المفاوضات المباشرة بين روما القسطنطينية التى استعادها البيزنطيون[٣٢].

* * *

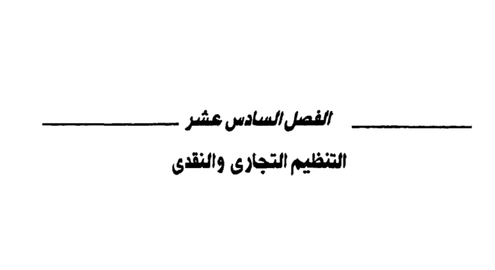
لقد رأينا أن الخلافة أهملت بعض الشىء الكفاح ضد الصليبيين، حتى فى عهد صلاح الدين رغم الجهود التى بذلها هذا الأمير، وبرغم توافر بعض الوسائل لذلك من جراء تفكك السلطة السلجوقية فى تلك الأثناء، وعلى صعيد السياسة الخارجية كانت بغداد دائمة الاهتمام بالخطر القادم من إيران أكثر من اهتمامها بالأخطار الأخرى مع أن فترة الحملة الصليبية الثالثة كانت أيضًا فترة التوسع الخوارزمى.

وظل الوضع على حاله، لاسيما فى أوقات السلم بين الأيوبيين والفرنجة، وكذلك عندما

وجد الخليفة نفسه فى مواجهة سلطنة جلال الدين المنجبيرتى الناشئة قبل مجىء المغول، وقد كان بعضهم يتهم الخليفة الناصر باستدعائهم ضد الخورازميين، وهى أخطار لابد من الاعتراف بأن الأمراء السوريين والمصريين لم يكن يبالون بها فيما يبدو، مثلما لم يكن الخليفة مباليًا بما يتربص به من أخطار، ولا يعنى هذا أن الخليفة الناصر بشكل خاص (١١٨٠ – ١٢٢٢) لم ينشغل بقوة الخلافة ومجدها – إنما كان يلتمس ذلك بطرق مختلفة. ونظراً لعدم تجمع العالم الإسلامى حوله سياسيًا فقد سعى على الأقل إلى إعطاء المؤسسة التى يمثلها سلطة أخلاقية جديدة[٣٣] بدءا بالمحيط البغدادى الكفيل بأن يجعل كل شرائح المجتمع ملتحمة حوله، بغض النظر عن الاختلافات القائمة بين المذاهب الدينية. لقد اقتضبنا الكلام آنفًا عن هذه التنظيمات الشعبية المسماة «الفتوة» فهو قد انضم إليها وأدخل إليها الأشراف خلافًا لسابقيه الذين حاربوا هذه التنظيمات بلا جدوى، ثم ثابر على إقناع كل الأمراء المسلمين بالشرق الأدنى بالاهتمام الشخصى بهذا النمط من الجماعات التى عمل على تأسيسها بهذا الشكل، بحيث تعمل على إنجاز مشاريع اجتماعية مماثلة داخل بلدانهم، لكن لم يتحقق هذا الأمر على النحو الذى دعا إليه، لكن بقى منها لدى طبقة الأشراف نوعًا متميزاً من الجماعات الرياضية التى أعطت الانطباع لأول مستشرق اكتشفها فى القرن التاسع عشر بأنها شبيهة بجماعات الفروسية التى ترجع إلى الفترة المتأخرة من العصر الوسيط بالغرب. ومن جهة أخرى فإن الاصلاحات التى قام بها الخليفة الناصر تزامنت مع تنظيم الدولة الإسلامية من قبل سلاجقة آسيا الصغرى لم تشهد بداية تكونها إلا فى القرن الثانى عشر، وكان السلاجقة شأنهم فى ذلك التى شأن الخليفة غير مبالين بأية فكرة تخص التضامن الإسلامى لمواجهة الحملات الصليبية الجديدة، بل لقد كانوا قليلى الانشغال بمحاربة البيزنطيين، وفى الخارج كانت أنظارهم هم أيضاً تتجه أولاً إلى إيران التى كان أسلافهم قد عبروا منها وحيث كان يتوافد منها آنذاك الأطر المدنية والدينية التى ساعدتهم على تكوين نظامهم السياسى، وهكذا نشأ لديهم نوع من تنظيمات الفتوة مستوحى من تلك التى كانت لدى الناصر، وقد أسبغت على هذا الخليفة هيبة سرعان ما قضى عليها الغزو المغولى.

نفهم من خلال هذه الأوضاع أن مفهوم الأمة لم يكن منتظمًا حول الخلافة أثناء الفترة التى حافظ فيها على بقائه، وكانت إيران تعيش من مواردها الخاصة وهو مالم يؤد إلاّ إلى تشديد الغزو المغولى بعد فترة قصيرة. وفى البلاد العربية أصبحت سوريا منذ تلك الفترة مركز الجذب قبل مصر، وذلك رغم الحملة الصليبية. ولقد رأينا لدى الحكام أن صلاح الدين لم يتمكن من إثارة اهتمام مسلمى الغرب بالكفاح المشترك ضد الفرنجة، أما مسلمى الشرق فقد

كانت لهم هموم أخرى غير الانشغال بأمر استئناف الهجوم المسيحى فى إسبانيا، وهو ما سيقلص مجال النفوذ الإسلامى فى مملكة غرناطة أو الاهتمام بنتائج سقوط الموحدين بالمغرب. أما على مستوى الآداب والعلوم فقد رأينا منذ القرن الثانى عشر ما كان عليه أهل صقلية من الشتات، وسنجد فى القرن الثالث عشر أن الشرق الأيوبى هو المكان الذى سيموت فيه الصوفى ابن عربى وعالم النبات ابن البيطار وابن صاعد الأندلسى صاحب المصنفات المتعددة وغيرهم، وسنعود إلى هذه المكانة التى كانت لسوريا.



الفصل السادس عشر

التنظيم التجاري والنقدى

لم تكن أوضاع التجارة في النصف الأول من القرن الثالث عشر مطابقة للأوضاع التى كانت سائدة فى الفترة السابقة. فقد تضاءلت الأهمية النسبية التى كانت لمصر، ولعل ذلك يرجع من جهة لانخفاض إنتاجها من التبر [1] واكتشاف أحجار الشب فى الأناضول المنافس[2] لمنتوجها منه، ومن جهة ثانية للرقابة المتشددة التى فرضت من قبل البابوية على التصديرات الغربية ذات الأهمية العسكرية بما فيها الخشب والحديد[3] (وربما لم يمنع ذلك الإيطاليين من جلبهما من آسيا الصغرى). ومن جهة أخرى فقد أحدث سقوط القسطنطينية خللا كبيراً بالسوق البيزنطية، واستولت البندقية على نصيب الأسد من الأرباح المتوقعة، لكن أية أرباح كانت ؟ لقد اختفى بلاط الأباطرة البيزنطيين، ولم يكن بوسع خلفائهم اللاتين الصغار ولا أتباعهم اليونان أن يحلوا محلهم على الصعيد التجارى. من المؤكد أن الحملة الصليبية قد فتحت بوابة البوسفور بحيث أصبح فى إمكان البنادقة آنذاك التغلغل فى البحر الأسود بدل اليونانيين، لكن هذا لم يكن كافياً لزيادة الطلب التجارى. وطالما بقيت دائماً تجارة الفراء والعبيد إلخ الصادرة من الأراضى الروسية، فإن اليونانيين وأهل القرم المحليين أخذوا منذ ذلك الحين يوجهونها إما نحو مدينة طرابزون التى صارت آنذاك حامية لهم، وإما نحو الدولة السلجوقية بعد أن أصبح لها منافذ على البحر الأسود[4] من خلال مينائى سمسون وسينوب فصارت منذ ذاك الحين مُحْكَمة التنظيم مما أمد السلاجقة ببعض العمالة[5]، وصارت من يومها مدينة سيواس، وهى ملتقى رئيسى بآسيا الصغرى الوسطى، ميداناً ضخماً للتجارة بحيث يصعب الظن بأن القوافل التجارية لم تجعل سوريا المسلمة[6] تستفيد بدورها كذلك.

صحيح أن الذين عملوا على إقامة هذه العلاقات، على الأقل فى البحر المتوسط، هم أيضاً الإيطاليون وفى المرتبة الثانية يأتى الراجوزيون(*) والانكونيون(**) إلخ. ونلاحظ أنهم كانوا يرتادون عدداً متزايداً من الموانئ الصغيرة، خاصة من أجل مشترياتهم بلاشك، ومع سرعة اقتناعهم بعدم كفاية الأراضى اليونانية – اللاتينية بأوروبا لم يتوانوا فى التعامل مع يونانى نيقية [8] ولا مع السلاجقة الذين استولوا على ميناء انطاليا الواقع على شواطئهم الجنوبية من يد مغامر من البيازنة[9]. ووصلوا، عبر قبرص إلى المملكة الأرمينية الناشئة بقيليقية. وهكذا نعود إلى الشرق اللاتينى والشرق الأدنى المسلم.

(*) الراجوزيون : نسبة إلى مدينة «راجوز» الواقعة فى جزيرة صقلية (المترجم).

(**) الانكونيون : نسبة إلى ميناء أنكون الإيطالى الواقع على البحر الأدرياتيكى (المترجم).

لقد كان فى شأن تجمع الفرنجة على الساحل لاسيما فى عكا أن جعل من هذا الميدان سوقًا تجاريةً مهمةً. وليس من قبيل المصادفة أن تبتكر آنذاك التعريفة الجمركية التى حفظتها لنا «قوانين ملتقيات البورجوازيين» والتى سنعود للحديث عنها. فى حين صار لمقاطعة حلب المسلمة منذ تلك الفترة منفذ على البحر بواسطة الميناء الجيد للاذقية. ومنح الإيطاليون أنفسهم الحق فى ممارسة التجارة بداخله مع الحصول على امتياز على الموانىء الفرنجية التى كانت القوافل الداخلية تصل إليه دون أن تعبر الحدود، وكما حدث فى الإمبراطورية البيزنطية السابقة فقد تغلغل الإيطاليون أنفسهم آنذاك حتى العواصم الداخلية كحلب ودمشق (وقد شوهد بها الفلورنسيون)[١٠] وقونيه بآسيا الصغرى حيث نجد شخصين من مدينة جنوة والبندقية قادمين من الشرق اللاتينى يتقاسمان احتكار تصدير أحجار الشب[١١].

ولا تقلل هذه الوقائع من أهمية موانىء الشرق اللاتينى[١٢]، ومع تكرار حدوث الحملات الصليبية اضطر بعض التجار إلى البحث عن ملاجىء آمنة فى البلاد المسيحية، ولو أن بعض الإيطاليين كانوا يشاركون بها من أجل الارتزاق، وحتى فى فترة السلم كان من الأفضل بشكل عام بالنسبة لتجار السفن الذين يقومون برحلة ثلاثية إلى الغرب وسوريا ومصر أن يتبعوا هذا الترتيب بدل أن يمروا فى البداية عبر مصر حيث قد تحتجز منهم البضائع الموجهة إلى الفرنجة، ومنذ الحملة الصليبية الثالثة صارت لهم فى عكا وصور أراضٍ صغيرة حقيقية ومستقلة، لم يكن باستطاعتهم أن يجدوا مثيلاً لها فى مصر حتى عندما كانت الإجراءات مناسبة لهم، غير أن هذا الأمر كان يعزز بالطبع التنافس بين المدن مما كدر صفو الشرق اللاتينى[١٣]. وتلاحقت فى الحرب المسماة سان سابا (١٢٥٥ - ١٢٥٩) جملة من الأحداث جعلت البنادقة الذين طردوا من صور يستقرون فى عكا حيث قاموا بطرد الجنوية.

لا نتبين جيداً إذا كان اختراع البوصلة قد عجل بتغيير أوضاع الملاحة، ربما لن نتمكن أبداً من حسم النقاش فى مسألة أصل البوصلة فزيادة حركة الملاحة كانت بالتأكيد باعثًا على تحسين استخدام الإبرة المغنطة التى كانت معروفة لدى الصينيين، ويبدو أن أول شهادة مدققة فى هذا الشأن ترجع إلى مؤلف مسلم قبجاكى[١٤] وفيها يشير إلى سفينة فرنجية بطرابلس حوالى ١٢٤٠.

لقد حفظنا فيما يتعلق بعكا على قائمة (مكونة من جزأين) لتعريفات جمركية يعود بعض موادها إلى القرن الثانى عشر لكنها فى مجملها كانت تعكس الوضع السائد فى النصف الأول

من القرن الثالث عشر[١٥]، بعد أن أضيفت إليها بلاشك إضافات متتالية وفقًا للظروف والحاجات. وما يميز هذه القائمة أنه لم تدرج بها أية بضائع مستوردة من أوروبا، ولا حتى تلك التى نعلم علم اليقين أنها كانت تصل بكميات وفيرة. لاشك أن هذا الغياب يرجع إلى أن البضائع التى نتحدث عنها كانت فى الغالب الأعم تستورد من الأحياء الإيطالية معفاة من الرسوم[١٦]. وثمة تلميح واضح إلى بعض البضائع التى تم جلبها عبر البحر (المثال الوحيد الذى يظهر بوضوح هو قسم من السكر) أساسًا من مصر ومختلف «التوابل» الشرقية التى لم يحدد مصدرها، وهى ربما جلبت من داخل سوريا أو مصر عبر القوافل البرية أو بحرًا عبر مصر كذلك، وعلى وجه الإجمال يكاد الأمر يتعلق هنا بالتجارة البرية والمحلية، وكانت بقية المنتجات الأخرى بكاملها صادرة إما من الأراضى الفرنجية ذاتها أو من بلد وثنى يقصد به هنا بالخصوص سوريا المسلمة القريبة، وكان قسم مهم منها يتكون من بعض البضائع الصغيرة المخصصة للاستهلاك المحلى والتى لم تكن لتستثير كثيرًا من الاهتمام من قبل التجار الإيطاليين، على أن من شأن التوابل وبعض البضائع الأخرى كالسكر والكتان والقطن والحرير والشب أن تثير عنايتهم ولو أنهم وجدوا بضائع مماثلة لها فى أماكن أخرى. كما أنه ليس بوسعنا أن نعرف إلى أى حد كانت البضائع التى تدخل سوق عكا فائضة عن الاستهلاك أو إعادة التصدير المحلى.

لقد قلنا إن المستوطنات التجارية بالشرق اللاتينى تكاد تكون دولاً صغيرة مستقلة، وبالأحرى أن يكون الأمر كذلك إن لم يكن أكثر بالنسبة لبنادقة الإمبراطورية اللاتينية. وكان الوضع مختلفًا فى الدول الإسلامية غير أن التطور سار فى الإتجاه نفسه، فكان لكل مدينة إيطالية فندق أخذت تديره بنفسها منذ تلك الفترة، كما تهتم بعمليات التفريغ والتخزين وغيرها من العمليات التى كانت تنهض بها سلطات البلد فى القرن الماضى، وصار بعد ذلك لكل مستوطنة قنصلها أو قناصلها الذين يهتمون بمصالح التجار وليس الوكيل، وإذا كانت عمليات تجديد الامتيازات قد أصبحت متباعدة فلأنه لم تعد هناك إضافات أو تغييرات. وقلما نجد فى موانىء الفرنجة ولا حتى فى دمشق أو حلب تجارًا قادمين من البروفانس الشرقى البعيد، لكن كثيرًا منهم كانوا يأتون من المناطق الواقعة خلف سواحل بلاد ما بين النهرين.

وسيكون لمدينة حران ومدينة الموصل فيما يبدو شأن خاص فى هذا الصدد، فالموصليون الذين لا نجد لهم أثرًا بهذا الوصف فى النصوص العربية يظهرون فى المقابل كفئة طائفية أو مهنية فى النصوص الفرنجية للقرن الثالث عشر[١٧]، وبما أن طائفتهم الدينية (التى

تمثل الفرع الشرقى للمونوفيزية) لم تكن ممثلة فى الجماعات المحلية بسوريا، فقد كانوا بلاشك قادمين من بلاد ما بين النهرين للتجارة مثل الشخص الذى كلفه[١٨] ابن الأثير باستثمار قسمًا من أمواله، وربما كان بينهم أيضًا بعض هؤلاء الحرفيين ممن اشتهروا بصناعة النحاس والذى يعود إليهم الفضل، على سبيل المثال، فى بناء الحوض الكبير المسمى حوض تعميد سان لويس الموجود بمتحف اللوفر (وربما تم اقتناؤه من مكان آخر).

أما بالنسبة لمدينة حران الواقعة فى وسط المنعطف الكبير بالجانب الغربى لنهر الفرات، والتى هى محطة كبرى على الطريق المؤدى من الموصل إلى حلب فقد كانت فى السابق مركزًا للنحلة الأصلية للصابئة(*)، غير أن هذه المدينة كان قد دخلها الإسلام منذ ثلاثة قرون، ومنها تنحدر أسرة الإمام الكبير ابن تيمية التى استقرت فى مصر، وذلك قبل أن يخرّب المغول هذه المدينة بفترة قصيرة، بيد أن مدينة حران فيما يبدو كان لها آنذاك دورٌ تجاريٌ على وجه الخصوص وذلك بالنظر إلى عدد التجار الحرانيين الذين كانوا يوجدون فى بغداد وسوريا، بل وحتى فى عدن والصين، فمؤرخ المدينة حماد بن هبة الله أبو الثناء كان قد مارس التجارة من خراسان إلى مصر[١٩].

وكان حرفيو الفن فى نقوشهم على المواد النحاسية يشركون شخصيات إسلامية مع غيرها من الشخصيات المقبولة بالنسبة للمسلمين، ولو أنها كانت مستوحاة من الكتب اليهودية والمسيحية المقدسة، وذلك إما لأن هؤلاء الحرفيين كانوا من المسيحيين (فقد ظل كثير من المسيحيين يقيم فى أعالى بلاد ما بين النهرين) وإما لسبب بسيط هو إمكانية تصريف هذه المواد للزبائن من مختلف الطوائف على السواء بما فيهم الفرنجة[٢٠].

إن أهمية مدينة الموصل وقد كانت مركزًا ثقافيًا (موطن المؤرخ ابن الأثير، إلخ) وصناعيًا وتجاريًا ترجع فى جزء منها إلى وجود سلالة حاكمة مستقلة، كما ترجع كذلك بالتأكيد إلى تحول الطرق التى لم تكن تجتذبها بغداد[٢١] كثيرًا إلى الشمال فى عهد الأتراك (ومن بعدهم المغول بفترة قصيرة) المتجمعين فى الشمال الغربى لإيران.

وشهدت نهاية القرن الثانى عشر والنصف الأول من القرن الثالث عشر تحولات عميقة فى السوق النقدى، والحق أنها تحولات لازال فهمنا لها قاصرًا. ففى نهاية الحكم الفاطمى

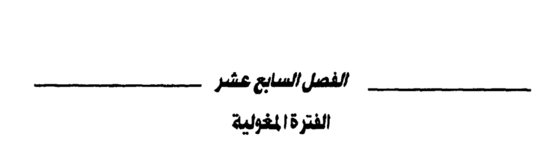
(*) الصابئة : أتباع نحلة تؤله الكواكب. كان مقرهم فى حران، ما بين النهرين، خرج منهم علماء وفلاسفة ومنجمون، وزعموا أنهم المعنيون باسم الصابئة الوارد فى القرآن... المنجد فى اللغة والأعلام – (المترجم).

غالبًا ما كان الذهب يختفى اختفاءً شبه تام من مصر، وذلك راجع إلى جملة من الأسباب ربما كانت النفقات العسكرية إحداها، وكانت الفضة فى عهد صلاح الدين مهمة رئيسية فى الحياة اليومية للبلد، غير أنه سعى إلى استبدال «الورق» الفاطمى بدرهم جديد أقرب إلى النظام النقدى السورى، لكن ظهر عدم ملائمته، للأوضاع المصرية، وقد جرى العمل بالعمليتين معًا جنبًا إلى جنب.

وقد حافظ الذهب، فى آسيا الأيوبية، على مكانة كبيرة وربما تم تصحيح وضعه إلى حد ما فى مصر ذاتها فى عهد العادل والكامل. فهذا الأمير الأخير كان صاحب إصلاح نقدى أضفى عليه لاحقًا المؤرخ المقريزى[٢٢] نوعًا من الشهرة وكان مناسبة لتأليف رسالة صغيرة قيمة من طرف ابن بعرة، على أن دلالة هذا الإصلاح ليست أقل إثارة للجدل إذ يبدو أن الأمر لا يتعلق بإصلاح للنظام النقدى بقدر ما يتعلق بتغيير بسيط بشكل الدينار. أضف إلى ذلك أنه فى هذه الفترة تم تداول عدة أنواع من العملات الذهبية بصورة يغلب عليها طابع التنافس فى الشرق الأدنى[٢٣]، وكان لها سعرها الصرفى شبه الرسمى ومن بينها العملة الفرنجية المسماة بالصورى[٢٣] (نسبة لمدينة صور التى كانت تسك بها فى العصور التى سبقت الحملة الصليبية[٢٤]).

فى هذه الفترة نفسها ظهرت الفضة من جديد فى بغداد كما رأينا ذلك، ولاشك أنها أستأنفت انتشارها فى كل الشرق الأدنى[٢٥]. ويشير الطرابلسى[٢٦] حوالى عام ١٢٤٠ - وكان معاصرًا للأحداث - إلى انهيار سك الذهب فى مصر انهيارًا رأسيًا بدون أن نعرف سبب ذلك. وبعد اثنتى عشر سنة باشرت جنوة وفلورنسا أول عملية سك للذهب عرفها الغرب منذ خمسة قرون (باستثناء جنوب إيطاليا حيث واصل «الأوغسطينى» لفريدريك الثانى التقليد النورماندى مع تعريف جديد له). وقد ظهر أن هذه العملية كانت تامة وسرعان ما قامت البندقية والممالك الأوروبية[٢٧] بعملية مماثلة وحتى الفضة آلت إلى الزوال فى الشرق غير المغولى مما ألزم دولة المماليك بالتوجه نحو العملات النحاسية. إننا لا نتبين الأوضاع التى أدت إلى هذا التحول إلا أننا نعلم أن مناجم التبر فى أعالى مصر كانت تستنفذ مخزونها أو على الأقل كانت تكاليف استغلالها آنذاك تفوق عائداتها، لكن إذا كان هذا السبب يمكن أن يفسر انخفاض الذهب فى الشرق فإنه لا يفسر توافره فى الغرب. وهناك أمثلة مشهورة تظهر أن الذهب لا يظل بالضرورة فى متناول من استخرجه فى الأصل، وقد تم استغلال مناجم التبر بأوروبا بعد أن ظلت مهملة حتى ذلك الوقت، ومعنى ذلك أن العبرة بالسوق الدولى أولاً. وإذ

تزايدت حاجات الأوروبيين فقد تداولوا عملات فضية كبيرة الحجم لتسهيل عمليات الدفع غير أنه قد تبين نقص هذه العملات ذاتها. ومع أن عملاتهم الذهبية الجديدة قد عمت بلاد الشرق فى القرن التالى فلم يحدث قط ضياع للذهب فى أوروبا، ولا يمكننا تقدير المكانة التى كان يحتلها آنذاك الذهب بالسودان، فعلى الصعيد المحلى كانت العملات الأوروبية الجديدة تعنى أنه صار ممكنًا آنذاك الاستغناء عن العملات المستخدمة بمدينة عكا، أضف إلى ذلك أن هذه المدينة سرعان ما لحقها الأفول قبل أن تسقط آخر المدن اللاتينية. وعلى الصعيد العام فإننا نعود إلى المشكلة التى أثيرت من قبل حول التوازن فى تجارة الشرق، ويبدو من المتعذر علينا الاعتقاد بوجـود عجز فى الميزان التجـارى بالغرب(٢٨). فى الإطـار العام الذى حـددنا بعض ملامحه.



الفصل السابع عشر

الفترة المغولية

إن الفترة المغولية، فى الواقع هى بمثابة فترة تكميلية تقريبًا، ولا يمكن أن نعطى عنها هنا إلا بعض الملامح الأولية، بوصفها نتيجة لما قلناه سابقًا وبدون أن يكون هناك مجال بأية حال من الأحوال لاعتبار عام ١٢٩١، وهو تاريخ سقوط آخر مدينة فرنجية فى سوريا بوصفه تاريخًا يسجل نوعًا من القطيعة حتى بالنسبة للفرنجة حيث أنهم سيظلون فى قبرص لمدة ثلاثة قرون أخرى.

ويعتبر تشكيل الإمبراطورية المغولية، وهو من الأحداث الأكثر إثارة فى التاريخ، أمرًا غريبًا فى أصله عن الشرق الأدنى والشرق الأوسط، فليس لدينا هنا ما يمكن أن نقوله، وحسبنا أن نذكر أن ظهورهم فى صورة كائنات مرعبة يرجع بالذات إلى كون هؤلاء الرجال ذوى المظاهر والأسماء المحيرة (بقدر أكبر مما كان عليه الأمر مع الأتراك) كانوا عبارة على أناس مجهولين قدموا «من خلف سور يأجوج ومأجوج»، وقد عرفوا كيف يمثلون هذه الصورة المرعبة بمهارة لزيادة فرص نجاحهم المادى[1] عن طريق التأثير النفسى[2]، أفلا يروى أن أحد صغار الأمراء اكتفى بإلباس عساكره زى المغول ليضمن لنفسه الانتصار على خصمه[3] ؟ ومهما يكن من أمر فقد دمروا الدولة الخوارزمية واجتاجوا آسيا الوسطى[4] فى عام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، وخلال العقود الأربعة التالية احتلوا من جهة إيران وحتى آسيا الصغرى ذاتها عام ١٢٤٣، كما احتلوا فى الوقت نفسه روسيا وصولاً إلى سيليزيا (*) (عام ١٢٤٢) والصين، وقاموا فى أولى هذه البلدان بتدمير السلطة الرهيبة للحشاشين بقلعة الموت، وفى عام ١٢٥٨ وضعوا حدًا لخمسمائة عام من الخلافة ببغداد، وفى عام ١٢٦٠ قاموا بغزو سوريا ذاتها ووصلوا إلى الحدود المصرية، وتكمن أسباب هذه الانتصارات - وهى واحدة من أعظم ما سجله التاريخ - فى الرعب الذى كان يثيرونه فى النفوس من جهة كما يرجع كذلك إلى انضباطهم المشهود، ومهارتهم فى استخدام كل مصادر التجارة والاختلافات بين النحل والطوائف الدينية للقيام بالتجسس وتشتيت العدو، والجمع بين القسوة المرعبة تجاه المعارضين (رغم ما يجب من حيطة إزاء الأرقام فقد كانوا أكبر السفاحين فى التاريخ الوسيط) وبين الوعود والضمانات تجاه المتحالفين والمستسلمين، كما ترجع هذه الانتصارات أخيرًا إلى نوع من الفن فى إدارة الأنظمة الناشئة عن غزواتهم وفقًا لما تبقى لهم من إمكانيات.

وقد ضم أولئك الذين أطلق عليهم حقًا اسم المغول - وقد كانوا بمثابة الأداة والمركز

(*) سيليزيا : منطقة فى أواسط أوروبا تتقاسمها تشيكوسلوفاكيا وبولونيا. المنجد فى اللغة والأعلام - المترجم.

المنظم – عدداً من السكان الذين اجتذبوهم إليهم وأغلبهم من أصل تركى، وقد تعرضوا فى الوقت نفسه لتأثير مختلف الدعوات الدينية وكانوا يحترسون من شدة الارتباط بإحداها على حساب البقية. وإلى جانب البوذية واصلت عندهم المسيحية النسطورية المسيرة التى بدأتها قبل سبعة قرون فى آسيا الوسطى وتابعتها لدى الأتراك غير المسلمين، لذلك شهدت الآمال شبه القيامية التى تفصح عنها أسطورة الكاهن يوحنا[٦] فى القرن الثانى عشر ازدهاراً جديداً حتى بين السكان المسيحيين بالشرق الأدنى وكان ذلك لصالح المغول آنئذ، فحتى طابع هذه الآمال كان يساعد على التخيل بأنها مؤذنة بالقضاء القريب على الإسلام مع نهاية العالم، وزهاء أكثر من نصف قرن أُديرَت بلدان إسلامية قديمة من قبل القادة الذين لم يكونوا يضطهدون المسلمين بالتأكيد غير أنه نظراً لمساواتهم بين كل الطوائف فقد انتزعوا منهم بعض الامتيازات، وكانوا يعتمدون سياسياً على من كانوا يشتكون من الأنظمة السابقة مع إحياء الأمل فى قلوب المسيحيين والشيعة، وقد بدأت نتائج ذلك حتى سواحل البحر المتوسط. وبينما كان الرعب يبدد النداءات المتفرقة للجهاد فى الوسط الإسلامى ضد المغول، فإن بعض الأوساط المسيحية ولا سيما الأرمن بقيليقية وكذلك المسيحيين الدمشقيين[٧]، قد اعتبروا أنفسهم بمثابة الإدلاء(*) بالنسبة للحكام الجدد للحصول على بعض المكاسب[٨]، وحتى الفرنجة أنفسهم ولاسيما فرنجة أنطاكية المرتبطين بالأرمن – كانوا يتبعونهم فى ذلك وهو ما سيؤدى كلاهما ثمنه باهظاً بعد فترة قصيرة، والحق أن بعضهم الآخر لم يتمكن من التغلب على الذعر والاضطراب الذى أحدثه أولئك الذين ظهروا فى منتهى الوحشية والعداء لكل حضارة فى مواجهة عالم كان فيه المسيحيون والمسلمون يمثلون فرعين لحضارة واحدة كان لديهم إحساس غامض بالانتماء إليها على السواء، رغم ما كان بينهم من عداوة. وكان الابتعاد الجغرافى لمصر عاملاً مساعداً لها لتنظيم المقاومة التى قام فيها هؤلاء المماليك ببعث الأمل فى نفوس المسلمين، ولعل كونهم كانوا أتراكاً من روسيا الجنوبية جعلهم أقل ذعراً من العرب – الإيرانيين.

(*) يوضح كلود كاهن هذا المعنى بصيغة أخرى فى كتابه «تاريخ العرب والشعوب الإسلامية» إذ يقول : «والحق أن نفراً من نصارى المشرق قد تمرغوا على أقدام المغول وتبرعوا لكى يكونوا لهم أدلاء ومرشدين... ولم يغفر المسلمون خارج الدول المغولية لاولئك الذين تآمروا – بوصفهم جيراناً أم عملاء – مع الشعب المغولى الذى هدد الإسلام بالزوال والحضارة معه. وبدلاً من التعايش السلمى الذى استقر بينهم وبين فرنجة سوريا عزم المسلمون عزماً أكيداً على إلقائهم فى البحر أما حلفاؤهم الأرمن من قيليقة الذين لا ملاذ لهم فقد أبيدوا على مر الزمن. وحامت الشبهات حول النصارى من أهالى البلاد وانحط شأنهم منذ ذلك الحين، كما انحط شأن اليهود أحياناً لأسباب أخرى...» ص ٢٦٣ من الترجمة العربية للكتاب التى أعدها د. بدر الدين القاسم – دار الحقيقة – بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٧ – المترجم –

وفى عام ١٢٦٠ سحقوا الجيش المغولى الصغير الذى جازف بنفسه فى فلسطين، وهو انتصار عسكرى محدود القيمه بالنظر إلى التفاوت فى عدد المشاركين بيد أنه كان عظيم الشأن من الناحية المعنوية فتنبهوا إلى إمكانية التغلب على المغول، أو على الأقل الصمود فى وجههم، فى الواقع لم يتم اختفاؤهم لكن تم استعادة سوريا وإنشاء الحدود لمدة طويلة وسط أعالى ما بين النهريين والصحراء التى كانت تحميها، كما تسارع انهيار العراق وقطيعته مع إيران من جهة ومعظم العالم العربى من جهة أخرى، وهو تطور كان قد بدأ فى عهد السلاجقة، وصار الانحطاط والقطيعة أمرًا مبرمًا، ومنذ ذلك الحين لم تعد بغداد مركز الحضارة العربية الإسلامية، وإنما القاهرة وبغداد، واختفت معرفة اللغة العربية فى إيران، وتمكنت اللغة الفارسية وهى لغة الثقافة الإيرانية التى يحكمها المغول من الانتشار التام فى آسيا الصغرى التركية.

وعلى الصعيد السياسى آل التوسع المغولى إلى تأسيس أربع دول، وهى دولة آسيا الوسطى (بقيادة جغطاى(*)) التى بدت ضعيفة، وكانت دول الصين وإيران (مع العراق والحماية على آسيا الصغرى) والقبيلة الذهبية(**) أو الأردو[٩] (وهى روسيا الجنوبية مع الحماية على الإمارات السلافية) أقوى منها، وقد قامت هاتان الأخيرتان بمواجهة بعضها بعضًا دون أن يؤدى ذلك إلى حد تدمير ذاتهما، واستمرت دولة إيران (الإيلخانيون) حتى حوالى عام ١٣٣٥ لكنها خلفت عدة توابع مثل القبيلة الذهبية التى لم تندثر إلا مع بداية القرن السادس عشر بعد فترة طويلة من الضعف، وحافظ البيزنطيون بشكل عام على علاقات طيبة مع مغول إيران حتى يتمكنوا من مقاومة أفضل للتركمان بالمناطق الحدودية (لكن بلا جدوى) والقبيلة الذهبية المتحالفة مع المماليك الذين كانوا يقومون بتجنيد جيشهم داخل أراضيها، وكانت المساهمة العرقية واللغوية ضعيفة بالإجمال، وكانت التركية لغة كامل الشعوب الموجودة

(*) جغطاى خان : أمير مغولى (١٢٢٧ - ١٢٤٢) ثانى أبناء جنكيز خان. اشترك فى الحرب مع أبيه ضد الصين ومملكة خوارزمشاه وقد سميت دولة جغطاى باسمه وقد أطلق هذا الاسم أيضًا على اللهجة التركية المستخدمة فى هذه المنطقة. (المترجم)

(**) القبيلة الذهبية : فرع من المغول اتجه إلى روسيا وبلغاريا وأسس إمبراطورية استمرت حتى أوائل القرن العاشر الهجرى/ بدايات القرن السادس عشر الميلادى، وقد أسس هذه الإمبراطورية باتوخان حفيد جنكيز خان على نهر الفولجا عام ١٢٤٢ وكانت تشمل سيبيريا الجنوبية وجنوبى روسيا، وكانت عاصمتها صارى، واشتهرت بفظائعها فى الحروب وسميت بالذهبية نسبة لسرادق ملوكها الذهبى (المترجم).

فى روسيا والتى كانت تسمى بالتتار(*)، وهو الاسم المرادف للمغول فى القرون الوسطى، وعلى الصعيد الدينى لم تدم فترة التعدد الطائفى، لأن المغول اعتنقوا الإسلام الذى كان دين الأغلبية لدى رعاياهم الحضريين والرحل، واكتفوا بإقامة التوازن بين الشيعة والسنة، وانحسرت المسيحية عن بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى، ولم يكن ذلك من جراء الاضطهاد، وإنما بسبب انهيار الجماعات الزراعية التى كانت المسيحية حتى ذاك الوقت الدين السائد بها.

وكان هذا فى الواقع واحداً من أسوأ الآثار الناجمة عن الغزو المغولى، وأقلها إثارة للجدل، وعلى نقيض الرحل السابقين فقد قام هؤلاء بمهاجمة الفلاحين(١٠)، ولو لم يصدر ذلك ربما عن خلفية مذهبية، حيث لم تكن مساكنهم العتيقة قد عودتهم على الجمع بين الاقتصاد الزراعى والرعوى المألوف فى الشرق الأدنى.

كيف صار الشرق الأدنى، الإسلامى والفرنجى والأرمنى فى كل هذه الأحوال ؟ لم يكن المماليك يعيشون إلا بواسطة الحرب ومن أجل الحرب، واستطاع الأيوبيون أن يتركوا بعض الجزر الفرنجية، وهى ذات خطورة أقل، فى العيش بسلام، لكن التجربة أثبتت آنذاك أن حضورها، الذى كان غالباً ما يصحبه تواطؤ مع المغول، شكل خطراً كبيراً، وأن هذا التواطؤ لا يمكن أن يغتفر. وبناء عليه كان النشاط الخارجى للنظام الجديد موجهاً بالأساس نحو تصفية عنيفة لآخر القلاع والمدن الفرنجية، وربما سلمت بعض الموانىء لفترة مؤقتة مراعاة للمصلحة التجارية. وبعيداً عن الفرنجة كان المماليك قد هاجموا من قبل أرمن قيليقية وكانوا يحيكون الدسائس مع العناصر المعادية للمغول بآسيا الصغرى(١١).

لقد قلنا سابقاً أن العالم المسيحى قد اعتقد للحظه أنه بإمكان الاستفادة من المغول لتطويق العالم الإسلامى من الخلف، ومن هنا تم إرسال المبشرين الفرنسيسكان والدومينكان الذين ندين لهم بروايات قيمة جداً عن رحلاتهم غير أنهم لم يحققوا أية نتيجة، وكان سوء الفهم بين هذه المجتمعات الشديدة الاختلاف أمراً لا مفر منه، وحتى فى الجانب المسيحى كان الرأى أبعد ما يكون عن الاجماع، وكان الإيلخانيون وقد صاروا أقل ثقة بقوتهم ينشدون التفكير فى مشروعات مؤلفة من التدخل العسكرى الغربى والهجوم المغولى فى سوريا التى لم يكن الشرق

(*) اختلفت آراء المؤرخين فيما يتعلق بأصل كل من المغول والتتار، والفرق بين اللفظين، والتطورات التى داخلت كلا منهما. ويكاد يجمع الباحثون على أن المغول قد تسلطوا على البلاد قبل التتار لكن عندما دخل التتار وأصبحت لهم اليد الطولى فى الفتوحات التالية تسلطوا بدورهم على المغول واشتهروا دونهم. انظر دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب. جوزيف نسيم يوسف ص ١٣٩. (المترجم)

اللاتينى يؤدى أية وظيفة بداخلها، وقد حال الحذر - بل حتى بعد المسافة - دون تضافر هذه الجهود، فقد بقى المغول بمعزل عن الدولة المملوكية ولم يخدموا الفرنجة الأرمن فى شىء. ويبدو أن بعض المؤرخين المحدثين كان لديهم الشعور بالندم إزاء أوروبا المسيحية التى لم تعرف كيف تنتهز هذه الفرصة التى أتيحت لها بشكل أفضل وقد صدروا فى ذلك عن حنين مغلوط تاريخياً، إذ أن هذا الشعور يغفل ما كان يبديه المغول من قسوة تجاه المسيحيين عقب اعتناقهم الإسلام، ومن ذا الذى كان يجرؤ على الاستنجاد بهؤلاء المريخيين(*) مهما كانت الإغاثة المطلوبة ؟ .

على صعيد اقليمى هام توافق ظهور المغول فى الشرق الأدنى، مع استعادة اليونانيين للقسطنطينية. وهى استعادة كان لها نتائج محدودة بحيث لم تستتبعها أية إعادة لتشكيل أراضى الإمبراطورية البيزنطية لما قبل عام ١٢٠٤، وكانت هذه النتائج محدودة أيضاً لأنها قد تمت بمشاركة الجنوية، فكون هؤلاء قد سمحوا بعد فترة قليلة للبنادقة بالعودة إلى البحر الأسود لم يحل دون قيام الإيطاليين بإبعاد متزايد لليونانين من الميدان التجارى الذى أخذت أهميته تتعاظم كما سنرى ذلك، وفضلاً عن ذلك فإن البابوية المتشددة قامت بمطاردة خلفاء فريدريك الثانى بإيطاليا وسلمت إرث مملكة صقلية وإيطاليا الجنوبية إلى شارل الأنجى شقيق لويس التاسع(١٢). لم يكن لزاماً علينا التحدث عن هذا الأمر هنا لو لم يستأنف شارل الأهداف المعادية لبيزنطة التى كانت لأسلافة ويجاهر بالثأر للاتين المبعدين، وفى الوقت نفسه حملته الفوضى القائمة داخل الأسرة الحاكمة فى قبرص وعكا على استئناف الأطماع القديمة للإمبراطور فى الشرق اللاتينى لحسابه الخاص، وقد حول خصومه أبصارهم نحو ملك أرجونه - كاتالونيا وكان يملك أسطولاً ذا مهام حربية وتجارية وقرصنية فى آن معاً وقد شهد نمواً حديثاً فى شرق البحر المتوسط، وانتهى الصراع فى عام ١٢٨٥ إلى مذبحة الفرنسيين المعروفة باسم الصلوات المسائية(*) الصقلية التى حصرت وجود الإنجيين بإيطاليا الجنوبية بدون جزيرة صقلية، وبذلك قضت على أطماعهم الشرقية كما بددت فى الوقت نفسه الأمل فيما

(*) ربما كان المقصود من تشبيه المغول بالمريخيين بأنه لا يمكن التعامل معهم لإمكانياتهم المخيفة وكأنهم جاءوا من كوكب أخر (المترجم).

(*) الصلوات المسائية الصقلية : عرفت هذه المذبحة التى تعرضت لها الحامية الفرنسية فى صقلية بهذا الاسم لأنها اندلعت فى عيد الفصح عام ١٢٨٢ - خلافاً للتاريخ الذى يذكره كلود كاهن وهو ١٢٨٥ - وبمجرد أن دقت الكنائس أجراسها تعلن عن بدء صلوات المساء. وبشروق الشمس كان كل الفرنسيين الذين لم يهربوا من الجزيرة قد لقوا حتفهم وانتشر التمرد الذى عرف باسم صلوات المساء الصقلية فى سائر أنحاء الجزيرة، ويقول نورمان ف كانتور عن هذا الحدث إن العبقرية التآمرية لأهل صقلية قد تجلت للمرة الأولى فى =

يمكن أن يفكر فيه فرنجة عكا من مساعدات، ولم يكن ثمة ما يدعو المماليك فى هذا الصدد للمفاضلة بين أحد هذين الأمرين فاكتفوا بشكل عام بالاستفادة من المساومات مع من تعاقب من الذين يَستَجدون تحالفهم دون أدنى اهتمام بما تبقى فى الشرق اللاتينى(١٣). ويمكن القول إنه لم يعد لهذا الشرق وجود قائم بذاته باستثناء جزيرة قبرص، وذلك نظرًا لتأرجحه فى سياق الرهانات الكبرى، ولولا الذكريات العالقة بهذا الشرق لأوشكنا أن نقول إن زواله كان زوالاً لما تبقى منه من مظاهر لا غير.

والأهم بالنسبة إلينا هو وقع هذه الأحداث على العلاقات التجارية والثقافية، وغيرها بين الشرق والغرب. ومن وجهة النظر الدينية، فإن التسامح المغولى قد سهل تغلغل المبشرين فى أعقاب التجار وتنظيم الأساقفة فى البلاد التى احتلها الكفار لعدة عقود (بل وستوجد أسقفية فى أقصى العالم المغولى ببكين(١٥)). وقد نتج عن ذلك لبعض الوقت اتصال أفضل مع الطوائف المسيحية الشرقية، بل وتقدير أفضل للإسلام(١٦)، لكن لا ينبغى أن نغالى فى هذا الشأن، فالنصوص الشرقية لا تحدثنا عن شىء من ذلك، فضلاً عن أن كل ذلك سينهار مع الانهيار الذى أصاب الدولة الأيلخانية فى الثلث الأول من القرن الرابع عشر، وفيما يتعلق بالتجارة فإن الرأى الشائع هو أن السلام المغولى فى الفترة المحدودة التى وجد فيها، كان العصر الذهبى للعلاقات القائمة بين أوروبا وآسيا، ومن وجهة النظر الأوروبية فإن هذا الرأى قد تعزز من خلال وجود الرحلة الفذة التى خلفها الرحالة البندقى ماركو بولو، وذلك خلافًا لما عهدناه من صمت لدى التجار، وكون أن الأوروبيين استطاعوا أن يندمجوا آنذاك بالقوافل الآسيوية فهذا بالطبع أمر رئيسى بالنسبة لتوسيع آفاق الغرب. لكن لا ينبغى أن نستخلص منه نتائج متعسفة(١٧)، فلنذكر أولاً أن كل هذا لم يستمر بالكاد إلا لفترة لم تتجاوز نصف قرن، ثم إن تنوع الأصول العرقية للمشاركين لا يعنى ازديادًا فى حجم التجارة التى ربما تكون بعض أرباحها، التى حصل عليها الإيطاليون قد سحبت ببساطة من أيدى الشرقيين، ومن جهة ثانية فإن ازدياد التجارة حتى ولو كان ازديادًا حقيقيًا لا يعنى بالضرورة وجود رخاء اقتصادى، فربما كانت الأرستقراطية المغولية أو غيرها، والتى أغتنت من سلب الشعوب المقهورة، تلجأ للتجارة من أجل سد النقص الحاصل فى اقتصادياتها الإقليمية، وأخيرًا فإن تقدم بعض الطرق التجارية يمكن أن يتم على حساب طرق أخرى.

= عام ١٢٨٢ وإن كان من الواضح أن البيزنطيين كانت لهم الزعامة فى إشعال نار التمرد وأن دورهم كان كبيرًا فى توجيه الكراهية المريرة التى كانت تضطرم فى وجدان أهل صقلية.. انظر فى ذلك – التاريخ الوسيط لنورمان ف. كانتور – القسم الثانى – ترجمة وتعليق د. قاسم عبده قاسم ص ٦٣٧ (المترجم).

وبالإجمال فإن المغول، سواء كانوا من بلاد أوراسيا (*) أو من إيران، والذين يقيمون بالخصوص في الشمال الغربي للبلد قد اهتموا بطبيعة الحال بالقوافل القارية أكثر من اهتمامهم بالتجارة البحرية، وصحيح أن الأيلخانيين فكروا في فترة ما، وبمساعدة بعض الإيطاليين على تطوير الأسطول البحري بالخليج الفارسي ربما لقلب أوضاع المماليك وحلفائهم اليمنيين، وفشلت المحاولة لكن لابد أن يكون التجار الجنوية قد ذهبوا إلى الهند حيث تم العثور على بعض الآثار التي تدل على ذلك ومن المؤكد أنهم لم يمروا عبر مصر(١٨). وقد مد مغول الصين نشاطاتهم البحرية نحو الشرق الأدنى، بل وحتى إفريقيا الشرقية، لكن من المرجح أن ذلك قد تم من غير أن تكون لهم نية معادية للمماليك أو أن يلحق ذلك ضرراً بتجار الكارم أو بغيرهم من التجار المسلمين(١٩) (من هذا الجانب لم يكن الأمر يتعلق بالمسيحيين ولا باليهود). وبالإجمال كان هناك نوعان مهمان من المسارات بعضها بحرى يُوصل إلى مصر، وآخر برى يوصل إلى موانئ البحر الأسود والشرق غير العربي للبحر المتوسط، وكانت البضائع بطبيعة الحال تختلف تبعًا لذلك.

وفي الواقع حدث تغير في الطرق مرة أخرى، فطرق البحر الأسود كانت تبتدئ من طرابزون في الجنوب الشرقي، وكافا وبصورة ثانوية، تانا بالقرم وبحر أزوف. وثمة طريق آخر يعبر الأناضول الشرقي ويميل نحو قيليقية الأرمينية وهي مُقْطَعة للمغول حيث منح ميناء «أياس» الجديد للإيطاليين آنذاك مرفأ أكثر أمانًا من الموانىء السورية(٢٠). ومن جهة أخرى كانت هناك تجارة مكثفة بين روسيا الجنوبية ومصر لتزويد هذه الأخيرة بالعبيد، وكان هؤلاء العبيد يشكلون حقاً نواة جيش المماليك الذي كان يحارب فرنجة سوريا بما فيهم الجنوية، إذ كان هؤلاء هم الذين يستأثرون آنذاك بالاحتكار شبه الكامل لهذه التجارة(٢١). ولا نلاحظ أن الإمبراطورية البيزنطية التي كانت علاقاتها مع مغول الشمال أقل تحسنًا مما كانت عليه مع مغول إيران وآسيا الصغرى(٢٢)، قد حاولت أن تفعل شيئًا ضد السفن العابرة أو لعلها لم تستطع ذلك إذ أن المستوطنات الإيطالية بالقسطنطينية كانت على درجة كبيرة من القوة.

كما رأينا كان الجنوية وغيرهم من الغربيين، كالبنادقة سابقًا والكتالونيون(٢٣) في تلك الفترة يعرفون كيف يؤمنون لأنفسهم المواقع الجيدة في مختلف الدول ولو كانت دولاً متعادية فيما بينها، وقد وقع الجنوية معاهدة مع السلطان المملوكي قلاوون قبل بضعة أشهر من هجومه على عكا(٢٤). ويمكن التساؤل في غمرة الفوضى التي عمت المناطق الواقعة خلف

(*) أوراسيا : اسم أطلق قديماً ولايزال على أقدم قارتين في العالم أوروبا وآسيا باعتبار كونهما من الناحية الطبيعية قارة واحدة ولا تفصل بينهما البحار - المنجد في اللغة والاعلام - المترجم.

السواحل عما إذا كانت الموانىء الفرنجية لاتزال صالحة للعمل مادام أن أيا من المسارات التجارية الكبرى لم يعد بوسعها أن تعبر سوريا ومادام أن للإيطاليين مواقع مؤمنة فى الموانىء الأكثر امتيازاً لهم، ولابد من الاعتقاد بأن هذه الموانىء الفرنجية كانت تحتفظ بميزة أخرى غير توفير الملاجىء فى حالة الحرب (بيد أن جزيرة قبرص كانت أفضل) حيث نجد أن تجاراً مصريين كانوا يطالبون باستعادة ميناء ثانوى مثل ميناء اللاذقية(٢٥) الذى أتاح الزحف المغولى للأنطاكيين احتلاله من جديد، بينما يتضح أنه عندما تم زوال الشرق اللاتينى من الشواطىء السورية لم تعد له أية أهمية حسب وجهة نظر التجار، وبدون أن يكون السبب الوحيد وراء سقوطه فإنه مع ذلك كان أحد هذه العوامل، وبرغم التحريمات الكنسية لم تشهد تجارة الشرق أى توقف(٢٦).

ولا يسعنا هنا إلا التلميح إلى التحولات التى أحدثها الغزو المغولى فى النظام النقدى فمفعولها لم يكن سارياً إلا فى القرن اللاحق وحسبنا أن نقول إن النظام المطبق فى المنطقة المغولية أصبح منذ تلك الفترة نظاماً مستقلاً بالمقارنة مع النظام السائد بالبحر المتوسط.

ولعل النشاط الثقافى قد شهد فى هذه الفترة أوج ازدهاره، لاسيما فى عكا وكان هذا النشاط ذا نمط غربى بكل تأكيد وهى مفارقة ظاهرة للعيان، والواقع أن الأبحاث الحديثة قد أتاحت العثور على عدد مهم من المخطوطات (مهما حامت الشكوك حول بعضها بشكل خاص) التى كتبت فى عكا وبعضها مزخرف وهى تثبت وجود دار نسخ حقيقية للمخطوطات(٢٧)

وفيما يتعلق بالتجارة القائمة بمصر، فإن ما يشهد على أهميتها فى البحر الأحمر، وهى أهمية لا نستطيع قياسها إحصائياً، تكرار الإشارات المتزايدة لتنظيمات تجار الكارم الذين ظهروا فى القرن السابق كما رأينا(٢٨). وسيكون من المجدى معرفة ما إذا كانت تجارة نقل البضائع الخاصة بالشرق الأقصى لم تبدأ فى المشاركة بها مشاركة سليمة بعض الشىء، وقد تعرضت العلاقات البرية مع بلاد ما بين النهرين للأخطار نظراً للحروب الجارية بين المماليك والمغول وما نتج عنها من تصحر جزئى(٢٩).

ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر - التى كان يحكمها المماليك - القطب السياسى والثقافى بالشرق الأدنى العربى، ونجح بيبرس الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للنظام فى إقامة الخلافة بالقاهرة بعد أن دمرت فى بغداد ولاشك أنها كانت خلافة بدون سلطة بيد أنها أعطت المشروعية للسلطان المملوكى - على الأقل - فى أعين رعاياه وضمنت له هيبة ما (برغم محاولة

منافسة قام بها الحفصيون فى تونس) وتوافد المهاجرون من كل البلدان إلى مصر وهو الأمر الذى عزز حركة الاندماج الثقافى التى كانت قد بدأت فى ظل الأيوبيين، وكانت سوريا جزءًا من الدولة الجديدة التى أسدى لها المغول خدمة تمت بصورة غير إرادية وتتمثل فى قضائها على صغار الأسر الحاكمة المستقلة وكان الوضع الحدودى يساعد أحيانًا على التمرد لكن لن تحدث قط دسائس مع الفرنجة أو الأرمن، بل لقد حدث أن قام أحد صغار السادة الإقطاعين الفرنجة بالتجسس للمماليك.

وفى آسيا الصغرى دمر الغزو المغولى تدريجيًا نظام السلاجقة لصالح التركمان الحدوديين، وسرعان ما تسبب هؤلاء فى سقوط الامبراطورية البيزنطية، غير أن نشاطهم على الجبهة الجنوبية كان يتسم بالاعتدال حتى ضد قيليقية، فالضربة القاضية التى أتت على المملكة الأرمينية الصغيرة لم تصدر منهم، بل من المماليك فى القرن الرابع عشر.

الخاتمـــة

خلال ثلاثة قرون أو أربعة تعايش المجتمع الغربي والشرقي الأدنى دون أن تتوثق علاقاتهما ببعض (باستثناء الوسيط البيزنطي)؛ فالمجتمع الذي ساده الإسلام اكتسب تجربة التعدد الطائفي التي كانت تنقص الطرف الآخر. وحوالي عام ألف للميلاد بدأ الفرنجة الجنوبيون في توسيع علاقاتهم التجارية مع الشرق، لكن سرعان ما حدثت انطلاقة اجتماعية ودينية استنهضت أجزاء واسعة في الغرب لمواجهة العالم الإسلامي بحرب مقدسة أخرى في نفس الوقت الذي شهد فيه أرجاء العالم الإسلامي انبعاث روح الجهاد. لقد حدث ذلك عبر تزامن فجائي دون أن ينتج عن ذلك أي تعارف حقيقي بينهما. ومع اتساع هذه الحركة فإنها لم تلغ أيًا من العناصر الأخرى السياسية والاقتصادية للحياة الغربية. لقد تعززت الاتصالات بين العالم المسيحي والإسلامي فيما بعد، غير أنها اتخذت أشكالاً مختلفة وفقًا للأماكن والأوقات، إذ أن الحملة الصليبية والشرق اللاتيني هما أحد عناصر هذه الاتصالات فلا ينبغي إنكارها أو المغالاة فيها.

لقد احتل العرب في القرون الأولى للإسلام أراضي مشبعة بالثقافة القديمة فاستوعبوا عناصرها القابلة للنقل وهي ذاتها التي اقتبسها منهم الغرب لاحقًا (١). ولقد قام الغرب بهذا الاقتباس داخل أسبانيا على وجه الخصوص، أي داخل بلد تعايشت فيه هاتان الثقافتان لبعض الوقت، وكان لقربها أثرًا في تسهيل ذلك. وفي المقابل تم الاتصال بين الشعوب الإسلامية وإسبانيا من خارج مركز العالم الإسلامي واستتبعته نتائج ضئيلة، فزيارات التجار الغربيين ومجاورة اللاتين الذين لم يكونوا يمثلون سوى عناصر غربية لم تكن كافية لحمل الشرقيين، مع رغبتهم في ذلك، على البحث عما يمكن اقتباسه من هذا الغرب، بل لدينا الانطباع بأنهم قلما سعوا من أجل ذلك، وأنهم تمسكوا بفكرة أن أوروبا بلد «بربري» لا يمكن أن يقتبس منه أي شيء وهي فكرة كانت صحيحة قبل بضعة قرون. ومن ثم لا نرى ماذا استطاع المسلمون في العصور الوسطى أن يأخذوا من أوروبا، باستثناء الجانب العسكري، ويبدو أن رد الفعل كان انطواء دفاعيًا عن الذات(٢).

هل خضع السكان السوريون – الفلسطنيون، على الصعيد الإقليمي، للتأثير الإيجابي أو السلبي للجيران اللاتين ؟ لا نملك إلا أن نمهد لذلك ببعض الإجابات.

ثمة ملاحظة تنم عن المفارقة – وإن كانت ملاحظة مؤكدة – وهى أن سوريا المسلمة التى قد نعتقد بأنها تأثرت بحالة الحرب المتكررة مع الفرنجة، عرفت على العكس تطورًا هائلاً أثناء هذه الفترة لاسيما فى القرن الثالث عشر، وهذه مفارقة يصعب علينا أن نفهم جيدًا الأسباب الكامنة خلفها. لاشك أن الحرب المقدسة كانت تقود إلى التكفل بعدد مهم من القوات المسلحة وإن كان من الصعب علينا الظن بأن ذلك استتبع مثل هذه النتائج، وأكثر من ذلك علينا أن نسلم أن هذا الأمر لم يحل دون التطور المذكور الذى يعود إلى أسباب مختلفة، ولعل تكثيف التجارة مع الفرنجة كان له دخل فى هذا الشأن غير أن دمشق بوصفها سوقًا تجاريًا لم تكن فى مستوى الأهمية التى كانت تكتسيها القاهرة أو الإسكندرية، منذ إعادة توجيه الطرق التجارية التى سبق الحديث عنها أعلاه[٣]. لذا لابد من النظر بعيدًا فى العالم الإسلامى فبغداد كفت تدريجيًا عن أن تكون الحاضرة الكبرى بالقرن الثالث أو الرابع الهجرى، وإذا كانت قد أبقت على هيبتها فإنه لم يعد لها دور إلا على الصعيد الإقليمى، ونسيت إيران اللغة العربية تحت تأثير الصحوة اللغوية الفارسية فى ارتباطها مع الغزو التركى، وقد بلغ هذا التطور ذروته ابتداءً من الهجمة المغولية. وللسبب ذاته كذلك صارت بغداد بالنسبة للعالم السامى الناطق بالعربية موقعًا خارجًا عن المركز، فأصبحت القاهرة آنذاك المدينة الأولى للعالم الإسلامى، بيد أن القطيعة التى حدثت بين الدولة الفاطمية والدول السنية بآسيا الأدنى كانت قد قلّصت من دورها الثقافى، ولم يكن بوسع الغزو الأيوبى الذى كان بالنسبة لمصر بمثابة غزو أجنبى إلى حد ما أن يعجل بادماج البلد ضمن المجتمع الإسلامى بالشرق الأدنى، ولم يكتمل هذا الادماج إلا فى عهد المماليك دون أن يُفقد دمشق مكانتها لمدة طويلة، فقد أصبحت هذه المدينة آنذاك ثانى مدينة بالشرق الإسلامى من ناحية عدد السكان والمركز الرئيسى للثقافة، وإلى جانبها تطورت حلب تطورًا ملحوظًا[٤]، وحتى بعض المراكز الصغيرة كحماة كانت تتوافر على حيوية أكيدة[٥]. ويظهر أن الحروب بين الأمراء المتنافسين لم تُحدث أضرارًا تذكر برخاء هذه المدن، ومهما تطرق الشك إلى هذه الملاحظات التى قد يلزم أن تضاف إليها عوامل أخرى فالواقع أن الحملة الصليبية – فيما يبدو – كان لها دخل ضئيل فى هذا الشأن.

وكان من نتائج هذه الأولوية التى كانت لسوريا ثم لسوريا ومصر أن احتل الشرق اللاتينى حيزًا وثائقيًا قد لا يتناسب مع الحيز الذى شغله فى مجموع الشرق الأدنى وهو إجمالاً حيز محدود. وربما كانت هذه الواقعة مبعثًا لبعض الأوهام التى تولدت لدينا غير أنها

قد أكسبت الحملة الصليبية والكفاح الذى شنه الشرق صدى مازال وقعه قائمًا إلى اليوم ولم تسهم السياسة المعاصرة فى تخفيفه.

* * *

لقد كانت إقامة الفرنجة فى نظر الشرق غزواً تم باسم أيديولوجية ظلت غريبة عن البلد(٦)، ولو أنها كانت من بعض النواحى ردًا على «الجهاد الإسلامى». كانت هذه الحركة تقف عند حدود الكنيسة اللاتينية، ولم تكن مقصورة على «الفرنجة»، فقد شارك فيها المجريون، لفترة، غير أنهم كانوا ينتمون إلى هذه الكنيسة كما كان أمراؤهم مرتبطين بأسر الأمراء الغربيين، وقد قام البيزنطيون وبعض السكان المقيمين حول البحر الأسود بمحاربة المسلمين لكن لم تكن حروبًا صليبية حقيقية، كما أنهم لم يشاركوا فى تعمير الشرق المسمى باللاتينى. أضف إلى ذلك أن مهاجمة اللاتين لهم تمت باسم الحرب الصليبية، ولم يندمج هؤلاء اللاتين حتى فى أقاليم اليونان التى أقاموا فيها لفترة طويلة، كما لم يندمجوا فى الشرق إلى درجة جعلت عدداً من اليونانيين يؤثرون عليهم الأتراك(٧) ذات مرة.

وبناءً عليه لم يتمكن الفرنجة من الذوبان فى السكان المحليين برغم مرور قرنين من التعايش ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى علاقاتهم مع الغرب، وربما كذلك إلى بعض الملامح المميزة(٨). لقد عرف الشرق الأدنى خلال مساره التاريخى الطويل كيف يحمل دائمًا المجموعات العرقية أو الدينية المتجاورة، وإن كانت متمايزة، على التراضى والاندماج فيما بينها تقريبًا لكن هذه المرة لم يحدث شىء من ذلك وإن كنا لا نعرف ما إذا كان الأمر سيْصير مختلفًا لو مكثوا فترة أطول (٩). ومع ذلك فإن الفرنجة أقاموا فى هذا البلد وعاشوا فيه لمدة قرنين فلم يفكروا فى مسألة الرحيل، ومن تمكن من الرحيل منهم انطوى داخل قبرص حيث ليس بوسعنا اقتفاء أثرهم، ومنهم من قضى نحبه، ومنهم من لا نعرف شيئًا عن مصيره إذ لم يعودوا إلى أوروبا ولم يذهبوا أيضًا إلى الإمارات الفرنجية باليونان(١٠)، برغم وجود بعض الاتصالات إننا لا نتحدث هنا بطبيعة الحال عن عابرى السبيل من التجار الذين واصلوا ارتيادهم للشرق ولا عن بعض أعضاء الجماعات الدينية.

واليوم يقابل المرء بالشرق الأدنى بعض الأفراد الشقر ذوى العيون الزرق ويحلو لهم أحياناً القول إنهم منحدرون من سلالة الصليبيين، ولعل من المفارقة الزعم بأن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق، فثمة امتزاجات «آرية» كثيرة حدثت فى غضون التاريخ إبتداءً من

الفلسطينيين حتى الصقالبة العبيد بالعصر الوسيط، غير أن هذه التأملات تعتبر مجانية فلا يمكن أن ندخلها فى عملية التأثيرات الاجتماعية والثقافية.

لقد حدثت الحرب الصليبية ولا نملك أن نجادل فى حمية وصدق القناعات التى حملت كثيرًا من الناس على القيام بها بما فيهم أولئك الذين كانت لديهم كذلك اهتمامات أخرى غيرها، فأحيانًا تكون القضايا أكبر من حامليها، وبهذا المعنى ظلت روح الحرب الصليبية متيقظة حتى عهد سان لويس بل لقد استمرت بعده؛ فالمكانة والشهرة التى احتلتها هذه الحروب منذ يومها الأول حتى أيامنا هذه، بل وكون هذا التعبير أصبحت له دلالة مجازية تتجاوز دلالته الحقيقية، هى أمور تشهد طريقتها بما خلفته من صدى فى نفوس الناس(١١). لكن رغم صحة كل هذه الأمور فإنها لا تمنع من وجود حقائق أخرى كذلك.

لقد قيل منذ فترة بعيدة أن المشاعر الفظة المجردة لدى الصليبيين ولدى بعض رفاقهم قد داخلتها مشاعر ومسالك أقل فظاظةً بكثير، لكن لعل هذه الطريقة غير مناسبة فى طرح المشكلة، ذلك أن المكانة ذاتها التى اكتسبتها الحملة الصليبية جعلتها تحتوى عدة أشياء تحت هذا الاسم بحجة حدوثها فى الفترة التاريخية نفسها تقريبًا مع أنها لا تدين للحملة الصليبية بشىء رغم التداخل الحاصل معها. لقد حدثت الحروب الصليبية داخل عالم اختلطت فيه مصالح أخرى كثيرة وأهداف مختلفة، فالطريقة التى توافقت (أو تعارضت) بها هذه المصالح والأهداف هى التى تمثل المشكلة الرئيسية، وبتعبير آخر مأساة تاريخها، والتطور الذى يمكن أن نلمسه منذ أول حملة اتضحت ملامحه بعد ذلك شيئًا فشيئًا مع تلاحق الحملات الصليبية، حيث لاحظنا انحراف بعضها، ولو أنها كانت تعبر بدقة عن الواقع التاريخى، أما بالنسبة للشرق اللاتينى فإذا كانت نشأته ترجع إلى الحملة الصليبية الأولى، وإذا كانت الحملات الصليبية الأخرى قامت بالتشويش عليه وزعزعته، وإذا كانت فكرة الحرب الطائفية قد فرضت عليه رغماً عنه أحيانًا فلا يمكننا القول إن تاريخه كان تاريخًا صليبيًا بالأساس. فقد كان يتكون من دول لا تختلف عن الدول الأخرى.

إن كل ما قيل عن هذه الأمور تم من منظور أوروبى، وهى وجهة نظر مشروعة، حيث أن الأمر يتعلق بمبادرات صادرة عن أوروبا الغربية إلا أنها تركت آثارها فى عالم الشرق الأدنى الذى يستوجب القدر نفسه من الاعتبار. إذ لقى اهتمامًا ضئيلاً حتى داخل الشرق حيث اقتصر الأمر على تحويل الهزائم المعروفة من طرف المؤرخين المسيحيين إلى انتصارات. فمن المناسب كذلك العناية بها – أى الحروب الصليبية – عن كثب داخل العالم الإسلامى بالمعنى الواسع للكلمة، وداخل المنطقة التى تمت فيها الاتصالات مع الفرنجة.

من الغريب أن نلاحظ إلى أى مدى كانت فكرة الحرب الصليبية مجهولة فى الشرق اللاتينى، صحيح أنه تمت محاربة المسلمين بداخله، لكننا نلاحظ أن اللاهوتيين والمشرعيين لم يفكروا فى ادماج محاربى الشرق ضمن الوضعية القانونية التى كانوا يقومون بصياغتها بشأن الصليبيين بالغرب، لاشك أنه لم يكن فى الشرق ما يدعوا لوضع شروط خاصة بطول فترة الغياب (بالنسبة للديون مثلاً) لكن فى هذه الفترة التى كان «الجهاد» يقود المسلمين إلى الجنة، لايبدو أنه تم تمديد الامتيازات التى من الله بها على الصليبيين لمغفرة ذنوبهم(١٢) لتشمل المحاربين المسيحيين بالشرق حتى ضمن جماعات الداوية والاسبتارية. ومن وجهة النظر المادية لم يكن فى الإمكان أن تنطلق الحملة الصليبية إلا من الغرب، لكن انعدام الربط على المستوى الروحى كان أمرًا ملحوظًا. ولو كانت الحروب المسيحية قد دارت فى الشرق فى مناخ الحرب الصليبية لربما كان من اللازم أن تظهر بعض الشخصيات الدينية مباشرة فى مملكة بيت المقدس والحال أن الكنيسة لم تضف صفة القداسة على أية شخصية من الشرق اللاتينى، ولا حتى على الملك المسكين المتواضع الذى كان مصابًا بالبرص، ولم تصل إلينا أية خطبة تحث الشعب المسيحى على الحرب ضد المسلمين.

على صعيد آخر لم تظهر فى الشرق اللاتينى أية رواية ولا ملحمة تتعلق بالحملة الصليبية، وفى الغرب كان بعد المسافة يمنع من إرجاع انتصارات الصليبين إلى أبعادها الإنسانية، فقد ألهمت الحملة الصليبية أناشيد المآثر والروايات الملحمية(١٣) لعدة قرون ولم يحدث شىء من ذلك فى الشرق. وفى التاريخ العام لمملكة بيت المقدس الذى ألفه وليام الصورى حوالى عام ١١٨٣، نجد أن ما كان هذا الكاتب يعرفه عن الحملة الصليبية الأولى يكاد يكون مقتبساً بكامله من كتاب المؤلف الغربى ألبير الإكسى، كما كان يعرف أيضًا رواية فوشيه الشارترى للأحداث، وهو صليبى بقى مستقرًا فى الشرق غير أن أحدًا لم يواصل المسيرة التى بدأها فوشيه داخل هذا الشرق، وسيعترض البعض مستشهداً بـ «أنشودة الأسرى» التى ألفت لريمون الأنطاكى وهى حالة خاصة جداً، وقد عرضت للسبب الذى يبدو لى من خلاله أن هذه القصيدة ترتبط بالأدب الذى ظهر إبان الأسرة الحاكمة ببوايتيه التى ينتسب إليها ريمون(١٤). وعلى أية حال فإن خُطّافاً واحداً لا يأتى بفصل الربيع(*)، وتظل المفارقة مثيرة للدهشة.

* * *

(*) مثال فرنسى شائع مؤداه أن مثالاً واحداً لا يؤدى إلى استنتاج (المترجم).

أوضحنا بما فيه الكفاية أن الحملة الصليبية لم يكن لها إلا تأثير ثانوى على التجارة الغربية بالشرق، إذ كانت التجارة قائمة قبلها وظلت كذلك بعدها، وكان للحملة الصليبية أن شجعت هذه التجارة فى عدة جوانب، بيد أنهما ألحقا ببعضهما الضرر كذلك، وإذا كانت الحملة الصليبية قد أحدثت تعديلاً ببعض الطرق التجارية وببعض الكيفيات والأوضاع فقد يكون من السهل أن نثبت أنها زادت من الحجم التجارى أكثر مما كان سيحدث بدون تدخلها، والحق أننا أمام شكلين من أشكال التوسع الأوروبى.

من المتعذر معرفة النتائج الاقتصادية المترتبة على بداية الازدهار الأوروبى داخل الشرق. ومن البديهى أن الغزو الاقتصادى الأوروبى فى الأزمنة الحديثة قد ألحق بالاقتصاد التقليدى بالشرق أضرارًا خطيرة. ومنذ نهاية العصر الوسيط لدينا الانطباع بأن عدد ما كانت تبيعه أوروبا للشرق من المنتجات المصنعة يخل بالتوازن السليم، بل وكانت تفرض عليه بعض عملاتها. هل يمكن أن نكشف عن بداية هذا التطور فى القرن الثانى عشر ولاسيما فى القرن الثالث عشر ؟ حسبنا أن نأمل قيام أبحاث جديدة توضح هذا الأمر، كما أن تزايد الطلب الأوروبى يمكن أن تترتب عليه كذلك نتائج يمكننا أن نقوم بتقديرها فى هذه اللحظة، فلعل هذا الطلب قد ساهم فى تعاظم تجارة النقل انطلاقًا من الشرق الأقصى بنسب أظهرت الأيام فيما بعد أنها كانت خطيرة(١٥).

* * *

ومع نهاية الشرق اللاتينى والحملات الصليبية، وفى انتظار حصول التطورات اللاحقة، يمكن التساؤل عما كانت عليه حصيلة علاقات الأسر المسيحية فيما بينها ومع المسلمين، فقد لاحظنا وجود عداوة منذ زمن بعيد بين مسيحى الكنيسة اليونانية ومسيحى الكنائس الشرقية وصلت أحيانًا إلى أن يؤثر هؤلاء الأخيرين السيادة العربية أو التركية على السيادة البيزنطية، كما لاحظنا فى البلاد اليونانية عداوة مشابهة بين المسيحيين الرومانين واليونانيين، ولو أن الفجوة القائمة بينهما لم تكن قديمة بنفس المقدار ولا خطيرة فى الأصل بنفس الدرجة وبالطبع فإن موقف الغرب وروما يتحمل قسطًا من المسؤلية فى هذه العداوة، إذ أثارت هذه المشاعر الاضطراب فى العلاقات بين الملكيين واللاتين بصورة أقل حدة. ومع نهاية جيل الحملة الصليبية الأولى أصبحت علاقات مسيحيى الشرق مع اللاتين علاقات سليمة دون أن يؤدى ذلك إلى تقارب حقيقى بينهما(١٦) برغم مساعى المبشرين باستثناء حالة الموارنة والأرمن القيليقيين. ولم تتغير مشاعر الشرقيين إزاء اليونانيين حيث كانوا عايدين فى الصراع الحاصل

بين الفرنجة والمسلمين. وكانت السلطات الإسلامية وتعتبر الملكيين الذين ربما كان عددهم قد تضاءل رعايا أمناء وكان اليهود يعتبرون أنفسهم ذوى انتماء للدول الإسلامية التى كانت تعتبرهم كذلك رغم وجود يهود بالشرق اللاتينى. ومن المؤكد أن العلاقات بين مختلف الطوائف سيطر عليها التوتر ولاسيما فى مصر على أن الأمر كان يتعلق بحركة عامة ظهرت فى نهاية العصر الوسيط فى كل من العالم المسيحى والإسلامى، وهى ترجع إلى أسباب ذات طابع اجتماعى واقتصادى أكثر منها ذات طابع عقائدى. وكان للحملات الصليبية (كما فى بعض فترات الاسترداد الإسبانى) أثر إقليمى لكن من المؤكد أنه كان أثراً سلبياً، فصعوبة التمييز بين التجار والمحاربين قد طرح شكوكًا حول الأقباط الذين كانوا يُحْسَدون على دورهم الإدارى، وقد أدى استمرار الخطر الفرنجى المحدق بالبحر المتوسط إلى اتخاذ جملة من الإجراءات ضد موارنة الساحل السورى سواء كانت هذه الإجراءات مبررة أم لا. وكانت انعكاسات الغزو المغولى وقتئذ أشد قوة بيد أن التهديد المغولى لم يستمر لمدة طويلة وقد تغيرت ملامحه حينما اعتنق المغول الإسلام.

أما فيما يتعلق بالمعرفة المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين[١٧] فيمكن القول أولاً إنه لايبدو أن المسيحيين والمسلمين قد كرسوا اهتماماً لمعرفة العالم المسيحى الرومانى[١٨]، ومن جهة أخرى فإن معرفة اللاتين المقيمين فى الشرق بالإسلام ظلت منعدمة[١٩] إلا فى مرة أو مرتين. ويعود الفضل فى التقدم الذى حدث فى هذا الشأن بأوروبا إلى حركة التبشير التى نشأت فى الغرب وإلى مجاورة إسبانيا أكثر من أى عامل آخر، وكان هناك بعض التأثير للمبشرين على الأوساط المسيحية بالشرق غير أنه كان تأثيراً على مستوى يمكن أن نصفه بأنه كان فلكلوريًا[٢٠].

وتثبت السير التى كتبها ابن القفطى حول الحكماء من مختلف الطوائف حوالى عام ١٢٠٠ فى حلب، وسير الأطباء التى ألفها ابن أبى إصبيعة حوالى عام ١٢٥٠ فى دمشق أن ثمة نوعًا من التآلف قد حصل بين «العلماء» المسلمين والمحليين اليهود أو المسيحيين، ولعل ما لاحظناه من ظهور الخرافة القائلة بأن العرب ربما قاموا بتدمير مكتبه الإسكندرية الشهيرة عند غزوهم لهذه المدينة كان صدى للمناقشات الدائرة فى نهاية القرن الثانى عشر، مع أنه تبين أنها لم تكن موجودة آنذاك[٢١]. والأمر الغريب أننا نجد أول إشارة لهذه الخرافة لدى الكتاب المسلمين ولو أنها لا يمكن إلا أن تكون مطابقة بالطبع لاتهامات المسيحيين. وقلما أحسن الصليبيون بمَسْلَكهم فى طرابلس كما رأينا لكن لايبدو أنهم كانوا ضمن موضوعات

الحديث، وفضلاً عن ذلك استقرت عملية تأليف المصنفات العقائدية التى لم يكن يقرؤها الخصم قط، وذلك كان شأن اللقاءات الجامعية التى كانت نتائجها تحدد سلفًا(٢٢). ومهما بلغت حقيقة التباين الحاصل بين صقلية وإسبانيا فلا ينبغى المغالاة بشأنه(٢٣). لقد أُبعد العرب تدريجيًا عن صقلية كما قلنا أو ربما رحلوا منها بأنفسهم، أما فى إسبانيا المستعادة فإن التعايش دام لفترة أطول نظرًا لوجود أعداد كثيرة من المسلمين ومرحلة ماضية من التداخل الأعمق غير أن هذا التعايش انتهى إلى المآسى التى حدثت فى القرن الخامس عشر، ويعنى ذلك أنه لم ينشأ أى مجتمع متعدد بشكل نهائى.

ماذا عن التأثير ؟ لقد عرف الشرق اللاتينى فيما يبدو نشاطًا مكثفًا فى بناء المنشآت الدينية على وجه الخصوص غير أن الأمر كان يتعلق بحرفيين أوروبيين كانوا قد قدموا للحج ومعهم الكراريس الحاوية للنماذج وفى نفوسهم الأمل فى الحصول على الربح، ولم يكن قد شاهدوا كنيسة شرقية قط. ولاشك أن الرهبان والكهنة القانونيين اللاتين قد استقروا فى مبانٍ كانت موجودة قبل وصولهم، ومن الممكن أن يكونوا قد أحدثوا بها تعديلات، لكن ليس هناك ما يدل على حدوث تأليف بين النماذج المعمارية الموجودة من جراء هذه المجاورة ولم يحدث أكثر من ذلك حينما قام مسيحيو الشرق أو المسلمون باستعادة مبانيهم الدينية السابقة مع سقوط الشرق اللاتينى. لقد أرسل اللاتين تحفًا فنية إلى الغرب بدافع من ورعهم الدينى تجاه الكنيسة الواقعة بالمدينة التى كانت موطنًا لأسلافهم، وهذه التحف تشكل حتى اليوم ثروة بالنسبة لبعض الكنائس أو المتاحف التى ورثتها ولا نرى أنها ألهمت الحرفيين الذين توجهوا إلى المناطق المذكورة.

ربما يحتاج هذا الحكم إلى التدقيق بالنسبة للفنون الصغرى، ويبدو أنه قد تطورت إبان هذه الفترة فى كل مكان تقريباً مصانع الخزف المزخرف الشائعة التى تُسمى أحياناً «المنع» حيث نجدها فى كل أنحاء الشرق الأدنى، بما فيه الشرق اللاتينى، كما نجد أنواعًا مماثلة لها فى إيطاليا. وبشأن التأثيرات التقنية ربما لزم أن نسجل للشرق اللاتينى نوعًا من الإسهام فى نشر صناعة الزجاج التقليدية وهى صناعة سورية انتشرت فى البندقية ثم فى جميع أنحاء الغرب(٢٤). وربما كان هناك كذلك تأثير متبادل فيما يخص زخرفة المخطوطات من قبل الرهبان اللاتين والمسيحيين المحليين ولاسيما الأرمن، غير أنه لا ينبغى أن يُحتجّ بجامع الأناجيل (*) الذى كان بحوزة الملكة ميليزند وكان أحد أبويها أرمينًا، فهو عمل فريد لم يكن له نظير فيما بعد(٢٥). وضمن نمطين آخرين من الأفكار نشير إلى أنه من الممكن أن تكون النباتات أو حبوب

(*) جامع الأناجيل : هو الكتاب الذى يحتوى على أناجيل القداديس – المنهل – المترجم.

الأنواع النباتية الجديدة قد جلبت من الشرق اللاتينى، وربما تم التعرف بداخله كذلك على لعبة الشطرنج. وفى دراسة تتعلق بعملية التأثير يجب أن نحاول تحديد المسارات المتخذة فى هذه العملية (حيث يمكن أن تجتمع عدة مسارات) حينما توجد عدة إمكانيات تتحرك فى ميادين شاسعة، فبعض الأشياء والمنتجات قد يحالفها كثير من الحظ فى أن تصدر عن هذه المنطقة وليس من غيرها، بيد أن الاختيار عملية مستحيلة فى كثير من الحالات، ويمكن أن تكون دراسة المفردات ذات مغزى لكن عندما تستعير إيطاليا كلمات مثل الديوان (الدُّوان)(*) وقبالة(**) (جابل) فقد يحدث هذا فى أى بلد ناطق بالعربية، بل وحتى فى الشرق اللاتينى عند اللزوم[٢٧].

* * *

ولا نرى أن الشرقيين أو اللاتين قد اهتموا بدراسة الأنظمة السياسية والاجتماعية الخاصة بهما، ذلك أن المجتمعين المتجاورين يوجدان بشكل عام فى العمر العقلى نفسه كما قال ج. إ. جرنباوم. وذلك كان شأن مجتمعات الشرق الأدنى وإلى حد ما العالم المسيحى القروسطوى وعالم الإسلام فى الحقبة نفسها. وهذا الأمر لا يكفى لكى نثبت وجود علاقات عميقة بينهما.

وبمعزل عن المشاكل الدينية الخاصة فإننا نعلم أن المسلمين المحافظين لديهم نفور من كل أنواع البدع، لكن هل هناك اختلاف بين هذا الموقف وموقف العالم المسيحى المرتبط بـ «العرف»؟ بالطبع توجد أولاً قرابات بين الأوساط الاجتماعية الثقافية المتناظرة، ويمكن أن نجد أوجه التقارب بين الفرسان الفرنجة والأتراك أو الأكراد شبه المؤتركين بعد اختفاء الإقطاعات العربية، كما يمكن أن نجد أوجه التقارب بين الشعارات الأشرافية(***) التى استخدمها الغرب وبين النموذج التركى، والحق أن تبنى هذا الشعار قد حصل فى فترة متأخرة، أما شعار المماليك فى هذا الشأن فقد كان معروفًا جيداً غير أن هذه المسألة لابد أن تدرس بعمق إذ يلزم

(*) الدُّوان : وتعنى الجمرك (المترجم).

(**) القَبَالة : اسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين وغير ذلك، من الفعل قبل، - المنجد فى اللغة والأعلام (المترجم).

(***) يتعلق الأمر هنا بالشعارات التى ترسم داخل مساحة على شكل ترس وهى تتألف من الشكل الخارجى بأقسامه المختلفة بحسب المناطق الجغرافية والألوان والمعادن المستخدمة كالذهب والفضة والفرو الذى يدخل فى تزيين الأشكال المرسومة.

أن نحترس من المقارنات السطحية التى تبنى عليها الاستنتاجات دون أن يوفى التسلسل الزمنى حقه من الاهتمام.

ولا يمكن أن ينكر تأثير الإسلام فى إسبانيا على الغرب المسيحى على أنه لا يجب أن نجهل أن هذا التأثير لم يحدث إلا عندما هب هذا الغرب للبحث عنه بنفسه كما يجب أن نتذكر بأن التأثير المذكور تم بواسطة المترجمين وأن الأوروبيين لم يكن بوسعهم أو لم يريدوا البدء بتعلم اللغة العربية إلا فى الوسط التبشيرى فى أقصى نهاية القرن الثالث عشر(٢٨) ويُشَار فى الشرق اللاتينى إلى بعض الأفراد الذين كانوا قادرين على التحدث باللغة العربية(٢٩) لكنهم كانوا حالات استثنائية حقاً (٣٠) ولم يظهر قط أى نشاط فى مجال الترجمة(٣١).

لقد كان هناك ميل فى الغالب إلى تفسير عدم التناسب بين ما اقتبسه الغربيون عن الشرقيين، والعكس، بالإستناد إلى تفوق الحضارة الإسلامية، وبالطبع لا يمكن إنكار هذا التفوق بمقياس العصر الذى عاش فيه شارلمان أو هوج كابى، لكن الأوضاع كانت قد تطورت فى فترة الحروب الصليبية، فلم تعد الفلسفة والعلوم القديمة تهم كثيراً الدول الإسلامية الجديدة التى اعتكفت على الجوانب الدينية المغرقة فى الصوفية ولم تحافظ الفلسفة والعلوم على بقائهما حقًا حتى القرن الثانى عشر إلا فى إسبانيا. وكان الغرب قد تقدم من جهته بيد أن الأوضاع كانت جد مختلفة فى إسبانيا. أو صقلية والشرق الأدنى، ففى صقلية طلب روجيه الثانى من الإدريسى المسلم تأليف مؤلفه الجغرافى الضخم وهو أمر لا مثيل له فى الشرق اللاتينى، وفى صقلية ذاتها انعكست هذه النزعة بعده فلم يحدث التأثير المتبادل فى صقلية ولا فى إسبانيا بمعنى أننا لا نرى أثرًا للتأثير الفرنجى فى بلد إسلامى. إنها مشكلة لا نملك إلا أن نمر عليها مروراً عابرًا وتتعلق بمعرفة السبب الذى جعل الإسلام الذى أظهر انفتاحًا كبيراً إزاء الحضارات المجاورة يبدو فى هذه اللحظة راغبًا فى تجاهلها حتى عندما كان عديد من التجار الأجانب يرتادون موانئه. وإذا سُمِحَ لى بالقفز بضعة أجيال فإننى أنبه إلى حقيقة كون أن ابن خلدون نفسه فى نهاية القرن الرابع عشر كان على معرفة حقة بتوافر الغرب على حياة ثقافية، ولو لم يكن يعرف عنها شيئًا، وعودة بنا إلى الشرق الأدنى حيث تجاورت الثقافتان وكانتا تقفان منذ ذلك الوقت على قدم وساق من عدة مناحٍ فإن المثير للدهشة أن تنعدم الصلات بينهما انعدامًا تامًا. لقد تحدثنا سابقًا عن الفن، فلنأخذ بعض الأمثلة، بالمصادفة، من ميادين أخرى. لقد امتُدح وليام الصورى نظرًا لمعرفته شيئًا من اللغة العربية والتاريخ الإسلامى، وهذا غاية ما فى الأمر، إذ حتى هذه الأشياء غير مؤكدة فقد عرف التاريخ الموجز لأوطيخوس

(سعيد بن البطريق) أى لكاتب مسيحى عاش قبل قرنين ولا يتضمن هذا التاريخ أى اتصال مع المسلمين. وفى المقابل فإن ابن الأثير وهو أكثر مفكرى زمانه ذكاء واطلاعًا على الأخبار لم يعرف الفرنجة إلا من جانب الكفاح الدائر ضدهم، ولم يسمع قط عن وليام الصورى الذى كان نظيرًا له بالتأكيد على المستوى الفكرى، كما حدث تجاهل متبادل بين كبار المشرعين أمثال فيليب النوفارى وحنا الإبلينى وأقرانهما من الناطقين باللغة العربية، وحتى داخل وسط الأطباء الذى يتسم أكثر بتعددية الطوائف لم يسمع أحد فى الوسط اللاتينى عن «الدورة الدموية الصغرى» التى اكتشفها ابن النفيس على بعد بضعة كيلو مترات، فالرسائل الطبية التى ربما كانت موضع الاهتمام هى رسائل لكبار الأسلاف مما يستتبع عدم وجود أى اتصال[٣٢].

وبعد فترة قليلة حينما أراد رشيد الدين الحديث عن الفرنجة ارتأى بحق أن يشير إلى كتيب الحوليات لمارتن البولونى الذى كان مهاجرًا أرمينيًا على الأرجح[٣٣]، وذلك داخل الإمبراطورية التى كانت من أكثر الإمبراطوريات المغولية سعيًا لتوحيد الكنائس المسيحية.

ويتضح هذا التشخيص أكثر إذا لاحظنا أنه لم يحدث الاتصال الذى يترك أثرًا فى كل الأحوال، بين المسيحيين بالغرب والمسيحيين بالشرق إلا نادرًا. لقد نشأت القضايا الفلسفية التى هزت العالم المسيحى ابتداء من أبيلار إلى القديس توما فى أسبانيا وليس فى الشرق. وفى المغرب تعلم ليوناردو البيزى معرفة الأرقام العربية، وفى المقابل كان بول الأنطاكى وهو أسقف مدينة صيدا يتحدث عن المسيحية كما لو لم يكن للكنيسة اللاتينية وجود قط (بيد أنه لا يمكن التأكيد حقًا بأن ذلك(*) لا يعود إلى القرن الحادى عشر[٣٤]).

ورغم أنه لم يحدث قط أن مؤرخًا أوروبيًا إبان العصور الوسطى قد اعتبر الشرق اللاتينى مصدرًا رئيسيًا لتأثير الشرق على الغرب فقد نزع مؤرخو الحملات الصليبية أنفسهم إلى الإشادة بالدور الذى لعبه الشرق اللاتينى فى هذا الشأن، ومن ثم الإشادة بدور الحملات الصليبية، فمن الضرورى ألا نخلط بين كافة هذه الأمور.

وسيكون من المفارقة الادعاء بأن الصليبيين وخلفاءهم المقيمين بالشرق لم يضطروا إلى التكيف بداخله؛ فقد سكنوا بالمنازل التى وجدوها واقتاتوا من الطعام الذى كان يقدمه لهم البلد، واكتسوا بالملابس المتوافقة مع المناخ. وليس ثمة نص يطلعنا عما إذا كانت الاختلافات

(*) ربما كان المقصود بذلك حديث بول الأنطاكى، فثمة صعوبة بالغة بالنص الفرنسى إذ لا يكتشف القارئ بسهولة على من يعود الحديث. (المترجم)

بشأن الأثاث أو الملابس قد تسببت لهم فى المشاكل بيد أننا لا يمكن أن نتحدث عن التأثير بالمعنى العام إلا إذا كان ما تحقق من مكتسبات فى الشرق قد انتقل إلى أوروبا، والحال أن الفرنجة المقيمين فى الشرق لم يعودوا بالطبع إلى أوروبا ويمكن أن نتساءل عما إذا كان قد توفر لهم الوقت الحجاج أثناء عبورهم ليستوعبوا بما فيه الكفاية ما يمكن أن يجلبوه إلى بلادهم. كانت عقلية العصر كما نعرف، وكان ما حملوه أو ما أرسله مواطنوهم بالشرق إلى كنائس بلدانهم الأصلية يتمثل فى رفات القديسين أو ما كان يجعلهم يعتقدون بأنها كذلك، وأيضاً المنسوجات والأعمال الفنية التى حصلوا عليها من غنائم الحرب. ولا يجوز لنا الحديث عما تمكنوا من تعليمه لأوروبا بشكل غير مباشر. على أية حال ظلت المعارف التى اكتسبها فرنجة الشرق بين أيديهم، أو على الأكثر انتقلت مع المتبقيين منهم إلى قبرص وبعض الكنائس بإيطاليا الجنوبية.

وإذا أثرنا هذه المسألة على نطاق أعم فينبغى أن نميز ضمن كل هذه التأثيرات بين تلك الآتية من أوساط المسيحين المتعربين وتلك الآتية من بعض الأوساط اليهودية خلال فترة مؤقتة. لابد من ملاحظة أن الفرنجة لم يحتلوا أيًا من المراكز الثقافية الكبرى بالشرق ولا حتى سوريا المسلمة أو المسيحية (لم تعد القدس آنذاك مركزًا ثقافيًا شرقيًا). وعندما كانوا يحتلون منطقة ذات تراث ثقافى كانوا يدمرون المكتبات ويجبرون العلماء على الهجرة، ذلك أن المجتمع لا يأخذ من غيره إلا ما هو فى حاجة إليه، ولم يكن العالم المسيحى فى حالته تلك بحاجة إلى العالم الإسلامى كما كان، ولم تعد المشاكل الفلسفية ولاسيما المشاكل المتعلقة بالعلاقات الطائفية موضع اهتمام، علاوة على أن التواصل بين مجتمع وآخر كان يستلزم وجود مترجمين أكفاء، هذا إذا أمكن العثور عليهم بالشرق. وبالإضافة إلى ذلك لم تكن الحرب تشجع الاتصالات الثقافية التى لم تكن مجدية لها بل مضرة وغاية ما كانت تستطيعه هو أن توحى بإقامة تبادل للتقنيات العسكرية (انظر أعلاه).

لم نبحث فى كل ما سبق إلا ما أخذه الغربيون عن الشرق، وليس ما أخذه الشرقيون عن الغربيين الذين اعتبروا ضمنياً على قدر كبير من الوحشية التى لا تؤهلهم لتقديم أى شيء. وبالفعل لم يذكر إلى حد الآن أى تأثير ثقافى للغرب على الشرق، باستثناء بعض الخرافات الدينية التى نقلها المبشرون إلى الأوساط المسيحية بمعزل عن الحملات الصليبية(٣٥).

فلنتناول المسألة تناولاً عكسيًا، إذا راجعنا أهم ما نقله الغرب عن العالم الإسلامى بشكل عام، فالسؤال المطروح هو أن نعرف المكان الذى تم النقل منه وموقع الشرق اللاتينى

فى هذه العملية. ثمة منطقتان أو ثلاث مناطق يمكن أن تحدث بها الاتصالات، فمن جهة هناك إسبانيا وبشكل ثانوى صقلية اللتان استعادهما المسيحيون، وكان ما يزال عديد من السكان المسلمين أو اليهود – المسيحيين يقيمون فيهما، وقد اندمجوا فى الحضارة المحيطة إلى جانب عدد من المترجمين ولاسيما اليهود، فكان من الأسهل بالنسبة لمن يرغب فى التعرف إلى الحضارة «العربية»، مثل بطرس المبجل وعدد كبير من المثقفين الغربيين الذين أتوا بعده، التوجه بالطبع نحو أسبانيا القريبة، وقد حدث أن التطور الروحى المشار إليه أعلاه بشأن الشرق لم يصل إلى أسبانيا فابن رشد عاش فى القرن الثانى عشر، وما تبقى من إسبانيا المسلمة التى هاجر منها طالبو العلم والمعرفة إلى الشرق أصبح آنذاك على درجة من القصور بحيث لم تعد له أهمية دولية، وفى الواقع نجد أن معظم الأعمال العلمية المترجمة من العربية إلى اللاتينية وأحياناً بواسطة الترجمة العبرية قد صدرت من إسبانيا كما صدر كتابان أو ثلاثة على الأكثر من الشرق اللاتينى خلال قرنين. وهو أمر له دلالته حتى لو سلمنا بما حصل من ضياع فى الكارثة النهائية.

إن المجال الذى يظهر فيه التأثير بديهيًا وواضحًا فى انتشار المفردات ذات الأصل العربى المتوسطى وحتى على المستوى الدولى هو مجال التجارة، ومهما كان عليه أمر التجارة التى مارسها الإيطاليون فى سوريا الفرنجية فإنه من البديهى أنها لم تكن بحاجة لهذه المفردات كى تدرك الخبرات المنجزة فى الحواضر التجارية الكبرى داخل البلدان العربية وأحياناً قبل الحملة الصليبية، وباختصار فإن مكانة الشرق اللاتينى التى يصعب تحديدها فى كل حالة خاصة على حده وهى مكانة ثانوية فى هذا الصدد إلى درجة تدفع إلى الاعتقاد بأنه لو لم يوجد هذا الشرق لما تضاءلت مكتسبات الغرب، أما مكتسبات الشرق فقد كانت تافهة حتى فى الوسط المسيحى.

* * *

لقد سعى الباحثون مرات عديدة ومن وجهات نظر مختلفة لتناول الحملات الصليبية من منظور التاريخ الاستعمارى المقارن(٣٦) بل لقد انتهى بهم الأمر إلى المقارنة مع المشروع الإسرائيلى المعاصر، نظراً لأن الأمر يتعلق بالأماكن نفسها. لابد أن نتحرز من الغموض الذى يشوب مصطلح «مُسْتَعْمَرَة». فإذا رجعنا للنموذج اليونانى القديم فإن المُسْتَعْمَرَة تعنى قيام جماعة من الناس بالاستقرار ضمن تنظيم سياسى داخل أرض أجنبية وفى منطقة نائية تقريبًا، فالمستعمرات ليست تابعة حقًا لحاضرة البلد الأصلى، وقد تظل تابعة لها لفترة من

الوقت، فقد أمكنها أن تستجيب لحاجيات الحاضرة لكنها لا تعود عليها بمنفعة أخرى، فذاك كان شأن قرطاجنة بالنسبة للفينيقيين، وبالطبع تعبر مثل هذه المبادرة عن الاكتظاظ السكانى الشديد (باستثناء حالة المنفى السياسى)، ولايبدو ثمة إمكانية للكلام عن البواعث الأيديولوجية حتى لو كانت الوقائع محاطة بهالة أسطورية.

أما فى الأزمنة الحديثة فإن الاستعمار الأوروبى هو أمر مختلف تماماً. من المؤكد أنه يفترض كذلك إمكانات ديمغرافية وقد يتضمن أحيانًا منافى دينية (الأخوة الحجاج). لكن يتعلق الأمر إجمالاً بإرادة إمبريالية مرتبطة بالبحث عن المنافع الاقتصادية، فالأراضى المحتلة تظل تابعة للحاضرة التى تحتفظ بها حتى ولو تبين أنها مُكَلِفة أكثر من المتوقع، وقد يحدث أن يتخفى المشروع وراء الحيثيات الأيديولوجية (كما فى القرن السادس عشر حينما تم نشر العقيدة المسيحية فى أمريكا التى أصبحت تلقب باللاتينية)، بيد أن الأمور لم تحدث بهذا الشكل دائمًا وحتى لو وجد من كانت لديهم قناعة صادقة، فإن هذا لم يكن الباعث الوحيد ولا الرئيسى وعلى أية حال لم يعد لهذا الباعث مجال منذ القرن الثامن عشر، فقد استبدل بفكرة الرسالة الحضارية التى كانت تلازمها مصالح أخرى حتى لو كانت هذه المهمة صادقة.

إذا وضعنا الحملة الصليبية بين هذين القطبين نجد أنها لا تطابق أيًا منهما، فهى تفترض إمكانيات ديموغرافية (لا ينبغى المبالغة فى أمرها) وبعض القلاقل الاجتماعية (وليس المنافى الدينية). فهى فى المقام الأول ومهما بلغ نقاؤها ذات باعث أيديولوجى، ومن الصعب أن نتبين فى نقطة الانطلاق المصلحة السياسية أو الاقتصادية التى كان يتوخاها القادة العلمانيون، أما فيما يتعلق بالبابوية فإنها كانت تتوقع بلاشك الحصول على امتياز دينى كفيل بأن يخدم مصالحها السياسية بأوروبا بطريقة غير مباشرة. وكانت الهياكل الاجتماعية والسياسية فى معظم الحالات تحول دون التفكير فى جعل الأراضى المحتلة تابعة للحاضرة، وبالأحرى كانت تحول دون تحقيق تلك التبعية، وكانت الدولة الإيطالية، النورماندية وفريدريك الثانى بمثابة الاستثناء الذى يؤكد القاعدة، والحديث عن التبعية الشاملة لأوروبا التى ربما كانت هذه التجربة ستجعلها أجلى وعيًا بذاتها لا يمكن أن ينطوى إلا على دلالة فضفاضة جداً فى أحسن الأحوال، وعلى الصعيد الاقتصادى لم يمد الشرق اللاتينى أوروبا قط بمنافع أخرى غير بقايا رفات القديسين والتحف الفنية التى كانت تؤخذ من الغنائم من حين لآخر، ومن المؤكد أن التجار الغربيين قد تمكنوا من تحقيق أرباح طائلة، غير أن ذلك كان يتم فى الشرق بشكل عام وليس فى الشرق اللاتينى بصفة خاصة. وعلى أية حال فقد حققوا هذه الأرباح من

خلال الزبائن الأوروبيين وما جلبوه إلى الغرب، عدا بالنسبة إليهم أنفسهم، كان بعيداً عن أن يقارن بما اضطر الغرب لإنفاقه بدافع من نزعة دينية وسياسية حتى يظل الشرق اللاتينى تحت سيطرته، وحينما انهار الشرق اللاتينى استمرت الأرباح تتدفق بدون نفقات هذه المرة لصالح أولئك الذين كانوا قد تخلوا عنه بعد أن استنفعوا منه؛ ذلك أن من خصائص الإيديولوجية رغم أنها ترفع الناس لفترة إلى مقام أعلى من مكانتهم، فانها تتستر بعد ذلك على كثير من الوقائع الأخرى.

وعودة بنا إلى الحرب الصليبية يمكن بالطبع أن ندرجها ضمن التاريخ العام، غير أن مقابلتها بظواهر أخرى من أجل فهمها يحول دونه أن خصائصها متفردة جداً.

وثائق الكتاب

النصوص التى يعاد نشرها هنا اختيرت من بين نصوص أخرى كثيرة، كان يمكن أن تدرج فى هذا الكتاب نظراً لما لها من عدد مماثل من المبررات، إذ لم يسبق لها أن نشرت من قبل، وبعضها لم ينشر فى ترجمة فرنسية وأخيراً، فإن بعضها الآخر يتعذّر الحصول عليه بيسر. لذا لا ينبغى أن يصاب القارئ بالدهشة، إن لم يجدْ بعض النصوص الشهيرة التى ربما ترقب قراءاتها عن حق(*).

١ – مقطع من رسالة الجهاد التى كتبها السلّمى فى دمشق حوالى عام ١١٠٥ م.

(تحقيق سيفان، Journal asiatique, 1966.).

فوثبت طائفة على جزيرة صقلية على حين تباين وتنافس وتملكوا – بمثل ذلك – بلداً بعد بلد فى الأندلس، ولما تناصرت الأخبار عندهم بما عليه هذه البلاد من اختلاف أربابها وتقرض أكابرها مع اختلالها واضطرابها أمضَوْا عزائمهم على الخروج إليها وكانت القدس مهائر أمانيهم منها.

فأشرفوا من بلاد الشام على ممالك مفترقة غير متفقة وأراء متباينة مقترنة بذحول كامنة فقويت بذلك أطماعهم وامتدت إلى ما يرونه أنواعهم. ولم يزالوا دائبين فى جهاد المسلمين. والمسلمون عنهم متثاقلون ومتطافرين (كذا) على حربهم وهم فى لقائهم متواكلون حتى تملكوا فى البلاد ما لم تنته إليه غاية آمالهم ويبلغوا أضعاف ما أرادوه من إهلاك أهلها وإذلالهم. وهم إلى الآن متمادون فى الاجتهاد مجدون فى طلب الازدياد تتضاعف فى كل وقت أطماعهم لما يظهر لهم من الإحجام عنهم وتنسفا آمالهم بحكم ما يرونه من رضى أعدائهم

(*) قد أوردنا الأصول العربية للوثائق التى ألحق كاهن بها كتابه، عندما استطعنا إلى ذلك سبيلا، أى بالنسبة لما هو متوفر فى المكتبة العربية (الوثائق رقم ٢، ١٣، ١٧) وما حققه المستشرقون ونشروه فى دورياتهم (الوثائق رقم ١، ٩، ١٦). أما بالنسبة للوثائق العربية الأخرى فاضطررنا إلى نقلها إلى العربية على أساس الترجمة الفرنسية، نظراً لاستحالة الحصول على أصولها. أما الوثائق رقم ٣، ٥، ٧، ١١، ١٤، ٢٠ فهى محررة أصلا بلغات أخرى غير العربية أو الفرنسية، فلا ضرر من نقلها إلى العربية على أساس الترجمة الفرنسية الواردة فى كتاب كاهن. (المترجم).

بالسلامة منهم حتى لقد تيقنوا أن البلاد كلها صائرة إليهم وأن جميع أهلها أسرى فى أيديهم. والله بكرمه يخيب ظنونهم باجتماع الكلمة وانتظام شمل الأمة إنه قريب مجيب. (...)

فقد تحقق عندكم ما كنتم فيه شاكين من وجوب هذه المجاهدة على أعيانكم سيما من قد خصه الله سبحانه بتملك شىء من هذه البلاد فإن وجوب ذلك عليه آكد من وجوبه على غيره منكم لما قد فوضه الله تعالى إليه من أمور رعيته وفرضه عليه من النظر لأهل طاعته وألزمه إياه من المحاماة عن حوزة الإسلام وبيضته لا بل ينبغى له أن يرتبط - نعم الله عليهم - بمجاهدة أعداء الله سبحانه فى ديارهم كل عام وإزعاجهم عنها كما ينبغى لكل أمير وإمام لتكون أبداً كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ولتضعف أطماع أعداء دين الله عن الاهتمام بمثلها مرة أخرى.

فالعجب كل العجب من سلطان يتهنىء بعيش أو يخلد إلى استقرار مع إظلال هذه النازلة التى مغبتها استيلاء هؤلاء الكفار والإخراج من البلاد بالقهر والاقتسار أو الإقامة معهم والتكبل والتعذيب فى الليل والنهار.

٢ - أسباب الحملة الصليبية الأولى كما رآها المؤرخ المسلم ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ

(الجزء العاشر، سنة ٤٩١ هـ(*)).

كان ابتداء ظهور دولة الفرنج، واشتداد أمرهم، وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على بعضها، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فملكوا مدينة طُلَيْطُلَة وغيرها من بلاد الأندلس، وقد تقدم ذكر ذلك.

ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صِقِلية وملكوها، وقد ذكرتهُ أيضاً، وتطرقوا إلى أطراف إفريقية، فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم، ثم ملكوا غيره على ما تراه.

فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام، وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل (١) جمع جمعا كثيراً من الفرنج، وكان نسيب رُجار الفرنجى (٢) الذى ملك صِقِلية، فأرسل إلى رجار يقول له : قد جمعتُ جمعًا كثيراً، وأنا واصل إليك، وسائر مِنْ عندك إلى إفريقية أفتحُها، وأكون مجاوراً لك.

(*) ٤٩٧ فى الأصل الفرنسى والأرجح أنه خطأ مطبعى (المترجم).

فجمع رُجار أصحابه، واستشارهم فى ذلك، وقالوا : وحق الإنجيل هذا جيد لنا ولهم، وتصبح البلاد بلاد النصرانية. فرفع رِجْله وحبق حبقة عظيمة وقال : وحق دينى، هذه خير من كلامكم ! قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : إذا وصلوا إلىّ أحتاج إلى كلفة كثيرة، ومراكب تحملهم إلى إفريقية، وعساكر وينقطع عنى ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة، وإن لم يُفلحوا رجعوا إلى بلادى، وتأذَّيتُ بهم، ويقول تميم غدرتَ بى، ونقضتَ عهدى وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا؛ وبلاد إفريقية باقية لنا، متى وجدنا قوة أخذناها.

وأحضر رسوله، وقال له : إذا عزمتم على جهاد المسلمين، فأفضل ذلك فتح بيت المقدس، تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر، وأما إفريقيا فبينى وبين أهلها أيمان وعهود.

فتجهزوا، وخرجوا إلى الشام، وقيل : إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية، وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، ودخول أقبيس إلى مصر وحصرها، خافوا، وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام(٣) ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين، والله أعلم(٤)،(٥).

فلما عزم الفرنج على قصد الشام. (...)

٣ – الرواية الوحيدة المحفوظة لشاهد عيان محلى على استيلاء الصليبيين على أنطاكية (مترجم عن اللاتينية عن ترجمة الأب بيترز عن النص الأرمنى).

رواية الراهب هوفاينس (يوحنا) موجودة فى نهاية مخطوطة قام هو بنسخها بدير سان بارلام فى أعالى مدينة أنطاكية أثناء العمليات العسكرية لعام ١٩٠٨.

هذه السنة «افتقد الله شعبه» كما هو مكتوب : «لا أهملكم ولا أترككم»، وصارت يد الله القوية هادياً لهم. حملوا الصليب ويحملهم له فى البحر قتلوا عديداً من الكفار وجعلوا الآخرين يفرون على الأرض، استولوا على مدينة نيقية التى حاصروها خمسة أشهر، ثم وصلوا إلى بلدنا فى أقاليم قيليقية وسورية وعمروا حاضرة أنطاكية من خلال انتشارهم حواليها. وزهاء تسعة أشهر عرضوا أنفسهم والمناطق المجاورة إلى محن قاسية. وأخيراً لما لم يكن فى مقدور البشر الاستيلاء على مكان مُحصَّن مثل هذا، أمدهم الله بالخلاص بواسطة تعاليمه وفتح لهم باب الرحمة. فاستولوا على المدينة وبحد السيف قتلوا التينين المتكبر مع جنوده. وبعد يوم أو اثنين تجمع حشد غفير حاملا النجدة لأمثاله. ومن جراء ضخامة عددهم واحتقار قلة عدد غيرهم كانوا متغطرسين على غرار قول فرعون : «سأقتلهم بسيفى وستتغلب عليهم يدى»،

وخلال خمسة عشر يومًا حل بهم القلق الأكبر وسحقهم الحزن إذ افتقر رجالهم ودوابهم لضرورات العيش، ونظرًا لضعفهم الشديد وذعرهم من كثرة الكفار تجمعوا فى البازيليك الكبرى للرسول القديس بطرس، ومع اشتداد الضخب وانهمار سيل من الدموع الغزيرة صدر صوت جماعى مدوٍ. وكان يطلبون على وجه التقريب ما يلى : «ربنا ويا مخلص المسيح ويا من نأمل وباسمه «دعى التلاميذ مسيحيين فى أنطاكية أولاً». واقتدتنا إلى هذا المكان فإذا كنا قد أخطأنا فى حقك فإن لديك كثيرًا من الوسائل لمعاقبتنا، فلا تسلمنا إلى الكفار حتى لا يقولوا فى زهو وتكبر : أين إلهكم ؟». لقد شجع بعضهم بعضًا بعد أن أسبغت عليهم الصلاة نعمها فقالوا : «الرب يعطى عزًا لشعبه وسيبارك الله شعبه بالسلام».

وبعد أن انطلق كل واحد منهم على فرسه وهجموا على الأعداء الذين كانوا يتهددونهم فشتتوا شملهم وألجأوهم إلى الفرار، فمازالوا يقتلونهم حتى غروب الشمس. فكان فرح غامر للمسيحيين وزاد نمود القمح والشعير بوفرة كما فى أيام المتنزه على أباب السامرة. لهذا تماهوا مع النشيد النبوى : «سأمجدك يا ألهى لأنك تكفلت بى ولم تمنح بسببى الفرح إلى أعدائى»(١).

٤ – احتلال الفرنجة لطرابلس (ابن أبى طى مذكور فى تاريخ ابن الفرات).

كانت فى طرابلس «دار العلم» التى لم يكن لها نظير فى غناها وجمالها وقيمتها. فقد روى لى أبى أن شيخًا من طرابلس قال إنه كان مع فخر الملك بن عمار(١) حينما كان موجودًا فى شيزر(٢) فجاءه. خبر استيلاء الفرنجة على طرابلس بفترة قصيرة أُغْمى عليه ثم عندما استفاق قال منتحبًا «لا شىء يؤلمنى قدر ضياع دار العلم ففيها ثلاثة ملايين كتاب (؟) كلها فى شؤون الفقه وعلوم القرآن والحديث والآداب. ومن بينها خمسون ألف نسخة من القرآن وواحد وعشرين ألفًا من كتب التفسير لكتاب الله العلى القدير». وأضاف أبى أن دار العلم هذه كانت واحدة من عجائب الدنيا وقد خصص لها بنو عمار ثروات ضخمة إذ كان بها مائة وثمانون من النساخين كانت تصرف لهم رواتب ومنهم ثلاثون ناسخًا يقيمون بها ليلا ونهارًا. وكان لبنى عمار وسطاء فى كل البلاد يقومون بشراء الكتب النفيسة والحق أن طرابلس فى زمنهم كانت كلها دارًا للعلم يأتى إليها جهابذة الفكر من كل البلاد وكان بها اهتمام بشتى أنواع العلوم من قبل هؤلاء الأمراء لذا كان يأتى إليها، بشكل خاص، أتباع علم الإمامة ممن لهم محبة بالدار والانتساب لها. وعندما دخل الفرنجة طرابلس وغزوا المدينة قاموا بحرق دار العلم لأن

أحد كهنتهم، عليه اللعنة قد أصابه الذعر عندما رأى هذه الكتب فقد وقع على ذخيرة من المصاحف، ومد يده نحو نسخة فوجدها قرآنًا، ثم مد يده نحو أخرى فوجدها كذلك وثالثة حتى وصل إلى العشرين، فقال «هذه الدار لا يوجد بها غير نسخ من قرآن المسلمين» ثم قاموا بحرقها، على أنه تم انتزاع بعض الكتب التى انتقلت إلى بلاد المسلمين.

لقد دمروا أيضًا كل المساجد وكانوا على وشك قتل كافة المسلمين، غير أن مسيحيًا قال لهم : ليس من الحكمة أن تقوموا بذلك فهذه مدينة كبيرة فمن أين لكم بالناس الذين سيقيمون بها، ما ينبغى القيام به هو أن تفرضوا عليهم ضريبة الأعناق بعد أن تصادروا ممتلكاتهم وتجبروهم على السكن بالمدينة ولا تسمحوا لهم بالخروج منها وبذا يصبحون فيها كالمساجين فتستفيدون من إقامتهم بها. ثم إنهم... بعد أن ذبحوا عشرين ألفًا منهم.

أما الحاكم وبعض العساكر فقد التجأوا إلى قصر الإمارة، ودافعوا عن أنفسهم بداخله عدة أيام ثم طلبوا الأمان فكان لهم وبعد ذلك طردوا من المدينة وذهبوا إلى دمشق. ثم أمسك الفرنجة بالأعيان والمسيحيين (المحليين) الذين اعترفوا بأنهم أغنياء فضربوهم وعذبوهم إلى أن سلموا ثرواتهم. ومات الكثير منهم تحت التعذيب. وقسمت المدينة بين الفرنجة إلى ثلاث أقسام: إحداها للجنوية والأخريان لبودوان ملك الفرنجة بالقدس وصنجيل اللعين.

لقد ذهل الناس من الاستيلاء على طرابلس وما أصاب أهلها من محن فقد تجمعوا فى المساجد حدادًا على موتاهم. واستبد بهم الخوف جميعًا، واقتنعوا بميزة الهجرة فرحل عدد كبير من المسلمين إلى العراق والجزيرة. والله أعلم... فقد جاء نبأ وصول الأسطول المصرى إلى صور بعد ثمانية أيام من سقوط طرابلس. ولم يكن قد خرج من مصر أسطولا مشابهًا له قط، فقد كان يحتوى على إمدادات ومؤن وأموال تكفى لتموين طرابلس لمدة عام. وعندما علم قائد الأسطول بنبأ سقوط طرابلس، قام بتوزيع الإمدادات والأموال على صور وصيدا وبيروت وغيرها من المناطق الإسلامية القوية وعاده بالأسطول إلى مصر.

وأثناء الاستيلاء على طرابلس كان حاكمها فخر الملك بن عمار فى ضيافة الأمير ابن منقذ ثم ذهب إلى جبلة واستقر بها بعد أن حمل إليها الإمدادات والأسلحة. وكان تانكريد (دنكرى) قد قام قبل فترة قصيرة بمهاجمتها وشن معركة ضارية عليها، فاستنجد القاضى فخر الدين بالأمراء المجاورين وأشعرهم بغدر الفرنجة وأنهم إذا احتلوا هذا المكان فيزحفون على آخر وستتعاظم قوتهم ربما لدرجة تسمح لهم بالاستيلاء على سوريا بكاملها فيطردون منها المسلمين. كانت رسالته مطولة تدمى القلوب وتدمع العيون لكن لم يجبه أحد.

٥ - فقرات من رسالتين يهوديتين كتبتا صبيحة استيلاء الصليبيين على مدينة القدس (وفقًا لـ د. س. جواتين فى نشرة الدراسات اليهودية، ١٩٥ ص ١٦٢ - ١٧٧ مقاله «الرسائل المعاصرة للاستيلاء على القدس»).

الرسالة الأول :

كما تعرف، يا مولاى، فإننى قد تركت بلدى(١) منذ عدة سنوات راجيًا رحمة الله باحثًا عن الرزق ومن أجل التعبد بالقدس ثم العودة بعد ذلك. غير أننى عندما كنت فى الاسكندرية أحدث الله ظروف كان من نتيجتها بعض التأخير. ثم «صار البحر هائجًا» وظهرت عدة عصابات مسلحة فى فلسطين(...) وكان أن تمكن أحد الناجيين من الهرب من فلسطين بالتمام والمجيء إلى هنا ليخبرنا أنه كاد ألا ينجوا أحد بسبب كثرة العصابات التى قامت بتطويق كل المدن. كما كان هناك أيضًا الرحلة عبر الصحراء وسط البدو بحيث لو فر أحدٌ من أيدى هولاء وقع فى أيدى غيرهم. وعلاوة على ذلك كانت التمردات تجتاح كل أنحاء البلاد وتصل حتى الاسكندرية بحيث حوصرنا نحن أنفسنا عدة مرات وخربت المدينة(٣) (...) غير أن النهاية سعيدة لأن السلطان(٤) - عظم الله انتصاراته - استعاد المدينة وأحل بها عدالة لا نظير لها فى تاريخ أى ملك فى العالم، إذ لم يسرق أحد درهمًا واحدًا من غيره. ونظرًا لعدالته وقوته انتهى بى الأمر إلى أن أتمنى من الله أن يعيد إليه البلد وأن أتمكن من الذهاب إلى القدس. لهذا السبب جئت من الاسكندرية إلى القاهرة لأباشر منها الرحلة. ولكن عندما أعاد الله له القدس المباركة لم يستمر هذا الوضع كثيرًا حتى أستطيع القيام بالرحلة، إذ وصل إليها الفرنجة وقتلوا كل من كان فى المدينة سواء من ذرية إسماعيل أو إسرائيل ومن نجا منهم سجن. ومذاك أطلق سراح بعضهم لكن بعضهم الآخر مازال فى الأسر فى كل أنحاء البلاد(٥). وبكل تأكيد كان أملنا جميعًا أن يجهز سلطاننا(٦) - عظم الله انتصاراته - حملة ضد الفرنجة ويطردهم لكن خاب أملنا مرارًا. غير أننا فى هذه اللحظة (٧) بالذات لنا رجاء قوى من الله أن يخضع له أعداءه إذ لا مناص من أن تتضارب الجيوش فى هذه السنة. فإذا منحنا الله النصر من فضله واسترجع القدس إن شاء الله فلن أكون من أولئك الذين يتقاعسون بل سأتعبّد فى المدينة وسأعرج على دياركم. وإذا لم يشأ الله ذلك واستحال القيام بالحج هذه المرة مثل المرات السابقة، فإن الله سيرفع عنى التكليف فى ذلك لأنه من كان فى مثل عمرى لا يسمح لنفسه بالتباطؤ. أرغب فى العودة إلى موطنى فى كل الأحوال غير أن أمامى احتمالين ممكنين فإما أن أرى القدس وإما أن اتخلى عن هذا الأمل. وأنت تعلم بالطبع

يا مولاى، ماذا حدث لنا منذ خمسة أعوام. فقد توالت علينا الأوبئة والأمراض والمتاعب بلا انقطاع طيلة أربع سنوات. وصار الأغنياء فقراء ومات عدد كبير من الناس بسبب الأوبئة التى قضت على أسر بكاملها، وأنا بنفسى أصبت بمرض خطير لم أبرأ منه إلا منذ عام كى أصاب بمرض آخر أيضاً..

الرسالة الثانية

(...) شكراً لله الذى منحنا الفرصة لإتمام هذا العمل الصالح ومنحك الفرصة للمشاركة معنا فى إتمامه. لقد أنفقنا الأموال لافتداء بعض المساجين بعد أن تمعنا فى التعليمات المتضمنة فى خطابك، وهذا يعنى أننا أرسلنا ما كان متوفراً لدينا إلى من تم افتداؤهم من قبل (؟). ولم نتأخر فى الاستجابة لما طلبته منا غير أننا كنا نبحث عمن يحمل إليك جوابنا. ثم انقضت علينا هذه الأمراض : الوباء والطاعون والجزام والتى ملأت قلوبنا بالقلق خشية أن نصاب نحن أنفسنا بها أو أحد أقاربنا. لقد ذهب رجل ثقة، من طرفنا ولابد أنه فسر لك ما صار إليه أمر المبلغ الذى أرسلته لنا (...) لقد وصلتنا بعض الأخبار التى تفيد أن من بين الرجال الذين تم افتداؤهم من الفرنجة ظلوا فى عسقلان(١) مع أنهم على وشك الموت بؤساً. وهناك مَنْ ظل فى الأسر، وبعضهم الآخر قد قتل أمام عيون الآخرين الذين قتلوا بعد ذلك خلال شتى أنواع التعذيب (..) فى النهاية أطلق سراح كل من أمكن افتداؤهم مع بعض الاستثناءات، بما فيها حالة طفل عمره تسع سنوات ألح عليه الفرنجة فى التنصير بملء اختياره لكنه رفض (...) وحتى هذا اليوم فإن هؤلاء الأسرى لا يزالون فى أيدى الفرنجة، وكذلك عدد قليل ممن كان قد أُسِرَ فى أنطاكية، وذلك بغض النظر عن أولئك الذين ارتدوا عن دينهم يأساً من عدم افتدائهم وتحريرهم. ولم نسمع بالقول إن أولئك الألمان(٢) الملعونين قد اغتصبوا النساء كما كان يفعل الآخرون. ومن بين الذين تمكنوا من الخلاص كان هناك بعض من الذين أنقذوا اليوم الثانى أو الثالث من المعركة أو تركوا مع الحاكم الذى حصل على جواز مرور. وبعضهم من الذين وقعوا فى أيدى الفرنجة ظلوا بعد ذلك فترة من الزمن ثم دبروا خطة للفرار. غير أن أغلب من أطلق سراحهم كانوا من أولئك الذين تم افتداؤهم. وللأسف فإن كثيرين قد أمضوا بقية حياتهم فى شتى صنوف المعاناة والآلام. لقد دفعتهم مظاهر الحرمان المختلفة التى توجب عليهم مكابدتها إلى مغادرة البلد بلا زاد ولا ملبس يقيهم من البرد فماتوا أثناء المشى مثلما مات غيرهم غرقاً. (..) [ويفسر بقية الخطاب أن الثمن العادى لافتداء ثلاثة أسرى ربما بلغ مائة دينار(٣) غير أن كثيراً من المساجين الفقراء قد تم افتداؤهم بمال أقل

ومع ذلك فقد اضطر كثير إلى الاقتراض ولابد من حث كل الجماعات على إرسال الأموال فى سبيل هذا العمل الصالح].

٦ – صراع جوسلين(١) وحلفائه المسلمين ضد تانكريد وحلفائه المسلمين.

رواية عربية معاصرة للأحداث مذكورة فى تاريخ ابن الفرات (قارن : كاهن، سوريا الشمالية ص ٢٤٩).

... كان هناك بين جوسلين الفرنجي وتانكريد حاكم أنطاكية معارك عديدة وعداوة شديدة من جراء ظروف أثارت الشقاق والحرب. وكان تانكريد أقواهما نظراً لامتلاكه أنطاكية وكان جوسلين الأضعف نظراً لضآلة منطقة نفوذه وقلة موارده. لذا فإن جوسلين حينما رأى أنه عاجز على القضاء التام على تانكريد، عهد إلى ابنه رعاية البلد وتموين أماكنها الضخمة، وذهب إلى ملك الروم حيث توسل إليه طالباً دعمه. وقد حصل منه على خمسة عشر ألف دينار. وأثناء عودته لم يكن يمر فى أية مدينة مسيحية، إلا وطلب منها المساعدات وحصل عليها. ثم ذهب الملعون إلى أمه دون أن يغير ثيابه الممزقة التى سافر بها ووزع الأموال على جنوده وحشد جيشاً كبيراً من الفرنجة وغيرهم.

فى تلك الأثناء كان الملعون بودوان ابن (... ؟ البورجى) قد أطلق سراحه قبل فترة قصيرة. وقد لحقه جوسلين بجيش كبير وشرع فى الإغارة على تخوم أراضى تانكريد وعندما اضطر الشاقلى (جاولى)(٢) إلى اللجوء لدى جوسلين نهب قرية من أراضى (تانكريد) الذى عدّ عُدّتَهُ للحرب ثم خرج من أنطاكية، وقد تم دعمه من قبل رضوان(٣) الذى تحدثنا عنه آنفًا(٤). وحدثت المعركة بالقرب من تل البشير فى مكان يدعى (عبر). لقد خاف تانكريد من المسلمين الموجودين فى الجيشين، وتقدم من بين الصفوف منادياً على جوسلين الذى تحدث معه. وكان الشاقلى (جاولى) ينظر إلى ذلك وهو لا يعلم أن من التقاليد الفرنجية أن يلتقى العدو مع عدوه لتوضيح الوضع ومقابلته، دون أن يخشى أحدهم أذى من الآخر، وخشى جاولى أن يتآمرا عليه، لكن تانكريد كان يحادث جوسلين فى أمر المسلمين غير أن جوسلين لم يوافق على شىء فعاد تانكريد إلى رجاله ونودى آنذاك إلى المعركة.

لقد رأى جوسلين أن الشاقلى (جاولى) يقف بمنأى عن الجيش فذهب للقائه وقال له : «لا يا سيدى هذه هى طريقتنا فلا تتخيل أمراً غير هذا» لكن جاولى لم يأخذ هذا الكلام مأخذ

الجد وظل على انفراد. ومع ذلك أمر صديقه سنقر دراز بأن يخرج بنفسه فى أتون المعركة وقد وضعه الفرنجة فى الميمنة. ووجه تانكريد هجمات عنيفة ضد جوسلين، وتلا هذه الهجمة الأولى التى هى من أعنف الهجمات شجار صاخب. وقتل سنقر عدداً كبيراً من الفرنجة.

ثم ابتعد الجيشان، وذهب كل منهما إلى معسكره استعداداً للهجمة التالية، وكان كل واحد من القائدين يهاجم خصمه متبوعاً بجيشه وكان جوسلين لا يبحث إلا عن تانكريد، وتانكريد لا يبحث إلا عن جوسلين، وكانا يوجهان لبعضهما بعضاً ضربات بالرمح والسيف، وكان كل منهما يظهر بسالته للآخر. ثم عاد الجنود من جديد إلى معسكرهم وقال تانكريد : «بقيت هجمة واحدة فإما أن يقتلنى أو أن أقتله» وغير حصانه وأخذ رمحاً جديداً وأطلق صيحة الانتظام ثم هجم وفعل جوسلين الشيء ذاته والتقيا وضرب كل منهما الآخر، إلا أن ضربة تانكريد سبقت ضربة جوسلين الذى سقط من فوق حصانه. عند ذاك هجم حاكم مرعش(٥) على تانكريد وأسقطه كذلك على الأرض. وساد الاعتقاد بأن جوسلين قد قتل وبما أن حاكم مرعش كان حامل بيرقه وأن الضربة التى وجهها إلى تانكريد كانت بهذا البيرق فإن رجال جوسلين لم يشاهدوا فقط قائدهم ملقى على الأرض بل رايتهم أيضاً ففروا. ولم يقتل أىٌ فرنجىٌ فرنجياً لكن تدخل المسلمون وقتلوا بأنفسهم بعض الفرنجة.

أما جوسلين فقد نهض وتوجه نحو قلعته. غير أن أمه منعته من الدخول وقالت له : إلى أين أنت ذاهب ؟. بربك، أجاب، أنا لم أهرب لقد أنهال تانكريد علىّ بضربة رمح شديدة وواجهته فى معركة حقيقية وهذه يدى تشهد على صدق أقوالى. لكنها ردت : كنت أفضل أن يصلنى خبر موتك على معرفة هزيمتك، لا أريد أن أصدقك قبل أن أذهب إلى تانكريد لأتأكد من صحة ما تقول. وخرجت فوراً وذهبت إلى تانكريد الذى استقبلها استقبالاً مميزاً، وقالت له : «أتعرف سبب مجيئى إلى هنا» فأجاب لا، فقالت «وددت أكثر لو أماته الله عن أن أراه هارباً». فقال لها، يا خالتى، إنه لم يهرب ولم يخش من ضربات الرمح، لقد سقط أرضاً رغماً عنه فهرب رجاله منهزمين. لقد ضربنى فى ثلاث هجمات فوجهت إليه ضربات عديدة». لقد أكد فرسان عديدون ما قاله تانكريد فانصرفت أم جوسلين (٦).

٧ – رسالة مقترحة، مأخوذة من مجموعة نماذج تراسلية كتبت حوالى سنة ١١٣٥ (طبعة فانتيناخ :

Archiv Für Kunde österreichischer Geschichtsquellen XIV - 1855.

ج... ابن وليام الإمبرياكو إلى ف ... شريكه ومواطنه... إن التجار العائدين من الاسكندرية لا ينقلون منك شيئا مؤكداً سوى أنهم قد تركوك فى حالة جيدة، ولقد أدهشنى أنك لم تحاول أن ترسل لى التحيات عبر الرسائل ولا عبر مجرد كلمات وأنك قد استصغرت أو نسيت أن تبعث لى بمودتك. وأنا لا أريد مع ذلك أن أعود (إلى الاسكندرية) غير أننى أزورك عبر المراسلة زيارة الصديق الطيب والشريك الوفى مادمت غير قادر على المجىء بنفسى.

فلتعلم إذن بصورة واضحة أن زوجتك تدير شئون منزلك باتزان وحكمة كما هو جدير بسيدة بيت، وأن كل شىء يسير على ما يرام بلا أية حادثة وأن أبناءك ذوو أخلاق حسنة وصحة جيدة، وأنا سعيد برفاهيتهم. ليس هناك ما يدعوك للقلق، قم بأعمالك بعناية وانتظرنى فى الخريف القادم بالقسطنطينية حيث سآتى للقائك على باخرة بارى، وأجبنى بواسطة فيتال البندقى ابن بيير جيراردى، وقم بما قد ينفعنا من أعمال تجارية ويمكننا من تحقيق أفضل الأرباح.

أضف إلى ذلك أن زوجتك وأطفالك يحيونك، وزوجتك تطلب بإلحاح أن ترسل لها... من جزيرة أندروس مع... ومشط من العاج.

الجواب :

إلى ج... ابن وليام الإمبرياكو من ف... شريكه وصديقه الوفى... لقد قلقت لأننى لم أرسل لك التحية كتابة ولا حتى شفاهية، لكن ليس هناك ما يدعو للقلق لو عرفت أسباب ذلك. لقد ذهبت فى الحقيقة إلى الإسكندرية لأمضى بها نصف يوم من أجل أعمال نافعة، وانتظرت ثلاثة أيام التجار المصريين الذين أنهيت معهم بنجاح كل الأمور. ومع عودتى آنذاك لم أجد شركائى لأنهم ذهبوا مع مبعوثى أمير بابل (القاهرة) الذين كان يمكننى أن أذهب معهم فى أمان إلى القسطنطينية.

بعد ذلك أصابتنى حمى شديدة ألزمتنى الفراش لمدة شهر، وبنعمة الله شفيت منها بفضل طبيب ماهر، وأنا الآن فى صحة جيدة. لقد عالجت بجدية كل الشؤون التجارية حيث بعت كل البضائع التى حملتها بالثمن الذى اتفقنا عليه معًا، واشتريت البضائع التى أعرف مقدرتى على تصريفها تصريفًا مربحًا بإيطاليا.

تعال إلىّ فى التاريخ المذكور فى خطابك، وأحضر لى معك... لأن كل هذه الأشياء مفيدة جداً بالقسطينينية والاسكندرية إذا مكثت بها وقتًا طويلا.

بلغ سلامى لزوجتى التى هى قطعة من جسدى، وقد أرسلت إليها كل الأشياء المذكورة

فى خطابك وأكثر من ذلك فقد أرسلت لها خاتمًا ذهبيًا جميلا حتى تضعه فى إصبعها كل يوم حتى إذا ما شاهدته عدت إلى قلبها، وانقل لأبنائى بركتى الأبوية.

٨ – رسالة العباس، وزير الخليفة الفاطمى الظافر، إلى البيازنة،

(Amari, Dipliomi Arabi, I, p. 241 sq.).

عندما وصل إلينا سفيركم راينيرو بوتاسيو حمل إلينا رسالتين من رئيس الأساقفة فيلانو وقناصلة وأعيان مدينة بيزا، ومن خلالها أعلمتمونا أن تجارًا من عندكم وهم أخوتكم وأقرباؤكم الذين أوفدتموهم إلينا كما يفد الابن إلى أبيه قد اعتقلوا السنة الماضية، وانتزعت منهم كثير من ممتلكاتهم، وهو أمر غير جدير بمملكة كبيرة أكثر هيبة من كل ممالك الأرض، لهذا السبب أرسلتم لنا هذا السفير فى ظروف لا تتصرفون فيها كما فعلتم إلا فى القضايا الكبرى على متن سفينة شراعية حربية، بينما كان يأتى عادة على متن سفينة مدنية، بغرض أن يسوى الأمور وفقًا لتقديره، وقد طلبتم أن نهتم بهذه المسألة على وجه السرعة وأن نعيد إرساله لكم كذلك، مع الإيضاح بأن أحدًا من تجاركم لن يأتى بعد عندنا حتى عودته وأنكم تصرحون بالموافقة (مقدمًا) مع أى اتفاق يوقعه سفيركم.

لذا أوضحنا لسفيركم أن الضرر الذى لحق بتجاركم والذى شكا منه لم يكن ضررًا صحيحًا والحقيقة هى كما يلى :

لقد علمنا أن تجارنا بالاسكندرية الذين صعدوا، بثقة كاملة، مع تجاركم على الباخرة نفسها قد قتلوا غدرًا، فقد قيل لهم إنهم لحوا قراصنة فرنجة، ولهذا أنزلوهم فى حوض السفينة حتى ألقوا بهم الواحد بعد الآخر فى البحر، وبعدها استولى رجالكم على زوجاتهم وأطفالهم وثرواتهم. ويقضى القانون باعتقال المذنبين وأقربائهم وفقًا للمعاهدة الموقعة بيننا وبينكم وأن نسجن تجاركم الموجودين عندنا حتى ترسلوا لنا المذنبين مع الغرامة وعائلات الضحايا. ومن جهة أخرى أوضح لنا سفيركم أن كثيرًا من رعاياكم تم احتجازهم عندنا فأجبناه بأن الأمر يتعلق ببيازنة قبضنا عليهم أثناء محاربتهم لنا مع الفرنجة وإمدادهم بالنجدة والتموين(١) بينما المعاهدة الموقعة بيننا وبينكم تنص على أنه إذا وجدنا البيازنة مع الفرنجة على نفس السفينة فإن البيازنة يعاملون معاملة الفرنجة.

وبعدها قمنا بمفاوضات طويلة مع سفيركم (...) وقد وعد سفيركم مع شركائه (...)

بالمحافظة على الإخلاص التام لنا ومعاملة رعايانا، الذين يلتقون بهم، بدون خداع. وأنهم لن يعقدوا أى اتفاق مع الفرنجة ولا مع أى أحد يمكن أن يكون عدواً لنا لا براً ولا فى موانئنا. وأن يقوموا بأى اعتداء على جيشنا سواء أكانوا وحدهم أو مختلطين مع غيرهم، وألا يأتى أحد من تجاركم بفرنجى سورى متخفياً فى ثوب تاجر عن عمد. وأنكم لن تنالوا من مملكتنا بواسطة أى وعد كبير من قبل شعب آخر سواء كان مسيحياً أو مسلماً... وأن البيازنة الذين سنجدهم فى سفن الذين يحاربوننا سنقبض عليهم وسنعدمهم (...) وإذا حدث أن عاد أحد من جانبكم من جديد ليرتكب جريمة مشابهة لتلك التى تحدثنا بشأنها فينبغى عليكم تسليمه لنا فى أقرب مكان ممكن مع تقديم كل التعويضات المستحقة. وقد طلب سفيركم أن نمنحكم مهلة عام لتسوية الأمر وبعد هذه المدة سيعتقل كل البيازنة القادمين عندنا وستحتجز ثرواتهم وحقوقهم أيا كان نوعها.

والآن نمنحكم امتيازاً بالنسبة للذهب والفضة وكل شؤونكم التجارية بالاسكندرية، والأذن بالإقامة فى فندق بالاسكندرية. وكل ما ستبيعونه، بعد دفع ضريبة الجمرك، يمكنك حمله داخل مملكتنا كما يمكنك أخذه عندكم كما تشاءون باستثناء الخشب والحديد والقطران حيث أن هذه المواد الثلاثة يتم شراءها من قبل جمركنا بالأسعار الراهنة. وإذا مات أحد رعاياكم عندنا فإننا نسلم ممتلكاته لأحد أقربائه إن وجد أحد منهم هنا، فإذا تعذر ذلك سلمناها شركائه الذين يمكننا العثور عليهم وذلك عن طريق إيصال مكتوب. من جهة أخرى طلب منا سفيركم راينيرو بوتاسيو أن نعيد، فى الوثيقة التى نحررها بشأن إقامة السلام، ذكر الامتيازات التى منحناها لكم سابقاً، كما يلى : العرف و... إعفاء كامل، الزوارق الصغيرة التى تنزلون منها أو تبحرون فيها من جديد (إعفاء)، وحول المزادات تكون الأسبقية فى البيع للسفن التى تأتى أولاً، ويجب أن يدفع لكم كل ما تبيعونه بالجمرك كل سبت، كما نمنحكم أيضاً فندقاً فى بابل (القاهرة) والإعفاء من الضرائب على الفضة. وقد طلب سفيركم أنه فى حالة إذا ذهب أحد البيازنة إلى القبر المقدس على سفينة من غير سفن العصابات وتم القبض عليه من قبل أسطولنا فإننا نفرج عنه وعن أمتعته عند استلام خطابكم. ونأذن لتجاركم بالمجيء إلى القاهرة متى أرادوا وينبغى أن يعامل تجاركم معاملة حسنة فى كل مملكتنا (...) فقد وعد سفيركم باسمه وباسم مدينة بيزا بالبحث عن مرتكبى الجريمة ضد رعايانا وإذا لم يمكنكم العثور عليهم أرسلوا لنا الممتلكات والأسر و(ضريبة) الدم.

[أُلحق بهذا الخطاب الموجه إلى رئيس الأساقفة خطاباً آخر موجه إلى المدينة يعيد ذكر

هذه المصطلحات مع توضيح أن البيازنة يمكنهم العيش بالاسكندرية «وفقًا لقانونهم» وأن الحكومة المصرية منذ زمن بعيد قد منحت البيازنة تخفيضات فى الضرائب أعلى من التى أعطتها للروم وحتى للمسلمين. وأن سفيرًا سابقًا قد أقسم بأن البيازنة سيعاملون التجار المصريين، الذين فى إمكانهم الالتقاء بهم، براً أو بحرًا، معاملة مستقيمة وأنه ليس من اللائق طلب تغيير العرف وأن ضريبة الجمرك هى ١٢٪، وأن كاتب هذه الرسالة يبعث إلى البيازنة قارورة من البلسم. إن من يجب إطلاق سراحهم من البيازنة هم تسعة عشر وقد مات عشرة منهم. وتسعة قالوا أنهم من الجنوية. وقد أخذ عبد الله ثلاثة منهم ألحقوا بالجيش، وثمة أحد عشر لم يتم التمكن من العثور عليهم، وقد سلم إلى دايندبو خمسة وعشرين (هكذا). ١٧ فبراير ١١٥٤]

٩ – العاملون بمزادات جمرك الإسكندرية وأجورهم

(المخزومى، كتاب المنهاج فى علم خراج مصر، تحقيق كلود كاهن، ملحق حوليات إسلامية رقم ٨، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٦).

ما يجب على التجار الصقليين المعشّرين [١] من جميع البضائع وغيرها وهو عن كل مائة دينار العشر عشرة دنانير وليس يلزمهم قوف ولا غيره.

الطرح الذى يقرر فى حلق الخُمس فى كل يوم يعقد فيه حلقة [٢] من المشترين على ما يتقرر بقدر المباشرة [٣] ويقدر المبيع، وهذا شيء يشعر به المشترى والبائع عند عقد الحلقة. ويُعين مبلغ الطرح فى كل بيعة، والذى يجمتع من ذلك يُطلق منه على أرباب الحلقة على ما يأتى تفصيله : دينار واحد وثلثى.

المنادى : ربع دينار

المستخدمين : دينار واحد ورُبع وسُدس، تفصيله :

من يقبض كل منهم قيراطين و(المجموع) دينار واحد : حامل مفتاح الصناعة [٤]، الوزان بالقبان، الرقاصين الذين يجمعون الحلقة، المقلبين الذين يقلبون البضائع ويظهرونها من

(١) المعشّرون : الخاضعون للعُشر.
(٢) الحلقة : حلقة بيع بالمزاد.
(٣) المباشرة : المعاملة.
(٤) الصناعة : المصنع أو الورشة.

أوعيتها، الجباة، الخازن بخزانة الصناديق وغيرها، الأمناء على المراكب، الختم لمن يتولى ختم المخازن وقت فتحها وغلقها، المفتشين بباب الصناعة، صبيان الخيمة (؟) الذين يحفظون البضائع، صبيان القارب الذين يترددون فى القارب لإحضار البضائع من المراكب إلى الصناعة.

من يقبض كل منهم ثمن دينار (والمجموع) ربع دينار : الحراس بالصناعة، الحمالين فى وسط الحلقة برسم تنقيل البضائع.

من يقبض كل منهم قيراط (والمجموع) سدس دينار : قيِّم المسجد بالصناعة، الضعفاء، المدين (؟)، الصيَّاح وهو الذى ينذر بالأصناف الذى تعقد (التى تعقد) عليه (عليها) الحلقة.

١٠ – مقطع من مخطوط سيريانى كولوفون Colophon القدس ١١٤٨.

(طبعة وترجمة إنجليزية فى حولية المدارس الأمريكية للبحوث الشرقية بالقدس رقم ١١ – ١٩٣١ و. ر. تايلور).

فى هذه السنة التى اندلعت فيها الأحداث، أى عام ١٤٥٩ وفقًا للتقويم اليونانى (١١٤٨ الميلادى) كانت القدس ممتلئة بأعداد هائلة من الفقراء، وكان هناك نقص فى المواد الغذائية وكافة الأشياء الضرورية (...) كثير من فقراء القدس ماتوا جوعًا وكثير غيرهم كانوا يهاجمون الأديرة بحثًا عما يقيم أودهم. فى نفس الفترة لم تكن أديرتنا غنية بحيث تسمح بتلبية حاجات هؤلاء الفقراء لأن مصادرها كانت تكفى بالكاد لتلبية حاجات الرهبان غير أن الفقراء ألحوا على مطالبهم، وكان أهل الرها الذين هزموا(١) وكان عليهم أيضًا أن يهتموا بأسراهم فى الحرب، قد قدموا إلى القدس بشكل خاص لأنه لم يكن هناك أى ملجأ آخر إلا أديرتنا حيث كنا سعداء بمساعدتهم سواء بالذهب لافتداء أسراهم أو بالخبز لسد حاجتهم أو بالملابس من أجل كسوتهم.

كان أبونا المقدس انياس يسد حاجاتهم بفرح لأنه كانت به شفقة على كل الفقراء سواء كانوا من طائفتنا أو من طائفة الفرنجة لكنه كان حزينًا ومتضايقًا لعدم مقدرته على القيام بما هو أكثر. عندما لمح ربنا إرادته الطيبة أشار إليه بأمر قرية تدعى دكارية(٢) كانت تنتمى إلى الدير قبل الفتوحات الإسلامية ثم أخذها المسلمون وهى الآن فى أيدى الفرنجة بوصفهم

حكامًا للبلد. وثقة بالله وبعونه ذهب إلى لقاء الملك السير بودوان ابن فولك وأمه الملكة مليزنيد وطرح عليهما القضية. وبما أنهما كانا ملهمين من الله وكان لديهما احترام كبير لأنياس فقد قدما له مساعدة كبيرة. فقد طلبا من مالك القرية إرجاعها إلى دير مريم المجدلية المقدسة وطلب الملك من أبينا أن يعطى المال للمالك فيسترد القرية شراء ويحصل بذلك على وثيقة مشهود بها ومختومة رسميًا. وامتثالاً لهذه الأوامر استرد أنياس القرية بمبلغ طائل يناهز ألف دينار من الذهب الأصفر واستلم وثيقة مشهود بها ومختومة بالختم الملكى.

وبما أن أنياس كان يتخذ من محبة الله وسيلة للامتثال لأوامره بإطعامه الفقراء فقد أمده الله بثمن القرية من مصادر غير متوقعة. وبعون الله كذلك بدأ ببناء قصر وكنيسة وحولهما بعض المنازل. ونحن ندعو الله بإتمام هذه المشروعات كما كان المعين دائمًا فى كل شىء. ويارك الله فى أسقفيته وحياته وأذل أعداءه.

١١ – رسالة من سجين مسلم لدى الفرنجة

(نص من وثائق الجنيزة نشره س. د. جواتين ترجمة كلود كاهن فىMélanges Labande سنة ١٩٧٤).

أعلم (القائد معز) حفظه الله ورعاه بعنايته وصحبته ولا... أنه لَمْ تعد تصلنى أى أخبار منكم... روحى قلقة لا أعرف من هو حى ومن هو ميت، ولم تصلنى أدنى رسالة تطلعنى على أخباركم وما يتعلق بكم، ومع ذلك فإن قلبى معكم. عندما يصلكم هذا الخطاب أسرعوا بالرد مع أول قادم حتى يهنأ قلبى فالمرء أهل حيث ينهض ويسجد وهو ما يحفظه، وأنتم قد توقفتم عن إيصال أى خبر عنكم لى. أنا لا أعاتبكم لأننى لم أقسم بأى شىء يقتضى إلقاء اللوم عليكم ولكن الإنسان ينهض ويسجد والناس فى مصر عددهم كبير، كما هو عدد الناس الذين يتصدقون ويسيرون فى طريق الله العلى القدير. فلا تنسونى أبدًا وأنتم تعرفون المحنة والأسر الذى أنا فيه وعجلوا بالإجابة على هذا الخطاب بسرعة، وأطلعونى عن الاحياء والأموات وأخبرونى (بما صار إليه أمر) مرهف ولا تخفوا عنى شيئا من أموركم، وسلموا على معز الدولة وأولاده ولكم منى جميعًا خالص وأتم السلام وسلامى إلى كل من تشملهم عنايتكم، وأجيبوا بسرعة على خطابى بدون تعطيل ولا باعث مع أول قادم.

على الظهر : من قبل أخيكم سمسم السجين فى نابلس(١). عليه أن يصل إلى القاهرة

بمصر – حفظها الله – بحى الباطلية (تحت الممر) إلى منزل معز الدولة... العربى والذى سينقلها إلى ورثة صارم الدولة القو(٣)...

١٢ – حالة سجن بسبب الدين

(رسالة من وثائق الجنيزة وفقًا لترجمة إنجليزية نشرها س. د. جوايتين استنادًا إلى مقاله المنشور باللغة العبرية فى مجلة «هيروشلايم» ٢/ ٥ – ١٩٥٥ ص ٦٠ – ٦٢) (١).

باسمك يا رحيم

«مبارك الرجل الذى يتكل على الرب، إلخ» (سفر أرميا ٧ – ١٧).

هدف هذه السطور يا بنى العزيز، أطال الله عمرك وحفظك ورعاك، أن أخبرك بنفاذ صبرنا وقلقنا لغيابك فعسى أن يجمعنا الله قريبًا فى ظروف أسعد.

والآن لو كنا نعرف أن بمقدورك أن تنسى طفلك وزوجتك وأن تنزعهم من قلبك لما ساعدناك قط على القيام بهذه الرحلة لكننا كنا نحرص على أفضل مصالحك واعتقدنا أنك ستعود سريعًا غير أنك لم تفعل ذلك فأقمت فى عدة جهات من مناطق أجنبية. قل لنا : ما هى نواياك ؟ من الذى لا يفكر فى زوجته وطفله ؟ هل شاهدت أحدًا يتصرف مثلك حملك على أن تتخذ مسلكه ؟ انظر سعيد، هذا الغريب(٢) الذى كتب خطابًا – والناس تشهد بصدق ما كتبه– جاء فيه أنه يصوم أغلب الوقت على أمل أن يجمع الأموال اللازمة لإطلاق سراح زوجته وطفله أما أنت الذى يعرف جيدًا عاقبة هذا الأمر فتظل باردًا فى قلبك وعقلك.

والآن أسرع بالعودة إلينا فور إطلاعك على هذه السطور ولن يتخلى الله عنك ولا عنهم فأهل(٣) دمشق وصور وعكا يبذلون كل ما فى وسعهم فى سبيل الأجانب. والحق أننا لم نكن نخال أنه من الضرورى أن نكتب لك كل هذا. عد إلينا مهما كانت الظروف وعندما تكون هنا يمكننا أن نعطى وعودًا إلى الكونت والسيدة الحاكمة بطبرية(٤) وأن ندفع لهم مقدمًا مبلغ عشرين دينارًا حتى يفرجوا عنهم وستكمل فيما بعد ما عليك أن تدفعه.

إنهم لم يُعاملوا بهذه القسوة إلا لغيابك عنهم طوال هذه المدة. وحتى لو كنت فى الهند لأمكنك أن تعود. ولاشك أن مصاحبة المصريين ومطعمهم ومشربهم وموسيقاهم قد سحرتك. ألم نتفق سويًا على ألا يمتد غيابك أكثر من شهرين ؟ ما الذى استبقاك كل هذه المدة ؟ لم تقل لنا قط ما الذى تفعله على وجه الدقة ولم نتسلم منك أى رسالة تتضمن وصفًا مقنعًا أو تبين

المبلغ الذى جمعت بل تركت زوجتك وطفلك فى السجن بدون أن تكترث لذلك. نتوسل إليك إذن أن تعود فوراً وستتعاون نحن الاثنين لإخراجهم من هنا وسينجيهم الله برحمته حتى ولو اقتضى الأمر أن أهب للبحث عنك فى جميع البلدان. لا تيأس فالله لن يتخلى عنك. خالص تهنئتى إليك وإلى أصدقائك. «الرب يعطى عزا لشعبه، الرب يبارك شعبه بالسلام» (المزمور : ١١ – ٢٩). والسلام...

العنوان : إلى مصر (الفسطاط). إلى أبى الحسين بن أبى الخير العكاوى حفظه الله من قبل خاله زادوك بن ر. نامير عضو الأكاديمية.

١٣ – طبيب لدى الملك عمورى وصلاح الدين

(وفقًا لابن أبى أصيبعة ترجمة كلود كاهن فى «محليين وصليبيين»).

كان طبيباً نصرانياً بمصر فى زمن الخلفاء، وكان حظيا عندهم، فاضلا فى الصناعة الطبية، خبيراً بفقهها وعملها، متميزاً فى العلوم. وكان من أهل القدس، ثم انتقل إلى الديار المصرية. وكانت له معرفة بالغة بأحكام النجوم.

حدثنى الحكيم رشيد الدين أبو حليقة بن الفارس بن أبى سليمان المذكور قال : سمعت الأمير مجد الدين أخا الفقيه عيسى، وهو يحدث السلطان الملك الكامل بشر مساح عند حضوره إليه، بعد وفاة الملك العادل، ونزول الفرنج على ثغر دمياط من أحوال جدى أبى سليمان داود ما هذا نصه قال : كان الحكيم أبو سليمان فى زمان الخلفاء، وكان له خمسة أولاد، فلما وصل الملك مارى (عمورى) إلى الديار المصرية أعجبه طبه فطلبه من الخليفة بها، ونقله هو وأولاده الخمسة إلى البيت المقدس، ونشأ للملك مارى ولد مجذم فركب له الترياق الفاروقى بالبيت المقدس، وترهب وترك ولده الأكبر وهو الحكيم المهذب أبو سعيد خليفته على منزله واخوته.

واتفق أن ملك الفرنج المذكور بالبيت المقدس أسر الفقيه عيسى، ومرض فسيره الملك لمداواته. فلما وصل إليه وجده فى الجب مثقلا بالحديد فرجع إلى الملك وقال له : إن هذا الرجل ذو نعمة. ولو سقيته ماء الحياة وهو على هذا الحال لم ينتفع به. قال الملك : فما أفعل فى أمره؟ قال : يطلقه الملك من الجب ويفك عنه حديده ويكرمه فما يحتاج إلى مداواة أكثر من هذا. فقال الملك : نخاف أن يهرب وقطيعته كثيرة. قال للملك : سلمه إلىّ وضمانه علىّ. فقال له : تسلمه

وإذا جاءت قطيعته كان لك منها ألف دينار. فمضى وشاله من الجب وفك حديده، وأخلى له موضعًا فى داره ستة أشهر يخدمه فيها أتم خدمة. فلما جاءت قطيعته طلب الملك الحكيم أبا سعيد ليحضر له الفقيه المذكور فحضر وهو صحبته، ووجد قطيعته فى أكياس بين يديه فأعطاه منها الكيس الذى وعده به. فلما أخذه قال له : يا مولانا هذه الألف دينار قد صارت لى أتصرف فيها تصرف الملاك فى املاكهم ؟ فقال له : نعم. فأعطاها للفقيه فى المجلس وقال له : أنا أعرف أن هذه القطيعة ما جاءت إلا وقد تركت خلفك شيئًا وربما قد تدنى لك شيئًا آخر فتقبل منى هذه الألف دينار اعانة نفقة الطريق. فقبلها الفقيه منه، وسافر إلى الملك الناصر.

واتفق أن الحكيم أبا سليمان داود المذكور ظهر له فى أحكام النجوم أن الملك الناصر يفتح البيت المقدس فى اليوم الفلانى من الشهر الفلانى من السنة الفلانية، وأنه يدخل إليها من باب الرحمة، فقال لأحد أولاده الخمسة وهو الفارس أبو الخير بن أبى سليمان داود المذكور، وكان هذا الولد قد تربى مع الولد المجذم ملك البيت المقدس، وعلمه الفروسية، فلما توج الملك، فرسه وخرج المذكور من بين أخوته الأربعة الأطباء جنديًا. وكان قول الحكيم أبى سليمان لولده هذا بأن يمضى رسولا عنه إلى الملك الناصر، ويبشره بملك البيت المقدس فى الوقت المذكور. فامتثل مرسومه ومضى إلى الملك الناصر. فاتفق وصوله إليه فى غرة سنة ثمانين وخمسمائة، والناس يهنئونه بها وهم على فاميه، فمضى إلى الفقيه المذكور ففرح به غاية الفرح، ودخل به إلى الملك الناصر، وأوصل إليه الرسالة عن أبيه، ففرح بذلك فرحًا شديدًا، وأنعم عليه بجائزة سنية، وأعطاه علمًا أصفر ونشابة من رنكة. وقال له : متى يسّر الله ما ذكرت اجعلوا هذا العلم الأصفر والنشابة فوق داركم فالحارة التى أنتم فيها تسلم جميعها فى خفارة داركم. فلما حضر الوقت صح جميع ما قاله الحكيم المذكور فدخل الفقيه عيسى إلى الدار التى كان مقيمًا بها ليحفظها، ولم يسلم من البيت المقدس من الأسر والقتل ووزن القطيعة سوى بيت هذا الحكيم المذكور. وضاعف لأولاده ما كان لهم عند الفرنج، وكتب له كتابًا إلى سائر ممالكه برًا وبحرًا بمسامحتهم بجميع الحقوق اللازمة للنصارى، فاعفوا منها إلى الآن. وتوفى الحكيم أبو سليمان المذكور بعد أن استدعاه الملك الناصر إليه، وقام له قائمًا وقال له : أنت شيخ مبارك، قد وصل إلينا بشراك، وتم جميع ما ذكرته فتمن على. فقال له : أتمنى عليك حفظ أولادى. فأخذ الملك الناصر أولاده واعتنى بهم، وأعطاهم للملك العادل، ووصاه بأن يكرمهم ويكونوا من الخواص عنده وعند أولاده، وكان كذلك.

١٤ – خطاب إنوسنت الثالث إلى بطريارك أنطاكية (٥ يناير ١١٩٩)

(مقطع من سجل إنوسنت الثالث – السنة الأولى – الخطاب ٥١٢ وفقًا لمينى :,Migne
.(Patrologie Latine, t. 214, col. 474.

... إن السهر على منع الإضرار بالحرية الكَنَسيَّة أو اضطهاد وزراء الكنائس من قبل رجال منحرفين، يعود إلينا بعناية خاصة نظرًا إلى وظيفتنا – وهى خدمة الغير – فنحن مسؤولون من الجميع بصفة خاصة. والحال أنه قد ترامى إلى مسامعنا أنه عندما تدعو الحاجة إلى القيام ببعض النفقات داخل مدينة أنطاكية فإن مجلس هذه المدينة يفرض على الكنائس والكهنة ورجالهم مهما كانت ظروفهم ولغاتهم، ابتزار ضريبة متعارضة مع العرف القديم والإدعاء بالحصول عليها وصرفها وفقًا لإرادتها. وبالإضافة إلى ذلك فإنه مع سوء المعاملة نحوك ونحو كنائسك من نواحٍ عديدة، يريدون إرغام كل كهنة أنطاكية على المثول أمام القضاء المدنى تحت ذريعة تعهدهم (المدنى). ومع سعيهم للتعامل مع الممتلكات الكنسية ذاتها وفقًا للأحكام والأعراف اليونانية يتعسفون فى تحويل حقوق كنيسة اللاتين إلى أعرافهم. لذا نرفض الصبر على مثل هذه التجاوزات ونحرِّم تحريمًا قاطعًا باسم هذا المكتوب، التجرؤ على القيام بمثل هذه الانتهاكات والأضرار تجاهك أو تجاه الكنائس أو الكهنة أو رجالك. فإذا جازف أحد، رغم ذلك، بإقدامه على مثل هذه الأعمال فإننى أبيح لك أن تصدر بشأنه رقابة كنسية متشددة باسم السلطة البابوية، لذا لا لأحد أن ...

محرر فى لاتران فى يناير.

١٥ – وثيقة أنطاكية العربية المسيحية الوحيدة المحفوظة

(Cuza, *I Diplomi ed arabi di Sicilia,* 1 - 2, p. 645 - 49). كلود كاهن، وثيقة متعلقة بالملكيين فى مجلة الدراسات البيزنطية ١٩ – ١٩٧٩، ص ٢٨٥ – ٢٩٢. قارن : جان ريشار، الكنيسة اللاتينية والكنائس الشرقية فى دول الصليبيين فى (-Mélanges Dau
. (villiers, 1979

باسم الأب والابن والروح القدس، أقول أنا يوحنا شماس الحرم المقدس لكنيسة سان بطرس إن أرنو رئيس دير نوتردام جتسمانى، أعطانى الكنيسة المخربة المسماة بالشبوبة مع

كل ملحقاتها من الأرض والأشياء الأخرى وحرر وثيقة لاتينية فى هذا الشأن. وظل المكان فى حوزتى حتى اللحظة الراهنة. لكن تراكمت على الديون دائمًا نظرًا لخراب الكنيسة. ثم ... عرفت كاهنًا رضى الله عنه واسمه كيرمارى ابن الابريقيلى (؟) وطلبت منه أن يمتلك المكان وأن يعيد بناء الكنيسة وهو ما كنت سأساعده عليه من جانبى حتى يخلد اسمى واسم ولدَىَّ بها غير أنه لم يقبل إلا بشرط ملكيته لها ملكية كاملة ودائمة بالشروط نفسها التى تحققت لى وتوقف الأمر عند هذا الحد لأننى لم أجد شخصًا آخر غيره يريد استغلال المكان نظرًا لخرابه وتلفه.

عند ذاك علمنا أن رئيس دير كنيسة سانت مارى لاتين الأخ بايان، وهو إنسان نبيل، كان يدير ممتلكات كنيسة نوتردام جتسمانى بأنطاكية. وهو حامل لأمر من رئيس دير نوتردام جتسمانى، الأخ آدم وكل الأخوة فى الدير المذكور، ينصّ على أن كل ما سيفعله بخصوص شؤون الدير سيصبح أمرًا نافذًا. لذا ذهبت إليه للقائه وإيضاح الموقف له. وقد جاء إلى المكان المذكور ووجده مخربًا فلم ير للدير فائدة صغيرة أو كبيرة تجنى منه. وعندها استقدمت الراهب المذكور وسلمته الوثيقة اللاتينية التى كانت فى حوزتى فسجل رئيس الدير المكان بواسطة السيد قاضى الحرم المقدس لكنيسة سان بطرس وهو السيد سيمون أدام الله حفظه، وقد صرح بأن المكان يصبح منذ ذاك اليوم ملكًا دائمًا له ولورثته وانه تؤدى للدير المذكور مبلغ دينارين ونصف دينار منها دينار واحد يؤدى نقدًا كل سنة فى شهر أغسطس وذلك بعد تسليم الضريبة لمدة عامين ابتداء من السنة الحالية بهدف أن يساعد ذلك الأمر الشخص المستفيد على إعادة بناء الحرم المذكور، وكانت بداية تسديد المال لصالح نوتردام دى جتسمانى فى شهر أغسطس من السنة الثالثة. وكان لزامًا على الراهب أن يبدأ فورًا فى إعادة بناء الكنيسة وإدارة شؤونها وترميمها وضريبتها السنوية... ويكون مسؤولاً دائمًا عن ضريبتها.

ولن أفرض عليك أنا بايان رئيس الدير ولا الدير ولا أحد من خلفائى فى إدارة نوتر دام دى جتسمانى زيادة درهم واحد أو ما يعادله، منذ الآن فصاعدا لك ولمن يحل مكانك التصرف الكامل فى هذا المكان وبهذه الطريقة فإن كل المسجلين المكلفين بالضرائب يديرون ضرائبهم بصفة دائمة ومستمرة مع تحكم كامل وسلطة فعالة فيزدهر المكان ويكبر تحقيقًا لحقوقك واحتياجاتك كما تريدها وتختارها بدون أن تنشأ أى عقبة من أى نوع لك أو لمن ينوب عنك. وإذا تأخرت فى دفع الضريبة فى الموعد المحدد وإذا انصرفت سنة مهما كان هذه السنة ومرت خمسة عشر يومًا من السنة التالية فإن الدير المذكور يمكنه احتلال المكان وتحصيل الضريبة

كاملة وبعدها يؤول المكان إليك، وإذا ما تمكن أحد المغروريين من تمزيق هذا المكتوب (والعياذ بالله) حقداً عليك بسبب هذا المكان أو على من ينوب عنك، أو على كل من توصل بهذه الوثيقة فإنه يقع على الدير المقدس مهمة تقديم المعارضة وإبعاده والدفاع عنك أو عن من ينوب عنك دفاعًا قانونيًا بمستندات جاهزة وأن يضمن المكان لك أو لمن يحل مكانك بدون أى ضريبة.

وهذا المكان محدد من الجهات الاربع على النحو التالى : فى جهة الشرق بالشارع الذى يحيطه وفى الغرب بالميدان والخراب تحت الدير ومن جهة الجنوب بمنازل وحديقة يانى الكاميدارى وحديقة يارى بن ماردلا. أما فى الشمال فيحده الشارع كذلك وأرض السيد... وهى اليوم فى أيدى وريثه النوميكوس رومانوس ومن هذه الجهة ينفتح الباب الذى يعطى منفذاً للدخول والخروج من الشارع المتاخم لهذا المكان. إثباتًا لذلك كتبت لك هذه الوثيقة لتكون لك أنت وحدك بعد أن قرأت لى أنا رئيس الدير بايان والشماس يوحنا وترجمت وفهمناها ووضعنا بأيدينا الصليب فى أعلاها وطلبنا الشهود وقد وقعت عليها أنا بايان رئيس الدير بختم الشمع فى طرفها. وقد حررت فى العشر الأواخر من شهر آذار (مارس) فى السنة الجارية للعالم ٦٧٢١ (١٢١٣م) وإلى الله نلتجئ.

١٦ – قضايا مالية فى مصر الأيوبية

(مقاطع من كتاب لمع القوانين المضية للنابلسى – تحقيق س. بيكر وكلود كاهن فى نشرة الدراسات الشرقية XVi/ ١٩٥٨ – ١٩٦٠. وترجم فى نشرة كلية الآداب باستراسبورج ١٩٤٨ – ص ١١٣).

ومن إهمالهم العجيب أمر دار الضرب. كانت بحُسن التدبير تجىء فى الشهر قريب ثلاثة آلاف دينار حتى عملت فى سنتى ست وثلاثين وسبع وثلاثين ما يزيد على ثمانين ألف دينار وآل أمرها اليوم إلى دون المائة دينار فى الشهر.

ومن قبيح إهمالهم أن العادة كانت جارية فى دور الضرب أن كل تاجر أو مورد[1] يرد يذهب إلى دار الضرب يكتب اسمه وماله من عين وخشر وسبائك وغيرها ويجعل ما لذا مع ما لذا مضبوطًا ويُسبك عمل الموردون حيلة عجيبة والله ما تتم على النساء المغفّلات فضلا عن نظّار الديوان وذلك أنهم سألوا أن لا يكتب ديوان الضرب أسماء أرباب الأموال لئلا يلزمهم ديوان الزكاة بالزكاة كأن ديوان الزكاة لغير صاحب دار الضرب. فيتّفق أن التاجر يورد إلى

الموردين ثلاثة آلاف دينار أو أكثر أو أقل ليعملوها دنانير[2] فيروح إلى ثغر إسكندرية يبيع الحرير فيتّفق أن يموت، فيروح المال على الديوان ويأكله الموردون وجعلوا فى مقابلة ذلك زيادة يسيرة على الواجب المقرر. وهذه الحالة مما لا يسوّغها أحد من العقلاء وهى أن يجعل له شيء على أن يخفى عنه ما يستحقه. هذا ما لم يُسمع بمثله فى الوجود أنه يتم على من جعل له النظر.

ومن جملة أعمال أهل دار الضرب أن الموردين يأخذون الذهب وقيمته مختلفة، منه ما هو صورى[3] قيمته ستّون دينارًا المائة وبوقّى[4] قيمته أكثر من ذلك بقليل، وغير ذَين الصنفَين من الذهب من المصرى وغيره ما يقع معدّله ثمانون دينار المائة.

يجمعون من ذلك ستة آلاف دينار أو سبعة آلاف دينار أو أكثر وأقل ويُحمى عليها فيُنقص ما يقرب من عشرة دنانير المائة فيفضل لهم فى كل ألف دينار مائة دينار فى الهرجة إذا كانت ستة آلاف دينار فضل منها ستمائة دينار فى ثلاثة أو أربعة أيام فما يعلم ما حصل لهؤلاء الموردين فى هذه المدد إلا الله سبحانه، وإن كان الموت قد أفنى فيها قريب أكثرهم وضاعت أموالهم.

١٧ – تجارة غير مشروعة مع الصليبيين

(فقرة من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى)(*)

(..) فانتدب النجيب كاتب بكجرى[1]، أحد مستوفى[2] الدولة، لمرافعة الشجاعى، وبرز له بموافقة القاضى تقى الدين نصر الله بن فخر الدين الجوجرى. أنهى إلى السلطان عنه أمورًا وحاققه بحضرة السلطان. ومما قاله إنه باع جملة من السلاح – ما بين رماح ونحوها مما كان فى الذخائر السلطانية – للفرنج؛ فلم ينكر (الشجاعى ذلك)، وقال : «بعتُه بالغبطة الوافرة والمصلحة الظاهرة، فالغبطة أننى بعتهم من الرماح والسلاح ما عتق وفسد وقل الانتفاع به، وأخذت منهم أضعاف ثمنه، والمصلحة أن تعلم الفرنج أنا نبيعهم السلاح هو أنا بهم، واحتقارًا بأمرهم وعدم مبالاة بشأنهم»؛ فمال السلطان لذلك وقبله. فقال النجيب : «يا مكثلا الذى خفى

(*) اعتمد كاهن على ترجمة غير كاملة أعدها كاترمير الذى جعل عنوان الكتاب فى الترجمة الفرنسية «تاريخ السلاطين المماليك»، والجدير بالذكر أنه صدرت ترجمة أخرى بالفرنسية لهذا الكتاب أعدها بلوشيه وأكمل فيها ما فات كاترمير وقد أسماها «تاريخ مصر للمقريزى» (المترجم).

عنك أعظم مما لحت. هذا الكلام أنت صورته بخاطرك لتعده جوابًا، وأما الفرنج وسائر الأعداء فلا يحملون بيع السلاح لهم على ما زعمت أنت، ولكنهم يشيعون فيما بينهم، ويتناقله الأعداء إلى أمثالهم، بأن صاحب مصر والشام قد احتاج حتى باع سلاحه لأعدائه». فلم يحتمل السلطان هذا، وغضب على الشجاعى وعزله فى يوم الخميس ثانى شهر ربيع الأول، وأمر بمصادرته على جملة كثيرة من الذهب، وألزمه ألا يبيع فى ذلك شيئًا من خيله ولا سلاحه ولا رَخْته، بل يحمل المطلوب ذهبًا(٣).

١٨ - استعادة المسلمين لعسقلان (١٤٢٧) وفقًا لشهادة سعد الدين

(ترجمة كلود كاهن فى «الشعوب الإسلامية» ص ٤٧٢ - ٤٧٣).

(بعد الاستيلاء على طبرية) ذهبنا جميعًا، حاملين آلاتنا الحربية إلى عسقلان التى سبقنا إليها الأمير شهاب الدين الغرز كانت قواتنا تحاصر المكان، وفى أسفل كان هناك الأسطول الفرنجى، وكانت سفننا نحن راسية على الساحل. إن عسقلان قلعة جميلة بأبراجها الستة عشر المتتالية على شاطىء البحر. لقد عسكرنا بها وأطلقنا الأحجار من منجنيقاتنا. وجاء الأسطول الفرنجى لمهاجمة أسطولنا فكان يومًا ساخنًا ثم هاج البحر وصارت الأساطيل مضطربة فتحطمت سفننا بالساحل وعددها خمسة وعشرون سفينة بينما لم تصب السفن الفرنجية التى كانت راسية فى عرض البحر بأذى من العاصفة. وقد أخذنا الخشب من سفننا وصنعنا منه متاريس للهجوم. كان لدينا مجموعة أربعة عشر منجنيقًا تقذف الأحجار ضد القلعة ولم تكن منجنيقات العدو تتوقف لحظة واحدة، وقام الفرنجة بحرق المتاريس الحامية لمنجنيقاتنا ورشقوها من القذافة بأسهم كبيرة حامية فحطموا لنا منجنيقين ثم قاموا بهجمة أهلكت الكثير من البشر وبعد بضعة أيام عملنا بأسرع ما يمكن على سد الثغرة من جهة المنجم ثم حصلوا بعد ذلك على نجدة مكونة من اثنى عشر سفينة (جاءتهم كما جاءتنا نحن كذلك) وقاموا أيضًا بعدة هجمات وفى العاشر من جمادى الأولى (١٣ سبتمبر ١٢٤٧) قمنا بهجوم من كل الجهات وخاض المسلمون معركة عنيفة واستولوا على مقدمة الساحل. فقتل نحو ستين رجلا وجرح حشد كبير. وأمضينا الليل فى الخنادق وبدأنا شيئًا فشيئًا فى حفر برج وجدار بين استحكامين وبعد يومين انطلقنا فى الهجوم. وفى لحظة استعادوا المنجم حيث هرب رجالنا منه غير أننا استعدناه فى اليوم التالى. وفى اليوم السادس عشر وضعنا النار فى منجم البرج إلا أن العدو قام بلغم معاكس وأطفأ النار، إلا أن البرج قد سقط فى اليوم التالى

فسقط تحت أنقاضه اثنا عشرة من فرسانهم حيث قام رجالنا بإخراجهم حتى يأخذوا ما كان بحوزتهم. وقد وصلتهم أيضاً سبع سفن كبيرة. ويزن حجر المنجنيق الذى فى حوزتى مقدار قنطار سورى وربع.

وامتد الحصار ووقعت أحداث كثيرة. وقد انضم إلينا فارسان افرنجيان وحصلا من فخر الدين[1] على ملابس الشرق. وقد أخبرانا أن الشقاق قد احتدم بين الداوية والاسبتارية. وانهار الجدار الأمامى فمات ثمانية من رجالنا تحت الأنقاض. وفى ليلة الخميس الثالث والعشرين من جمادى الثانية (٢٥ سبتمبر) صعد رجالنا على البرج الملغم واستولوا عليه وأطلقوا صرخة كبيرة ودقت الدفوف فى الليل فازداد الصخب الشديد وهرع الناس وقد أصيب الفرنجة بالدهشة فهربوا نحو مراكبهم أو فى الأبراج التى يحتمون بها ودخل المسلمون القلعة فى الليل. وتنافسوا فى التقتيل وربما تقاتل البعض منهم فى الظلام داخل هذا الحشد سعياً وراء الغنائم، وما فتئوا يستولون على الأشياء الثمينة والأسلحة حتى آخر الليل. وفى الغد دخل الأمير فخر الدين وأعطى الأمان للفرنجة المجتمعين فى أبراجهم ما عدا ممتلكاتهم. وكان من بينهم ثلاثة قادة مبجلين وكان هناك مائتان وستون سجيناً . ووجدنا فى البحر غرقى وأيادى مقطوعة لأن الفرنجة قد تشبثوا بالسفن طلباً للفرار فخاف من بداخل السفن من الغرق فقطعوا أيدى هؤلاء بسيوفهم. بعد ذلك أخذنا بتهديم القلعة ثم ذهبنا وتركنا المدينة مسقاة للبوم ومسكنا للظباء والغزلان وسبحان الله الدائم والمجيز.

١٩ – الحملة الصليبية لـ سان لويس وفريدريك الثانى كما رآها المؤرخ المسلم.

(قرطاى العزى، جوتا ، مخطوط عربى، ترجمة كلود كاهن المجلة الآسيوية ١٩٧٠ ص ٩ – ١٠).

عندما ترك الإمبراطور أمير الفرنجة الأرض المقدسة، واستأذن الملك الكامل بالانصراف، تعانق القائدان فى عسقلان وتواعدا، بصورة متبادلة، على الصداقة والمساعدة والأخوة[1]. والحال أن الطريق الوحيد الذى يمكن للفرنجى أن يسير منه إلى مصر كان يمر عبر أراضى الأمبراطور. وقد قام هذا الأخير أولاً باستقباله واللقاء معه وقدم له مساعداته من الخيالة والفضة والمواشى. غير أن القائدين قابلا بعضهما بعضاً بعد ذلك فقال الأمبراطور للفرنجى : «إلى أين تنوى الذهاب والله سأذهب قطعاً إلى مصر والقدس» ومن ضمن ما رد

عليه الإمبراطور قوله : «هذا الأمر لا يلائمك، لا تذهب إلى مصر، وراجع هذا الأمر فى نفسك ومع أمرائك أولئك الذين يؤيدونك وأولئك الذين لهم رأى آخر (؟). ولقد كنت قبلك بها فى سنة كذا وكذا تحت حكم الملك الكامل. وقد انتزعت من المسلمين القدس وكل القرى الواقعة بين هذه المدينة وعكا، واشترطت مع الملك الكامل أن تكون هذه المناطق ملكًا للفرنجة وأن لا تظل أى قوة إسلامية بالقدس. وإذا كنت قد اقتصرت على ذلك فإننى أدركت أنه من المستحيل محاربة الملوك والأمراء وكل العساكر الموجودين بالبلد، كما تأكدت من عجزى على مواجهتهم فكيف لك تريد الاستيلاء على دمياط والقدس[٢] ومصر ؟». وعندما سمع الفرنجى هذه الكلمات استشاط غضبًا فقال للامبراطور «لا تستمر، والله ثم والله وحتى الإيمان لن يمنعنى شىء عن مهاجمة دمياط والقدس ومصر ولن يحول بينى وبين ذلك سوى موتى أنا ورجالى»[٣].

وأمام استياء الإمبراطور من هذا العناد كتب إلى الملك الصالح رسالة من ضمن ما قاله فيها : «فى هذه السنة جاء إلى بلدى ملك الفرنجة مصحوبًا بجمهور غفير» وذكر بعد ذلك «احترس يا مولاى نجم الدين[٤] جيدًا وأعلم أن قصد مهاجميك هو الاستيلاء على القدس، وقبل ذلك إخضاع مصر لأجل هذا الهدف» وقال أيضًا «إن ملك الفرنجة على اقتناع بأنه ستستولى على مصر فى بضع ساعات» و«هذا الفرنجى هو الأكثر قوة من بين أمراء الغرب. وتقوده الغيرة على الدين ويختلف عن أى أمير آخر من جهة أفعاله كمسيحى وتعلقه بدينه» ويختتم خطابه بالكلمات التالية : «يا ابن أخى (واصفًا بهذه الكلمات الملك الصالح) لقد حاولت عبثًا مواجهة مشروعاته، وأردت تحذيره من الخطر الذى سيحيق به لو هاجمك. ولكى أوثر فيه الحث على عدد وقوة المسلمين وعلى استحالة الاستيلاء على القدس إن لم يتم قبل ذلك إخضاع مصر وهو أمر غير قابل للتحقق. لكن الفرنجى لم يعمل برأيى وتزايد باستمرار عدد من يتبعونه، الذى يزيد على ستين ألفًا وسينزلون خلال السنة إلى جزيرة قبرص» [٥].

٢٠ – معاهدة سلام بين السلطان المملوكى قلاوون وجمهورية جنوة (١٣ مايو ١٢٩٠).

Liber Jurium Reipublicae Januensis, II, 243. 248, ترجمة موجزة قارن هولت، الفصل السابع عشر، ص ٢٣.

١ – يجب تأمين كل الجنوية فى أشخاصهم وممتلكاتهم بالأراضى التى يملكها السلطان أو ستكون فى ملكه وكذلك فى حالة الغرق.

٢ – يجب أن يكون لهم الحق فى حرية التنقل داخل البلدان بما فى ذلك سوريا ولو أثناء الحملات العسكرية للسلطان.

٣ – كل الجنوية تابعون قضائيًا لقنصل جنوة بالاسكندرية وعليهم أن يوجهوا إليه تظلماتهم من المسلمين أو الرعايا الآخرين للسلطان. ولابد أن توجه تظلمات الجنوية ضد رعايا السلطان إلى الديوان العام أمام الأمير.

٤ – فيما يتعلق بإسهامهم من الذهب أو الفضة فإن على الجنوية أن يدفعوا ستة دينارات بيزنطية وستة عشر من القيراطات فى المائة بالنسبة للذهب، وأربعة دينارات بيزنطية واثنى عشر من القيراطات فى المائة بالنسبة للفضة وإذا كانوا يحملون عملات فإن عليهم أن يدفعوا أربعة دينارات بيزنطية واثنى عشر من القيراطات فى المائة بالنسبة للذهب والفضة. وتستثنى الجلود والفرو والأحجار الكريمة من أى ضريبة.

٥ – أن يكون لهم كاتب بالجمرك يصير المسؤول عن ديونهم إذا ما رحلوا.

٦ – أن لا يعتقل جنوى بسبب أخطاء جنوى غيره إلا إذا كفله.

٧ – كل صفقة تجارية يتم عقدها فى الجمرك بحضور الشهود أو الترجمان يجب أن تكون ملزمة.

٨ – على الجنوية أن يدفعوا لجمرك الأسكندرية ١٢ فى المائة من بضائعهم الموزونة ولا يتم ذلك إلا بعد إنجاز البيع واستلام الثمن.

٩ – وعليهم أن يدفعوا ١٠ فى المائة على المنسوجات الحريرية والصوفية من كل الألوان (ذكرت سلسلة منها) وحول شعائر الذهب والأخشاب يدفع ١٠ فى المائة.

١٠ – يجب أن تسجل كل البضائع التى توضع بالجمرك بهدف بيعها بالمزاد العلنى، كما يسجل ما تحقق من سعر عند البيع، وأن يتم دفع الضرائب عن الكميات المباعة لا عن الفائض وبعد استلام الثمن ولا يدفع المشترى شيئا. وإذا لم يرغبوا فى بيع كل بضائعهم فلهم ذلك ولا ضريبة عليهم.

١١ – لا يجب أن يجبر جنوى على بيع ما حمله من بضائع وإذا أراد أن يعود بها فله ذلك ولا ضريبة عليه.

١٢ – إذا باع جنوى ذهبًا أو فضة إلى مسلم فعلى هذا الأخير أن يسدد له المال نقدًا دون تقسيط.

١٣ – ينبغى على رجال الجمرك أن يتركوا البضائع فى حالة جيدة.

١٤ – إذا باع جنوى أمام شهود أو عن طريق سمسار جمركى كان هذا الأخير ضامنًا للمشترى ويرجع إلى القاضى بشأن كل خصام حول بيع تم فى الخارج وبدون شهود.

١٥ – يمكن للجنوى إذا كان مدينًا للجمرك وفى الوقت نفسه دائنًا لمسلم أن يرحل بعد أن يحمل المسلم مسؤولية تسديد الدين الذى عليه.

١٦ – إذا أراد أحد الجنوية أن يأخذ معه ما يحتاج إليه من الجبن والمواد الغذائية الأخرى إلى الفندق فإنه يمكنه حملها ولا شىء عليه.

١٧ – يجب أن يكون للجنوية متاجر كافية يمكن أن تغلق بالأقفال وأن يعين لها الجمرك حراسًا.

١٨ – لا ينبغى على الجمرك أن يفرض عليهم أى ضرائب أخرى وكذلك الوكلاء المكلفون بمعانيه السفن.

١٩ – الجنويون أحرار فى تفريغ بضائعهم أو تحميلها بواسطة زوارقهم الخاصة بدون عقبات (لم ترد البنود ما بين رقم ٢٠ و ٢٤).

٢٥ – لا يجب أن يجبر أى جنوى على شراء بضائع أخرى غير تلك التى يرغب فى شرائها.

٢٦ – وإذا باع بضاعة ما إلى الجمرك وجب أن يتم التسديد بالعملة الذهبية أو الفضية.

٢١ – ملاحظة حول «مخاضة الحوت»

هذه قضية لم تتح لى فرصة التحدث بشأنها. فالنصوص المكتوبة باللغة الفرنسية القديمة تتحدث عن مخاضة الحوت Gué de la Baleine فى منطقة ما بسوريا الشمالية حيث من الصعوبة بمكان أن نتخيل ما الذى يمكن أن يفعله الحوت هناك. والواقع أن هذه العبارة هى ترجمة من اللاتينية لكلمتى vadum Balaneae. وفى رسالتى الجامعية عن «سوريا الشمالية» أثبّت أن الأمر يتعلق بممر يقع على إفرين وهو أحد روافد نهر العاصى ويتجه نحو قرية تسمى اليوم الحمام. وكان استنتاجى صائبًا غير أن دليلا مباشرًا كان قد فاتنى فكلمة الحمام كما نعرف تستخدم بهذا المعنى بالفرنسية أما فى اليونانية فتسمى بلانيا Balaneia

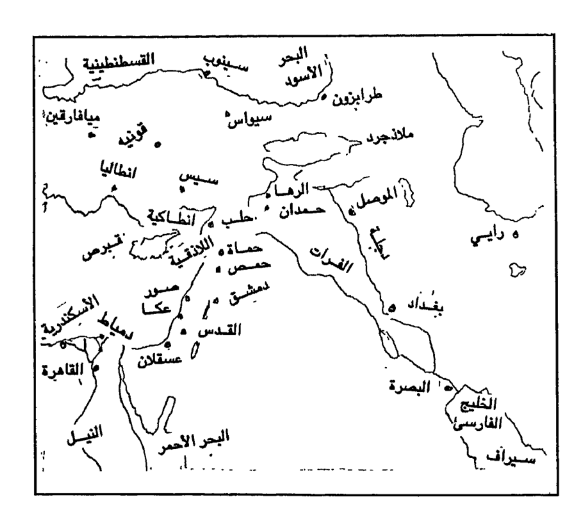
(بالجمع) إضافة إلى أن هذه الصيغة قريبة من الكلمة اللاتينية. كما أن العرب قد احتفظوا بها أحيانًا مع ربطها بالجذر بلل. لقد كانت هذه المنطقة فيما مضى منطقة بيزنطية. وقد عرف الأرمن هذا المكان باسمه اليوناني. فلا مجال للبحث عن مصدر آخر لحوتنا هذا.

جدول زمنى عام

عام	٦٣٢	:	وفاة محمد.
عام	٦٣٤	:	بداية الفتوحات العربية.
عام	٧١٢	:	الفتح العربى لأسبانيا.
عام	٩٦٩	:	استعادة البيزنطيين لأنطاكية واحتلال الفاطميين لمصر.
عام	١٠٥٤	:	الانفصال بين روما والقسطنطينية.
عام	١٠٥٥	:	احتلال السلاجقة لبغداد.
عام	١٠٧١	:	هزيمة البيزنطية فى ملاذ جرد.
عام	١٠٧٨	:	إتمام النورمانديين لفتح صقلية.
عام	١٠٨٠	:	هجوم النورمانديين على بيزنطة.
عام	١٠٨٢	:	أو ١٠٨٤ الامتياز الذى أعطاه الكسيس كومنيين للبنادقة .
عام	١٠٩٢	:	وفاة السلطان السلجوقى ملكشاه.
عام	١٠٩٥	:	مجمع كليرمون.
عام	٩٧ – ١٠٩٨	:	محاصرة أنطاكية والاستيلاء عليها.
عام	١٠٩٩	:	الاستيلاء على القدس.
عام	١١٢٣	:	الاستيلاء على صور.
عام	١١٢٨	:	إقامة زنكى فى حلب.
عام	١١٣٥	:	تخريب البيازنة لأمالفى.
عام	١٠٤٤	:	استيلاء زنكى على الرها.
عام	١٠٤٦	:	ظهور نور الدين فى حلب واستيلاء النورمانديين على طرابلس الأفريقية.
عام	١٠٤٨	:	الحرب الصليبية الثانية.
عام	١١٥٣	:	استيلاء الفرنجة على عسقلان.

عام	١١٥٤	:	عقد معاهدة بيزا مع الفاطميين.
عام	١١٥٧	:	مانويل كومنيين فى أنطاكية.
عام	١١٦٩	:	احتلال صلاح الدين لمصر.
عام	١١٧١	:	مذبحة التجار الايطاليين فى القسطنطينية.
عام	١١٧٤	:	وفاة نور الدين.
عام	١١٧٦	:	هزيمة البيزنطيين فى ميافارقين.
عام	١١٨٧	:	هزيمة الفرنجة فى حطين وفتوحات صلاح الدين.
عام	٩٠ – ١١٩٢	:	الحرب الصليبية الثالثة؛ ١١٩٢ وفاة صلاح الدين.
عام	١١٩٧	:	التتويج الملكى لليون الأول فى قيليقية الأرمينية.
عام	١٢٠٢ – ١٢٠٤	:	الحرب الصليبية الرابعة وتأسيس الأمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية.
عام	١٢١٧ – ١٢٢٠	:	الحرب الصليبية الخامسة.
عام	١٢٢٨	:	حملة فريدريك الثانى الصليبية.
عام	١٢٤٣	:	غزو المغول لآسيا الصغرى.
عام	١٢٤٤	:	استيلاء الخوارزمين على القدس.
عام	١٢٤٨	:	حملة سان لويس الصليبية.
عام	١٢٥٨	:	استيلاء المغول على بغداد.
عام	١٢٦٠	:	غزو المغول لسوريا وهزيمتهم أمام المماليك.
عام	١٢٦١	:	استعادة البيزنطيين للقسطنطينية.
عام	١٢٦٨	:	استعادة بيبرس لأنطاكية.
عام	١٢٩١	:	سقوط عكا.

خريطة العالم الإسلامى زمن الحروب الصليبية



المراجــع

F.-M. ABEL, *Géographie de la Palestine*, 1967.
ABULAFIA, *Two Italies. Economic Relations between the Norman Kingdom and the Northern communities*, 1977.
H. AHRWEILLER, *Byzance et la mer. La marine de guerre, la politique et les institu- – tions maritimes de Byzance aux VIIe-XVe siècles*, Paris, 1966.
Etudes sur les structures administratives et sociales de Byzance (Variorum Reprints), Londres, 1971.
KARL H. ALLMENDINGER, *Die Beziehungen zwischen der Kommune Pisa und Aegypten im hohen Mittelalter*, Wiesbaden, 1967.
P. ALPHANDERY et A. DUPRONT, *la Chrétienté et l'idée de Croisade*, 2 volumes, Paris, 1954-1959.
B. ALTANER, *Die Dominikaner Missionen*, 1924.
MICHAEL ANGOLD, *A Byzantine Government in exile. Government and society under the Laskarids of Nicaea, 1204-1261*, Oxford, 1975.
H. ANTONIADIS-BIBICOU, *Recherches sur les douanes à Byzance*, Paris, 1963.
E. ASHTOR, *Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval*, Paris, 1969.
A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages, London, 1972.
AZIZ S. ATIYA, *A history of Eastern Christianity*, Londres, 1968.
DEREK BAKER, éd., *Relations between East and West in the Middle Ages*, Edinburgh, 1973.
MICHEL BALARD, *la Romanie génoise*, 2 volumes, Paris, 1978.
RASHID AL-BARÂWÎ, *Hâlat Misr al-Iqtisâdiyyat fi 'ahd al-Fatimîyîn* (« La vie économique en Egypte aux temps des Fatimides »), Le Caire, 1948.
M. BENVINISTI, *The Crusaders in the Holyland*, Jérusalem, 1970.
B. BLUMENKRANTZ, *Juifs et Chrétiens dans le monde occidental, 960-1096*, 1960.
T.S.R. BOASE, éd. *The Cilician Kingdom of Armenia* (recueil d'articles), Edinburgh-Londres, 1978.
H. BUCHTAL, *Miniature Painting in the Latin Kingdom of Jerusalem*, Oxford, 1957.
CL. CAHEN, *la Syrie du Nord à l'époque des Croisades*, Paris, 1940.
Turco-Byzantina et Oriens Christianus, (Variorum Reprints), Londres, 1974.
Introduction à l'histoire du monde musulman médiéval, Paris, 1983.
MARIUS CANARD, *Histoire de la dynastie des Hamdanides*, volume I, Alger, 1954 (volume II non paru).
Byzance et les musulmans du Proche-Orient (Variorum Reprints), Londres, 1973.
P. CHALMETA, *El señor del Zuoco en España*, Madrid, 1972.
M.A. COOK, éd. *Studies in the Economic History of the Middle East*, Oxford, 1970.
NORMAN DANIEL, *Islam and the West*, Edinburgh, 1958.
The Arabs and Medieval Europe, Londres, 1975.
PAUL DESCHAMPS, *les Châteaux des Croisés en Terre sainte*, I-II-III, Pais, 1934-1973.
R. DUSSAUD, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*, Paris, Damas, 1932.
A. DUCELLIER, *le Miroir de l'Islam*, Paris, 1971.
A.S. EHRENKREUTZ, *Saladin*, New York, 1972.
EKKEHARD EICKHOFF, *Friedrich Barbarossa im Orient*, Tübingen, 1977.
N. ELISSEEFF, *Nur-ad-Din*, 3 volumes, Damas, 1967.
C. ERDMANN, *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens*, Stuttgart, 1937, a été récemment traduit en anglais.

A. FATTAL, *le Statut des non-musulmans en pays d'Islam*, Beyrouth, 1958.
FOLDA, *The Crusaders Manuscrits illuminated at Acre, 1275-1291*, 1976.
S.D. GOITEIN, *A Mediterranean Society*, volume I, 1967 (volumes II, III, IV concernant plus strictement l'histoire juive).

HANS GOTTSCHALK, *Al-Malik al-Kamil von Egypten*, Wiesbaden, 1954.
A. GRABOIS, « Banyas et Subaïda pendant les Croisades », *Cahiers de civilisation médiévale*, 1970-1971.
RENÉ GROUSSET, *Histoire des Croisades et du royaume latin de Jérusalem*, 3 volumes, 1933-1938, Paris.
BERNARD HAMILTON, *The Latin Church in the Crusader States*, Londres, 1980.
ANGELICA HARTMANN, *Al-Nasir li-Din Allah*. Berlin, 1975.
HANSGERD HELLEN-KAMPER, *Burgen der Kreuzritterzeit in der Grafschaft Edessa und im Königreich Lein-Armenien*, Bonn, 1976.
D. HERLIHY, *Pisa in the Early Renaissance, a study or urban gross*, New Heaven, 1958.
WILHELM HEYD, *Histoire du commerce du Levant*, trad. fran. améliorée, 2 volumes, Paris, 1885.
PH. K. HITTI, *History of Syria*, Londres, 195 ..
P.M. HOLT, éd. *The Eastern Mediterranean Lands in the Period of the Crusades*, Warminster, England, 1977.
G.-F. HOURANI, *Arab Seafaring in the Indian Ocean in ancient and early medieval times*, Princeton, 1971.
STEPHEN HUMPHREYS, *From Saladin to the Mongols*, New York, 1977.
KALERVO HUURI, *Zur Geschichte des Mittelalterlichen Geschützwesens aus orientalischen Quellen*, Helsinki, 1941.
H.R. IDRIS, *la Berbérie orientale sous les Zirides*, 2 volumes, Paris, 1959.
A. TH. KHOURY, *les Théologiens byzantins et l'Islam*, Louvain, Paris, 1969.
JAMES KRITZECK, *Peter the Venerable and Islam*, Princeton, 1964.
SUBHI LABIB, *Vierteljahrschrift für Social- und Wirtschafts-geschichte*, Wiesbaden, 1965.
JOHN LA MONTE, *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem*, Cambridge Mass., 1932.
IRA LAPIDUS, *Muslim Cities in the later Middle Ages*, Cambridge, Mass., 1967.
A. LEWIS, *Naval Power and trade, A.D. 500-1100*, Princeton, 1951.
A. MALVEZZI, *L'Islamismo e là cultura europea*, Florence, 1956.
HANZ E. MAYER, *Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzüge*, Hanovre, 1960; supplément : « Literaturbericht über die Geschichte der Kreuzzüge » dans un Beiheft de *Historische Zeitschrift*, Sonderheft 3, Munich, 1969.
– Bibliographie sélective préparée pour *History of the Crusades*.
Geschichte der Kreuzzüge, Stuttgart, 1965, trad. ang., Oxford, 1972.
R. MENENDEZ-PIDAL, *La España del Cid*, 2 volumes, Madrid, 1947.
HANNES MÖHRING, *Saladin und der Dritte Kreuzzüge*, Wiesbaden, 1980.
MICHEL MOLLAT, éd., « Sociétés et compagnies de commerce en Orient et dans l'océan Indien » *(8e Colloque d'histoire maritime)*, Beyrouth, Paris, 1966-1970.
ALFREDO MORABIA, *la Notion de ǧihad dans l'Islam médiéval des origines à al-Gazâlî*, Lille, 1975.
V.J. PARRY et M.F. YAPP, éds, *War, Technology and Society in the Middle East*, Oxford, 1975.
JOSUAH PRAWER, *Histoire du royaume latin de Jérusalem*, 2 volumes, Paris, 1969-1970 (trad. de l'hébreu).
Latin Kingdom of Jerusalem, Londres, 1972.
Crusader Institution, Londres, 1980.

H. PRUTZ, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*, Berlin, 1883.
MAUREEN PURCELL, *Papal Crusading Policy*, Leiden, 1975.
Y. RENOUARD, *les Villes d'Italie de la fin du Xe siècle au début du XIVe siècle*, nouvelle édition par Ph. Braustein, 1976.

JEAN RICHARD, *le Royaume latin de Jérusalem*, Paris, 1947, trad. angl. mise à jour, 1980.
La Papauté et les missions d'Orient au Moyen Age (XIIIe-XVe siècles), Ecole française de Rome, 1977.
Le Comté de Tripoli, Paris, 1943.
Orient et Occident au Moyen Age : contacts et relations (Variorum reprints), Londres, 1976.
D.S. RICHARDS, éd., *Islam and the trade of Asia*, Oxford, 1970.
Islamic Civilisation, 950-1150, Oxford, 1973.
JONATHAN RILEY-SMITH, *The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem, 1174-1277*, Londres, 1973.
The Knights of St John in Jerusalem and Cyprus, 1050-1310, Londres, 1967.
What were the Crusades?, Londres, 1977.
R. RÖHRICHT, *Geschichte des Königreichs Jerusalem (1100-1291)*, Berlin, 1897.
G. ROSSI-BATINI, *L'espansione di Pisa*, Florence, 1924.
S. RUNCIMAN, *A history of the Crusades*, 3 volumes, Cambridge, 1951, 1952, 1954.
The first Crusade, Cambridge, 1951, deuxième édition, 1980.
ADOLF SCHAUBE, *Handelsgeschichte der romanischen Völker des Mittelmeergebietes bis zum Ende der Kreussüge*, 1906.
ULRICH SCHWARTZ, *Amalfi im frühen Mittelalter*, Tübingen, 1978.
KHALIL SEMAAN, éd., *Islam and the medieval West*, New York, 1980.
EMMANUEL SIVAN, *l'Islam et la Croisade*, Paris, 1968.
R.C. SMAIL, *The Crusaders*, 1973.
Crusadin Warfare (1097-1193), Cambridge, 1956.
R.W. SOUTHERN, *Western views of Islam in the Middle Age*, Harvard, 1961.
B. SPULER, éd., *Handbuch der Orientalisk*, 1953 et suiv.
W.B. STEVENSON, *The Crusaders in the East*, 1907.
P.A. THROOP, *Critisism of the Crusade*, Amsterdam, 1940.
A.L. UDOVITCH, *The Islamic Middle East, 700-1900, Studies in Economic and Social History*, (Colloque, 1974), Princeton, 1981.
O. VAN DER VAT, *Die Anfänge der Franziskanermissionen...*, 1934.
A.A. VASILIEV, *Byzance et les Arabes*, 3 volumes, Bruxelles, 1935-1968.
GIULIO VISMARA, *Impium Foedus. La illiceità delle Alleanze con gli infideli nella Respublica Christiana medioevale*, Milan, 1950.
JOHN WILKINSON, *Jerusalem Pilgrims before the Crusaders*, Warminster, England, 1977.

Cambridge History of Islam, 2 volumes, 1970.
Cambridge History of Iran, volumes IV et V, 1968-1975.
Index Islamicus, Pearson, éd., volume I, 1906-1955, suppléments jusqu'en 1975 et suite...
La Navigazione mediterranea nell'alto medievo, 2 volumes, Spolete, 1977.
L'Occidente e l'Islam nell'alto medioevo, Spolete, 1964-1965.
Septième Centenaire de la mort de Saint Louis, Paris, 1970.

فهرس المراجع

ليس من الضرورى أن نطيل حجم هذا الكتاب باستعراض فهرس كامل المراجع وهى فهرست قد تكون شديدة الطول نظرًا لسعة المسائل المعالجة. وسيكون من السهل فى هذا الشأن مراجعة الكتب العامة المذكورة أدناه [1] حول الحروب الصليبية والعالم الإسلامى والشرق الأدنى والتجارة الدولية الخ. وسنتقدم من وجهة نظرنا أهمها بصدد كل فعل. لكن يجب أن نبدى هنا بعض الملاحظات.

حينما يتعلق الأمر بالعلاقات القائمة بين الشرق والغرب أو بين الشرق الأدنى والشرق الأقصى فإن من البديهى أن تتعدد لغات مصادر وثائقنا. وفيما يتصل بأوروبا إبان الفترة المعنية فاللاتينية تظل تقريباً اللغة الوحيدة المستخدمة رغم انضمام بعض اللغات العامية إليها تدريجيًا، وأما بالنسبة للشرق فإننا نجد أنفسنا بصدد مزيج لغوى أكثر تعقيداً، فإلى جانب اليونانية والعربية توجد أدبيات ووثائق بالسريانية والعبرية والأرمينية والجيورجية والفارسية والتركية والصينية الخ. ولا يمكننا أن نطالب أى مختص بإتقان كل هذه اللغات ولو أننا لا نقبل ألاّ يتقن أيًا منها. وحينما يعتمد على الكتب المترجمة فيجب عليه معرفة الكيفية التى تمت بها الترجمة ومراقبة الجوانب التى تتطلب التدقيق بالاستعانة بمن يلزم من أهل الاختصاص. ونجد أنفسنا حقاً ملزمين بالقول إن كتاب: «مصنَّف مؤرخى الحروب الصليبية» *Recueil des Historiens des Croisades* رغم شهرته فنحن لسنا مرتاحين له كثيرًا فى هذا الشأن. إذ كان بالإمكان تفادى كثير من الأخطاء، وحتى طبعات هذا الكتاب جاءت متفاوتة القيمة كما أن بعض الكتب القيمة لازالت غير منشورة[2]. ومن جهة أخرى يجب أن نملك الوعى بعدم التطابق التام بين التخطيط التصورى والألفاظ المستخدمة من لغة لأخرى. فمن الأفضل فى الغالب ألا يقدم المرء على الترجمة عوض ارتكاب الأخطاء أو الإبهام [3].

وحتى بالنسبة للغة الواحدة فإن مختلف المصادر لا تغطى المجال نفسه جغرافيًا ولا زمانيًا ولا اجتماعيًا بالخصوص فأحرى حينما ننتقل فى لغة لأخرى. لذا يجب إحداث التكامل بينها والوعى بما قد ينتج من اختلال من جراء هذا التوزيع المتفاوت.

إن المؤرخ ينزع بطبيعة الحال إلى الأخذ بعين الاعتبار المصادر الحكائية قبل غيرها[4]. ومن البديهى أن تلزمه معرفة الاغتراف كذلك من المصادر القانونية والإدارية والدينية والعلمية[5] الخ. فلا يمكنه إذن أن يقتنع بالاطلاع على فصل واحد من فصول الجداول والبيانات [6].

ما قلناه الساعة ينطبق على المصادر الوثائقية مع إلحاق التفسيرات المناسبة. وإذا لم نكن نفتقر تمامًا إلى المراجع الخاصة بالشرق إلى الدرجة التى سمعنا عنها أحيانًا [7] بتوان واسترخاء فإن ثمة اختلال فى هذا الصدد لاسيما فيما يتعلق بأواخر العصر الوسيط، فالمجالات التى استعلمنا حولها بالنسبة لمختلف الدول لا تتطابق جيداً فيما بينها فى الغالب. وحتى داخل نفس المنطقة قد تتولد مشاكل عويصة من جراء التفاوت الحاصل فى مجموع الوثائق المحفوظة[8].

وبالنسبة لفهرست المراجع المتداولة فحسبنا أن نذكر أنه تم مؤخراً إنشاء (أو إعادة إنشاء)[٩] «جمعية تاريخ الشرق اللاتيني» التي تقوم بإصدار نشرة لها. والرئيس الحالي لهذه الجمعية الجديدة هو الأستاذ جان ريشار من جامعة ديجون. وقد انعقد في الولايات المتحدة الأمريكية بجامعتي آن أربور وكالامازو عام ١٩٨١ مؤتمر عالمي خصص للحروب الصليبية والشرق اللاتيني والعلاقات بين الشرق والغرب (ستطبع أعماله).

إن دراسة الظروف المعيشية للبلد ولاسيما في المناطق السهلية منها يمكن أن تستفيد إلى حد ما في الاستقصاءات التي تمت في فترات تاريخية متعاقبة عبر القرون. غير أن هذه الاستقصاءات تنطوي على مصاعب بسبب ما يعانيه المرء غالباً من مشقة في التصرف على ذات المناطق التي تحمل أسماء مختلفة[١٠] داخل الأراضي التي كانت خاضعة طوال القرون لسادة كانوا يتكلمون لغات متباينة.

ثم إن نقل الأسماء من مختلف اللغات ولاسيما من اللغة العربية وكتابتها بالحروف اللاتينية يطرح عدداً من المشاكل نظراً لأن النغمات الصادرة عن مختلفة الحروف الهجائية لا تتطابق دائماً فيما بينها. ولا يوجد لسوء الحظ نظام موحد للنقل. وأكثر هذه الأنظمة شيوعاً في العالم هو النظام المعتمد في الموسوعة الإسلامية. وبما أن هذا الكتاب يتوجه إلى جمهور واسع فقد استخدمنا هذا النظام مع حذف العلامات الدخيلة على الأبجدية اللاتينية العادية توخيا للتبسيط.

توجهات المراجع

(نتقدم المراجع الخاصة في مختلف الفصول)

لا يوجد أي تاريخ يشمل الشرق الأدنى بكامله في العصر الوسيط. لذا يجب دراسته ضمن تاريخ المجموعات السياسية الكبرى ثم بعد ذلك ضمن تاريخ بعض الشعوب الخاصة.

فبالنسبة لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فإن المؤلفات الرئيسية هي: Georg: OSTROGORSKY, *Geschichte des Byzantinischen Staates,* München, 1952, 496 p.,

وثمة ترجمة فرنسية لهذا الكتاب هي: *Histoire de l'Etat byzantin,* Paris 1954.

وكتاب: ZAKYTHINOS, *Histoire de l'empire byzantin,* vol. I jusqu'en 1071,

وهو مؤلف باليونانية وقد ترجم إلى الانجليزية والألمانية. والجزء الثاني من هذا الكتاب قيد الإعداد.

كما نتوفر على كتاب عن: *Histoire de l'Arménie,* 1982, par Gérard DÉDÉYAN

وبالنسبة لجورجيا هناك كتاب: K. SALTA, *Histoire de la Nation górgienne,* 1979.

وبالنسبة للعالم الإسلامي نتوفر منذ فترة على عدة عروض تاريخية عامة ذات مشارب مختلفة، منها:

Robert Mantran, *l'Expansion Musulmane,* collection Nouvelle clio Paris 1968.

وهو يقدم إلماماً جيد الفائدة للطلبة وبه مادة كاملة حقاً حتى هذا التاريخ، وكتاب:

Claude Cahen, *L'islam,* Paris (Bordas).

وقد حاول إعطاء التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للعالم الإسلامى نفس المكانة التى تعطى للتاريخ الأوروبى.

وكتاب: Dominique et Janine Sourdel, *la Civilisation de l'islam classique* Paris 1968.

وهو كتاب رائع لاسيما بالنسبة للفصول المتعلقة بتاريخ الفن وقد جاءت موضحة بصور ورسوم رائعة، ويجب إن نقول إن كتاب موريس لومبار الذى ظهر بعد وفاته:

L'islam dans sa premiére grandeur.

رغم لمحاته المنيرة لم تعد مادته كافية. أما كتاب.

Dominique Sourdel, *Lislam médieval,* Paris, 1979.

فهو صغير الحجم ومفيد لفكر القارىء المطلع.

وتقدم الموسوعة الإسلامية ذخيرة أساسية من المعارف فى طبعاتها الفرنسية والإنجليزية الثانية. وقد ظهر منها ست مجلدات (وصلت حالياً إلى حرف الميم؛ وبالنسبة للبقية يمكن الرجوع إلى الطبعة الأولى).

وبالنسبة للتاريخ اليهودى هناك كتاب: S Boran *History of the Jews*

وهو كتاب رائع وضخم صدر فى ثمانية أجزاء ترجم منها أربعة إلى الفرنسية، وهو التاريخ الوحيد الذى يجعل مكاناً سوياً لليهود الشرقيين.

لقد تضمن تاريخ الحروب الصليبية جملة من العيوب التى ذكرت أعلاه. فأشهر كتاب بفرنسا وهو:

René Grousset, *Histoire des Croisades et du Royaume franc de Jerusalem 3* vols 1934 - 1939.

يعد مع الأسف أخطر كتاب بسبب نقص المعلومات وهشاشة المنهج والأفكار المسبقة التى نشرت به. وأفضل عرض بالفرنسية حالياً الكتاب الذى ترجم من العبرية وهو من تأليف:

Josuah Prawer, *Histoire du Royaume latin de* Jérusalem, 2 vols 1969 - 1970.

ولدينا بالإنجليزية عرض جيد الباحث لمختص بدراسة بيزنطة:

Steven Runciman, *A History of the Crusade 3* vols Cambridge 1952 - 1964.

والكتاب الذى ألفه جماعة من الكتاب: *History of the Crusades* بإشراف ك. سيتون ظهر منه أربعة أجزاء: ج ١ *(1955)* وج ٢ *(1962)* وج ٣ *(1975)* وج ٤ *(1977)* (ومن المتوقع أن يصدر جزآن

أخران). ويحتوى على ضبط متين للوثائق التاريخية التقليدية وقت صدور هذه الأجزاء دون القيام بمحاولة تجديدية حقيقية. ويمكن أن نوصى بكتاب:

Hans E. Mayer, *Geschichte der Kreuzzuge* Stuttgart 1965.

وبالترجمة الإنجليزية: The Crusades. Ox ford 1972.

وبالنسبة للتجارة فى الشرق نجد أنفسنا ملزمين بالعودة مرة أخرى إلى:

Wilhelm Heyd, *Histoire du commerce du Levant,* deux volumes Leipzig 1885.

وهو كتاب فذ بالنسبة لعصره لكنه بالضرورة متخلف عن الوثائق المعاصرة ومتجاوز فى جوهره. وهناك كتاب أحدث منه بعض الشىء من تأليف

Hans Schaube, *Handels geschichte der Romanischen Völker des Mittelmeergebietes bis zum Ende der Kreuzzuge* München 1906.

والعرض الذكى جدًا لروبير س. لوبيز فى :

Cambridge economic history of Europe ed M. Postan vol. II Cambridge 1952.

وهو عرض سريع بعض الشىء ولم يعد كافيًا تمامًا فى مادته.

١ - المصادر:

إن كثيرًا من النصوص المتعلقة بالحروب الصليبية وبالشرق اللاتينى تم نشرها وترجمتها فى كتاب *Recueil des historiens des Croisades* لمجمع التدوين (ومع ذلك انظر بصدده Cl. Cahen dans le *Journal des savants* 1970) تتضمن هذه المجموعة خمسة أقسام: المؤرخون الغربيون فى خمسة مجلدات من الحجم الصغير، والمؤرخون الشرقيون (العرب) فى خمسة مجلدات من الحجم الصغير، والمؤرخون اليونان والأرمنيون والقوانين. وليس ثمة سلسلة سيريانية ولا عبرية.

النصوص العربية:

– أبو شامة، «كتاب الروضتين»، مصنف المؤرخين الشرقيين للحروب الصليبية، 4.

أبو شامة. الذيل، طبعة القاهرة 1947.

– ابن أبى طى، نصوص مستخلصة منه ذكرت من قبل ابن الفرات وأبى شامة انظر:

Claude Cahen, *Syrie du Nord*

– ابن العديم (كمال الدين). الزبدة. نشره سامى دهان، ٢ ج، المعهد الفرنسى بدمشق 1954. الترجمة الفرنسية، مجموع وثائق المؤرخين الشرقيين للحروب الصليبية، ٣، إلى سنة ١٩٣٥.

Blochet dans *Revue de L'orient atin,* III - IV 1895 - 1898 و

– ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، فى طبعات مختلفة، الترجمة الفرنسية للأجزاء المتعلقة بالحروب الصليبية مصنف المؤرخين الشرقيين للحروب الصليبية، ١ و ٢.

– ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الأمم، طبعة حيدر أباد أجزاء.

– ابن جبير، رحلة ابن جبير، ترجمة جودفروا ديمومبينز، ٤ أجزاء، 1952 – 1967

– ابن الفرات. لم تحفظ آثاره كاملة وهى تغطى القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر، وقدم تم نشر أجزاء منها بالشرق. وهناك نصوص مستخلصة منها قام بترجمتها ريلى – سميث، 1971، وسيتم قريباً نشر وترجمة الجزء المتعلق بالنصف الأول من القرن الثانى عشر وهو يحوى على النصوص المستخلصة من كتاب أبن أبى طى الأكثر أهمية.

– ابن المجاور، وصف عدن، طبعة لوتجرين، 1951 – 1954

– ابن القلانسى، تاريخ دمشق، ترجمة الجزء الثانى قام بها:

H.A.R. Gibb. *The Damascus chronicle of the crusade* 1932

Roger le Tourneau, *Damas de 1075 à 1155,* 1952 :و

– ابن ميسر. حوليات مصر، طبعة ماسى، 1921، وهناك طبعة جديدة قام بها أ. فؤاد السيد، ١٩٨١.

– ابن شداد (بهاء الدين). «حياة صلاح الدين» فى: مصنف المؤرخين الشرقيين للحروب الصليبية٣.

– ابن شداد (عز الدين)، أعلاق الخاطرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، نشره سَامى دهان٣. أجزاء، دمشق: المعهد الفرنسى، ترجم دومينيك سورديل الجزء الخاص بحلب وقامت آن مارى أدى تيراس بترجمة ما يتعلق ببقية سوريا الشمالية. وقام كلود كاهن بتحليل الجزء الخاص بالجزيرة فى:

Revue Etudes islamiques 1934.

وقد تم نشره بكامله مؤخراً بدمشق، 1978.

– ابن واصل، تاريخ الأيوبيين المعروف بعنوان مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، نشره الشيال، وقام بعده ربيع بنشره فى ٥ أجزاء، وتمتد حتى عام 1248، أما الفترة التى تصل لتاريخ 1262 فهى مخطوطة.

– الإدريسى، الجغرافية، الطبعة الكاملة فى طور الإنجاز بإيطاليا، ترجمة جوبير بشكل مؤقت 1820.

– عماد الدين الأصفهانى، برق الشام، تم استخلاص عدة نصوص منه وطبعها وترجمتها فى كتاب:

Abu Shama, *La prise de Jerusalem.* trad Massé, 1970.

– *المخزومى، المنهاج، تم استخلاص عدة نصوص منها وترجمتها والتعليق عليها فى كتاب:*

Claude Cahen, *Makhzumiyyat,* 1978.

– المقريزى. «تاريخ الفاطميين» (الاتعاظ)، نشر الشيال. ثم نشر فى كتاب:

Histoire des Ayyubides et des Mamluks, trad. Blochet dans *rev.or. lat, 10 - 12.*

وبالنسبة لأوائل المماليك، كاترمير 1837 - 1845 (مع حواشي مهمة). «وصف مصر والقاهرة» (الخطط). طبعة بولاق، جزان، 1890. أما الطبعة النقدية التي شرع فيها ج. فييت فهي لا تتجاوز الربع الأول من الكتاب.

- مرضى الطرسوسى. رسالة إلى صلاح الدين في تجارة الأسلحة وصناعتها، نشر وترجمة وتعليق كلود كاهن، المعهد الفرنسي بدمشق، 1949.

- القلقشندى، صبح الأعشى، طبعة القاهرة. ٢٠ جزء مع الفهرست، ١٩٢٠

- سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، طبعة حيدراباد.

- السلامى. انظر الفصل السادس.

- أسامة بن منقد، كتاب الإعتبار، ترجمة أ. ميكيل، 1982.

- ياقوت الحموى معجم البلدان، عدة طبعات، غير مترجم.

النصوص اللاتينية والفرنسية:

- Albert D'Aix, Liber Christianae expeditionis pro ereptione, emundatione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae, *R.H. Cr. Occ.*, IV; Peter Knoch, (Studien für Albert von Aachen), des Stuttgarte Beotrage fur Geschischte und Politik, I, 1966; voir aussi *Syrie du Nord.*

- FOUCHER DE CHARTRES, (Historia Hierosolymitana), *R.H. Cr. Occ.*, III.

- GUIBERT DE NOGENT, (Gesta Dei per Francos), *R.H. Cr. Occ.*, IV.

- GUILLAUME DE TYR, nouvelle édition critique, par R.B.C. Huyghens, en préparation; (Continuation de Guillaume de Tyr), dans R.H. Cr. Occ., II, cont, laf. 1183 - 1193, Marianne Salloch, Die Lateinische Fortsetzung Wihelms von Tyrus, 1934; cont. franc. manuscrit D, éd. M.R. Morgan, 1982; *cf. The Chronicle of Ernoul and the Continuations of Wiliam of Tyre,* Oxford, 1973.

- MARCO POLO, *Le devisement du monde,* commode présentation française, 2 volumes, éd. Maspero, 1980.

- RAYMOND D'AGUILERS, (Hist. Francorum Hierusalem), *R.H. Cr. Occ.*, III; nouvelle édition Hill dans les Documents pour servir à l'histoire des Croisades de l'académie des Inscriptions.

- ROBERT LE MOINE, *R.H.Cr. Occ.*, III.

- WILBRAND OLDENBURG, *dans Peregrinatores medievi quator,* 1880.

- *Assises de Jérusalem,* R.H. Cr., Lois, 2 volumes.

- *Assises d'Antioche, é*d. trad., Venise, 1876.

- *Chanson d;Antioche*, I, II, éd. Suzanne Duparc - Quioc, Paris, 1977 - 1978.

- *Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum (*Histoire anonyme de la Croisade), éd. Louis Bréhier, 1928;Tudebode, éd. Hill, dans *Documents* pour servir à l'histoire des Croisades.

- *Gestes des Chyprois, S*ociété de l'Orient latin, 1887.

النصوص الأرمينية:

MATTHIEU D'EDESSE, dans *R.H. Cr. Arm., I*, et sa continuation par Grégoire le Prêtre, *ibid.*

- *La Chronique attribuée au Connétable Smbat, é*d. Dédéyan, 1979.

النصوص السريانية:

- BAR - HEBRAEUS (Abul Faraj), *The Chronography*, éd trad. Budge 2 volumes, 1932.

- MICHEL LE SYRIEN, *Chronique*, éd. trad. J.B. Chabot, 4 volumes, 1910.

- *Chronique anonyme syriaque, é*d. J.B. Chabot, 1935, trad. Abuna, Louvain, 1974.

النص العبرى:

Benjamin de Tudéle, ed. trad. Adler, 1907.

إن الشخص الراغب فى قراءة ترجمات النصوص الشرقية يمكن أن يجدها فى كتاب *Bibliothéque des Croisades* de Michaud et Raynaud, وهو قديم، وفى كتاب حديث لصاحب Fr. Gabrieli, *Storici arabi delle Crociate (*trad. fr., 1976).

وذلك إلى جانب مصنف *Recueil des Historiens des Croisades* والكتب الخاصة المذكورة فى الصفحات اللاحقة.

مجموعة الوثائق المستخلصة من الأرشيفات:

- Geniza, voir Goitein, et Sh. Shaked, *A tentative bibliography of Geniza documents,* 1970.

- Röhricht, *Regesta regni Hierosolymitani,* 1 volume et un additamentum, Oeni Ponti 1893 - 1904, reprod. New York.

- Notaires génois: Johannés Scriba, R.C.I., 19/20, Rome, 1935.

لقد تعددت سجلات الأديرة والكنائس ابتداء من نهاية القرن الثاني عشر وقد نشر عدد منها، انظر:

- documents vénitiens: Morozzo et Lombardo, *Documenti del commercio veneziano nei secoli XI - XIII,* Rome et Turin, 1940.

- Morozzo, *Famiglia Zusto,* 1900.

- documents pisans: Amari, *I diplomi arabi del Reale archivio fiorentino,* Florence, 1863, 2 volumes.

- JINS - MÜLLER, *Documenti sulle relazioni delle città toscane coll' Oriente cristiano et coi Turchi fino all'anno 1531,* Florence, 1879.

أهم سجلات المنازل الدينية:

- Hôpital: Delaville - Le Roulx, *Cartulaire général de l'Ordre des Hospitaliers de Saint - Jean - de - Jérusalem,* Paris, 1894 - 1906.

- Notre - Dame - de - Josaphat: H.F. Delaborde, *Chartes de la Terre sainte provenant de l'abbaye de Notre - Dame - de - Josaphat,* Paris, 1880.

- Saint - Sépulcre: le cartulaire incomplet publié par Roziére, en 1849, devra être trés prochainement replacé par l'édition de Geneviéve Bresc - Bautier.

لم نحتفظ بسجلات جماعة فرسان هيكل سليمان، وما نشره المركيز الألبوني ليس سوى مجموعة من النصوص وجدت في مواضع أخرى. ويجب أن نولي أهمية خاصة لمراسلات البابوات، وهي محفوظة جيداً ابتداء من اينوسنت الثالث، وقد تم نشرها أو تحليلها ابتداء من جريجوار التاسع تحت رعاية المدرسة الفرنسية بروما.

انظر بصدد الوثائق الأثرية:

Histoire de l'Art, et Salina de Salvadi, *Corpus Inscriptiorum... Jérusalem, 1974,* etc.

٢ - المراجع:

لا نقدم إلا فهرساً انتقائياً محدوداً بالمظاهر الأساسية للتاريخ المعالج أدناه. وقد تم تفضيل المؤلفات الحديثة التي لم تدرج في الفهارس السابقة، ونجد فيها بالمقابل الإحالة على الأبحاث القديمة.

هوامش المقدمة

١ – إن قائمة المراجع التى أوردها م.أ. ماير عام ١٩٦٢ تتضمن ٥٣٦٢ مرجعا.

٢ – *Saeculum 1957.*

٣ – 1933 - 1938 René Grousset *Histoire des Goisades* يظن هذا الكاتب الذى لا ينكر فضله فى مجال تعميم الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط والأقصى على أوسع نطاق أن بإمكانه – نظراً لاشتغاله فى علاقة مع المختصين – أن يؤلف لوحده هذا الكتاب حتى وهو لا يعرف أية لغة من اللغات التى لابد منها فى هذا الشأن، وإن الانتشار الكبير الذى عرفه هذا الكتاب بفرنسا وحتى فى الخارج يدعو إلى نوع خاص من الحسرة رغم ما يجده القارئ من متعة فى بعض الجوانب منه.

٤ – أبحاث موريس جراندكلود (انظر ماير، رقم ١٦١٤ و٤٢٢٧) وجون.لامونت وخاصة أبحاث جان ريشار ويوشع براوير وهانس أ. ماير وأبحاثى إلى حد ما وأبحاث بعض الباحثين الشباب الآن. قارن مع :Franco Cardini, "Gli studi delle Crociate dal 1945 adoggi" *Riv. st . It,* 1968.

أنا أول من يعلم أن أطروحتى التى كتبتها عام ١٩٤٠ عن «سوريا الشمالية زمن الحروب الصليبية» لا ينبغى أن يعاد طباعتها كما هى الآن ولهذا السبب انتهيت إلى منع إعادة طباعتها رغم الدعوات الكريمة التى وجهت لى فى هذا الشأن، ولست أنكر ما أسدته من خدمات وقت صدورها غير أنها تتضمن ثغرات ونقائص فكرية يمكن لقارىء هذا الكتاب لو قدر له الاطلاع عليه أن يتنبه إليها بيسر.

٥ – أبيح لنفسى أن أؤكد بعض الشىء على الغرابة الكامنة فى محاولة رد الاعتبار من طرف أحد الغربيين، فباستثناء بعض الحالات النادرة لم يفعل الشرقيون سوى استخدام الأبحاث الغربية فى دراساتهم بعد تغيير رموزها بحيث تصبح الانتصارات هزائم والعكس بالعكس. على أنى أنوه بأبحاث نورمان دانييل المخصصة لتاريخ فهم الإسلام من قبل الغرب ولو أن معرفته بالشرق قاصرة. إنه غالباً ما يحصل لدينا الانطباع بشكل أعم أن المؤرخين يعتقدون فى إمكانية الاكتفاء بمعرفة تقريبية فى حديثهم عن الشرق فى حين أنهم أول من ينتقد مثل هذه المعرفة حينما يتعلق الأمر بميدان اختصاصهم.

هوامش الفصل الأول

١ – عرب «جارد فريني» الذين هم موضوع دراسات كفيلة بتجديد طرح هذه المسألة وجزر البليار والمواقع الموجودة بجزيرة سردينيا والتي نجهلها أشد الجهل (انظر:

P.Martini *Storia delle invasiani degli arabi e delle Piraterie dei Barbareschi in Sardegna,* Bologne, reimp, 1963.

٢ – انظر موسوعة الإسلام (٢)، مادة الفاطميين.

٣ – من المحتمل أن تكون هذه الرسالة القيمة «محاسن التجارة» وهي رسالة صغيرة الحجم لصاحبها أبو الفضل الدمشقي قد ألفت في هذه الفترة، وبهذا الصدد يمكن الرجوع إلى :

Cl. Cahen dans *Oriens,* 1967 و H. Ritter dans *Der Islam,* 1927,

إن أبا الفضل هو نموذج لهؤلاء السوريين والعراقيين الذين كانت لهم أهمية متعاظمة في الميدان التجاري بمصر.

٤ – لقد كتب الشيء الكثير عن مسألة التجار المدعوين بـ «الرهدانيين» في المدة الأخيرة. ومن ضمن ما كتب انظر: Claude Cahen dans R*evue des Etudes juives 1*963.

و E. Ashtor dans R*evue suisse d'histoire 1977*

٥ – وهي شعوب تركية تحولت تقريباً إلى اليهودية. قارن مع :

Dunlop, *History of the Jewish Khazars* princeton , 1904 .

٦ – انظر: A. Morabia *(Djihad)*

وانظر كذلك رغم ما يثيره من جدال:

Albrecht Noth, *Heilige in Islam and Christentum* Bonn 1966.

وكذلك: Khadduri, *war and Peace in the Law of Islam* 1941

٧ – موسوعة الإسلام (٢) : و. ا. قتال (انظر قائمة المراجع):

٨ – Michel le Syrien ed. Chabot vol III

٩ – راجع مقالي: (l'accueil des chretiens à islam) dans la *Revue d'histoire des religins* 1963.

١٠ – انظر موسوعة الإسلام، مادة ذات الهمة (كتار)؛ وفي موضوع سيد بطال غازي انظر أدناه ص ١١٠.

أما من جانب البيزنطيين، فإن أهم آثار في هذا الشأن هو قصيدة «ديجنيز أكريتاس» وتعني «المولد الحدودي».

١١ – لقد كتب عن هذه المساجلة أكثر مما تستحق من حيث أهميتها الحقيقية، ولنذكر ضمن الأبحاث الأكثر انصافًا ما كتبه أرمان آبل، كما نجد على وجه الإجمال قائمة بالأعمال الحديثة تقريبًا بمجلة الفاتيكان:

Islamica Christiana, 1975.

١٢ – انظر: Khoury *(Théologies* et Ducellier *(Miroir).*

١٣ – إن رسالة البابا سيرج الرابع الذى عاش إبان فترة الاضطهاد تم اختلاقها لاحقًا للدعوة للحملة الصليبية وذلك حسبما بينه جيبستور فى: *Medievalia et Humanistica,* V - VI, 1948 - 50

وبالنسبة لانعكاسها فى الغرب انظر: Raoul Glaber, éd. Prou, 3 - 7.

و Adhémar de Chabannes, 149; *(Chronique de Saint Martial),* Bouquet, *Hist. France,* X, 262.

هوامش الفصل الثانى

١ – لقد قام الإسبان بالإغارة على الإسكندرية فى بداية القرن التاسع كما احتلوا جزيرة كريت لمدة قرن، وحسب *Medieval Jewish Chronicles, I, 67* فقد قام القراصنة الإسبان بنهب بحر إيجه والساحل الفلسطينى حتى فى عام ٩٧٢.

٢ – انظر: Goitein *Memorial Levi - Provencal* 1960

٣ – Zothenberg, *cat. Miss syr Bibl nat, 12*

٤ – Claoxde Cahen, *Turcabyzantina*

٥ – انظر مقالاتى فى: *Past and Present*, 1954، و*Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg, 1951* وقد تم نشرها فى مجموعتى: *Turcobyzantina*.

٦ – المرجع نفسه.

٧ – *Monumenta Germ, Hist, Scriptores* VII 497

٨ – يمكن أن نستشهد برحلات الحج التى قام بها روبرت الذى كان كونتًا على الفلاندر، وقد تمت بتاريخ ١٠٨٨، ورحلات كل من جيوم الرابع التولوزى حوالى عام ١٠٩٢ (وقد تم الخلط بينه وبين ريمون الضجلى فى الكتابات اللاحقة، انظر:

(L. Lalanne, Des pélerinages en Terre sainte avant les Croisades dans Bibl. *Ec. Chartres, VII, 1845)*.

والنورماندى سان جليوم فيرمات (*Acta Sanctorum*, 24, avril, p. 366 وتييرى أسقف مدينة فردان (M.G.H.S., X, 495)، وبيبون أسقف مدينة طول مع كونراد الذى كان كونتا على اللوكسمبورغ، وذلك حوالى عام ١٠٨٥ *(VIII, 647)*، والأسقف السويدى روسكيلد عام ١٠٨٦ (M.G.H.S.,

(Riant, *Les Scandinaves en Terre Sainte, 126)*، وجماعة من الإيطاليين من مدينة أريزو (Muratori, *Antiquitates*, V, 219) والناسك يوسف الكانتربورى

(Leib, *Rome, Kiev et Byzance*, 84; Haskins, "A Canterbury monk at Constantinople", *Eng. Hist. Rev.*, 1910)

وربما جودفروا البويونى وبطرس الناسك، ولعل هذا الأخير قام برحلته إلى الحج عبر مدينتى بارى والإسكندرية، وثمة رسالة بعث بها أوربان الثانى إلى جماعة من الإسبان ترفع عنهم نذر الحج نظرًا لاضطرارهم محاربة المرابطين (Riant, *Inventaire*, 68). إن رسالة فكتور الثالث المذكورة فى هذا المرجع والتى نجدها ضمن ("Lettres historiques des Croisades", *Arch. Orient Lat.*,

(1881 هى فى الحقيقة مكتوبة من قبل فكتور الثانى إلى ثيودورا البيزنطية فى أواسط القرن الحادى عشر، ذلك أن ليب يرجع رحلة الحج التى قام بها أسقف مدينة لانجر إلى عام ١٠٧٥ خطأ، حيث أن رواية AASS (١٧ غشت، ٤٤٣) تجعلها معاصرة للحملة الصليبية الثانية.

٩ - راجع مقالاتى المذكورة سابقًا.

هوامش الفصل الثالث

١ – بالنسبة لحملة الإمبراطور يوحنا تزمسكيس حيث يحلو لبعضهم أن يرى فيها ما يشبه استباقًا للحملات الصليبية، فإن أحدث دراسة هي:

P.E. Walker, "The Crusade of John Tzimiscés in the light of new Arabic evidences", *Byzantion,* 1977, P. 301 - 327.

وانظر كذلك أدناه ص ٥٤.

٢ – حول هذه التواريخ، انظر فرانسيس في: *Byzantioslavica, 1968*. لا يظهر أن لهذه المسألة سابقة لا في بيزنطة ولا في الإسلام، ولا أظن أن ثمة مجالا للتفكير في إمكانية الربط بينها وبين الوقائع المماثلة لها في الصين وربما في الهند رغم ما ذهب إليه لوبيز سابقًا، إذ يكفي الاعتماد في التفسير على التماثل بين الحالات.

٣ – في هذه الفترة كانت ما تزال هناك بعض العوالم المسيحية بإفريقيا حيث سنرى لاحقًا رسالة جريجوار السابع في هذا الشأن، وقد كان الأطباء اليهود والمسيحيون بالمغرب وراء إنشاء مدرسة ساليرنو التي يرتبط بها اسم قسطنطين الإفريقي.

٤ – 1954 ,*Past and Present*، وهو مقال أعيد نشره في كتابي: *Turcobyzantina,2B*

٥ – المرجع نفسه.

٦ – C. Courtois, "Grégoire VII et l'Afrique du Nord", *Revue Historique, 195,* 1945; Lopez, "Le facteur économique dans la politique africaine des Papes", *Revue Hisrorique,* 198, 1947.

سيكون هناك قراصنة فرنجة لا في الجيوش البيزنطية فحسب بل حتى في بعض الجيوش الإسلامية، وربما حدث ذلك منذ هذه الفترة، وتوحي إحدى الحوليات العبرية بوجودهم فيما يبدو حتى في صفوف التركمان إتسز المقدسي عند هجومه على مصر عام ١٠٧٥.

٧ – انظر آخر معالجة لهذه المسألة من قبل كلود كاهين في:

Islam and the Medieval West, éd. Kh. Semaan, New York, 1980 (Colloque de 1975);

وانظر كذلك: A. Ashtor, dans *Revue suisse d'Histoire* , 1977

٨ – انظر مسألة «الرهدانيين» أعلاه، ص ١٣، هامش ٤.

٩ – انظر كلود كاهين في: *Archivio Storico Napoletano, 1954* ، وقد أعيد نشر هذا المقال في: *Turcobyzantina, 2A*

١٠ - نعرف من خلال مراسلة الأستاذ جوبر أن الفاطميين كانوا يقومون بقيادة البوارج بأمالفى وذلك قبل غزوهم لمصر، وفى المقابل كان الإمبراطور يوحنا تزمسكيس فى عام ٩٧١ يمنع رعاياه من بيع الخشب والحديد للمسلمين (لا يتعلق الأمر هنا إلا بمسلمى المغرب)، وكان يعد نظرياً سكان أمالفى والبندقية ضمن رعاياه.

١١ - Armando Citarella "Patterns Of Medieval Trade : the commerce of Amalfi before the Crusade", dans Journal of Economic History, 1968, Michel Balard dans Trauaux et Mèemoites VI, 1976, CI. Cahen "Le commerce d' Amalfi avant Pendant et apr`ees la Croisade", Dans *Comptes rendus des s`eances Acad Ins criptions,* 1978 وثمة مراجع حديثة يذكرها جواتين فى مقدمة الطبعة الجديدة لكتاب:

Jacob Mann, *Jews in Fatimid Egypt, 1977*, p. XXIII.

ويذكر ج. سطار فى كتابه *Jews and the Byzantin empire*, p. 182 أمالفيا مسيحيًا بسبب علاقاته مع الشرقيين. وفيما يتصل بالظروف العامة بشأن التواصل فى البحر الأبيض المتوسط يمكن الرجوع إلى المؤتمر الذى أقيم بمدينة سبوليتى عام ١٩٧٦، وقد نشرت أعماله عام ١٩٧٧. وثمة شهادة عن العلاقات التجارية بين إفريقيا الشمالية وإيطاليا الجنوبية يثبتها وجود أسماء لعملات «مانكوس» (أى الدينار المنقوش) و«صورى» فى هذه المنطقة. وفيما يتصل بالتقدم العام الذى حققته التجارة بالبحر المتوسط، يمكن الرجوع إلى ملاحظات س.ف. بكينغام حول الخرائط الواردة بمخطوط ابن حوقل الذى تمت مراجعته وذلك فى: "Iran and Islam", *Memorial Minorsky*. وحسب ابن حوقل فإن الأثواب الإيطالية كانت مشهورة فى الشرق ابتداءًا من عصره.

١٢ - يلمح ناصر خسرو (حوالى ١٠٤٠)، ترجمة شيفر، ص ٦٦ و١٠٧ إلى رحلات الحج التى قام بها مسيحيو ويهود روم وغيرها من المناطق إلى القدس.

١٣ - S.D. Goitein, "Mediterraneen Trade preceding the Crusades", dans *Diogéne, 1957*, et *Mediterraneen Society, I*, 1967.

١٤ - "Risâla d'Abu Salt", thése de Bou Yahya, p. 268; Idris, *Zirides, I*I, 714, note 5 وذلك حسب الفقيه ابن محرز.

١٥ - M. Lombard, "Arsenaux et bois de marine", dans *Le Navire...* Colloque d'histoire maritime, Paris 1958, وقد أعيد نشرها فى Espaces et reseowx 1978 .

١٦ - Cl. Cahen, "L'alun avant Phocée", dans *Revue d'histoire économique,* 1963; Dirk Lange, "L'alun du Kawar, une exportation africaine vers l'Europe", Colloque sur *Le commerce caravanier à travers le Sahara,* Tripoli 1979, à paraitre, Louis A. Christopher, "L'alun d'Egypte", *Bull. de la Soc. de Géographie d'Egypte,* XXXVII, 1964.

١٧ – يشير المنهاج (انظر قائمة المراجع) إلى مدينة ساردِيس، وليس بإمكننا أن نذكر شيئًا آخر بشأن هذه المدينة.

١٨ – انظر ما قيل عن «السيد» ص ٤٣.

١٩ – Julia Gauss, "Toleranz und intoleranz zwischen Christen und Muslimen in der Zeit for der Kreuzzüge", dans *Saeculum, 1*9, 1968, p. 362 - 389.

٢٠ – *A*. Sharf, *Byzantine Jewry,* 1971.

٢١ – مقال :

Levi della Vida, "La corrispondenza di Berta di Toscana col callifo Muktafi", *Rivista Storica italiana,* LZVI, 1954.

(وذلك حسب وثيقة اكتشفها محمد حميد الله).

٢٢ – M. Th. d'Alverny, dans *Settimane di Spolete, 1*964 (publié en 1965*);* Rodinson, article repris dans *La fascination de l;Islam,* 1981; Norman Daniel, "*Islam".*

٢٣ – انظر ص ١٩.

٢٤ – لقد كانت الشاعرة الساكسونية هروتسويتا على علم بشهداء قرطبة: انظر:

E. Cerulli, *Studia Islamica,* XXXII, 1970, p. 69 - 76.

٢٥ – Cl. Cahen, "Frédégaire et les Turcs", dans *Mélanges Perroy, 1*973.

لا يهتم س. رونسيمان بهذه المسألة فى مقاله:

"Europe and the Turcs" dans "The Early Middle Ages", *Asiatic Review, 1*932.

٢٦ – Hildebert de Lavardun = Embrico de Mayence وبالنسبة لهذا الأخير انظر: Cambier, dans *Latomus,* XVI, 1957.

٢٧ – توجد كلمة «إسبانيا» فى رسالة روبرت الفلاندرى وفى *Gesta Francorum* المجهول مؤلفها.

٢٨ – أضف إلى ذلك أن الغربيين فيما يبدو لم تكن لديهم فكرة أوضح عن الكنائس الشرقية وذلك رغم وجود رجال دين أرمن وبيزنطيين بإيطاليا *(*Dédéyan, Colloque de Dijon, *Occident et Orient au X°siécle, 1978)* ورغم رحلات الحج.

٢٩ – إنه لفى هذه الفترة بدأت تنتشر خرافة رحلة شرلمان إلى الأراضى المقدسة.

٣٠ – أضف إلى ذلك أننا لا نعرف كثيراً من التجار أو الرحالة البيزنطيين بأوروبا الغربية باستثناء عدد قليل جداً من السفراء.

٣١ – لقد قام ت. كوالسكي بإثبات نسبة النصوص المقتبسة لهذا الرحالة الذى تم الاستشهاد به تحت أسماء مختلفة:

T. Kowalski, *Relacja Ibrahima b. Ja'kuba z podrózy do krajów slowianskich w prekazie al - Bekriego,* Cracovie, 1946.

٣٢ – B. Lewis, "The muslim discovery of Europe", *B.S.O.A.S., 1957,* CC; Ign. Guidi, "L'Europa occidentale negli Antiqui geografi arabi", *Florilegium M. de Vogué,* 1909, p. 263 - 269.

٣٣ – انظر ضمن قائمة المراجع:

Labande, "Recherches sur les pélerins dans l'Europe des XIe et XIIe siécles", *Cahiers de Civilisation méddiévale, 1958,* 2/ 3; Françoise Micheau, Communication au Congrés *"Occident et Orient au Xe siécle",* Dijon 1978, publ. 1979. G. Constable, "Monachisme et Pélerinage au Moyen Age", dans *Revue Historique,* 523, 1977, p. 328.

٣٤ – M. Canard, "La destruction de l'Eglise de la Résurrection par le Calife Hâkim et l'histoire de la descente du Feu Sacré", *Byzantion,* 35, 1965, p. 16 - 43.

٣٥ – حول رحلات الحج التى قام بها الشرقيون انظر: J.M. Fiey, "Le pélerinage des Nestoriens et Jaco - bites à Jérusalem", *Cahiers de Civilisation médiévale,* XII, 1969, n° 2.

٣٦ – M. Gaudefroy - Demombynes. *Le pélerinage à la Mecque,* 1951.

٣٧ – «سَيِّدنَيا»، انظر أدناه ص ١٦٧، هامش ٢.

٣٨ – Prawer, "Jerusalem in the Christian and Jewish perspectives of the Early Middle Ages", *Settimane...,* Spoléte 1978.

٣٩ – أباديا ؛ وثمة تركيب جيد للمعلومات فى: Prawer, *Histoire,* I, 526 sq

٤٠ – انظر ص ٣٠، هامش ٨.

هوامش الفصل الرابع

١ - Delaruelle, "Essais sur la (انظر المراجع) Carl Erdmann, *"Die Entstehung"* formation de l'idée de Croisade", *Bull. des Littératures Eccl.,* Tou louse, 42 - 45 - 55, 1941 - 1944 - 1953 - 1954.

ثمة مجال لمقارنة الجزاء الإلهي الذي وعد به الصليبيون والشهداء المسلمون في الجهاد. انظر:

Voir Riley - Smith, Crusading as act of love, 1979, E. O Blake, "The formation of the Crusade idea" dans Journal of Ecclesiastical bistory, 21 - 1970, Jean Richard, `ed., L'esprit de La Croisade, Paris 1969, Brundage, *Medieval Studies,*:ثمة نقد قام به أ. نوث مذكور في)"The army of the first Cru - sade" .*(33, 1971*

٢ - Congrés des Sciences historiques, 1955 تقرير ب ليميرل.

٣ - Courtois, "Grégoire VII et l'Afrique du Nord", *Revue Historique, 1*945.

٤ - Lopez, *Rev. Hist., 1*947.

٥ - Défourneaux, *Les Français en Espagne au XI^e et au XII^e siécles, 1*949.

٦ - لقد كتب الشيء الكثير في المدة الأخيرة عن أوربان الثاني، انظر:

R. Somerville, "The councils of Urban II: Claromont", *Annuario de l'Historia Conciliorum,* suppl. I, 1978. H.E.V. Cowdrey, "Pope Yrban II's Preaching", *History,* LV, 1970; "Cluny and the first Crusade", *Revue Bénédictine,* LXXXIII, 1973.

٧ - لقد توسعت في هذه الفرضية في مقالي: *Past and Present,* 1954 الذي أعيد نشره في: *Turcobyzantina,* 1974 .

٨ - إن فترة ولاية البابا أوربان الثاني تتطابق مع فترة من الانفراج في العلاقات بين النورمانديين وبيزنطة بعد وفاة روبرت جيسكار مما أتاح للبابا أن يحافظ على علاقات سليمة مع كليهما في الوقت ذاته. ويجب أن نلاحظ أن قرار شن الحملات الصليبية قد اتخذ في فترة كانت حركة الاسترداد بإسبانيا تراوح في مكانها على إثر توطد المرابطين.

٩ - قارن مع دراستي:

"Traité d'armurerie composé pour Saladin", dans *Bull. Etudes Or.*, Damas, 1949.

١٠ - انظر أدناه فيما يخص منع هذه التجارة.

Zeki Velidi, "Die Schwerter der Araber", dans *Zeitschrift Deutschen Morganl, Ges.*, 1936, bien supérieur à Nazaheri, "Le sabre contre l'épée", dans *Annales E.S.C.*, XIII, 1958.

١١ - انظر أحدث تأليف فى كتاب: Lynn White, *Medieval technology and social change*, Oxford, 1962; trad. franc., *Technique et Société*, 1969.

١٢ - لقد أفضت فى الحديث عن هذه الأفكار فى مؤتمرين أحدهما بمدينة لندن عام ١٩٧٠ والثانى بالمدرسة الفرنسية بروما عام ١٩٧٨؛ وقد نشرت أعمال مؤتمر لندن ١٩٧٥ بعنوان: *War, Technology and society*, éd. Yap et Parrey أما أعمال روما فقد نشرت عام ١٩٨٠ بعنوان: *Structures féodales et féodalisme dans l'Occident méditerranéen (X-XIII° siécles)*.

وانظر أيضاً : W.E. Kaegi, " The contribution of archery to the Turkish conquest of Ana - tolia", Speculum, 39, 1964, PP. 96 - 108, et D. Sinor, "the inner Asian War - riors ", J. of the Amer Orient. Soc., 1981. Lindner, "Nomadism, Horses and Huns", Past and Present, 92, 1981.

ومع ذلك فإن هذا المقال الأخير يوضح بحق أن الغزاة الرحل لا يمكن أن يظلوا كما هم فى المناطق الصالحة لتربية المواشى.

١٣ - ولو أن مجمعًا كنسيًا بالقرن التاسع قد منع القذافة بوصفها سلاحًا فتاكًا.

١٤ - ويسمونهم «أغولانيين».

هوامش الفصل الخامس

١ – إن أحدث عرض فى هذا الصدد قام به ستيفان رونسيمان فى كتابه *The First Crusade,* 1981، وفيه يعود لما تناوله فى العروض السابقة، للتوجه إلى جمهور أوسع. انظر التاريخات العامة المذكورة فى تقديم لائحة المراجع.

٢ – *Past and Present,* 1954. تم نبذ فيليب الأول ملك فرنسا الذى كان ضعيف الا خصية.

٣ – يلاحظ أن دير كلونى الذى ظهرت فيه فكرة الحروب الصليبية على يد غريغوار السابع وأوربان الثانى لم يكن ممثلاً بشكل خاص فيما يبدو أثناء الحملة.

٤ – إذا كان هناك بعض السكندنافيين، فقلما وجد إنجليز وقتذاك، بسبب الخلاف الذى نشب بين أبناء وليام الفاتح.

٥ – ومع ذلك فمن المحتمل أن تكون الرسالة الموجهة من أوربان الثانى إلى أهل مدينة بولونيا ترجع فى الحقيقة إلى إنوسنت الثالث.

٦ – راجع الملحق، الوثيقة الثانية.

٧ – لم يتم التساؤل فيما يبدو عما إذا كانوا متأثرين بمواقفهم الحزبية الغلفية (المناصرة للبابا) أو الجلفية (المناصرة للأباطرة الجرمانيين).

٨ – انظر: *Patrologie grecque,* T. 126

٩ – انظر ما نقوله عن رسالة الكسيس الموجهة لكونت الفلاندر فى الصفحات اللاحقة بالفصل السابع.

١٠ – راجع مقالى فى: *Mélanges Perroy,* 1973، وكذلك Runciman, "Europe and the Turcs in the early Middle Ages", *Asiatic Review,* XXXIX, 1943.

١١ – من المهم أن نشير إلى رواية أحد الشهود الأرمن الذى كان مع ذلك يجهل قضية «الرمح المقدس» التى أثارت مشاعر الفرنجة بشدة. ولاشك أن ثمة تلميح إلى الملكيين واليونان فى «نيكون الجبل الأسود». انظر أدناه، ص ١٧٠، هامش ١٥.

١٢ – لاشك أن عصابات التافور كانت تجند فى صفوف الصعاليك الأرمن الذين حاكوا حولهم خرافة أكلهم سجناء الحرب، وهى خرافة رهيبة ذائعة الصيت، انظر: Guibert, *R.H. Cr. Occ.,* III, index, et *Chanson d'Antiohe,* éd. S. Duparc - Quioc, index.

١٣ – انظر لاحقًا قصة جوفروا الأشى.

١٤ – إن غالبية الفقراء ممن ليس لديهم النية فى البقاء لم يكونوا مجازفين فى شىء بقيامهم بممارسة أعمال

النهب. انظر: W. Porges, "The Clergy, the Poor and the Non - combattants in the *1* st Crusade", *Speculum,* 21, 1946.

١٥ – كان لدى الصليبيين انطباع عن خصوبة البلد.

١٦ – John France, "The crisis of the first Crusade", *Byzantion,* XL, 1971.

١٧ – لقد تم حديثًا تناول كونتيه الرها فى أطروحتين قدمتا بجامعتى السربون وليون. انظر: بشكل مجمل:
*J.*B. Legal, *Edessa, the blesl city,* 1970

١٨ – انظر: Arch. Lewis, "Northern European Sea - Power and the Staits for Gibraltar, 1031 - 1350 A.D.", dans *Order and Innovation in the Middle Ages,* Essays in Honor of Jos. R. Strayer, Princeton, 1976.

١٩ – وحتى الدول الثلاثة الأخرى اتخذت مظهر إمارات عادية ؟

٢٠ – لم يتم التشديد كثيرًا على كون أن الإيطاليين لم يساهموا بتاتًا فى النقل البحرى إبان الحملات الصليبية وذلك خلافًا لما سيكون عليه الأمر لاحقًا، وهو أمر يمكن أن يكون عسيرًا فى الحقيقة نظرًا لأن هذا البحر لم يكن قد استكشف كثيرًا وكذلك لانعدام تجاربهم فى السابق.

٢١ – انظر المدنجر بقائمة المراجع العامة عن علاقات البيازنة بالفاطميين.

٢٢ – يجب فى هذا الصدد دراسة مسلك مختلف الأحزاب بجنوة ذاتها؛ ولاشك أن أكثرها تدخلا كانت توجد فى جانب الأرستقراطية الأشرافية، ومنها عائلة أمبرياشى التى حصلت مع منطقة نفوذ جبايل على نوع من المراقبة على المصالح الجنوبية بالشرق. انظر أ. باش الذى ورد ذكره بالفصل الثامن، هامش ١٦.

٢٣ – وبالعكس، إنه لفى هذه الفترة (٥٠٥ / ١١١١) يشير المقريزى فى كتابه الاتعاظ إلى قيام السفن الإيطالية باحتجاز أسطول بحرى صغير كان به تجار ورحالة دمشقيون فيما يبدو وكانوا راجعين من تينيس، وقد افتدوا أنفسهم مقابل فدية باهظة.

٢٤ – Goitein, *Mediterranean Society,* 98.

٢٥ – انظر الامتيازات التى منحت لبودوان الأول عام ١١١٣: Röhricht, *Regesta*. وقد خلفت حملة بودوان الأول على مصر أثراً فى الأدب العربى الشعبى:

Clédat, dans Bull. Inst. Fr. Arch. Or., Le Caire, 26, 1926, p. 71 - 79.

٢٦ – Mayer, l'inscription du Saint - Sépulcre انظر أدناه.

هوامش الفصل السادس

١ — الشاعر السعدى بالقرن الثالث عشر، ربما حسب ما يذكره بنفسه ؟

٢ — والد ابن رشد؛ وقد أبلغ هذه المعلومة م. برونشفيك.

٣ — Cl. Cahen, *Syrie*, p. 41.

٤ — Cl. Cahen, *Syrie*, p. 41 حسب ما يذكره كمال الدين.

٥ — Ed. Amedroz, 1912; trad. angl., H.A.R. Gibb, *The Damascus Chronicle of the Crusades*, 1932; trad. franc, R. Le Tourneau, Damas de 1075 à 1155, 1952.

٦ — Ed. Sami Dahan, 3 vols, Damas, 1951 - 1954 - 1968; trad. franç. dans *R.H. Cr. Or., III*، حتى سنة ١١٣٥.

٧ — هذا الجزء من آثار ابن القترات لم ينشر بعد. انظر: Cl. Cahen, *Syrie*, p. 85

٨ — قام بالطبعة والترجمة الفرنسيتين م. دارنبورغ؛ وثمة عدة ترجمات بلغات أخرى، وأحدث ترجمة فرنسية قام بها أندريه ميكيل عام ١٩٨١.

٩ — انظر الملحق.

١٠ — كان المهاجرون حضريين على الخصوص، ولعل الهجرة القروية المكثفة قد تسببت فى إحداث مجاعة لا نجد أثرًا لها فى النصوص. انظر أدناه، ص ٨٦ وانظر: E. Sivan, "Réfugiés palestiniens au temps des Croisades", *Rev. des Et. Isl., 1967.*

١١ — Ed. et trad. par Emmanuel Sivan, dans *J.A.*, 1966.

١٢ — لم يذكر اسمه فى «التاريخ الكبير لدمشق» لابن عساكر.

١٣ — من نوع ما نجده بعد قرن فى كتاب «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير.

١٤ — انظر: موسوعة الإسلام (٢)، مادة الحريرى.

١٥ — أسامة. انظر قائمة المراجع.

١٦ — Cl. Cahen, *Syrie, p.* 293 *sq.*

١٧ — قارن بالصفحات الأولى من كتاب «تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، تحقيق صليبى حور وطيبى، بيروت، ١٩٦٩. ربما يمكن تحقيق بعض التقدم من خلال دراسة الأماكن المذكورة بالنسبة لهذه المنطقة فى وثائق الحملات الصليبية.

١٨ – Abbé Martin, dans *J.A.*, 1889 et art. de Nau, dans *J.A.*, 1899; قارن بالقلقونة السريانية بالملحق (الوثيقة ١٠).

١٩ – انظر أدناه.

٢٠ – غوايتن، انظر الملحق.

٢١ – التى تتكلم عنه الكتابات القيامية لليهود فى هذا العصر؛ انظر أدناه.

٢٢ – ابن القلانسى. انظر قائمة المراجع.

٢٣ – انظر البحث الذى تقدم به هـ. أ. ماير بأكاديمية التدوين، ديسمبر ١٩٨٠.

٢٤ – قارن بموسوعة الإسلام (٢)، مادة الفاطميين (كنار)

٢٥ – انظر الامتيازات التى حصل عليها الجنوية، وانظر أدناه، ص ١١٠؛ حسب ما يذكره المقريزى فى «الاتعاظ»، طبعة أ. حلمى، ج. ٣ ص ٤٦ فإن التجار والرحالة الدمشقيين العائدين إلى أحد الموانىء السورية انطلاقًا من تينيس بمصر تم أسرهم عام ٥٠٤/١١١٠ من قبل أسطول فرنجى وألزموا بأداء مبالغ مالية طائلة.

٢٦ – لقد ظلت العلاقات مع الزيريين الذين أصابهم الخراب فضلا من ذلك، علاقات فاترة فى الظاهر، وإننا نجهل ما إذا كان ثمة علاقات بين الفاطميين والمرابطين.

٢٧ – لاشك أن الاستيلاء على صور كان أمراً ضرورياً، وبالخصوص للرد على الهزائم (وقوع بودوان الثانى فى الأسر) التى منيت بها السياسة بالشمال التى كانت أشد خطراً، وقد تم ذلك فى سياق سياسى داخلى.

٢٨ – Cl, Cahen, *Pre - ottoman Turkey,* 1968

من الممكن أن يكون السلطان محمد قد سعى لأن يتم الكفاح بآسيا الصغرى وسوريا تحت رعايته فى الفترة الزمنية نفسها، لكنه لم يفلح فى مسعاه، وعلى أية حال فقد كانت تلك آخر محاولة فى هذا الشأن.

٢٩ – صحيح أن الفرنجة تعرضوا لعدة حوادث مزعجة على الحدود الشمالية بسبب التركمان، لكن قلما يمكن الكلام عن سياسة متعلقة بالقادة.

٣٠ – انظر الملحق. أحدثت هذه السياسة صدمة كبيرة فى الرأى العام إلى درجة أن تتش شَعَر بالحاجة إلى السعى لإقامة السلام مع الخليفة.

٣١ – لقد اقترب تتش الدمشقى من مصر فى بعض الفترات سعياً لإنقاذ آخر الموانئ الساحلية وطرابلس. لقد لوحظت الجهود التى قامت بها الحكومة الفاطمية لتكوين حلفاء لها بسوريا. ففى بداية القرن، كان خلف بن ملهب الذى ساد على مدينة أفامية بشمال سوريا إسماعيلياً مواليا للفاطميين، لكن يبدو أنه تم احتواء الإسماعيليين بسوريا من قبل «الحشاشين» فيما بعد. وقد تردد الشيعة الإثنى عشرية مثل أسامة بن منقذ بين خدمة الأتراك المجاورين لهم وبين خدمة المصريين، غير أن أسامة قضى بقية حياته المديدة بمصر في خدمة صلاح الدين الذي كان سنيا.

٣٢ – قارن بالموسوعة الإسلامية (٢) مادة «دياربكر» قام الغازى من جهة أخرى بمقاتلة الجورجيين فى آخر حياته.

٣٣ – كان جزء من الوحدات العسكرية المؤلفة من التركمان هى أيضاً ضمن الوسائل المستخدمة فى سياسة زنجى هاته بسوريا. انظر: Cl. Cahen, *Syrie du Nord.* p.347 sq.

لاحظوا أن المصائب التى أصابت بوهيموند وبودوان الثانى وجوسلين الأول وجوسلين الثانى بل حتى روجر الأنطاكى كانت تُعزى التركمان بالشمال.

هوامش الفصل السابع

١ - تم إثبات ذلك على الوجه الأكمل فى مقالة تحت الطبع كتبها *H.E. Mayer* لمجلة *Memoires de l'academie des Inscriptions* حيث يؤكد بشكل خاص أن جودفروا لم يقرر مطلقًا أن يمكث فى الشرق ولم يصرف ثرواته فى أوروبا وإنما رهنها، وذلك خلافًا للرواية الشائعة.

٢ - استدعى ريمون وفقاً لنصيحة فولك الذى كان جارًا له فى أوروبا، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد تم لموازنة إحدى الأحزاب النورماندية وكان ريمون عم (أو خال) اليانور زوجة لويس السابع.

٣ - C. Cahen, *Syrie* page 357.

٤ - ظهر هذا من فحص سجلات كنائسهم

Riley -Smith, The Knights of St John in Jersalen and cyprus 1050 - 1310 (1967).

٥ - انظر : «عقد عربى» فى Claude Cahen, *Revue d'etudes byzantines 1970* و Richard dans les *Melanges Dauvillier* عن الكنائس اللاتينية والكنائس الشرقية فى الدول الصليبية، ١٩٧٩.

٦- *Byzantinische Zeitschrift* 2 - 355 - 1957.

٧ - حافظت مدينة أمالفى على ما كان لها فى أنطاكية والقدس قبل الحروب الصليبية.

٨ - Prawer, I. p. 367 - 368.

٩ - لا نعرف فى أى أوضاع جاء قائد الأسطول الصقلى المعروف باسم اميرال أنطاكية إلى هذه المدينة.

١٠ - Guillaume de Tyr, XIII - 21.

١١ - انظر Cahen, *Syrie* p. 357، وربما تحدد اختيار فولك الأنجى من خلال التقاليد القديمة التى رسختها رحلات الحج التى قام بها الكونتات الأنجيين فى الشرق. وحج فولك ذاته عام ١١٢٠ مع أنه لم يشارك فى الحملة الصليبية الأولى.

١٢ - ابن ميسر عام ٥١٦.

١٣ - القلقشندى، صبح الأعشى، الجزء السادس، كانت أسرتا روبير وبوهيموند متحالفتين، انظر كذلك فى موضوع الوزير بهرام حوليات المعهد الشرقى بالجزائر ١٩٥٦، وخطاب الخليفة الحافظ (٥٢٤ / ٥٤٤ - ١١٣٠/ ١١٤٩) إلى روجيه الثانى فى:

Canard, *Atti del Convegno internazionale di studi Ruggeriani,* avril 1954 Palerme.

١٤ – لابد أن نتذكر بأن فترة ولاية أوربان الثانى وبداية القرن الثانى عشر قد شهدت انفراجًا بين النورمانديين والبيزنطيين سمح للبابوية أن تكون على علاقة سليمة مع كليهما. وليس من قبيل المصادفة أن يضطر بوهيموند أثناء رحلته المعادية لبيزنطة للذهاب إلى فرنسا لتجنيد جيشه عوض الذهاب إلى منطقته الأصلية بويا.

١٥ – مقالتى فى *Mélanges Abel*. أعلمنى الأب نيقولا هوبج بيرت (مدينتى بروج ولوفان) أنه لا توجد أية مخطوطة لهذا الخطاب فى إيطاليا.

١٦ – المرجع نفسه. نحن نجهل رأى الفلامانديين فى غياب كونتاتهم.

١٧ – انظر: John La Monte, "John d'Ibelin, the Old Lord of Beirut 1177 - 1236" *Byzantion 12, 1937.*

١٨ – هذه الأسرة ممثلة فى القدس (بواسطة يوحنا) وفى الإمبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية بواسطة جويتيه وكان هذا الأخير وريثًا لتانكريد الذى هو آخر الأمراء النورمانديين بصقلية.

١٩ – حول هذه الأسرة بشكل عام انظر: L. Usseglio, *I Marchies di Monferrato, 2* vols, 1926

ومقالتى عن «التجارة الاناضولية» فى: *Mélanges Perray (Turcobyzantina)*

٢٠ – ما دام بوسعنا أن نملك الانطباع عنها نظرًا لكوننا لا نملك المراسلات البابوية بالقرن الثانى عشر.

٢١ – انظر أعلاه.

٢٢ – فى تراث البطرياركية البيزنطية بالقدس.

٢٣ – ومع ذلك سيلتمس أرنولف بطريارك القدس تحكيمه حوالى عام ١١٤٠.

٢٤ – Alphandery et Dupront, *la chretienté et l'idee de croisade* 2 vols 1954, 1959.

S. Mahl "Jerusalem in M.A. Sicht" *Die Welt als Geschichte* 22, 1962.

٢٥ – هى رفات قديسين يشكك جيبر النوجنتى فى صحتها *De pignoribus Sanctorun*

٢٦ – وفى المقابل حدث أن شبابًا لاتين من الشرق ذهبوا للدراسة فى الغرب مثل وليام الصورى وعادوا بعد ذلك إلى بلادهم.

٢٧ – أشهر دليل للحجاج هو دليل روجو فريتلوس ويمكن الرجوع إليه فى الطبعة الحديثة التى نشرت بتحقيق ب.س. بويرن إمتردام ١٩٨٠.

٢٨ – انظر كتابى *Syrie* ص ١٢ وحاليًا مقدمة سوزان دوبارل لطبعتها عن أنشودة أنطاكية.

٢٩ – من هنا أنشودة «الأسرى» وقارن مع كتابى *Syrie du nord* p. 569 والطبعة الجديدة التى سيصدرها ميرس.

٣٠ – وأحيانًا بلهجة متبجحة كانت مثار إزعاج للألمان انظر: *Guibert, R.H. Cr. Occ, III*

٣١ – وذلك بالنظر إلى عدد المخطوطات.

٣٢ – كان وليام الصورى مع سعة إطلاعه يجهل كتب ألبرت الاكسى التى ألفت بعد الحملة الصليبية. انظر فيما يتعلق بالحملة الصليبية الثانية: G. Constable "Second crusade as seen by contemporaims" *Tradition IX, 1953.*

٣٣ – لم يلعب أى مندوب رسولى دورًا حقيقيًا.

٣٤ – كان أهل بافير فى مؤخرة الحملة الصليبية لعام ١١٠١.

٣٥ – لنضف أن الحملة لم يكن لها إلا راوٍ واحد هو أود دى دوى علاوة على أنه لم يكمل كتابة آثاره.

٣٦ – نجد عرضًا جيدًا لهذه المسائل فى كتاب براوير الجزء الأول، الفصل الخامس.

هوامش الفصل الثامن

١ – كانت فوضى وجشع صغار الأمراء المكدبين تضر بما يمكن أن يبقى من التجارة السورية البرية، وهو ما كشفت عنه حادثة مصادرة ممتلكات التاجر الإيراني من قبل رضوان فى حلب (ابن الفرات مخطوط فينا الجزء الأول صـ ٥٧ و *Sauvaget, Alep,* Paris, 1947 p. 97 الذى يستشهد بكمال الدين).

بالنسبة لحادثة عام ٥٠٤، الاتماظ، انظر أعلاه، وحتى عام ١١٤٢ كان هناك حديث عن أسر المسلمين لتاجر بندقى (*Morozzo I*) وكان مجلس الشيوخ بمدينة البندقية يمنع رعايا المدينة من الذهاب إلى الشرق فى لحظات الخطر. كما حدث على سبيل المثال أثناء أسر بودوان الثانى ملك القدس. وقد ذكر عام ١١٣٢ كعام لم يأت إلى مصر إلا قليل من التجار الروم، قارن: الجنيزة ؟ وأنا مضطر للاعتراف بعدم قدرتى على العثور على مرجع هذا الحادث الذى سجلته منذ سنوات عديدة.

٢ – ابن ميسر ص ٦٢، يظهر فى كل الأحوال أنه كان لديهم بأواسط القرن تنظيم جماعى لنقل الأموال من مصر لسوريا والعكس (ديوان أسامة بن منقد صـ ١٤٠، وابن رزيق صـ ٨٧).

٣ – ويبدو أن الجانبية التى كانت تمارسها مصر إزاء التجار السوريين والعراقيين قد استمرت برغم الحروب الصليبية. وسيصل إليها فى بداية القرن الثانى عشر تقريباً جد المؤرخ المسيحى المكين بن العميد الذى عاش فى القرن الثالث عشر.

٤ – انظر أدناه، الأحداث التى وقعت فى أواسط القرن.

٥ – انظر أعلاه الخطاب الموجه إلى روجيه الثانى.

٦ – المخزومى «المنهاج» مع تحليل وتعليق لى فى: *JESHO*, 1965

٧ – وهى القراءة الوحيدة الممكنة لكلمة سارتانيا ولا نعرف عنها إشارة أخرى.

٨ – الجنيزة انظر الملحق.

٩ – انظر أعلاه.

١٠ – *Famighlia Zusto*, ed. Morozzo, doc. 16 an 1144, no 38

١١ –كتاب، «خطاب للخليفة الحافظ» المقال المذكور أعلاه.

١٢ – انظر أعلاه.

١٣ – انظر أعلاه.

١٤ – «المنهاج» فى دراساتى: *Douanes et commerce*، وأعيد نشرها فى المخزوميات ص ٥٠ و H. E. Mayer et Marie Luise Favreau, Das Diplom Balduinis I Fur Genua und

Genuas Goldene Inschrift in der Grabesrkische, *Quellen und Farschungen aus italienischen Archiv* 55/56, 1976, p. 22. 95. Cahen, *Syrie*, p. 492.

١٥ – R.Röhricht, *Regesta*, Cahen, *Syrie*, p. 487 sq.

١٦ – Heyd, I, 130 *sq* . E. Bach "la cité de Gênes au XII siécle" dans *Classica et medievalia*, dissertation 5, 1955.

١٧ – أعلاه ص ١٢٤.

١٨ – فى عام ١١٣١ غرقت سفينة جنوية وهى عائدة من الإسكندرية، وكان اسقف جنوة يحصل على العشور من السفن العائدة من الإسكندرية *(Atti della societa ligure*, II 2. p. 9, 365 Heyd 391 n.I وبالنسبة لأحداث عام ١١٠٢ (انظر أعلاه) وتشير وثيقة من وثائق الجنيزة إلى أن عام ١١٣٢ كان عاماً استثنائيًا حيث وصل القليل من الروم إلى الاسكندرية. انظر الملحق وأيضًا التعريفة الجمركية لجنوة عام ١١٤: John Day, *Les Douanes de Gênes*, E.P.H.E 1963.

١٩ – ولعل هذه الحملة قد قلصت من اهتمامهم بالشرق بصورة مؤقتة.

٢٠ – – Benevenuto, *Storia della repubica di Pisa*, 1968. Herlihy, Rossi Sobatini انظر المراجع.

٢١ – Silvano Borsari "Il commercio veneziano nell' inpero byzantina nel XII secolo" *dans Rivista Stor, ital.* LXXVI, 1964.

٢٢ – Goitein *"Islamic culure* vol 37, 1963 p. 188 - 205: *letters and* documents *on the India in Medieval times", Letters of medieval Jewish Traders*, Princeton, 1973 .Yagima (Hikoichi) "the Sirafi Migration in South arabia" dans *Journal of Asia and African studies, v* 1972. p. 119 - 114 en Jopnais résumé en anglais.

٢٣ – Goitein "two eyewitness reports on an expedition of the king of kish (Qais) against Aden" *Bul. SOAS XVI /2 1954. Stern "Ramisht of Siraf" Jaurnal of royal As. soc*, 1967 p.p. 10 - 14. Aubin :le ruine de Siraf et les routes du golfe persique aux XI et XII Stécles" *Cahiers de civilisation medievale*, Juillet - septembre 1959.

انظر أيضاً: *Rèpertoire chronologique d'inscription arabes n°3099*

٢٤ – *Goitein, Journal, Ec, soc. Hist. orient* vol I, 1958 pp. 715 - 184: "New light an the beginning of the karim merchants"

٢٥ – ابن حوقل. طبعة كرامر، وابن مجاور طبعة لوفجرين.

٢٦ – ترجمة إنجليزية Hirlh et Rakhell فى Chah - Kua. ابن الجوزى سنة ٥٧٠ و J. P. Lo.*dans IESHO, 1969.*

٢٧ – نصوص مدسوسة لابن حوقل مادة هُرمز ص ٤٣٤. لابد أن المرسلين إليهم كانوا إيرانيين وليسوا من البحر الأبيض المتوسط.

٢٨ – نكاد لا نعرف شيئًا عن قوافل بلاد ما بين النهرين فى القرن الثانى عشر.

٢٩ – حول وليام الصورى، وبانتظار الطبعة الكاملة لهوجنيس انظر فى المقام الأخير *R.H.C* Davis فى:

Relations between East and West in the Middle ages ed. Derek Baker, 1973.

٣٠ – Haskins, *studies in the history of medieval science* 1927 (الذى يشير أيضاً إلى أن أديلار الباثى قد زار سوريا أيضًا).

R.W. Hunt, "Stephen of Antioch" *Medieval and Renaissance studies 1*950.

٣١ – تُعَدُّ حاليًا طبعة ميرس. إن روايات الحملة الصليبية الأولى قد داخلتها بالطبع الخرافات الموروثة.

٣٢ – كما إننا لا نتبين دائمًا إذا كان الفرنجة المعنيين هم فرنجة الحروب الصليبية بالفعل وليس المرتزقة الذين جندتهم بيزنطة فى القرون السابقة. بالنسبة للمراجع انظر أعلاه الفصل الأول، الهامش رقم ١٠، وعلى نحو خاص مواد عنتر وبطّال وذات الهمة فى موسوعة الإسلام «الطبعة الثانية».

٣٣ – مع أنه لم نعرف عنها إلا عن طريق رواية شفوية أحدث. طبعة وترجمة *Frederic Feydit*

٣٤ – انظر مادة ألف ليلة وليلة فى موسوعة الإسلام (ط. ٢).

٣٥ – انظر مقالتى لـ *Memorial Berberian* (تحت الطبع)

٣٦ – اليونى: قارن بصفة خاصة روايات الحملة الصليبية الخامسة.

٣٧ – انظر بصدد الحركات المشابهة فى الوسط اليهودى بالشرق كما بالغرب: Prawer, I, 520, *sq*

٣٨ – V. Slessarev, *Prestor John*, Univ. of Minnesota Press 1959.

هوامش الفصل التاسع

١ – انظر بشأن أغلب جوانب حكم هذا الأمير N. Elisseeff, *Nural - din*

٢ – مع أنه كان هناك سعي لجعل مودود الأول سابقاً على صلاح الدين، قارن مع: H.S. Fink "Mawdud 1er of Mossul, Precursor of Saladin" *Muslim world* 1953.

٣ – لقد اتفق أن الصحوة الاقليمية لمفهوم الجهاد تزامنت مع فتور فكرة الحروب الصليبية في الغرب بدون أن يكون بين الواقعتين أي علاقة.

٤ – كان يجب أن تدار الحرب وفقاً لقواعد الجهاد، وظهر هذا الإنشغال أثناء استعادة معرة النعمان. إذ أن الشريعة تنص مبدئياً على أن توضع الأراضي التي تم غزوها تحت تصرف الدولة. غير أنه في هذه الحالة فإن فقد المدينة كان قريباً بما فيه الكفاية بحيث أن أعضاء في الأسر المسلوبة كانوا لايزالون على قيد الحياة. وبالرغم من انتهاء مدة التقادم فيما يتعلق بالملكية فقد أعاد نور الدين لهم ممتلكاتهم القديمة الأمر الذي ضاعف من شهرته.

٥ – ظهرت أول مدرسة في زمن تمرتاش بن إيلغازي. وبالنسبة لاستدعاء المهاجرين الإيرانيين انظر مداخلتي في: Congrès des Lincei, *la Persia nell' medio Evo* Rome 1971.

٦ – *Preottoman Turkey* عامل الأتراك منذ تلك الفترة المسيحيين بصورة سليمة ولاسيما الأرمن الذين يعيشون تحت سيطرتهم. Bornazyan أرمينيا والسلاجقة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. ١٩٨٠ (باللغة الروسية).

٧ – نلاحظ أن ملك القدس كان قليل الاهتمام بأنطاكية. وكان البابا يهدد بسحب الفرنجة الذين يعملون في خدمة جان كومنيين إذا قام هذا الأخير بالهجوم على أنطاكيه.

٨ – كان للفرنجة شعور بأن اليونانيين يناصبونهم العداء.

٩ – كان الأرميني توروس والأمير الأنطاكي الجديد رينو الشاتيوني قد قاما بهجوم على قبرص البيزنطية. ولايبدو أن هناك ما يبرر هذا الهجوم.

١٠ – انظر كلود كاهن في *Byzantion* واعيد نشره في: *Turcobyzantina*

١١ – كلود كاهن: *Syrie*, p, 206

١٢ – انظر خطاب سنة ١١٣٥ في الملحق. ونحن نجهل إذا كانت لبيزنطة علاقات مع المرابطين والموحدين.

١٣ – لم يعد الفاطميون في هذه الفترة يجندون الأتراك في جيشهم إذ كانوا يشتبهون في علاقاتهم مع أبناء جلدتهم بسوريا.

١٤ – البواعث التي أدت إلى الإستيلاء على طرابلس ليست واضحة بما فيه الكفاية. فهل كانت تتمثل في

التحكم فى منافذ القوافل الصحراوية؟ أم فى تامين طرق البحر إزاء القراصنة؟ أم كانت استجابة لنداء حزب محلى؟ انظر إدريسي، الزيريون، الجزء الثانى.

١٥ – ويبدو أن «التاريخ» كتب «بناء على طلب موجه إلى الشاعر ابن قلاقس» (حول هذا الشاعر: انظر أدناه).

١٦ – Rizzitano "Nuove fonti arabi per la storia dei Musilmani di Sicilia" *Riv. stu. or., 32 1957.*

ومن جهة أخرى فوّ إيتان مستشار مملكة صقلية نفسه حوالى عام ١١٦٨. قارن F. Chalandon, *Normands de sicile* ووفقًا لياقوت، إرشاد، الجزء الخامس، فإن على ابن جعفر الصقلى، المسمى ابن القطا، كان مربيًا لابن الوزير المصرى الفاضل. ولا نعرف شيئاً عن السنوات الأخيرة من حياة الإدريسي التى ربما قضاها فى الشرق.

١٧ – Byrne, "Easterners in Genoa" *Journal Am. Or. Soc., 3*8, 1918.

١٨ – كان هناك سوابق لذلك منذ القرن الحادى عشر قارن بما ورد أعلاه.

١٩ – *Atti della Soc. ligura* V, 633. Abulafia, *Two Italies.*

٢٠ – Udhri, ed . Hadj Sadok, dans *Bull d'etudes orientales,* 21, 1968, p. 72
Benjamin de Tudéle ed. Adler 1907.

٢١ – Amari, *Diplomi,* III, 4.

٢٢ – Schaube . وقد تم التحقق من اعتداءات أخرى على بحيرة تنيس الأعوام ١١٥١ و ١١٥٥ و١١٧٥ و١١٧٧ ودمياط عام ١١٥٥. ورشيد عام ١١٥٥، والأسكندرية عامى ١١٥٥ و١١٧٤ انظر:

Amari III, 507, Manfroni, *Rev. or. lat.,* VIII, 513. H.E. Mayer "Ein Deperditum Kanig Balduin III als Zeugnis..." dans *Deutsche Archiv, 1*980 p. 549 - 66.

٢٣ – سافر ابن قلاقس مع سفير نورماندى فى عام ١١٦٣. ونحن نجهل العلاقة التى يمكن أن توجد بين هذه الوقائع وإرسال أحد السوريين ممن عاشوا فى اليمن كسفير فاطمى بالأندلس، وهو عماد الدين الخريدا، *Section Syrie, F. 332*

٢٤ – Röhricht, Heyd, Mayer et Favreau انظر أعلاه.

٢٥ – Grandclaude, Zeller انظر أعلاه.

٢٦ – Heyd, Schaube.

٢٧ – كما صحب البيازنة عمورى فى حملاته اللاحقة. Annales Pisani, *M.G.S.S XIX, 25*

٢٨ – انظر بشكل عام *Allmendinger, Die Beziehungen* (انظر قائمة المراجع).

٢٩ – J. Danstrup, "Manuel's I coup against Genoa and Venice in the light of Byzantine Commercial Policy" dans *Classica et Medievalia X*, 1948.

هوامش الفصل العاشر

١ – Morozzo della Rocca et Lombardo, *Documenti del commercio veneziano nei secoli XI - XIII*, 1940.

٢ – Ed. M. Chiaudano et M. Moresco, *Il cartolare di Giovanni Scriba*, 1920 - 1935.

٣ – بمناسبة احتلال مصر من قبل شيركوه وصلاح الدين، قام وليام الصورى بامتداح التجارة بمصر. (قارن مع: La Monte dans *Byzantion*, XV, p. 200sq).

٤ – بالخصوص «المنهاج» لصاحبه المخزومى، راجع قائمة المراجع.

٥ – وهى مدروسة بشكل تركيبى فى: Goitein, *Med. Soc. 1*.

٦ – المجمع الدينى لعام ١١٧٩.

٧ – لا يمكننا مقارنة مميزات الأثواب الشرقية والغربية فى هذا التاريخ، غير أنه بالنسبة للأثواب الصوفية لابد أن الغرب كان يمتلك منها كميات كبيرة. وحتى فى بداية القرن الرابع عشر يوضح بيجولوتى أنه فى مدينة أنطاليا بآسيا الصغرى كان يتوجب بيع الأقمشة الصوفية الجاهزة لانعدام الأشخاص المكلفين بعمليات الاتمام فى عين المكان.

٨ – محاكم بورجوا، انظر أدناه.

٩ – ابن طوير، فى : المقريزى، الخطط ج١، ص ٤٤٤، ط. بولاق.

١٠ – ص ٦٢.

١١ – انظر مقالى: "Traité d'armurerie", *B.E.O.*, 1950.

ويعتقد صاحب لسان العرب (بداية القرن ١٤)، م. ١٠، ص. ٢٢، أن الكلمة بهذا المعنى كانت موجودة فى بداية الإسلام، لكنه لا يعطى المراجع (انظر مقالة باشير عن الجيش الفاطمى فى مجلة : *Der Islam*, 1978). وفى المقابل يمكن أن نعتقد أن كلمة «الجزُران» وتعنى شبكة من الحلقات المعدنية المحشوة التى تتحدث عنها أناشيد البطولة الغربية مشتقة من الكلمة الإيرانية التركية «الخوجاغند» (مقالة أ.س. مليكان، وهى تحت الطبع).

١٢ – انظر أدناه ص ١٧٤.

١٣ – Jean Richard, "An accout of the battle of Hattin", dans *Spculum*, avril 1952.

١٤ - Misbach, "Genoese Commerce and the alleged flow of gold to the East, 1154 - 1253" *Revue Internationle de la Banque, 31*, 1970, p. 61 - 87.

١٥ - انظر : ما كتبته في: *Douanes et commerce* ومن بين الضرائب المصرية، القوف والعرسة اللذان نجد أسماءهما المليتنة في وثائق البندقية.

١٥ مكرر - يظهر أنه كان بجانب كل مالك لاتيني لسفينة شريك مسلم، وذلك ربما لتفادى المشاكل الجمركية (المنهاج).

١٦ - Zeller, *Das Seerecht in den Assisen from Jerusalem*, Heidelberg, 1916.
H. Mitteis, "Schuld - und Handelschreft der Kreuzfahrerstaaten Festschrift Heymann, 1931.

مع مراجعة قام بها لاط في: *Rivista di Storia del Dirito italiano*, 1933

١٧ - ريلى سميث. انظر أدناه.

B. Patterson, dans *Speculum 1*964, 3, "The Early existence of Funda and Catena in the XIIe century Latin Kingdom".

هذا الكاتب يميل إلى الخلط بين الأدوات المادية والمنظمات المؤسساتية.

١٨ - انظر أعلاه الفصل ٨.

١٩ - Heyd, 51; Schaube, 149.

٢٠ - ابن جبير، ترجمة جودفروا ديمومبينز.

٢١ - انظر مقالى في: *Mémorial le Tourneau* كما نعرف كذلك حالة قاطن بجزيرة مايوركا توفى بدمشق في نهاية القرن الثاني عشر. وفي بداية القرن الثالث عشر عين الخليفة تاجراً مغربياً في منصب قاض مالكى (وهو مذهب له نسبة تمثيلية قليلة ضمن سكان هذه المدينة) (أبو شامة، الذيل، ص ٦٩، سنة ٦٠٧).

٢٢ - بشأن تاجر مغربى من اليمن وموجود بالمحيط الهندى راجع استيرن في: *Oriens IV*, 1951, 2, p. 201.

٢٢ مكرر - Sourdel, dans *Revue des Etudes Islamiques, 1970*

٢٣ - انظر أعلاه، ص ١١٢.

٢٤ - بالنسبة للمغاربة بآسيا الصغرى، انظر: *Pre -ottoman Turkey*

٢٥ - Ernoul, éd. Mass - Latrie, p. 236

٢٦ - *Ehrenkreutz,* انظر الفصل الحادى عشر الهامش ١٣.

٢٧ - تشير العقود المكتوبة في عام ١٢٢٨ بمدينة مارسيليا إلى النصارى (مفردها نصرانى) وهى الكلمة

المستخدمة التى تعنى المسيحيين المحليين الذين كانوا ضمن الركاب. وحوالى عام ١٢٦٠ هناك سفينة إيطالية مليئة بالمسافرين الشرقيين. Röhricht, *Regesta*

٢٨ – Maurice Lombard, *Arsenaux et bois de marine*.

٢٩ – Vismara, *Impium foedus*, Milan, 1950.

٣٠ – انظر أعلاه ابن جبير.

٣١ – انظر فهرست المراجع.

٣٢ – آخر دراسة تركيبية قام بها أندرو واطسون ولو أنها مثار جدل بعض الشيء : - "Back to gold and silver", *European Journal of Economic History*, 1967;

وانظر C.C. Patterson, "Silver Stocks and Lesses in ancient and medieval Times", *Ec. Hist. Rev.*, *II*, 25, 1972;. وانظر مقالتى فى : Annales isl., 1978.

٢٣ – M.F. Hendy, *Coinage and money in the Byzantine Empire, 1081- 1261*, 1969.

٣٤ – النويرى وهو مذكور من قبَل سوفير. لا يظهر أن موارد الشرق من الذهب قد تنوعت بشكل ملموس ويجب البحث عن أسباب هذا التطور فى الظروف التى كانت عليها التجارة. ولاشك أن سك وبيع الدينار (أو الصورى) يرجع إلى قلة الفضة بإفريقية (تونس والجزائر الشرقية) وبصقلية ابتداءً من نهاية القرن العاشر.

٣٥ – انظر مقالاتى فى: *Annales* du Caire et *Studies*, éd. Udovitch, 1981 (Colloque 1979). إن العملات الفضية الممزوجة كانت مستخدمة كثيرًا ومن ثم كثر استهلاكها وغالبًا ما كانت تعاد سباكتها لذا لا توجد ضمن مجموعتنا النقدية المنتخبة.

٣٦ – فى بعض الأحيان النمو السكانى.

٣٧ – كانت كلمة ورقة تعنى فى السابق العملة الفضية السائلة مثلما تعنى كلمة العين العملة الذهبية السائلة خلافاً للقيم الحسابية. وإن المنفعة من تنويع كسور النقود وتكثيرها قد تؤدى إلى تفضيل القطع النقدية الممزوجة ذات الأحكام اللائقة على القطع الصغيرة جداً المصنوعة عن المعدن الخالص.

٣٨ – هذا هو الرأى المعبر عنه فى مقالاتى فى *Annales*، لكن ليس هو رأى باتس الذى يشق عليه الاعتقاد بانعدام وجود أى أثر فى المجموعات النقدية المنتخبة. وتسمى النصوص هذه العملة بالقرطاس جمع قراطيس، وتعنى حرفيًا الورق (أو الرق البردى) وربما كانت لاتزال لها هذه الدلالة بمصر. لكن من المؤكد (انظر مقالى ومقال باتس) أن الأمر بسوريا كان يتعلق بتسمية شعبية قدحية للدلالة على العملة المعدنية.

٣٩ – غداة موت نور الدين قام خلفاؤه بسك العملة الذهبية مما يدل على توافرهم عليه، ولاشك أنهم بذلك كانوا يحرصون على إثبات السيادة التى كانوا يُنازعَون عليها. ولدينا بعض الدنانير التى سكت باسم نور الدين فى

السنوات الأخيرة من حياته، لكن يتعلق الأمر بقطع تم سكها بمصر من قبَل صلاح الدين. وتوجد بعض الدنانير للزنكيين ببلاد الرافدين فى الفترة نفسها.

٤٠ - Cahen, *Annales Islamologiques,* et Bates, communication à la M.E.S.A. en cours d'édition.

٤١ - Yvon et Balog, "Monnaies à légendes arabes de l'Orient latin", *Rev. Num.,* 6, 1958.

٤٢ - بينما لو رجعنا إلى ما اكتشف من عملات، نجد أن الدينار الشرقى لم يدخل إلى الغرب إلا ابتداءً من نهاية القرن الثانى عشر.

٤٣ - Yvon et Balog, *op. cit.*

٤٤ - Ehrenkreutz, "Arabic dinars struck by the crusaders", dans *JESHO,* 1964.

٤٥ - انظر رسالة ابن بعرى، ص ٢٣، ط. فهمى. كان اللاتين يعتبرون الدينار إجمالا مساويا للدرهم، شأنه فى ذلك شأن «التهجان» الأرمينى فى القرن الثالث عشر. وسمى العرب الدينار الفرنجى بـ «الدينار السورى». ومن الممكن أن تكون الورشة الرئيسية لسك العملة قد أقيمت بمدينة صور مثلما هو الأمر بالنسبة للدينار الفاطمى القديم. وقد تم سك الذهب فى أنطاكية وطرابلس كذلك، لكن بشكل أقل انتظامًا وبكثافة اقل. لقد سك الفرنجة عملات نحاسية صغيرة، انظر مثلا : Metcalf, "Billon coinage of the crusading principalities of Antioche", *Num. Chrom.,* 7e série, 9, 1969, p. 247 - 267.

هوامش الفصل الحادى عشر

١ – تحت هذا العنوان انظر كتبًا حديثة ذات طابع عام لـ أ.س. إهرنكروتز، ١٩٧١ وليونز وجاكسون، ١٩٧٩. انظر كذلك الموسوعة الإسلامية (٢)، مادة الأيوبيين.

٢ – لاسيما عماد الدين الاصفهانى.

٣ – H.A.R. Gibb, "The achievement for Saladin", *Bull of the John Rylands Library,* 1952.

٤ – المسمى «السهروردى المقتول» تمييزًا له عمن يحملون هذا الاسم. انظر أبحاث هنرى كوربان بشكل أساسى.

٥ – يشهد أبو صالح بأن غزو مصر من قبل صلاح الدين كان كارثة بالنسبة للأرمن لا بالنسبة للأقباط. فلا يتعلق الأمر إذن بمناهضة المسيحية الدينية بذاتها وإنما يتعلق بتواطؤ الأرمن سواء مع الفرنجة أو مع الفاطميين: Abu Salih, *Churches and Mohastaries* ed. trad. Evetts, 1895.

٦ – لقد قدم نور الدين منبرًا إلى المسجد الاقصى بشكل مسبق فى حالة ما إذا تم فيها الاستيلاء على القدس. انظر ما سجل فى: R. C. E. A.

٧ – Sivan . قارن مع فرست المراجع.

٨ – يعتبر افتداء الأسرى من كلا الجانبين إحدى توابع الجهاد. قارن مع جوايتن وابن جبير إلخ. انظر الملحق.

٩ – تم ذلك من طرف أحد أبناء ابن عساكر ضمن أخرين. قارن مع سيفان، ص ٢١٢.

١٠ – انظر طبعتى المترجمة للكتاب فى : *B . E . O.*, 1949 .

١١ – انظر جانين سورديل فى ترجمتها وطبعها لكتاب على الهروى.

١٢ – انظر أعلاه.

١٣ – Ehrenkreutz, "The place of Saladin in the naval history of the Mediterranean Sea", *Journal of the American Oriental Society,* LXXV 2, 1955.

١٤ – لا ينبغى الخلط بين قراقوش هذا وبين مملوك صلاح الدين الشهير الذى يمكن الرجوع بشأنه إلى الموسوعة الإسلامية (٢).

١٥ – يظهر أن أ. بيل الذى أرخ لبنى غانية كان يجهل المعلومات التى يقدمها أبو شامة عن رواية ابن أبى طى حول حملات قراقوش.

١٦ – فرقة الطيبين التى كانت تؤمن باختفاء ابن للأمير وهو قد ولد بعد وفاة والده الذى خلفه الحافظ بعد خلعه.

١٧ – رغم المحاولة المؤقتة التى قام بها الأيوبى الثانى المحلى ليجعل نفسه المهدى المنتظر (وفقًا لعقلية رعاياه ولاشك).

١٨ – المقريزى، السلوك. ولعل مصدر المقريزى هنا هو الجزء المفقود من حوليات ابن الميسر الذى كان المقريزى على معرفة به.

١٩ – انظر الموسوعة الإسلامية (٢). جاء ذكر الكارميين كذلك فى أبى شامة، ج ٢، ٣٧، ١ و ٢١.

٢٠ – مجمع لاتران الدينى عام ١١٧٩.

٢١ – انظر مقالتى: "Les marchands étrangers au Caire au Moyen Age", dans le volume *du Millénaire du Caire,* 1973.

٢٢ – مذكور فى أبى شامة ج٢، ٣٧.

٢٣ – انظر مقالى، هنا حسب رواية بوركاردت الستراسبورجى.

٢٤ – Morozzo، انظر فهرست المراجع.

٢٥ – انظر مقالتى : "L' Alun avant Phocée", dans *Revue d'Hist, écon.,* 1962.

٢٦ – لعلهم ساعدوا على الدفاع على الإسكندرية عام ١١٧٤ ضد النورمانديين.

٢٧ – ومع ذلك نعرف منهم واحداً أو اثنين فى نهاية القرن.

٢٨ – Goitein, *Med. Soc.*

٢٩ – B. Lavignerie, "I Normani di Sicilia a Cipro e a Patmo (1186), *Byzantino- - Sicula,* II, 1974.

وهذا يرتبط بالهجوم الذى شنه غليوم الثانى على بيزنطة (١١٨٥).

٣٠ – حول كل هذه الأمور، انظر: Runciman, *History of the Crusades.*

٣١ – R.J. Lilie, "Die Schlacht von Myriokephalon und sein Virkung auf das Byzantinischen Reich" dans *Revue des Etudes Byzantines* 35, 1977 p. 257 - 75.

٣٢ – *Pre -ottoman Turkey.*

٣٣ – *W.* Hecht, "Byzanz und die Armenien nach dem Tode Kayser Manuels 1180 - 1196", dans *Byzantion,* 37, 1967.

٢٤ – *Syrie Nord*... p. 420 sq. Runciman, etc.

٢٥ – Colemberg, "L'Empereur Isaac de Chypre et sa fille", dans Byzantion 38, 1968.

٢٦ – انظر أدناه.

٢٧ – كان يزعم بعضهم إخراج رفات النبى محمد من قبره انظر: Gary La Viere Leiser, "The Crusader Raid in the Red Sea", dans *Studia Islamica.*

٢٨ – انظر حول المحاولة المزعومة لتنصير الحشاشين: Jerzy Hanzinski, "On alleged attempts at converting the Assassins to Christianity in the light of William of Tyre's account", *Folia Orientalia,* XV, 1974, p. 229 - 246.

٣٩ – حول هذه المعركة انظر هذه الأبحاث: مقال Richard المذكور فى الفصل العاشر هامش ١٢.

J. Prawer, "La bataille de Hattin", dans *Israel Exploration Jour.*, 14, 1964; P. Herde, "Die Kämpfe beiden Hörnern von Hittin" dans *Römische Quartal schrift für chritliche Altertumskunde,* 61, 1966.

٤٠ – لنذكر فى هذا الصدد المقال الذى نشره حديثاً: J.G. Rowe, "William of Tyre and the patriarcal election of 1180, *Engl, His. Rv.,* janvier 1978.

٤١ – ابن الأثير، الكامل، ٧٠٦ و Runciman, II, 461

٤٢ – تملك مراث أرمينية وسريانية حول سقوط بيت المقدس، لكن لم ينتج عنها شىء، كما نعرف أن طبيبا حصل على امتياز من قبل صلاح الدين فى حالة استرداد المدينة وكان من قبل قد عالج ملك بيت المقدس (انظر مقالتى فى:*"Syria, 1934, "Indigénes et Croisés*).

٤٣ – لم يتم التوسل بهنرى الثانى إلا فى عام ١١٨٧.

٤٤ – ففى فترة حكمه كذلك قام خصمه هنرى الأسد بالحج إلى الشرق لكن بمعزل عنه، انظر:

M.L. Favreau, "Zur Pilgerfahrt des Grafen Rudolf v. Pfullendorf, 1180" *Z.F. die Geschichte des Oberrheims,* 123 (n.f. 84), 1975.

لدينا خبر مقتضب عن بوركاردت الستراسبورجى الذى كان سفيراً لبربروس لدى صلاح الدين (*MGSS XXI, 235 sq.*). لا شك أن الأمر بالنسبة لبربروس كان يتعلق بالاستيلاء على بيزنطة من الخلف.

٤٥ – انظر مقالى فى *W.Z.K.M* (وقد أعيد نشره فى كتابى: *Turcobyzantina*)، و Ekkhard Eickoff, *Friedrich Barbarossa im Orient,* 1977. Hannes Möhring, *Saladin und der dritte Kreuzzung,* Wiesbaden, 1980.

٤٦ – البطريارك الأرمينى – الذى كان يقطن فى إحدى الحصون بالمنطقة الوسطى للفرات منذ جوسلان الرهاوى الثانى – هو الذى أبلغ صلاح الدين بهذا النبأ.

٤٧ – وقد كانت صفقة رائعة بالنسبة لهؤلاء حيث حصلوا بموجبها على ٥٨٥٠ ماركا فضياً، أى ٤٦٨ ليرة.

٤٨ – انظر بصدد قبرص فى القرن الثانى عشر : J. Darrouzés " Notes pour servir à l'histoire de Chypre (byzantine)", dans *Spoudai Kypriakai, 195, 1959,*

وهو يظهر أهمية قبرص منذ تلك الفترة بالنسبة لتموين الشرق اللاتينى، وقام كوستاس ب. كيريس بإلقاء بحث له فى المؤتمر التاريخى ببوخاريست عام ١٩٨٠ عن:

"Cyprus as stepping-stone between East and West during the Early Crusades (1099 - 1291)".

٤٩ – وذلك باستثناء ما حصل أثناء الحملة الصليبية ذاتها بطبيعة الحال. فهذه الحالة لم يكن بوسعها إلا أن تفاقم الخصومات القائمة بين هذه المدن بالشرق اللاتينى على الطرق المؤدية إليه. انظر:

M.L. Favreau, "Die Italienische Levante - Piraterie und die Sichereit des Seewegs nach Syrien im 12 und 13 J.", *Viertelj. für Social und Wirtschafts* Geschichte, 65, 1978.

٥٠ – لقد كان موقف الملوك وجمهوريات التجار بالشرق مرتبطًا بالطبع بالقرار الذى اتخذوه فى الغرب. انظر: M.L. Favreau, "Graf Heinrich von Champagne und die Pisaner im Königreich Jerusalem", *Bolletino Storico Pisano,* XL VII, 1978, p. 97 - 120.

٥١ – لاحظ أن أنطاكية وطرابلس (التى كان ابن بوهيموند الأنطاكى الثالث قد ورثها قبل فترة قصيرة) لم تشاركا بالفعل فى العمليات العسكرية، حيث أن انطاكية كانت قد عقدت هدنة مع صلاح الدين.

٥٢ – Godefroy - Demombynes, "Une lettre de Saladin au Calife almohade" dans *Mélanges René Basset,* p. 279 sq.; Sa'ad Saghloul, "Abd al-Hamid", dans *Bull. of the Faculty of Arts,* Université d'Alexandrie, VI -VII, 1952 - 1953.

ويذكر ابن الأثير فى نهاية عام ٦٠٣ خبر وفاة سفير بعث من مصر إلى «الميروقى» أمير مايوركا التابعة لبنى غانية.

٥٣ – انظر الدراسة شبه الوافية التى خصصت لهذا الموضوع: Angelica Hartmann, *An - Nâsir li - Din Allâh (1180 - 1225,),* 1975, Sivan, "Saladin et le Calife al- Nâsir, dans *Scripta Hierosolymitana* (Studies in History), 1972.

هوامش الفصل الثانى عشر

١ – إن دراسات هـ.ا. مايير أدت إلى تدقيق المعرفة بالإدارة، وهى دراسات اعتمدت على المستندات القديمة. انظر كذلك للكاتب نفسه :

"Das Siegelswesen imder Krüzzerfahrerstaten", *Bayerisch Ak., Phil-hist. Kl., Abbandlungen N.F. 83.*

٢ – لقد كتبت فى هذه المسألة عند إعداد التقرير المقدم لمؤتمر فولتا عام ١٩٥٦، وقد أعدت نشره فى كتابى*Turcobyzantina* ومن جهة أخرى انظر: Riley - Smith, Smail, etc، إلخ.

٣ – *Syrie du Nord...*, p. 465 sq.

٤ – *Chronique d'Ernoul*, éd. Mas - Latrie, 1871, p. 28.

٥ – لا نتبين ما إذا كان فى الإمكان طلب اليد العاملة من القرى لبناء القصور وصيانتها (انظر أعلاه، ص *174*).

٦ – لقد برهن براوير على أن نص «قوانين ملتقيات البورجوازيين» ينقل فى جزء كبير منه ديوانًا للأعراف البروفانسية يرجع إلى فترة سابقة بعض الشيء.

٧ – أعطى أحد الخلفاء الفاطميين لأسامة بن منقذ عائد إحدى الصناعات بالقاهرة.

٨ – انظر مقالى فى : "Evolution de *l'iqtâ*", dans *Annales ESC*, 1951, قد أعيد نشره فى Peuples Musulmans

٩ – Mayer, *Bistümer, Klöster und Stifter in Königreich Jerusalem*, 1977.

١٠ – Prawer, "Etudes de quelques problémes agraires et sociaux d'une- seigneurie croisée au XIII[e] siécle", *Byzantion*, 1952.

١١ – حول كل المسائل السالفة انظر مقالى بـ *Bull. de la Fac. des Lettres de Strasbourg*: *de 1952* وقد أعيد نشره فى كتابى:*Turcobyzantina* والتقرير التى قدمته لجمعية جان بودان، مؤتمر فرسوفيا ١٩٧٥، وهو تحت الطبع، ومقالى:*"le régime des impôts en Syrie", JESHO*, 1975 لقد حرز جان ريشارد منذ مدة طويلة لكتاب *History of the Crusade Crusade, vol. 5* فصلاً سيظهر قريبًا، انظر الاستشهاد ببراوير أعلاه.

١٢ – Riley - Smith, "Some lesser officials in Latin Syria", *Engl. Hist. Rev.* janv. 1972.

١٣ – انظر مقالى "Mouvements Populaires..." فى *Arabica*, 1958: وقد نشر منفصلاً

عام١٩٥٩. وانظر Peter von Sivers, "Military, merchants and nomads in the syrian cities and countryside 780 - 969," *Der Islam* 1979.

١٤ – مؤتمر فولتا.

١٥ – *Syrie du Nord...*, p. 462.

١٦ – قد يكون هذا الاسم ظهر في قبرص البيزنطية التي خضعت للمؤثرات العربية لكن معرفتنا الشديدة النقص بماضي الجزيرة لا تسمح لنا الجزم بالأمر.

١٧ – انظر بالخصوص أبحاث شارل فيرليندن حول الاسترقاق في البلاد المسيحية أثناء القرون الوسطى.

هوامش الفصل الثالث عشر

١ – انظر أعلاه، الفصل الخامس.

٢ – ميخائيل السورى الذى تم استخدامه فى *Syrie du Nord..., p. 562 sq*، لقد وجدت بصفة خاصة فى جبال لبنان الشرقية حول دمشق مزارات محلية قديمة كان يتردد عليها المسيحيون المحليون والمسلمون على السواء، ويمكننا أن نسلم بأن الفرنجة كذلك كانوا يهتادونها إذ نجد قصيدة لاتينية مخصصة لمزار سيّدْنا (J. Raymond sur N.D. de Sardenay).

Devos, "Les plus anciennes versions occidentales de la légende de Saïdnaya", *Analecta Bollandiana*, 65, 1957. D. Sourdel, "Rûhin, lieu de pèlerinage musulman de la Syrie du Nord au XIII[e] s.", *Syria 30*, 1953 pp. 889 - 107.

٣ – *Syrie du Nord...*, p. 561. لا ينبغى أن نبالغ فى ذلك، باستثناء الكنيسة الارمينية لقيليقية، لا يوجد أى أثر لتاثير متبادل.

٤ – *Syrie du Nord..., loc. cit.,* لاسيما رواية ابن العبرى حول «الإخوان».

٥ – انظر أعلاه، R. Christ. Schuringer, "Kreuzzugeideologie und Toleranz", *Studien für Wilhelm von Tyrus*, Stuttgart, 1977.

٦ – انظر أعلاه، P. Kritzcek, "Peter the Venerable",

٧ – إن الجواب على هذا السؤال يتعلق بالقرن الذين نعتقد أن بَرْتليمى الرهاوى الذى كان مجادلاً يونانى اللسان (انظر مقالي فى *Mélanges Gardet - Anawati*) وبولس الانطاكى الأسقف الملكى لصيدا قد عاشا فيه. شخصيًا أميل إلى وضع كليهما فى القرن الحادى عشر حيث لا يشيران إطلاقًا إلى الإفرنج، كما أن بولس يذكر أنه كان بمدينة أمالفى وهو أمر ممكن فى القرن الثانى عشر وأقرب إلى الصواب فى القرن الحادى عشر، والظاهر أنه كان لا يعرف اللاتين ولا الأرمن الشرقيين (لكن قارن مع ما ورد أدناه). وكان يكتب بالعربية وهو أمر ممكن بالنسبة للملكيين منذ القرن العاشر (انظر أدناه)، والشيء الوحيد المؤكد أنه أن يعرف إيلى النيزيبى، وتعزو السيدة لازاروس يافى إلى قبطى تحول إلى الإسلام كتابًا مناهضًا للمسيحيين اعتبر لمدة طويلة من تأليف الغزالى. ونحن لا نتكلم هنا عن إسبانيا حيث أن هذه الفترة كانت حافلة بالجدالات.

٨ – يجعلها قدامة فى عهد صلاح الدين كلها فى عداد أصناف المسيحية بالشرق.

٩ – H.E. Mayer, *Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem*, 1981.

١٠ – انظر قصة الأسيرة الافرنجية فى: *J.A.*, 1850 II.

١١ - *Arabica, 1978.*

١٢ - Prawer, I, 308.

١٣ - من ضمن ما نشر عن القصور، انظر بصفة خاصة: R.B.G. Huyghens "Monuments de l'époque des Croisades", dans *Biblioteca Orientalis,* 1968.

١٤ - انظر ضمن الدراسات الحديثة: Goitein, *Méd. Soc.*

١٥ - ذاك هو التفسير الذى يعطى بالنسبة للترجمة العربية لنيكون حيث تم التلميح فيها إلى اقتراب الصليبيين. انظر: Graf, *G.A.C.L.*, II, 1947, p. 64 sq.

لقد أظهرت الأحداث التى وقعت فى بلدة أنطاكية أنه كان يقطن بها دائمًا عدد مهم من السكان الذين ينتمون للمذهب اليونانى فى بداية القرن الثالث عشر. *Syrie du Nord.*, p. 590 وانظر الملحق.

١٦ - *Revue des Etudes byzantines,* 1970; Jean Richard, dans *Mélanges-Dauvilliers*, 1979.

١٧ - Ed. Huyghens, II, 344, p. 93.

١٨ - النويرى والموسوعة الإسلامية (٢). انظر كذلك ما قلناه فى موضع آخر عن «البورجوازيين».

١٩ - انظر مقالى فى: *Mélange Atiya, 1973.*

٢٠ - Prawer, ch. II, 397.

هوامش الفصل الرابع عشر

١ - لا يقدم هذا التعريف دائمًا، لكن انظر كتابي: *Pre -Ottoman Turkey.*

٢ - قلت قبل مدة طويلة أن ذلك تم على النموذج الإسباني، غير أن التسلسل الزمني للمؤسسات لا يتيح الإبقاء على هذا الإثبات. لقد كان ثمة محاولة لزرع النظام الأسباني للقديس جاك بسوريا.

انظر: *Syrie Nord*, p. 510 sq; et Eloy Benito Ruano, "Santiago, Calatrava y Antioquia" (documents), *Annuario de Estudias Medievales, I*, 1964.

٣ - نعرف ثمن بناء قصر صفد إبان القرن الثالث عشر (*Studia medievalia*, 1965). فقد تطلب بناء قصر معبر يعقوب ٨٠٠٠٠ دينار، وغالباً ما كان يستخدم أسرى لدى الفرنجة والمسلمين على السواء، لكن من المؤكد كذلك أنه كان يتم طلب كثير من العمال في عين المكان واستئجارهم. قارن مع ما ورد في: R.C.B. Huyghens, *De constructione Saphet*, 1981.

٤ - المعروف أن أرشيفات جماعة فرسان هيكل سليمان قد اندثرت، مما لا يسمح بوضع تاريخ لهذه الجماعة (رغم ماحيك من خرافات إثر محاكمتها في عهد فيليب لوبيل) شبيه بما يمكن كتابته عن جماعة الاسبتارية. فقد تم العثور على وثائق كان قد جمعها الماركيز الألبوني وانضافت إليها بعض الوثائق الأخرى التي عثر عليها قبل فترة قصيرة. انظر: *F.* Benoît et Riley - Smith, *English Historical Review*; XXXIV, p. 284 - 8.

٥ - Riley - Smith, "A note on Confraternities in the Latin Kingdom of Jerusalem", *Bull. Inst. Hist. Research*, XLIV, 1971.

٦ - قارن مع: *Jean Richard* المصدر المذكور في الفصل العاشر هامش ١٣.

٧ - انظر: Marit Kretschmar, *Pferd und Reiter im Orient*, 1981.

هوامش الفصل الخامس عشر

١ - Humphreys, *From Saladin to the Mongols*, 1978, وينبغى استكمال هذا الكتاب بمقال لذات الكاتب بعنوان:- "The Emergence of the Mamluk Army", *St. Ist.*, XLV- XLVI, 1977. انظر كذلك: David Ayalon, "Aspects of the Mamluk phenomenon", dans *Der Islam*, LIV, 1977, 1-2,

وهناك بحث بالغ الجودة لـ H.L. Gottschalk, *Al - Malik al - Kâmil*, 1928. Gary Leiser, *The Restauration of sunnism in Egypt and The Madrasas*, 1980. J. Gilbert, "Institutionalization of Muslim scholarship and professionalization of the Ulamâ in medieval Damascus", *Studia Isl.*, 52, 1980.

كانت السيدة حقى عند وفاتها على وشك الانتهاء من إعداد جرد بالمدارس السورية ويوجد منه مخطوط بالمعهد الفرنسى لدمشق. وبالنسبة للفترة الأيوبية انظر مذكرات سعد الدين التى ترجمتها فى : *Peuples musulmans*

٢ - لعل رسالة الحسبة (انظر أعلاه وظيفة المحتسب) للشيرازى وهى نموذج أصلى لعدة رسائل فى هذا الموضوع، تثبت السعى لإقامة نظام اقتصادى رغم طابعه الخاص. وثمة رسائل مماثلة كتبت بالأندلس قبل قرن لكننا لا نرى أنها مارست تأثيراً على الشيرازى. أما النصوص التى تكلمت سابقًا بالشرق عن الحسبة فقد كانت ذات طابع نظرى أكثر منه تقنى. انظر كذلك فى الصفحات القادمة رسالة عن العملات لابن بعرة والرسائل الهجائية للنابلسى (انظر الطبعات التى حققتها ضمن *B.E.O.*, XVI, 1958 - 60 et *B.I.F.A.O.*, "Histoires coptes d'un cadi ayyubide", 1960, 133 - 150.

ولا نرى مدى التأثير الذى كان بوسع المجاعة الكبرى لعامى ١٢٠٠ - ١٢٠١ أن تخلفه على سياسة الأوائل الذين خلفوا صلاح الدين، وقد كتب عبد اللطيف البغدادى إثر هذه المجاعة كتابه وصف مصر الذى ترجمه سيلفستر دى ساسى إلى الفرنسية.

٣ - Donald E. Queller et Susan J. Stratton, "A century of controversy on the 4th Crusade", *Studies in Medieval and Renaissance History*, 6, 1969, p. 238 - 252. *A History of the Crusades*, éd. Setton vol II, 1962. Donald E. Queller, *The fourth Crusade, the conquest of Constantinople*, 1977.

٤ - انظر ضمن المقالات الحديثة: Gerd Hagedorn, "Papst Innocenz III und Bizanz am vorabend der 4 stens Kreuzzugs", *Ostkirchliche Studien*, 23, 1974, p. 3-20 et 105 -136. B. Hendrickx, "Bauduin IX de Flandre et les Anges", *Revue Belge de Philologie et d'Histoire* 1971-72. S. Kindelmann, *Eroberung Konstantinople als politische Forderung des Westens in Hochmittelalter*, 1969. E. Kennan, "Innocent III and the first political Crusades, *Traditio*

XXVII, 1971. J. Ferluga "Aristocrazia bizantina e crociate agli inizi del seculo XII", *Quellen und Studien für Geschichte des östlichen Europa, IX*, Wiesbaden 1977.

٥ – نشير هنا إلى غياب الجنوية والبيازنة.

٦ – نذكّر بأن بودوان الفلاندرى الذى سيصبح امبراطوراً وبونيفاس المونفراتيى كانا موجودين عند المكان.

٧ – لقد قام مكمل سياسة وليام الصورى باتهام العادل فى إحداث الخطف. لم تمر أية حملة صليبية فى القرن الثالث عشر عبر الإمبراطورية اللاتينية.

٨ – B. Hendrickx, "The main Problems of the History of the Latin Empire", *Revue Belge Ph. Hist.*, 52 - 54, 1974.

٩ – Angold, *Empire in exil*, 1975.

١٠ – *Pre-ottoman Turkey*, p. 135.

١١ – Ludger Bernhard, "Die legitimitât des lateinischen Keiserreiches von Konstantinople in Jacobitischer Sicht", dans *Jahrbuch der österr. byz. Gesellschaft*, XVI, 1967.

١٢ – لقد رأينا أن إنشاء جماعة سيتو الذى حدث فى مرحلة متأخرة يرجع إلى هؤلاء الأساقفة. وحينما جاء الفرنسيسكان والدومينيكان بعد فترة قصيرة كانوا مرتبطين مباشرة بروما وغير ممتثلين لرجال الدين المحليين بل وقد حدث أن حلوا محلهم فى بعض الأحيان.

Roncaglia, "Les Frères Mineurs et l'Eglise grecque, *Storia della Provincia di Terra Santa, 1954*.

١٣ – *Lettres*, éd. Huyghens; cf. Morgan, "The meanings of old french *Polain*, latin *Pullanus*, *Medium Aevum*, XLVIII, 1.

١٤ – اهتم السلاجقة كذلك بالبيانات الخاصة بالرحلات البرية ومن ثم أنشئوا عدة خانات للقوافل التى لا تزال مثار الدهشة للمسافرين حتى اليوم (*Erdmann, Das anatolische Karavansaraiy des 13 J.*, 1961).

١٥ – Cl. Cahen, "Notes pour l'histoire de la Province de Qastamuni", dans *Selcuk Arastirmalari*, 1971.

١٦ – انظر آخر ما صدر فى هذا الشأن : Jay Harris Neirman, "Levantine Peace Following the Third Crusade: a new Dimension in Frankish - Muslim Relations", dans *Muslim World, 1980.*

ومن جانب المسلمين انظر أدناه ابن الأثير، فهذا المؤرخ الذى اغتاظ من عدم اكتراث أمراء العصر لفريضة الحرب المقدسة عند اقتراب المغول لا يظهر أنه انشغل بالقدر بنفسه بالحرب ضد الفرنجة ولو أنه شارك فيها فى شبابه فى عهد صلاح الدين ولم يكن يحبه.

١٧ – لما تم فى عام الإعلان عن الحملة الصليبية القادمة قام العادل باعتقال التجار الإيطاليين بالإسكندرية على سبيل الحذر.

١٨ – لم تتم الدعوة للحملة الصليبية الخامسة ثم السادسة والسابعة مباشرة بسبب كارثة ما، وإنما برغبة التعويض عن الفشل الذى منيت به الحملات السابقة. ونلاحظ توافق حركة من اللامبالاة من قبل جماهير الناس بالغرب تجاه الحروب الصليبية مع انتشار الدعوة إليها وتطور القواعد القانونية المتعلقة بها، وهو توافق مفهوم وإن كان ينم عن المفارقة.

١٩ – يظهر أن الحملة على مدينة دمياط أثارت نشاط المنجمين. انظر أدناه.

٢٠ – لاشك أن رغبة الإمبراطور فى ممارسة السلطة الفعلية قادته إلى إدخال عناصر إيطالية ألمانية (لاسيما جماعة التوتونيين) إلى الشرق اللاتينى الفرنجى أو المفرنج، وقد أصبحت هذه العناصر مصدراً للمصاعب. لكن لا ينبغى الوقوع فى المغالطة التاريخية باعتبار هذا المسلك بمثابة تسلط جرمانى كما فعل بعض المؤرخين الفرنسيين، إذ أن تصورات العصر لم تكن تتضمن فكرة قومية من هذا النوع. كما أن فكرة الزواج بوريثة مملكة بيت المقدس صدرت لأول وهلة من قبل البابوية رغبة فى إثارة اهتمام فريدريك بالشرق. ثم ألم يكن الكونت الغربى أو الفلاندرى يحملان لقبًا تسلطيًا مزاحمًا للقب القسطنطينية، وألم تكن قبرص من اختلاق الإنجليز ؟ يجب التذكير بأن يوحنا البرينى الذى أصبح ملكًا على بيت المقدس عن طريق الزواج والذى سيتزوج فريدريك ابنته، كان قد عين وريثًا لجزيرة صقلية خلفًا لتنكريد الذى كان عدوًا لأبى فريديريك.

٢١ – بما أن الإمبراطورية اللاتينية كانت مساندة من قبل البابوية فلقد تحالف فريدريك مع اليونان بنيقيا.

٢٢ – انظر بالخصوص خطب سبط بن الجوزى بدمشق.

٢٣ – انظر: *J.A*, Septiéme Centenaire de la mort de Saint Louis, 1970، وهناك ذكر لرسالة قرطاى بملحق المقال الذى كتبته. ظلت الأوساط الإسلامية المتنورة تعتبر فريديريك صديقًا لها حتى مماته. وكان فخر الدين بن حموية المساعد الرئيسى للأيوبيين فى هذه السياسة، وهو ينحدر من أسرة إيرانية مهاجرة، وقد شاء المفكر المعاصر عباس إقبال أن يرى فيه وسيطا بين الشرق والغرب، وقد تم ذكره فى كتاب اطلاعات، يونيو ١٩٤٨ .

٢٤ – انظر ما يرويه ابن واصل مؤرخ الأيوبيين عن مسعاه إلى هذا الأمير.

٢٥ – استخدام فريدريك فى عبور أسطوله الخاص دون توجيه النداء للمدن التجارية.

Eric Maschko, "Die Wirtschaftspolitik Fried II in Königreich Sizilian", *V.j.S.W.G.* 1966, 3.

٢٦ – لقد كتب ابن سبعين، الذى كان فريدريك قد سأله عن العلم الإسلامى، بالذهنية نفسها إلى ثيودور

لاسكاريس النيقي. ومع ذلك انظر النص الذى ذكره بروكلمان ج *1*، *430 (533)* وثمة مراسلة من هذه النوع كذلك بين لاسكاريس والكامل سنة ٦١٨هـ ط. تربيت، ١٨٩٧ .

٢٧ – انظر بشأن الأحداث التى أعقبت وفاة الصالح :

G. Schregele, *Die Sultanin von Aegypten*, 1961.

يحتفظ متحف اللوفر (مجموعة منتخبات ريموندرن) بوثيقة غير منشورة لهذه الأميرة. انظر كذلك :

Cl. Cahen et Ibr. Chabbouh, "Le testament d'al-Mâlik Ayyub", dans *Mélanges Laoust*, B.E.O. 1978.

٢٨ – تكاد الوثائق تكون ساكتة عن إقامة القديس لويس بالأرض المقدسة، وهو سكوت ذو مغزى.

٢٩ – كانت الذكرى المئوية السابعة لوفاة القديس لويس عام ١٩٧٠ مناسبة لعدة احتفالات ومن ضمنها من وجهة النظر الشرقية المؤتمر الذى طبعت أعماله فى Journal Asiatique 1970. ومن بين الأبحاث الحديثة التى ترتبط بحملة القديس لويس الصليبية نذكر: B.Z. Kedar, "The passenger list of a Crusade ship 1250: toward the history of the popular element in the 7th Crusade", *Studia Medievalia* 2e ser., XIII 1, 1972.

ويحكى أبو شامة فى كتاب الذيل، عام ٦٤٨ أن السلطان أرسل إلى دمشق رداء الملك وأمر الحاكم أن يرتديه ليشاهده الناس. وفى بعلبك نظم المسيحيون مأتماً بسبب أسر القديس لويس فأصدر الحاكم أمره إلى اليهود لضربهم. وساد الاعتقاد أن لويس التاسع قد مارس بالشرق سلطات عليا لكن لا يوجد نص يثبت هذا الاعتقاد باستثناء وثيقة رسمية تثبت إنشاء اسقفية بمدينة دمياط، إلا أن الأمر يتعلق هنا بانتصار للملك لا ببقعة فى الشرق اللاتيني.

٣٠ – لا ينبغى أن نغالى فى دلالة استشهاد يوحنا البتنيجو يطى بمصر عام ١٢٠٩. (Amélineau, "Un document copte", *JA* 1887, 1, p. 113 sq.) فالواقع أنه بذل كل جهده – إذا صح التعبير ليبلغ هذه النتيجة.

٣١ – حول هذه الأبحاث انظر كذلك أبحاث:

Nallino, "Libri juridici bizantini in versione arabica - cristiana nei sec. XII-XIII", dans *Rendiconti del Accademi Lincei*, Sc. mor., Seria 6, vol. 1, fasc. 3-4, 1925.

٣٢ – انظر: *J. Richard, La papauté et les missions d'Orient au Moyen Age, (XIII^{e}-XV^{e} s.), 1977. Syrie du Nord...* p. 678 sq.

لا نرى أن المسيحيين الشرقيين (باستثناء بيزنطة) قد أرسلوا قط مبشرين إلى آسيا الوسطى والهند وافريقيا الشرقية اللهم إلا إذا كان ذلك قد تم فى الزمن الغابر، وعلى أية حال فقد كان ذلك أمراً محظوراً بالبلاد الإسلامية. ومن هذا الجانب لا نجد نشاطا مماثلا من طرف المسلمين إلا على الحدود الوثنية (ربما كانت ضمنها بلغاريا لبعض الوقت) ولا نجد لهم ذلك الحشاشون قط لدى أهل الكتاب بالداخل والخارج.

٣٣ – وذلك بواسطة التقريب بين مختلف الطوائف الروحية، بما فيها الحشاسون.

هوامش الفصل السادس عشر

١ – قارن مع : Garcin, *Qus*, p. 400.

٢ – قارن مع: Cahen, *L'alun*. ويظهر أن السمعة التى كان يتمتع بها نسيج الكتان بمصر قد قلت فأخذ نسيج الكتان بأوربا فى النمو. (قارن مع: Ch. Singer, *A History of Technology*, II, 1956, p. 195). وبعد نهاية القرن الثانى عشر لم نعد نجد أى تاجر يهودى بالمحيط الهندى، لكن يبدو أن الأقباط كان ما يزال لهم دور معين به. انظر فى كتاب مكين بن العميد (الطبعة التى أصدرتها ضمن B . E . O .) تاريخ البطريارك المدعو بالملك الكامل والذى تاجر لحسابه.

٣ – إن المشاريع الصليبية المتأخرة مثل فيدانس دى بادو الذى نشر ضمن: Golubovitch, *Bibliotheca*, 1906.

تؤكد أيضًا أن إحراز النصر على مصر يتطلب حرمانها من الخشب. وفضلا عن ذلك فإن صلاح الدين كان قد عمل على دك ميناء تينيس (وهو ميناء بحرى يقع على فرع النيل الأكثر شرقية) حتى لا يتمكن الفرنجة من الإقامة فيه. وقد لزم لنفس السبب القيام بتدمير مدينة دمياط خلال القرن الثالث عشر. وقد كانت الأوراش المهمة لصناعة النسيج فى هاتين المدينتين قد انتهت على مختلف المدن الداخلية الصغرى بالدلتا وبمدينة الإسكندرية. وقد كانت السفن المصرية ماتزال تتردد من وقت لآخر على جنوب الأناضول.

٤ – *Pre-ottoman Turkey*, p. 125.

٥ – لا يظهر أن أية دراسة معمقة خُصصت للعواقب التجارية التى نتجت عن سقوط القسطنطينية.

٦ – "Commerce anatolien", dans *Mélanges Halphen*,

وقد تم إعادة نشره فى كتابى: *Byzantino- Turcica*.

٧ – لا نتكلم إلا عن جنسية السفن، فقد كان كثير من التجار بالداخل يسافرون مع تجار الموانىء حيث كان الفلورنسيون يستقلون سفنًا تابعة لمدينة بيزة بينما كان البياسنزيون يستقلون سفنًا جنوية، إلخ، حول مدينة بياسنزيا انظر فى نهاية المطاف الأطروحة التى أعدها بيير راسين بالسربون، وحول الفترة التاريخية اللاحقة: R.H. Bautier, "Relations économiques des Occidentaux avec l'Orient au Moyen Age", *Sociétés et compagnies de commerce en Orient*, 1970.

وهى الفترة التى كان القادمون الجدد يدّعون امتلاكهم لامتيازات قديمة حتى يتمكنوا هم كذلك من اكتسابها. انظر: H.E. Mayer, *Marseilles Levante Mandel und ein Akkenisches Fälscheratelier das 13. J.*, Tübingen, 1972. وفى المقابل تم آنئذ منع اليهود بمرسيليا من ممارسة التجارة بمصر. (*Archives Juives* I, 1970 - 1971).

٨ – "Commerce anatolien", *Mélanges L. Halphen*, 1951, p. 96.

٩ – Commerce anatolien", p. 96. كانوا يتعاملون كذلك مع قبرص.

١٠ – Syrie du Nord, p. 688 sq. لعل الأهالى كانوا يأتون قليلاً إلى موانىء الفرنجة

١١ – انظر مقالى عن: l'alun.

١٢ – فى حرب سانت سابا تم حرق ٨٠ سفينة بميناء عكا (Eretz Israël, 1954). ومن قبل عند إعلان الحملة الصليبية الخامسة قام التجار الغربيون عند منعهم من ميناء الإسكندرية بالذهاب إلى عكا حيث جنى الملك ربحًا مقداره ١٢٠٠٠٠ دينار (أبو شامة، عام ٦١٣ للهجرة، الذيل، ص٩٣). ومع ذلك ربما يلزم معرفة طبيعة هذه المداخيل بما أن الإيطاليين كانوا معفين فيما يظهر من الرسوم الجمركية. قارن مع ملاحظاتنا الواردة أدناه حول سوق عكا. وعلى أية حال فكون أن التجارة أديرت نحو مصر أو الشرق اللاتينى حسب الأعوام فإن ذلك لم يغير حجمها الإجمالى. وورد فى Martène, *Amplissima Collectio*,: 5, p. 640

ذكر تاجر تردد على كل من ميناء عكا والمعارض القائمة بمنطقة شامبانيا. ويذكر *Lestoquoy, Les villes de Flandre, p. 56* عن أن سيدًا إقطاعيًا بمدينة مالين ربما تاجر حتى فى دمشق والإسكندرية، ويبدو أن الأمر لا يتعلق فى الواقع إلا بالمشاركة فى الحملة الصليبية بدمياط.

١٣ – يبدو أن البيازنة فى القرن الثالث عشر قد أدوا بالشرق دورًا متضائلا كمعاونين بالنسبة لمدينة البندقية، وقد صار هذا الأفول أمراً محتماً عند نهاية القرن بعد موقعة ملوريا (١٢٨٤) حيث فقدوا أسطولهم البحرى الذى دمره الجنوية. لقد عانت مدينة بيزا ولاشك من نمو مدينة فلورنسا ولو أن أهل منطقة توسكان توجب عليهم كذلك أن يبحروا على سفن تابعة لمدينة بيزا. وقد تم تحرير «أقدم كتاب إيطالى فى مبادئ التقنية التجارية» (R.S. Lopez, *Rev. Hist.*, 1970-1.) بمدينة بيزا وذلك قبل موقعة ملوريا بفترة وجيزة.

١٤ – يرجع *Fred. Lane, Economic meaning of the invention of the compass,* التطورات العملية إلى الثلث الأخير من القرن حيث يسّروا عمليات الرحلات الشتوية.

١٥ – انظر مقالات براوير وكلود كاهن فى: *Revue Historique du Droit*, 1963.

فى : *Assies des Bourgeois de Jérusalem,* الفصل ٢٦٢ – ٢٦٣.

١٦ – J. Riley - Smith, "Governement in Latin Syria and the Commercial Privileges of Foreign Merchants", in D. Baker, éd., *Relations between East and West in the Middle Ages*, 1973.

١٧ – Jean Richard, "Les Mossoulitains", *Orient Syrien*, 1965. أهل الموصل كانوا معروفين كذلك من لدن ماركو بولو.

١٨ – Ibn al - Athîr, Atabek dans *R.H. Cr. Or.* III, p. 281.

١٩ – كمال الدين بن العديم، بغية الطلب فى تاريخ حلب، ٤، مخطوط باسطنبول، ٢٦٩ ظهر الصفحة، ٢٧٢ ظهر الصفحة؛ ابن الأسعى، نشر أناستاز مارى، انظر فهرست المراجع بداخله؛ الذهبى، التاريخ، عام٦٠٤ و

٦١٢ و ٦١٤ (مخطوط عربي، باريس ١٥٨٢)، بطن الورقة، الخ؛ ابن المجاور، ص ٢٣٣؛ الجزري، عام ٦٣٠ في *Oriens* (مراجعة كتاب سوفاجي مذكورة أدناه). ١٩٥١؛ وكذلك: Analyse Sauvaget, n° 124, إلخ. ولنذكر أن الجغرافي ياقوت الحموي الذي كان أسيراً بيزنطياً في السابق تم استخدامه في التجارة على نطاق واسع (في مدينة قيش مثلا) من قبل سيده المسلم بحماة. أهل حران معروفون ببغداد لكن التجار البغداديين يتم ذكرهم على وجه الإجمال فقط نحو الشرق الأقصى (برا).

٢٠ – خبر لأولج جرابار. انظر مقال سي. الدويجي «صناعة الموصل في : *Sumer,* VII, 1951,

٢١ – إن مناجم النحاس لديار بكر كانت تقوم بالتصدير في كامل بلاد الرافدين، فهذه المناجم كانت نشيطة في القرن الثاني عشر (ابن الأزرق، تاريخ ميافارقين) وربما قبل ذلك بمدة طويلة.

٢٢ – المقريزي، رسالة النقود، وهي رسالة معروفة بأوربا منذ سيلفستر دي ساسي، وقام دانييل أوستاش بآخر طبعة لها في مجلة: *Hespéris*

٢٣ – لقد تم سك النقود العربية المسيحية خلال إقامة القديس لويس، وقد تم العثور على عملات عادية الشرق اللاتيني باليونان. وتشير النصوص إلى وجود عملات بجنوة والبندقية (Misbach, "Genovese commerce and the alleged flew of gold to the East 1154-1253", *Rev. Intern. d'Histoire de la Banque,* III, 1970, 67-87)، وهي عملات ربما تم إعادة سكها. وكان سعر الدينار السوري زمن ابن بعرة منخفضاً عن السعر القانوني للدينار الإسلامي بحوالي الثلث، ولكن ليس بالنسبة لمختلف الدنانير المتداولة فعلياً.

٢٤ – ابن بعرة، ط. فهمي، ص ٦٠. Cahen, Colloque de Princeton 1974, publié dans Udovitch, éd., *Studies in Economic and Soc. History,* 1981.

٢٥ – يشير ابن الفواطي ربما حسبما يورده ابن اسعى أنه تم ببغداد عام ٦٤٥هـ التوقف عن سك الدرهم الذي كان موجوداً بكثرة مفرطة مما أضر بالذهب، فقد كان سعره يساوي ١٢ درهماً بالنسبة للدينار، وصدر أمر بسك الدراهم بسعر ١٠ دراهم للدينار الواحد وانتهى الأمر بسكها بسعر ١١ درهماً ونصف – وهذا يدل في أضعف الأحوال على نوع من الفوضى.

٢٦ – النابلسي، الطبعة التي قمت بها ضمن *B.E.O* لا نرى ما الذي كان ربما سيعيق وصول الذهب من السودان إلى الشرق حوالي عام ١٢٤٠م.

٢٧ – ربما لزم التحقق لمعرفة ما إذا كان الشرق اللاتيني قد واصل سك الذهب بعد منتصف القرن.

٢٨ – يجب الأخذ بعين الاعتبار كذلك العملات الأرمينية لقيليقية. انظر:

Bédoukian, dans *Revue des Etudes arméniennes,* 8, 1971; K.A. Jacob, "The coins of Cilician Armenia", *Numismatic Intern. Bull.,* mars 1981, 69-82.

هوامش الفصل السابع عشر

١ – بالنسبة لقائمة المراجع العامة تكفى الإحالة إلى فصل بويل فى كتاب :

Cambridge History of Iran, vol. 5.

٢ – J. Richard, "Les Mongols et les Francs", *J. of Asian History,* III, 1969, p. 45-57; *idem,* "Les causes des victoires mongoles d'aprés les historiens occidentaux du XIII[e] s.", *Central Asiatic J.,* XXIII, 1-2, 1979. C.W. Connell, "Western views of the origin of the Tartars: influence of myth", *J. of medieval and Renaissance Studies,* III, 1973.

٣ – انظر: *Syrie Nord, p. 712.*

٤ – انظر أعلاه.

٥ – انظر: *Jean Richard.*

٦ – انظر أعلاه.

٧ – لقد لزم أن يقضى المؤرخ القبطى المكين وكان انذاك مقيماً بدمشق عدة سنوات بالسجن بعد انسحاب المغول وذلك بسبب اتهامه بالاشتراك معهم. انظر الموسوعة الإسلامية (٢)، مادة المكين.

٨ – لقد حدث انتقاع مؤقت لصالح الجيورجيين والأرمن بارمينيا الكبرى حيث حصلت عندهم نهضة أدبية حقيقية، كما يجب التنبيه كذلك إلى الأهمية الاقتصادية وبعض الأهمية السياسية التى كانت لمدينة إزنجان الأرمينية بآسيا الصغرى الشرقية. ونلاحظ أن الآمال التى عقدها هؤلاء المسيحيون على المغول تتناقض مع نظرة اللامبالاة التى كانوا ينظرون بها إلى الصليبيين الذين كانوا بطبيعة الحال أقل قوة.

٩ – B. Spuler, *Die Mongolen In Iran,* 2[e] éd, 1960, et *Die Goldene Horde,* 1943.

١٠ – انظر فى خاتمة المطاف: W.H.C. Frend, "Normads and Christanity in the Middle Ages", *J. Eccles. Hist.,* 26, 1975, pp. 209-221.

١١ – حول الطابع القاسى للصراعات، انظر على سبيل المثال حادث تقتيل سكان إحدى القرى المسيحية عقاباً على اختطاف أطفال المسلمين (*J.A.,* janv-mars 1922, p. 76-80).

وإنه فى هذه الفترة كذلك بدأ تنظيم الجاسوسية، انظر على سبيل المثال حكاية قرطاى فى: *J.A. 1937* وهذا لم يمنع الحانقين من كلا المعسكرين من الانكباب على بعض الأعمال التجارية المربية. انظر الملحق.

١٢ – لا نملك هنا سوى التلميح إلى الحملة الصليبية الثانية التى قام بها القديس لويس عام ١٢٧٠ م بتونس حيث مات. لقد كثر النقاش حول الدور الذى لعبه شارل الأنجى لكن لم يتم استخلاص نتيجة مؤكدة. ضمن

النصوص الموجودة يمكن الرجوع إلى أعمال المؤتمرات التى أقيمت بمناسبة الذكرى المئوية السابعة على وفاة القديس لويس، ثم: Renato Lefévre, *La crociata di Tunisi del 1270 nei documenti del distrutto arcbivio angioino di Napoli*, Roma 1977; Jean Longnon, "Charles d'Anjou et la Croisade de Tunis", *Jour. des savants, 1974, 44-61.*
وحول الحملة الصليبية التى قام بها البارونات الانجليز وهى حملة مرتبطة تقريباً بحملة لويس التاسع، انظر: Be. Beebe, "The English baronale and the Crusade 1270", *Bull. of the Inst. of Historical Research*, XLVIII, 1975.

١٣ – انظر لائحة المراجع حول العلاقات مع القسطنطينية فى: Canard, "Un traité entre Byzance et l'Egypte au XIII^e siècle et les relations diplomatiques de Michel VIII Paléologue avec les sultans mamluks Baybars et Qalâ ûn", *Mélanges Gaudefroy- Demombynes, 1937.*

١٤ – لا يعنى هذا انعدام النشاط الاقتصادى والثقافى حتى النهاية، لكن انظر أدناه، ففى أحسن الأحوال لم يكن الشرق اللاتينى بالنسبة للغربيين سوى سوق للمارسة تجارتهم فيه ضمن أسواق أخرى. أضف إلى ذلك أنهم لم يشعروا إطلاقًا بالحاجة إلى تجديد الامتيازات التى كانت لهم به. ولم يكن سقوط سوريا اللاتينية من تدبيرهم لكن أقل ما يقال أنهم لم يبالوا كثيراً بهذا الأمر. ومن المرجح أن المعلومات الواردة فى: *Pratica de. la Mercatura* de Pegolotti, éd. Evans, يمكن أن تنطبق فى بعض الأحيان على عكا اللاتينية ولو أنها رويت فى مجملها حوالى عام ١٣٣٠. وغداة الاسترداد المملوكى نجد فى سوريا مناطق نفوذ أو مقاطعات نعتت بأنها «مفسولة». ويخبرنا الأديب النُّورى الذى عاش فى هذه الفترة أن هذه اللفظة لكونة من الجذر « فَسَلَ» التى أخذت من الكلمة الفرنجية فسال Vassal. وإن أسهل تفسير لذلك أن صغار المقطعين بالملكة ربما كانوا يخضعون للسادة الجدد كلما تقدمت حركة الاسترداد المملوكى، لقاء الاعتراف بوضعيتهم القانونية التى كانت لهم فى ظل النظام الفرنجى.

١٥ – Jean Richard, *La papauté et les missions d'Orient au Moyen Age*, 1977. G.G. Gusman, "The encyclopedist Vincent of Beauvais and the Mongols", dans *Speculum*, 1974.

١٦ – وليام الصورى فى: Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*, 1883. Ricardo de Monte Cruce, éd. Monneret de Villard. وفى الاتجاه المعاكس سنرى أن البطريارك النسطورى مار جابلاّها قد زار باريس فى عهد فيليب لوبيل (انظر الكتاب الذى ألفه مار برْسوما عن حياته وقد قام بلوشيه بنشره وترجمته).
J.M. Fiey, "Chrétiens syriaques entre Croisés et Mongols", *Symposium Syriacum*, dans Orientalia Christiana Analecta, n° 197, 1974, p. 327-341. Francis M.Rogers, *The quest for Eastern Christians, travels and rumors*, Minneapolis, 1962.

١٧ – Thomas A. Noonan, "Suzdalian Eastern Trade in the century before the Mongol", communication at the Southwest Slave Association, Denver,

لقد بين هذا الباحث أن الطرق كانت موجودة قبل مجىء المغول، ولاشك أنها لم تنقطع Colorado 1977.
قط بشكل كلّى.

١٨ – R.S. Lopez, "European Merchants in the Medieval Indies : the evidence of commercial Documents", *J. of Economic History,* vol. III, n° 2, 1943; "Nuove luci sugli Italiani in Estremo Oriente prima di Colombo", *Stdi Colobiani,* 3, Gênes 1952. *Sur Isol le Pisan,* Pelliot, "Mélanges sur l'époque des Croisades", *Mémoires Académie des Inscriptions,* 44, 1951.

١٩ – وقد نتج ذلك عن التنقيبات التى قام بها كيركمان، وشيتيك وغيرهما فى ساحل افريقيا الشرقية:
Archibald Lewis, "Maritime Skills in the Indian 1368-1500", dans *J.E.S.H.O.*, XVI, 1973. H. Franke, "Westöstliche Beziehungen im Zeitalter der Mongolen Herrschaft", dans *Saeculum,* XIX, 1967, p. 92 *sq*.

٢٠ – حول الاستيلاء المؤقت الذى قام به البيزنطيون على ميناءى سمسون وسينوب، انظر:
Marie Nystazopoulou Pelikidès, "La mer Noire du XI^e au XV^e siècles" dans *Thésaurismata,* VII, 1970, p. 15-51.

٢١ – إن العبيد الذى عينوا للذهاب إلى مصر التى كانت معادية للإلخيين لم يكن بوسعهم التوجه إليها إلا بحراً. ولا ينبغى أن نتهم الجنوية فأهل مرسيليا كانوا قد سلكوا مسلكًا أسوأ مع الحملة الصليبية للأطفال.
حول هذه المسائل انظر : Michel Balard, *La Romanie génoise*, 2 vols, 1980.

٢٢ – ومن هنا حدث التجديد العابر للكنيسة اليونانية بالاناضول: *Pre-ottoman Turkey, p. 327.*

٢٣ – لعل البنادقة قد بذلوا بعكا مجهوداً لتعويض بعض ما فقدوه من جراء تراجعهم داخل البحر الأسود.
قارن مع: Jacobi, "L'expansion occidentale dans le Levant; les Vénitiens à Acre dans la seconde moitié du XIIIe siècle", dans *Journal of medieval History,* 1977; وكذلك: "Crusader Acre in the 13th C...", *Studi Medievali*, XX, 1979. كل
ذلك لم يمنع بنيديتو زكرياء وهو من أهل جنوة من تحقيق أولى مآثره بشرق البحر المتوسط، قارن مع: R.S. Lopez, *Genova marinara nell Duecento: Benedetto Zaccharia,* 1933.

٢٤ – صحيح أنه لم يعد بعكا جنويون إطلاقًا.
P. Holt, "Qalawn's Treaty Geneva 1290", *Der Islam,* 57, 1980, p. 101-108; وكذلك: "The treaties of the early Mamluks with Frankish States", dans *B.S.O.A.S.* XLIII, 1980, p. 67-76.

٢٥ – ابن عبد الظاهر، الشريف، مترجم فى: Michaud et Reynaud, *Bibliotheca,* 560 *sq*.
أضف إلى ذلك أن هذا لم يمنع بعض الأعيان بدولة المماليك من إقامة علاقات مربية مع بعض الفرنجة فى نفس هذه الفترة. انظر الملحق.

٢٦ – إنه لفى هذه الفترة قرر كتاب العدل الجنوية أن يولوا القيمة للعقود التجارية المحررة فى البلاد العربية

Gabriella Airoldi, "Genovesi nel mundo islamico: carta sarracina :باللغة العربية
e carta in arabico", *Critica Storia,* mars 1972.

يجب أن نشير إلى وجود دفتر حسابات لقائد سفينة بمدينة عكا. طبعه نفار ١٨٠٦، ويدرسه حاليًا ج. براوين.
H. Buchtal, *Miniature Painting in the Latin Kingdom of Jeruslem,* 1957;- ٢٧
اثبتFolda, *The Crusaders Mss. illuminated at Acre, 1275-1291, 1976.*
رنسيمان، ج ٢ ، ص٣٦٧، أن المخطوطات التي أعْتُقِد أنها صقلية هي لفرنجة سوريا.

٢٨ – نرى تدخل الكارميين حتى في الإسكندرية ومن ثم في البحر الأبيض المتوسط، انظر على سبيل المثال: ;Suqâ'il, éd . J. Sublet, biographie n° 218 بل يجب أن نشير إلى وجودهم في بعض الوثائق البندقية في القرن الرابع عشر ولو أنه وجود متأخر بكثير زمنيًا. انظر الملاحظة التي سجلها روبير نورا في: *J.E.S. H.O., 1960.* وإذا صدقنا ما يقوله ابن واصل الذي يذكره لبيب في كتاب: *Handels geschichte* فإن التجار بالمحيط الهندي زمن قطز الذي كان سلفًا لبيبرس ربما توقفوا في عدن بسبب المكس الذي فرضه السلطان على ميناء عيذاب وهو المدخل التقليدي للتجارة اليمنية بمصر. وقد تم إلغاء هذه المكوس في عهد بيبرس.

٢٩ – ومع ذلك تظهر التنقيبات الأثرية الحديثة التي قام بها المعهد الفرنسي بدمشق في رحبة أن هذه المدينة كانت لاتزال موجودة (أو وجدت من جديد) إبان القرن الرابع عشر.

هوامش الخاتمة

١ – ربما لزم أن ندرس طبيعة ما تم نقله من الصين والهند بل ومن ماليزيا والظروف التي تمت فيها هذه العملية. فقد حمل تجار الشرق الأدنى والأوسط من رحلاتهم المواد التي ذهبوا للبحث عنها كما حملوا معهم بعض النباتات التي كيفوا زراعتها في بلدانهم قبل أن يقوموا بنقلها حتى إسبانيا. لكن هل بوسعنا أن نقول إن معرفتهم بالصينيين بلغت درجة جعلهم يستوعبون شيئًا ما من حضارتهم ؟ فحتى على المستوى التقني كانت المصادفات هي التي تقف وراء معرفتهم بالورق من جراء القبض على الأسرى الصينيين. فقبل الإسلام أدخلت إيران وبيزنطة إلى بلدانهم تقنيات النسيج الحريري، لكن لم يتم التعرّف على الشاي قبل مجيء المغول. وقد استوحى صناع الخزف بالشرق الأدنى الصناعات الخزفية المستوردة، لكن هل كانت لديهم معرفة بالخزف الصيني؟ وكان بإمكان العلاقات القائمة مع الهند أن تتوثق أكثر نظراً للحدود الإيرانية، وهكذا أصبحت الأرقام الهندية أرقاماً عربية عندنا. وقد تم الكشف كذلك عن بعض المؤثرات البوذية ولكن بشكل افتراضي. كل هذا صحيح لكن لا ينبغي أن نغالي منه.

٢ – ثمة نوع من التطابق بين مقاومة التأثيرات الأجنبية ومحاربة البدع بالداخل، علاوة على أن هذه المحاربة كان لها ما يماثلها في الغرب ابتداءً بالألبيجيين وحتى محاكم التفتيش.

٣ – انظر الفصل الثاني.

٤ – يؤكد هذا التطور كثرة البنايات الجديدة ومن ضمنها الخانات، انظر الموسوعة الإسلامية (٢)، مادتي دمشق وحلب ولاسيما أبحاث ج. سوفا جيي التي تحيل إليها هاتين المادتين.

٥ – لنلاحظ على الصعيد الثقافي أن الأمير صاحب «المضمار» والفقيه والمؤرخ ابن أبي الدم والمؤرخين ابن النتيف وابن واصل وأبي الفداء الأمير والمؤرخ والجغرافي الذي عاش في عهد المماليك، كل هؤلاء ولدوا أو عاشوا في حماة. وبشأن «المضمار» انظر مساهمتي في *Mèlanges Prawer* (تحت الطبع)؛ وبالنسبة لابن النتيف قام جرايز نفيتش بنشره في طبعة مصورة طبق الأصل، بوسكر ١٩٦٠.

٦ – إن عبارة «حرب الصليب» التي يستخدمها الكتاب العرب المعاصرون للدلالة على الحملات الصليبية هي ترجمة معاصرة مجهولة من الكتاب القدامى.

٧ – لنلاحظ أن اللاتين بالقسطنطينية أو باليونان قلما ترجموا كتبًا يونانية آنذاك، فقد انطلقت الحركة من إيطاليا فيما بعد مع مساهمة البيزنطيين المنفيين.

٨ – إن الحادثة التي يرويها جوانفيل حول لقاء القديس لويس بالشاعر المنشد الشامبانيي الذي اعتنق الإسلام (لعله كان أسيراً في السابق) لا تكتسي سوى قيمة حكائية. أما علاقات فرنجة الشرق بالغرب فيثبتها اعتماد اللغة الفرنسية بوصفها لغة الكتابة من كلا الطرفين في الفترة نفسها. ولعل المشاركة الغالبة للطمانيين في الأحداث قد فاقمت هذه النزعة.

٩ – من جهة لم يكن من شأن الوجود الفرنجي في جزء من سوريا إلا أن يفاقم النزعة نحو التجزئة (بعض الجماعات المحلية كالدروز بمنطقة الغرب لم تكن تتساهل بشأن الحدود الساحلية)، وفي المقابل أدى الصراع ضد الفرنجة فالمغول إلى تقوية الاتجاه نحو التوحيد السياسي.

١٠ – ما يثبت هذه الإتصالات على سبيل المثال أن «قوانين ملتقيات روما» متأثرة كثيرة «بقوانين ملتقيات».

١١ – لقد عودنا المدرسون المحدثون على تعداد ثماني حملات صليبية بغض النظر عن تلك التي تم تصنيفها في إطار آخر (القرن ١٤ و١٥) نظراً لأنها لم تكن تستهدف الأراضي المقدسة. هذا التعداد لا مبرر له، فهناك حملات أخرى حظى أعضاؤها أيضًا بامتياز الصليب. وبالعكس من ذلك لا أظن أن ثمة مجال لتوسيع تسمية الحروب الصليبية لتشمل المشاريع المتميزة مثل حروب الاسترداد بإسبانيا كما يفعل الأب بيرنس Burns في الأبحاث التي خصصها لها، ويجب أن نضيف إلى أنها أبحاث فذة.

١٢ – انظر بصدد بعض الجوانب المتصلة بالحق الكنسي المرتبط بالحملات الصليبية. انظر على سبيل المثال: J.A. Brundage, *Medieval Canone law and the Crusades*, 1969.

وعلى أية حال فإن إعداد هذا الحق جاء في فترة متأخرة نسبياً.

١٣ – إن الأبحاث الرئيسية حول الدور الثاني من الحملات الصليبية هي من تاليف السيدة دوبارك والأمريكيين ر.ف. كوك ول.س. كريست. ومن الممتع أن نلاحظ أن الاتصالات لم تحل قط دون ظهور روايات قصصية حول محمد (الكسندر البونتي وجوتييه الكومبييني) أو حول الأبطال المسلمين مثل صلاح الدين. وفي المقابل لا توجد أي رواية ملحمية بالشرق حول الحروب الصليبية ولا عن بطل من أبطال الكفاح ضد الصليبيين مثل صلاح الدين. أما سيرة بيبرس فقد ألفت بعد هذه الفترة بمدة طويلة لإلهاب حماس المماليك ضد العثمانيين.

١٤ – *Syrie du Nord*, p. 572 *sq* وفي: *Le Moyen Age*, 1950.

أما أنشودة الأسرى فإن ميبرز يقوم حالياً بنشرها.

١٥ – لعلنا نستخلص الاستنتاجات من دراستنا لمنحنيات الأثمان. انظر:

Ashtor, *Histoire des prix et des salaires dans l'Orient musulman médiéval*, 1970. (ويجب التدقيق في هذا الكتاب).

١٦ – *M*. Spinka, "The effect of the Crusades upon Eastern Christiany", في: *Environmental Factors in Christian History*, éd. V.T. Mac Neill, Chicago 1939, p. 252-272. حسب ما ورد في كتاب *Histoire des Patriarches d'Alexandrie* فإن البطريارك الذي تم انتخابه في عام ٦١٢هـ / ١٢١٥م كان يعارض إحدى الأعراف الشعائرية ظنا منه أنها أعراف لاتينية وذلك عن خطأ.

١٧ – غالبًا ما يُنسب احتفال المسلمين بالمولد النبوي وانتشاره إلى مبادرة أحد أمراء إربيل في بداية القرن الثالث عشر رداً على المسيحيين الذي كانوا يتهمونهم بالتشكك هم أنفسهم في مناقب الرسول مادامو لا يحتفلون بشخصيته، وعلى أي حال فإن اللاتين لم يُدخلوا إلى الشرق الاحتفال بعيد ميلاد المسيح.

١٨ – إن ابن قدامة من القلائل الذين ذكروا الفرنجة فى رسالته الفقهية العظيمة بوصفهم أحد أصناف المسيحيين بجانب السامريين وغيرهم ولكن بإيجاز. كما لا نرى أن التجاور اللاتينى قد غير العلاقات القائمة بين المسلمين والمسيحيين أو بين المسيحيين المنتمين لمختلف الكنائس الشرقية، كما لم يغير مناخ الجهاد من وتيرة التحول إلى الإسلام.

١٩ – تم الإيحاء بأن الأفكار الشائعة عن الجنة فى الإسلام صادرة عن حكايات «للحشاشين».

٢٠ – انظر أبحاث سيرولى على سبيل المثال فيما يتعلق بنشر قصة مريم، وبالنسبة لتأثر دانتى بمعراج النبى كما أثبته سيرولى انظر أحدث بحث ظهر وهو:

Peter Wunderli, dans *Romanica Helvetica*, 77, 1966.

٢١ – Meyerhof, *"Von Alexandrian nach Bagdad"*, فى: *Sitzb. Pr. Ak. 1930.*

٢٢ – انظر أعلاه، الفصل ١٥ .

٢٣ – لقد سمع الإدريسى عن أوروبا عن طريق النورمانديين، لكن لا شيء يتيح الاعتقاد بأن آثاره قد عرفت بأوروبا حيث ظلت المعارف الجغرافية محافظة على طابعها التقليدى المحض.

٢٤ – انظر سلسلة المنشورات التى قامت أنيتا إينجل بطباعتها تحت عنوان:

"A glass in history", Jerusalem, depuis 1975, Phœnix publications.

٢٥ – لا علم لى بـ:

K. Weitzmann, *"XIII th cent. Crusader icons in Mount Sinaï"*, *Art Bulletin*, 45, 1963.

٢٦ – انظر الموسوعة الإسلامية (٢)، مادة قبالة.

٢٧ – انظر الدراسات الخاصة بالمفردات التى قام بها كونيتش، لاسيما Are there oriental elements in the Tristan Story?", dans *Romanica*, 39, 1980, p. 73-85. وحول نقل التقنيات التجارية عموماً، انظر: Ashtor, "Banking instruments between the Muslim East and the Christian West", *Journal of European Economic History, I*, 1972, p. 553-573.

٢٨ – لقد ورث الشعراء العرب بالأندلس بعض التقاليد الشعبية الإسبانية القيزيقوطية قبل أن يؤثروا بأنفسهم فى شعراء التروبادور، غير أنهم لم يكونوا يكترثون بهؤلاء.

٢٩ – ينبغى أن نشير هنا الإشاعات التى انتشرت بمناسبة محاكمة جماعة فرسان هيكل سليمان : لاشك أن بعضهم كان يعرف اللغة العربية، ولعل بعضهم كان منحدراً من المنطقة نفسها، وما عدا ذلك كله هو من قبيل الخرافات المغرضة.

٣٠ – لا نرى أن العرب عامة قد سعوا لتعلم اللاتينية أو الفرنسية، على أنه فى الوسط القبطى كان ثمة امتلاك

للمفردات الفرنسية وذلك راجع ولاشك إلى العلاقات التجارية. انظر: Gaston Maspéro, "Le vocabulaire français d'un copte du XIIIe s.", *Romania*, XVII, 1888, p. 481-512. ولا يظهر أن المسلمين المشتغلين بالمنمنمات أو الخزف قد رسموا صوراً للفرنجة فى آثارهم (لكن ربما هناك آنية خزفية بالمتحف البريطانى حسبما أخبرنى بذلك أوليج جربار). لقد تم العثور بدمشق على بعض المخطوطات العربية التى كتبت على ظهر المخطوطات اللاتينية، وهى غنيمة ضمن السلع التى تم استرجاعها ولا يمكن أن نستخلص بشأنها أى طُرفة.

٣١ – إنه لفى فجر الحركة التبشيرية تمت الترجمة التى قام بها فيليب الطرابلسى لسر الأسرار وهو مجموعة من الحكايات والنصائح التى تعزى لأرسطو والإسكندر وقد كانت شهرتها كبيرة فى الشرق وستكون لهما نفس الشهرة بالغرب لكن بعد فترة طويلة بعض الشىء، وتمثل هذه الترجمة نموذجًا فريدًا فيما يبدو. وكانت «سيرة الإسكندر» معروفة منذ القدم فى الغرب والشرق على السواء (حيث بلغت الصين ومالزيا)، لكن لم يتم التساؤل فيما يبدو عما إذا كان هناك تأثير وتأثر بين الروايات الشرقية والغربية. وكانت حكايات ألف ليلة وليلة متداولة بالشرق وإن لم يكن قد وصل حجمها إلى ما نعرفه عليه اليوم، لكن لا نرى أنها قد وصلت إلى الشرق اللاتينى ولا إلى أوربا. أما مجموعة القصص الهندية الإيرانية التى ترجمت إلى العربية تحت عنوان كليلة ودمنة فقد دخلت الغرب لكن عن طريق إسبانيا. ولا يظهر أن الشرق اللاتينى ولا الغرب قد عرفا شيئًا من السِّيَر الفروسية العربية حتى تلك التى يتم فيها الحديث بعض الشىء عن الفرنجة (انظر أعلاه).

٣٢ – يقال إن شخصًا يدعى بيانفونى المقدسى (النصف الأول من القرن الثالث عشر) كان يمارس مهنة الطب بإيطاليا وفرنسا والبلاد العربية. قارن مع: *Mémorial Bossuat*, p. 50 *sq.*

٣٣ – انظر ترجمة هذا الجزء من آثار رشيد الدين بقلم ك. جاهن. لقد زار ابن العبرى – وهو من القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح – مدينة طرابلس فى شبابه، وقد أتم تأليف كتابه الضخم فى التاريخ فى المناخ نفسه، لكننا لا نرى أن ذلك لم يترك أثرًا فى كتاباته.

٣٤ – انظر بالنسبة لبعض المؤرخين المحليين الآخرين فى هذه الفترة ولاسيما الملكيين منهم: Graf, 71 sq.

٣٥ – ربما هناك مجال لإدماج المشاكل الموازية التى طرحتها الاتصالات اللاتينية البيزنطية فى هذا النقاش. غير أن الظروف مختلفة جداً، إلى جانب الفارق الزمنى وذلك إلى درجة لا نجرؤ معها حتى على إجراء مقارنة مجملة. ويمكن أن نستعين فى ذلك بـ: Geanakoplos D.J. *Medieval western civilization and the byzantin and islamic world*, 1979. ولنتذكر أن انجلترا استعارت القديس جورج على الأرجح من مسيحى الشرق وبيزنطة، وقد كان لهذا القديس عدة تناسخات بالشرق.

٣٦ – لاسيما جيرار الكريمونى. انظر: N. Daniel, 272.

٣٧ – من بين المقالات نذكر: M.J. Jensen et R.L. Reynolds, "European colonial experience, a plea for comparative studies", *Studi in honore Luzzato, 1950;* يحمل كتاب Josuah Prawer, The Latin Kingdom, العنوان الفرعي التالي:

"European Colonialism in the Middle Ages".

٣٨ – قامت عدة أسر غربية نبيلة إبان العصر الوسيط أو في عهد لويس الرابع عشر بإدخال اسم أحد أجدادهم في الحوليات التاريخية أو الروايات بفرض أن يضمنوا نسبته للحروب الصليبية. كما أراد أهل المدن التجارية أن يرجعوا علاقاتهم بالشرق إلى فترة تسبق أحياناً الحملة الصليبية بفترة تاريخية طويلة كما حدث على سبيل المثال لمدينة مونبيليه في علاقتها بعسقلان.

هوامش الوثائق

الوثيقة الثانية

(١) المصادر التي استقى منها ابن الأثير رواية الأحداث الخاصة بالحملة الصليبية على دراية تامة بمختلف القادة الفرنجية غير أنه في التراث الذي أدخله هنا لاحقاً لتفسير الحملة الصليبية صار بودوان نموذجا أصليا للأمير الفرنجي وقد تسمى باسمه أربعة آخرون من ملوك القدس ممن أتوا بعده . وغني عن البيان أن بودان الأول لم يكن سوى أحد القاده مثل غيره ولم يذهب قط إلى إيطاليا، وإذا كانت لديه صلات قرابة مع النورمانديين . فلم يكن الأمر كذلك بالنسبة لنورماندي إيطاليا .

(٢) تخلط كتابات ابن الاثير بين الأسماء المختلفة لروجيه الصقلي : فروجيه الأول الفاتح كان قدمات (في هذا الوقت) وروجيه الثاني لم يكن قد ولد بعد .

(٣) استولى القائد التركي غير السلجوقي اتسز على القدس عام ١٠٧١ وعلى دمشق عام ١٠٧٤، وغزا مصر في عام ١٠٧٥ . وقد أدمجت هذه الدول في الإمبراطورية السلجوقية لاحقا .

(٤) إذا كان هذا التفسير مستبعدا هنا فلربما تم اعتماده فعلاً أثناء ظهور الفرنجة في شمال سوريا .

(٥) من الممكن أن يكون لهذه الرواية في جزء منها ، مصدر صقلي أو مغربي على أية حال فإنها تعبر تماماً عن السياسة النورماندية إزاء مسلمي الجنوب . وفي المقابل لا يوجد بالطبع شيء يمكن الإبقاء عليه من فكرة أن الحملة الصليبية نشأت من إرادة تحويل السياسة الفرنجية نحو الشرق، إن لم يكن قد سعى بعضهم لتفسير الحملة على هذا النحو، كما فعل البعض في بيزنطة عبر مبادرة الكسيس كومنين .

الوثيقة الثالثة :

١- إنجيل لوقا الإصحاح السابع الآية ١٦ .

٢- رسالة إلى العبرانيين الإصحاح ١٣ الآية ٥ .

٣- أعمال الرسل الإصحاح ١١ الآية ٢٦ .

٤- المزامير، المزمور ٧٨ الآية ١٩، المزمور ١١٣ الآية ٢ .

٥- المزامير ، المزمور ٢٨ (*) الآية ١١ .

٦- الملوك (١٤) الإصحاح ٧ الآية ١١ .

٧- المزامير، المزمور ٢٩ الآية ٢ .

٨- سيلاحظ المرء أن الراهب الطيب لم يسمع حديثا فيما يبدو عن سانت لانس .

(*) حدث خطأ في النص الفرنسي، فالنص المذكور في الوثيقة الثالثة يوجد بالمزمور ٢٩ وليس ٢٨ (المترجم) .

الوثيقة الرابعة

(١) أمير من الأسرة الحاكمة لبنى عمار كان قد قام بجولة بحثًا عن دعم ضد الفرنجة .

(٢) قلعة فى منطقة نهر العاصى الأوسط تنتمى لأسرة منقذ المعروفة من خلال الكاتب أسامة بن منقذ وهو شيعى فى تلك الفترة مثل بقية بنى عمار .

(٣) أحاديث منسوبة إلى النبى .

(٤) علم الأدب .

(٥) أى الشيعه الإثنا عشرية فى مقابل الإسماعيليين الفاطميين .

(٦) صيدا

الوثيقة الخامسة

أ - (١) أفريقيا (تونس) .

(٢) لا نتبين فى النص التالى إذا كان أفراد العصابات المعنية هم الأتراك الذين غزوا فلسطين أو الصليبيون الذى سنعود للحديث عنهم فيما بعد .

(٣) لعل الأمر يتعلق بتلميح تاريخى إلى تمرد نزار إبن الخليفة المستنصر الذى استبعد لصالح شقيقه المستعلى . الذى ظل الأسماعيليون من الفرع الذى أطلق عليه «الحشاشون» أوفياء له .

(٤) كانت كلمة سلطان تعنى آنذاك الوزير والقائد الفعلى للحكومة والجيش، فى تلك اللحظه كان «السلطان» هو بدر الجمالى الأرمنى الذى اعتنق الإسلام .

(٥) لم يشر كاتب الرسالة إلى حريق المعبد اليهودى كما شهدت به المصادر الإسلامية .

(٦) يتعلق الأمر فى هذه الفترة بالأفضل ابن بدر الجمالى .

(٧) يبدو إذن أن الرسالة كتبت أثناء المحاولة الأخيرة للأفضل من أجل استعادة فلسطين فى عام ١١٠٢ .

ب - (١) موقع حدودى ظل فى أيدى المصريين .

(٢) نظراً للمشاركة المحدودة للألمان فى الحملة الصليبية فمن المحتمل أن يكون الأمر متعلقا باللورين التابعين لجودفروا البويونى وهم رعايا الإمبراطورية .

(٣) ذلك هو الثمن التقليدى العادى لعبد ذكر لا تتوفر لديه مؤهلات خاصة .

الوثيقة السادسة

(١) كان جوسلين الكورتيناى سيد تل البشير عام ١١٠٨ ووصيا على عرش الرها أثناء أسر بودوان البورجي .

(٢) حاكم سابق للموصل .

(٣) أمير حلب .

(٤) قبل أن يعاد نشر الرواية هنا .

(٥) تقع مرعش المتنازع عليها بين أنطاكية والرها في أقصى شمال سوريا وكان حاكم مرعش آنذاك هو بودوان المعروف جيداً .

(٦) أعيد نشر هذا النص في هذا الموضع لأنه يمثل أحد الشهادات النادرة لرواية عربية مأخوذة مباشرة من مُبَلِّغ فرنجي . ربما كان المصدر هو تاريخ الفرنجه لحمدان بن عبد الرحيم (انظر، أعلاه – الصفحة الأولى من الفصل السادس)

الوثيقة السابعة

(١) إذا كنا لا نعرف في هذا التاريخ أفراد أسرة الأمبرياكو الذى يبدأ إسمه بحرف ج فإن منزلة هذه الأسرة لدى التجار الجنويين بالشرق أمر مؤكد .

الوثيقة الثامنة

(١) يتعلق الأمر في هذا التاريخ، بالهجوم الذى شنه عمورى شقيق ملك القدس بودوان الثالث على مدينة عسقلان .

(٢) بشأن كل ما سبق أنظر مقالتى «جمارك وتجارة» في مجلة YESHO و «مخزوميات» والفصل التاسع أعلاه .

الوثيقة العاشرة

(١) لم يتم التعرف عليها جيداً .

الوثيقة الحادية عشر

(١) هذا الخطاب المرسل فيما يبد من قبل شخص ينتمى لوسط متواضع، وعميل لأحد الأعيان غير

المعروفين أيضا وهو معز الدوله ، لابد أنه قد كتب بعد هزيمة صلاح الدين من قبل الفرنجه وربما تعلق بهزيمة عام ١١٨٣، في الواقع لم ترسل أى قوات مصرية إلى سورية قبل صلاح الدين، وبعد عام ١١٨٨ لم تعد مدينة نابلس تابعة للفرنجه .

(٢) حي في القاهرة .

(٣) كون هذه الرسالة التى كتبت من قبل شخص مسلم قد عثر عليها بين أوراق الجنيزة يوحى أن أسرة السجين قد وقعت عقد اقتراض من أحد اليهود لإفتدائه .

الوثيقة الثانية عشر

(١) هذه الرسالة، في صيغتها العامة، هى رسالة يهودية غير أنها لا تتميز بشئ يهودى على نحو خاص، لابد أن يوجد لها ما يناظرها داخل كل الطوائف . واكتشاف الجنيزه جعلنا نذكرها هنا فقط، دون غيرها، بوصفها رسالة نموذجية بالنسبة لكل الرسائل الأخرى .

(٢) تعنى الكلمة هنا غير السورى .

(٣) اليهود .

(٤) ريمون الثالث الطرابلسي، موضوع الحديث هنا عاد من الأسر في عام ١١٧٣-١١٧٤، وقد ظلت زوجته إشيف حاكمة لطبرية حتى استيلاء صلاح الدين على المدينة في عام ١١٨٧، فلابد أن تكون هذه الرسالة قد كتبت بين هذين التاريخين . قارن براور ص ٥٣١ و ٥٨٣ و ٥٨٦و ٦٤٩ .

(٥) لا تفصح لنا الرسالة عن نوع الدَّين الذى من أجله وضعت المرأة والطفل المشار إليهما بالسجن فلربما حدث تأخر في دفع ضريبة .

الوثيقة الرابعة عشر

(١) عن هذه الكومونة التى تأسست في عام ١١٩٧ قارن كلود كاهن في «سوريا» ص ٥٩٠ و ٦٥٣ .

(٢) أنظر أعلاه الفصل السادس .

الوثيقة السادسة عشر

(١) أو السمسار، وتعنى كلمة المورد المتخصصين الذى يجلبون المعدن الذى حصلوا عليه من التجار للسك .

(٢) يتعلق الأمر بتحويل معدن عملات مختلفة إلى قطع للتداول الرسمى .

(٣) من المحتمل أن تكون الدينارات الفرنجية .

(٤) ربما كان المقصود العملة الصقلية .

الوثيقة السابعة عشر

(١) كاتب .

(٢) مراقب مالى .

(٣) أثارت فرانسواز ميشو انتباهى إلى هذا النص .

الوثيقة الثامنة عشر

(١) حول «الزيار» وهو نوع من القذافات الضخمة، انظر رسالتى عن فن التسليح .

(٢) كان فخر الدين المنحدر من عائلة بنى حموية الإيرانية المستعربه (انظر موسوعة الإسلام – أولاد الشيخ)، الملازم القوى للملك الصالح أيوب، وقدمات بعد سيده بقليل فى معركة المنصورة ضد سان لويس .

الوثيقة التاسعة عشر

(١) التذكير بحملة فريدريك الصليبية .

(٢) استعاد المسلمون القدس فى عام ١٢٩٤ .

(٣) فى الحقيقة لم يتقابل القائدان قط وإنما تراسلا فقط .

(٤) الملك الصالح، أمير أيوبى مات فى صبيحه وصول حملة سان لويس إلى مصر .

(٥) يبدو أن هذه الرسالة التى حُرفت بالطبع أثناء نقلها إلى اللغة العربية صحيحة فى محتواها . وحول سياسة الملك الصالح المحتضر انظر أيضاً وصيته التى نشرها إبراهيم شبوه وكلود كاهن فى نشرة الدراسات الشرقية دمشق ١٩٧٨ .

الوثيقة العشرون

(١) لإدراك مغزى هذه الشروط، أنظر أعلاه رسالة العباس إلى البيازنه ومقالتى «جمارك وتجارة»

البيبلوجرافيا

(١) انظر البيبلوجرافيا التالية .

(٢) ابن واصل، ابن أبى طيء الخ . انظر بيبلوجرافيا المصادر .

(٣) على سبيل المثال : الإقطاع، انظر الفصل الرابع .

(٤) قمت بفحص نقدى مقتضب لأغلب المصادر الخاصة بالشرق الأدنى فى فترة الحروب الصليبية فى رسالتى عن «سوريا الشمالية» وأكملت ذلك ونقحته فى مادة «الحروب الصليبية» بموسوعة الإسلام أعطيت إرشادات حول المصادر الشرقية الصادرة حديثا وذلك فى مجلد «متفرقات مهداة ليوشع براور» ١٩٨١) . يوجد فى تونس بالأحمدية رقم ٤٩١٥، مخطوط حولية صغيرة لابن حجى (نهاية القرن الثالث عشر .) بالطبع ثمة فائدة من دراسة طبيعة الشهادات وعقلية مختلف المؤلفين، ولا يوجد إلا القليل من الدراسات التى تمت من هذه الزاوية . وهناك فحص لمعظم مصادر الروايات المسيحية قام بها زابودوف فى «مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، موسكو ١٩٦٦ .

(٥) «المنهاج» على سبيل المثال، وقد ذكر فيما بعد .

(٦) لقد تمت الإشارة منذ فترة إلى أهمية الإضافات الملحقة بالمخطوطات ولا سيما الأرمنية والسيريانية . انظر على سبيل المثال ف. أكوبيان فى Armyankya kniga kanonov إيرفان، ١٩٦٤ (باللغة الأرمنية) .

(٧) لقد تم البدء فى تكملة مجموعة المؤلفات الوثائقية، فيما يتعلق بالعصر الوسيط المتأخر، فى مختلف البلاد الإسلامية، غير أن ذلك يظل دون المؤلفات الإيطالية والغربية الأخرى، ولا تمس هذه المؤلفات إلا إستثناءاً المسائل الدولية، ونفس الشئ يقال كذلك بالنسبة لأوراق البردى بمصر فيما يتعلق ببدايات العصر الوسيط . والإستثناء الوحيد، لا سيما بالنسبة للقرن الحادى عشر والثانى عشر، هو الوثائق اليهودية – العربية المسماة بجنيزة القاهرة . التى أخذنا فكرة عنها من خلال أعمال جواتين (أنظر الببليوجرافيا) .

(٨) على سبيل المثال لم يدرك جيداً الدور الذى لعبته أمالفى لأن أرشيفات هذه المدينه قد احترقت فى القرن الرابع عشر . أما أرشيفات الشرق اللاتينى فقد فهرست فى كتاب د . روهى يشت :

R.Rohricht, Regesta Regni Hieosolymitani, Ivol at additamentum 1893-1904 .

(٩) تم إحياء جمعية الشرق اللاتينى والتى تأسست فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكانت قد أصدرت أرشيفات الشرق اللاتينى ومجلة الشرق اللاتينى .

(١٠) انظر داسو «طوبوجرافيا» (قارن مع الببليوجرافيا) والمثال المقدم أعلاه فى الملحق .

المؤلف فى سطور

يُعدُّ كلود كاهن (١٩٠٩ - ١٩٩١) من أبرز المتخصصيين الغربيين فى مجال التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للعالم الإسلامى فى العصر الوسيط. وهو من المؤرخيين المتشدديين فى مراعاة الشروط العملية الدقيقة لكتابة التاريخ، ترجمت أعماله إلى عديد من لغات العالم. مع نهاية الحرب العالمية الثانية عمل أستاذًا فى جامعة استراسبورج ثم باريس. كما ترأس منذ عام ١٩٥٧ النشرة الاقتصادية والاجتماعية لتاريخ الشرق حتى وفاته فى عام ١٩٩١. ومن أشهر أعماله :

- سوريا الشمالية فى فترة الحروب الصليبية والإمارة الفرنجية بأنطاكية (١٩٤٠).
- الحركات الشعبية والاستقلال الذاتى فى المدن الإسلامية بآسيا خلال القرون الوسطى (١٩٥٨).
- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية (١٩٧٠).
- مدخل إلى تاريخ الشرق الإسلامى بالعصور الوسطى : منهجية وعناصر بيلوجرافية (١٩٨٢).

المترجم فى سطور

أحمد الشيخ كاتب وصحافى مصرى مقيم فى العاصمة الفرنسية منذ عام ١٩٧٨. وهو باحث فى مجال الفكر العربى الحديث، عمل فى اليسار العربى (١٩٧٩ - ١٩٨١) والوطن الكويتية (١٩٨١ - ١٩٨٦). ومجلة الفرسان (١٩٨٦ - ١٩٨٨) والمؤتمر (١٩٨٩). كما شارك بالكتابة فى عديد من الصحف والمجلات العربية مثل : العربى (الكويت)، شؤون عربية (تونس). اليوم السابع (باريس). وحاليًا يشارك مع بعض الباحثين العرب فى تأسيس مركز عربى للدراسات الغربية فى باريس.

الفهرس



الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية

يبدأ كلود كاهن كتابه «الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية» باستباق دهشة القارئ من صدور كتاب جديد فى هذا الشأن، غير أنه يقدم مبررات محضة لصدور كتابه بالإشارة إلى أن نسبة الكتب القيمة ضئيلة ضمن هذا العدد الهائل من الكتابات المكرسة للحروب الصليبية وتاريخها، وأن أغلب هذه الكتابات لا تتوافر بها الشروط العلمية الدقيقة للتأليف العلمى، حيث صدرت فى أغلبها فى مناخ غلبت فيه الأهواء، وبالتالى ثمة حاجة ملحة لمزيد من الأبحاث الجديدة لتصويب الدراسات السابقة، ولإضاءة بعض الجوانب المعتمة فى تاريخ هذه الفترة، الأمر الذى يسمح بعقد مقارنة بين المجتمعين اللذين وضعتهما الحروب الصليبية وجهًا لوجه ومن أجل أن تكون هناك نظرة متبادلة من كلا الطرفين لدراسة أوجه الالتقاء والتأثير انطلاقًا من نظرة شاملة للتاريخ.

فالكتاب يؤرخ لفترة تاريخية من علاقات الشرق بالغرب فى شتى جوانبها السياسية والثقافية والتجارية والعسكرية، وذلك استنادًا لقراءة فاحصة ومدققة لأرشيفات تلك الفترة، ومن خلال هذا التاريخ نجد العلاقة بين الشرق والغرب والمقارنة الدائمة بينهما سائدة عبر صفحات الكتاب، فالمؤلف يبحث فى طبيعة هذه العلاقة على أكثر من صعيد غير أنه يركز بشكل أساسى على نوعية الوعى المتوفر لدى كل طرف عن الآخر، ومصادر هذا الوعى، والتأثير والتأثر بينهما وشروط ذلك والمناطق التى تم عبرها هذا التبادل، كما لا يفوت المؤلف أن يقارن بين القدرات العسكرية وإجراءات المعركة لدى الطرفين.